جرائم أمريكا والغرب







د. محمد مورو





جزيرة الورد
للنشر والتوزيع

جرائم أمريكا والغرب

تأليف

د. محمد مورو

مكتبة جزيرة الورد
القاهرة- ميدان حليم خلف بنك فيصل - شارع ٢٦ يوليو ميدان الأوبرا
٠١٠٠١٠٤١١٥ – ٠٢٢٧٨٧٧٥٧٤
٠١٢٩٩٦١٦٣٥ – ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : جرائم أمريكا والغرب

المـــــؤلف : د. محمد مورو

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٤٣٨٤٥

الطبعة الأولى ٢٠١٠

مكتبة جزيرة الورد

ميدان حليم ـ خلف بنك فيصل الرئيسي ـ شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا .

ت: ٢٧٨٧٧٥٧٤/ ٠٢

محمول : ٠١٠٠١٠٤١١٥ – ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦



١

جرائم الأمريكان في هذا الزمان

مقدمة

لا يختلف اثنان الآن في أن بلادنا تتعرض لعدوان أمريكي صهيوني يتكرر بصورة تكاد تكون رتيبة ، وأن هناك مخططًا للقضاء على حيوية هذه الأمة وإضعافها والسيطرة عليها ، إن لم يكن إزالتها من على خريطة العالم شكلاً وموضوعًا ، والجرائم الأمريكية في حق شعوبنا أكثر من أن تحصى ، بدءًا من دعم الكيان الصهيوني ، أو على الأقل المشاركة مع الغرب عمومًا في إقامته وتقويته حتى يكون مفرزة غربية ـ وأمريكية متقدمة لتحقيق الأهداف الغربية وبالتالي الأمريكية باعتبار أمريكا وريثة الاستعمار العنصري الغربي والصليبية الغربية ؛ ويستهدف هذا الكيان باستمرار إضعافنا وإلحاق الأذى بنا ومساعدة أمريكا والغرب في نهبنا والقضاء علينا في النهاية ، في إطار الصراع الحضاري المستمر في الزمان والمكان بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية .

وجريمة إقامة إسرائيل في حد ذاتها بما ترتب عليه من تشريد شعب عربي إسلامي كامل هو الشعب الفلسطيني ، والمعاناة المستمرة لهذا الشعب طوال عشرات السنين وبشكل يومي من تشريد وقمع وتعذيب وانتهاك للحرمات يكفي وحده لاعتبار أمريكا هي الشيطان الأكبر والعدو رقم (١) لنا ، فضلاً عن أن أمريكا تعلن الآن وبوضوح أن الإسلام هو العدو الرئيسي لها ، ويجب تجهيز قوات حلف الأطلنطي لمواجهة هذا التحدي !! ناهيك عن جرائم أمريكا بحق الشعوب العربية والإسلامية من حصار وتجويع لشعوب العراق وليبيا والسودان وإيران ، إلى ضرب ليبيا وإيران والسودان وأفغانستان ، إلى التآمر المستمر على مصر والسودان عن طريق محاولة تقسيم السودان التي هي خطر على مصر أكثر مما هي خطر على

السودان ، وكذلك تحريض دول حوض النيل على مصر .. الخ .

وهكذا ، فإننا لا نملك إلا المواجهة ، نحن لا نحب الحرب ولا المواجهة «سلوا الله العافية» ، ولكن علينا أن نثبت في المعركة ، ويجب ألا ندفن رءوسنا في الرمال ، فالغرب عمومًا – وأمريكا خصوصًا – لن يكف عن محاولة إبادتنا ، فالمعركة لم تتوقف منذ ظهور الإسلام حتى الآن ، وكل ما مر بنا من صراع ما هو إلا محطات رئيسة أو فرعية على هذا الطريق الطويل ، والعدوان الصليبي متجذِّر في نفوس أبناء الحضارة الغربية من حكام وساسة على وجه الخصوص ، والحضارة الغربية قائمة أساسًا على القهر والنهب والعنف والعنصرية والعدوان ، وبالتالي فأمريكا لن تكف عن ضربنا والتآمر علينا ، ؛ فيجب أن نفهم طبيعة العدو أولاً ثم نحدد طبيعة المعركة ثم وسائل المواجهة ، والعدو ، بداية ، عدو شرس وعدواني ، وقد قام أساسًا من خلال إبادة شعب الهنود الحمر ، ثم أقام تقدما صناعيا على أكتاف وسواعد العبيد السود المستشرقين ؛ ثم مارس العدوان هنا وهناك في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، وهو لا يستطيع التوقف عن العدوان ؛ فهذا في صميم بنيته الحضارية والسياسية بل ورفاهيته . ومكاسبه لم ولن تأتي إلا بالعدوان ، ولأننا متخلفون تكنولوجيا بالنسبة للعدو الإسرائيلي ؛ فإن الحرب المنظمة والقائمة على الجيوش النظامية والقدرات العسكرية نتيجتها محسومة سلفا ، لصالح عدونا ، وبالتالي فعلينا أن نبحث عن أسلوب آخر للمواجهة ، فلا يعني تفوق العدو التكنولوجي أنه لا أمل ، بل إنني أرى أن هناك نقط ضعف كبيرة في عدونا إذا فهمناها وأحسنا استخدامها ، فيمكن أن نحقق النصر أو الصمود على الأقل . وبداية ، فإنه ينبغي أولاً التأكيد على الهوية الحضارية الإسلامية وتحريك شعوبنا عن طريق الوجدان الإسلامي «الأيديولوجية الإسلامية» ، هذا فضلاً عن أنه الأسلوب الوحيد الصالح لتنشيط

خلايا الأمة وتقويتها ، فإنه سبيل إلى تصفية نفوذ العدو - العلمانية - داخلنا وزيادة مناعتنا ، وحمايتنا من الهزيمة من الداخل ، وثانيًا : ينبغي اعتماد أسلوب حرب العصابات والحرب الجماهيرية والمواجهة الشعبية ، وهذا يقتضي أولاً توجيه كل القوى باتجاه العدو وليس إلى بعضنا البعض ، وأعتقد أن مواجهة العدو بسلاح الاستشهاد مثلاً هي مواجهة ناجحة ، وهو سلاح لا يمكن القضاء عليه أو إلغاء مفعوله مهما كانت قوة العدو واستحكاماته واستخباراته ، وأذكر أنه عندما قام المجاهدون في لبنان بتنفيذ عمليتهم الرائعة ضد مقر قيادة مشاة البحرية الأمريكية في بيروت «المارينز» عام ١٩٨٣ ، وأدت العملية إلى مقتل وإصابة مئات الأمريكيين ، وقف الرئيس الأمريكي وقتها - رونالد ريجان أمام الكونجرس ليقول : «إنه ليس هناك حل لمواجهة مثل هذه العمليات ؛ لأن جميع الاستحكامات العسكرية والاستخبارية في العالم قائمة على استغلال عنصر خوف المهاجم من الموت ، فإذا كان المهاجم لا يخشى الموت ، بل يحرص عليه ويصر عليه ويريده مقدما ، فإنه لا حل هناك».

وهكذا عبر ريجان دون أن يدري عن أن هناك سلاحًا نمتلكه ليس في مقدور الأمريكان ولا غيرهم إبطال مفعوله ، وبالتالي فقد كشف لنا الطريق الصحيح للمواجهة ، ولا شك أن ما حدث بعد ذلك من عمليات ضد إسرائيل نفذها حزب الله أو حماس أو الجهاد الإسلامي كلها أكدت هذه الحقيقة ، فلا الاستحكامات العسكرية الإسرائيلية ، ولا قدرات الاختراق والتجسس التي تمتلكها إسرائيل ومن ورائها أمريكا استطاعت أن توقف سيل هذه العمليات .

نعم ، أمريكا أقوى دولة في العالم ، وهي تمتلك المال والسلاح والنفوذ السياسي ولكنها لا تستطيع أن تحمي كل مصالحها في العالم إلا بأعباء ثقيلة لا تستطيع

احتمالها طويلاً وكذلك إسرائيل التي تستمد قوتها من قوة أمريكا أما نحن فنمتلك القدرة على الضرب في أماكن غير متوقعة ، ويمكننا أن نسبب لأمريكا صراعًا مستمرًا وخسائر باهظة ، والأمر أشبه بالحرب بين الفيل والنمل ، فقوة الفيل وكبر حجمه هي نفسها عناصر ضعفه ، وصغر حجم النمل وكثرته هي عناصر قوته .

■ ■ ■

أمريكا قامت من خلال الجريمة الكبرى «إبادة الهنود الحمر»

◆◆◆

ليس في التاريخ دولة كبرى أو صغرى قامت من خلال الدخول إلى بلد عام بالسكان ثم إبادة أهله ، ثم بناء دولة على أنقاض شعب هذا البلد الأصلي إلا أمريكا ، وإسرائيل ، وربما لهذا السبب تجد التحالف المستمر والتعاطف الأمريكي مع إسرائيل ، مع الأخذ في الاعتبار الأسباب الأخرى للدعم الأمريكي لإسرائيل. وإذا اعتبرنا قيام المهاجرين الأوروبيين بإبادة شعب الهنود الحمر هي جريمة غير مسبوقة وجريمة كبرى ، فإن الأمر نفسه بالنسبة لليهود المهاجرين إلى فلسطين الذين طردوا أو أبادوا الفلسطينيين « شعب البلاد الأصلي » وأقاموا المجتمع الصهيوني على أنقاض الشعب صاحب الأرض ، والجريمة الثانية هي أيضًا تدخل تحت مسئولية الولايات المتحدة الأمريكية والغرب ؛ لأن إسرائيل هي صنيعة الغرب عامة وأمريكا خاصة.

ويدعى كل من الأمريكان والصهاينة أنهم استوطنوا بلادًا خالية من السكان ، وهذا بالطبع ، أكبر كذبة في التاريخ أيضًا ، أي أن الجريمة هنا مركبة ، جريمة إبادة وجريمة كذب ، فمن المعروف أن العرب سكنوا فلسطين لمدة متصلة تقدر بآلاف السنين وأنشأوا حضارة بها ، بل وثقافة عالمية ، وكانوا جزءًا من الحضارة الإسلامية بعد الإسلام وظهر منهم العديد من الأدباء والشعراء والفنانين والعلماء ، وحتى الآن أيضًا برغم الشتات .

ومن المعروف أيضًا أن هناك الكثير من الحضارات والعلاقات الاجتماعية والسكانية ظهرت في القارة الأمريكية قبل اكتشاف كريستوفر كولومبس لها سنة ١٤٩٢ وبدء الهجرة الأوروبية إلى الأمريكتين ، فكانت هناك حضارة الشيمو ، وحضارة الأنكاس اللتان بلغتا درجة عالية من التطور السياسي والاقتصادي والإداري والديني ، وهناك حضارة الأزتيك التي أقامت دولة كبيرة تحت حكم ملكي تميز بتطور الإدارة والعمارة قبل أن يديرها الفاتحون الأوروبيون .

وبرغم أنه أصبح من المعروف الآن أنه تمت إبادة حوالي ١١٢ مليون هندي على الأقل ، وذلك أيام كان عدد سكان انجلترا مثلاً حوالي ٣ ملايين شخص ، أي بحسبة بسيطة ٣٧ ضعف عدد سكان انجلترا ، أي بحساب هذه الأيام حوالي ٢٠٠٠ مليون إنسان ، ولا يقف الرقم عند ١١٢ مليون هندي تمت إبادتهم بل إن البعض يقدر عدد الهنود الذين أبيدوا بعدة مليارات من البشر ، على كل حال ، فإن عدد ١١٢ مليون قد تبناه هنري فاردوينز – عالم الآثار والتاريخ .

تقول سوزان خوناس ، إنه بعد الغزو الأوروبي بوقت قصير عانى الهنود من حرمان مادي منظم ، وأن لاس كاساس يقول : إن خمسة ملايين حالة وفاة بين هنود جواتيمالا فقط بين سنة ١٥٢٤ ، ١٥٤٠ وأن ما يتراوح بين ثلثي وستة أسباع السكان الهنود في أمريكا اللاتينية والمكسيك ماتوا ، ما بين عامي ١٥١٩ ، ١٦٥٠ .

وبرغم هذه الحقائق المعروفة للجميع ، فإن الكذب لا يقتصر على العامة في أمريكا أو حتى غير المتخصصين بل يصل إلى كبار قادة الفكر والفلسفة والعلوم ، فآدم سميث « معبود الاقتصاديين الرأسماليين » ينكر وجود سكان في أمريكا أصلا ، اللهم إلا في بيرو والمكسيك ، وقد دمرت هاتان الأمتان في بيرو والمكسيك بمجرد اكتشافهما تقريبًا، أما الباقون فكانوا مجرد متوحشين .

والفيلسوف الأشهر هيجل يقول :

«إن الأمريكيين الأصليين « الهنود الحمر » كانوا معدومي القوة الجسدية والنفسية ، ومن هنا تلاشى السكان الأصليون « الهنود الحمر » تدريجيًا أمام أنفاس النشاط الأوروبي ».

والحقيقة أنهم تلاشوا أمام المدافع والبنادق وحرب الإبادة المنظمة .

الحقائق التاريخية تقول : إن أمريكا قبل الاكتشاف كانت تعج بالنشاط الإنساني

والحضاري وكان بها من السكان في أقل تقدير ما يعادل ٣٧ ضعف سكان انجلترا في ذلك الوقت ، وربما أكثر من القارة الأوروبية بكاملها .. كان ذلك العالم معروفًا،مسكونا قبل رحلة كولومبس بآلاف السنين ليس فقط بمن أطلق عليهم الهنود الحمر ، و إنما أساسًا بأسلافهم منذ آلاف السنين .

الذين وصلوا إليه في هجرات متتابعة منذ أكثر من عشرة آلاف سنة قبل الميلاد [١] .

يقول د. عمر الفاروق أستاذ التاريخ بآداب عين شمس « في تطور متقارب زمنيا مع العالم القديم انتقلت هذه الجماعات من مرحلة جمع الغذاء إلى إنتاجه منذ الألف الخامسة قبل الميلاد في جنوب غرب المكسيك ، كما عرفت الزراعة المنظمة للبقول والدرنيات في بيرو منذ الألف الثالثة قبل الميلاد ، كما زرعت المانيوق واليام وغيرهما من المحاصيل الجذرية في غابات الأمازون الكثيفة نحو هذا التاريخ ، وظهرت فيما بعد حضارات معروفة ، هي : حضارات الأفكا والمايا والأزتيك ، هذه التي شكلت نسيجًا متقدما للغاية مع معطيات المكان ، وقدر لها أن تواجه موجات الغزو الأولى مواجهة غير متكافئة ؛ انتهت بتدمير هذا النسيج ، خاصة ما اقترفه بيزارو بحضارة الأفكا ، لقد دمر الأوروبيون كل شيء من شأنه أن يمنح صورة وافية عن هذه الحضارات قبل الكشوف ، ولم يبق سوى ما سجلوه بأنفسهم أو دونوه ، بالإضافة إلى ما كشفت عنه بعثات الحفائر والأثريات ، فهي التي أثبتت وجود حضارات راسخة منذ الألف الأولى قبل الميلاد ، وقد شيد المايا مبنى تشتشن إتزا الكبير في تاريخ بناء كاتدرائية مالزبوري نفسه ، وحين دخل بيزارو المكسيك سنة ١٥٣١ وجد دولة منظمة منذ قرون وإلى الجنوب منها سلسلة من الحضارات إلى بوليفيا

(١) عمر الفاروق – دراسة بمجلة القاهرة – فبراير ١٩٩٣ تحت عنوان بانوراما رحلة كولومبس ، صورة العالم عشية الرحلة .

وبيرو ، وقد وزعت المدرجات بعد أن نقلت إليها التربة من السهول تخدمها شبكة من قنوات الري ، وتخترقها الطرق الجبلية الممهدة لمئات من الأميال ، وقد مدت الجسور فوق الخوانق والوديان ، كما شيدت السدود . أما العاصمة فيلكا بامبا ، فكانت مثل عش العقارب فوق الجبال ، وقد وجدت في معبدها وثائق مدونة على الورق أو منقوشة على الصخور ، يعبدون الشمس مثل الأزتيك وجيرانهم ، بل كانت هذه العبادة سائدة في كل مكان دون أن يمنع ذلك من وجود عبادات أخرى ، من الآلهة المحلية المحدودة الانتشار. ورغم وحدة الثقافة فقد تعددت اللهجات ، كما استخدموا الأسلحة والأدوات واستأنسوا الحيوانات ، وعن طريق التهجين حصلوا على الجمل من نوع « جواناكو » المعروف الآن باسم الجمل الأمريكي ، وكما سكنوا في القرى ، شيدوا المدن ، ونضجت الجماعة ، وأصبحت مجتمعًا متماسكًا ، لكن هجرات الغزاة المدمرة ، أطاحت عن عمد بها وبهم ، فتراجعوا إلى مناطق العزلة في الهضاب والجبال العالية ، غير أن نسيجهم الثقافي والأثنولوجي لم يندثر ، وبقي حتى الآن يعلن عن وجودهم .

وكانت القارة الشمالية عامرة أيضًا ، في منطقة الإسكيمو القطبية توزعت في الغابات الصنوبرية جماعات صيادي الشمال وعلى طول الساحل الباسيفيكي جماعات ساليسن وكواكتيل ، ويعملون في صيد الأسماك خاصة سمك السلمون ، وفي جنوب كاليفورنيا يجمعون الثمار والجذور ، وفي الشمال الشرقي جماعات البلانكنوت والموهيجان ، وتحترف الصيد وجماعات ايري وشوكتاو حول البحيرات ، بامتدادات في السهول الوسطى ، متداخلة مع صيادي البيسون ، وفي مينو ستاو داكوتا يتوزع الكرو والسويان والسيروكي والأباشي في الجبال وغير ذلك من القبائل والجماعات ، التي تقاسمت القارة فيما يشبه مناطق النفوذ تتجمع كل

مجموعة منها في تحالفات داخل إطارات لغوية ، بحكم وحدة مصدر الهجرة منذ آلاف السنين ، فهم بالتأكيد ليسوا هنودا وليسوا حمرا،كما أطلق عليهم كولومبس غداة وصوله لهذه القارة قديمة التعمير » .

وهكذا ، فنحن أمام عالم مأهول بالسكان ، لهم لغاتهم وأديانهم وثقافاتهم ومبانيهم ، بل وعلاقاتهم ببعضهم البعض فضلاً عن عاداتهم وتقاليدهم ، وبالتالي فهم يشكلون حضارات موجودة وليست متوترة ، فلم يأت الغزاة الأوربيون إلى مناطق خالية أو همجية كما يزعمون .

وقصة اكتشاف أمريكا ، وإبادة شعبها هي القصة الحقيقية للهمجية كما يقول فيليب عطية ، وهو طبيب ومؤلف ومترجم وكتب قصة الهمجية في مجلة القاهرة – فبراير ١٩٩٣ ، ووضع لدراسته عنوانًا جانبيًا ، يقول : « الأبعاد الحقيقية لقصة الهمجية الأوروبية ضد سكان القارة المكتشفة من خلال كتابات المهاجرين الأوائل حيث نجدها مسطورة بدماء الأهالي الأصليين » ، يقول فيليب عطية : « القصة الحقيقية للهمجية بدأت مع سياط لومبس ومعاملة بحارته الفظة لأهالي جزر البهاما الذين عوملوا كنوع من الحيوانات الآدمية ، لكن الأبعاد الحقيقية لتلك القصة لن تجدها إلا عندما ينطلق إلى أرض القارة البكر ذلك الخليط العجيب من المغامرين والجنود واللصوص لينقل إلى الهمجيين « كما يزعمون » ما أسموه بالحضارة والدين وقيمة العالم القديم ومع ذلك يظل السؤال مطروحًا عمن هم الهمج الحقيقيون ؟ » .

هل حقا كان السكان الأصليون همجًا ؟

لنأخذ شهادة « روث بندكت »[1] عالم الأنثروبولجي ، الذي يقول : « إن ثقافة الهنود الحمر ثقافة متكاملة تتميز بخصائصها وطابعها ومفهومها القيمي

(١) نقلا عن فيليب عطية – القصة الحقيقية الهمجية – مجلة القاهرة فبراير ١٩٨٣ .

والأخلاقي » ، وشهادة « كلودليفي شتراوس » عن أن ضيعة واحدة تجمع بين عقلية الهنود الحمر والعقلية العلمية في صورتها الحديثة المتطورة .

الجرائم التي تعرضت لها قبائل وتجمعّات وحضارات الهنود الحمر أكثر من أن تحصى ، وهي متنوعة تثبت قدرة الإنسان الأبيض على الابتكار والإبداع في عالم الجريمة والإجرام وانعدام الضمير ، وهي تمثل حزمة من الجرائم تجتمع في كلمة واحدة هي الإبادة ، وذلك بدعوى أن هؤلاء همج ، فهؤلاء الهمج يعترف لهم شيبارد زفكين في كتابه « سنوات الهمجية » بأنهم كانوا أكثر أخلاقا وتحضرًا ، هذه المجتمعات الهمجية كما يقول «زفكين » كانت لها محاكمها وكانت لها أساليبها المنظمة التي فسرت بها الحياة والموت والظواهر الطبيعية ، فكان الأوكا ،مثلاً ، يمنحون النساء حق التصويت قبل أن يظهر لومبس على الشاطئ بزمن طويل ، بينما ظلت المرأة في أوروبا تعاني من الحرمان الاقتصادي والسياسي والإنساني والاجتماعي بعد اكتشاف لومبس لأمريكا بمئات السنين .

ويستمر «زفكين»في الحديث عن معالم الحضارة في تلك البقاع من تصميم مبدع لمعاطف الفرو التي تناسب الطقس ، والتي أثارت إعجاب عالم الأنثروبولوجي « فيلهالم ستفنسون » الذي عاش حياته بينهم وكتب عن معاطف الفرو أن مناسبتها للطقس القطبي لا تحتاج إلى إيضاح .

يقول فيليب عطية [١] : « عندما استخدم الرجل الوافد كلمات المدنية والهمجية فان ما كان يعنيه حقًا هو أن شخصًا يعيش في هذا الوادي ، « أنا أريد أرضه ، لقد اكتشفت منجما ذهبيا فيها » .

ونبدأ الآن مع شيبارد زفكين في كتابه : « سنوات الهمجية » في قراءة طرف من

(١) نفس المرجع السابق .

الجرائم المرتكبة ، التي ارتكبها الأبيض المتمدن في حق الهمجي « الهندي الأحمر » .

يقول زفكين :

« في حادث مسجل ، انتزع جندي أبيض طفلاً جنينًا من رحم أمه ، قام بتعميده ثم هشم رأسه على المذبح معتنقًا بإخلاص انه يسعى شخصيًا لإدخاله ملكوت السماوات » .

ويضيف زفكين : « تكالب البيض على النسوة الهنديات يدفع المرء للصياح في عجب عما إذا كان هؤلاء الرجال قد أتوا من أرض تخلو من النساء ! !» .

« كانت شجاعة البيض تظهر في تدميرهم لحياة الهنود الحمر وأرضهم ، وحيواناتهم ومصادر ثرواتهم ، ولم تبد منهم شجاعة حقيقية حين كانوا يقعون في يد الهنود الحمر الذين نهضوا للدفاع عن أرضهم » .

« كان الأوروبيون يدمرون كل شيء دون أبسط القواعد والمحاذير ، سارت قطارات في نزهات خاصة ، تزود المسافرون فيها بالبنادق والذخيرة وأخذوا يستمتعون بقتل الجاموس البري من منصة آمنة متحركة » .

كان الجاموس البري بالنسبة للهنود الحمر في السهول هو كل شيء حيث يتغذون من لحمة ويصنعون الملابس والخيوط من جلوده وأوتاره وكؤوس الشراب من قرونه ، ومن روثه الجاف يعدون نيرانهم الحارة دون دخان في بلد دون أخشاب لقد كان محورا لحياتهم » .

وقصة انقراض الجاموس البري تدل على مدى تدمير الإنسان الأبيض للبيئة الحيوانية ، بالإضافة طبعًا إلى تدمير البيئة الإنسانية بإبادة الهنود الحمر ، فعندما أنشئت أول مستعمرة بريطانية في فرجينيا وماساشوسيتس كان هناك حوالي ٦٠ مليونـًا من هذه الثيران ، وفي حين ازدهرت الحضارة الهندية التي اعتمدت على

الثيران في القرنين السابع عشر والثامن عشر في السهول ، كان التقدم السريع تجاه الغرب للرواد في شرق أمريكا مصحوبًا بانقراض الثيران ، ففي عام ١٨١٠ لم يتبق أي ثور شرق المسيسبي وعندما ارتحل باركمان عام ١٨٤٦ وعبر ممر الأوريجون كانت الثيران تتواجد فقط في السهول والجبال الغربية ، وكان يوجد منها حوالي ٣٠ مليونـًا ، وقد بدأ الفصل الأخير في المذبحة الكبرى للثيران في منتصف القرن التاسع عشر ، ففي عام ١٨٤٦ أقر الكونجرس مد خط حديدي « الاتحاد الباسفيكي » عبر القارة مخترقًا تجمعَّات الثيران وبلغت عملية القتل ذروتها في أوائل عام ١٨٧٠ عندما كان يقتل أربعة ملايين ثور كل عام ، أسهم آلاف الجنود في هذه المذبحة إذ كانت تصدر إليهم الأوامر بقتل الثيران وذلك لتجويع و إبادة هنود السهول ، وقد اعتقد المسئولون السياسيون أن عمليات إبادة الثيران وسيلة ناجحة لحرمان هنود السهول من أهم مستلزمات الحياة وبالتالي إبادتهم »[(١)] .

ويقول فيليب عطية عن التقديرات حول عدد الهنود الحمر الذين أبيدوا « تختلف التقديرات عن عدد الهنود الحمر عند اكتشاف أمريكا ، أقل تلك التقريرات تشير إلى ٨,٤ مليون ، بينما تشير تقديرات أخرى إلى أرقام أعلى تصل إلى ١١٢ مليون ، وأحيانًا تصل بالعدد إلى مليارات من البشر ، ويميل العلماء إلى الأخذ بالتقديرات الأعلى امتناعًا منهم بأن الأمراض الوافدة مع الغزاة الجدد » كالجدري والحصبة والدفتيريا ، والسعال الديكي والأنفلونزا والحمى الصفراء والملاريا « وهذه الأمراض التي لم يعرفها العالم الجديد قبل غزو الرجل الأبيض تكفلت بقتل عشرات الملايين من الهنود » .

ويضيف فيليب عطية : « بعيدًا عن نظرية الأمراض الوافدة فإن الحرب الهندية

---

(١) فيليب عطية مرجع سابق .

من أكثر الصفحات دموية في التاريخ الأمريكي ، وهي الحرب التي بدأت فيما يعرف الآن بالولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٥٤٠ وانتهت رسميًا بعد ثلاثة قرون ونصف أي كانت نهايتها عام ١٨٩٠ ، تخللتها آلاف المذابح المروعة والمعاهدات المنقوضة من قبل الرجل الأبيض طبعًا ، انتهت تلك الحروب بتقليص عدد الهنود الحمر في الولايات المتحدة الأمريكية إلى ١,٥ مليون يعيش معظمهم في مستوطنات أو محميات طبيعية !

وعن المعاهدات المنقوضة والمنتهكة والتي تدل على أخلاق البيض وحضارتهم وقيمهم ، يقول شيبارد زفكين عن تاريخ المعاهدات التي عقدها الرجل الأبيض مع الهنود الحمر « إن تاريخهم منذ عام ١٤٩٢ يرى كم الوعد المخروق تلو الوعد المخروق ، وعلى سبيل المثال :

في عام ١٧٩٣ وقع جورج واشنطن معاهدة مع قبائل السنكا ،[١] واستخدم الرئيس واشنطن عبارة المعاهدة التقليدية ، ووعد السنكا بأن أرضهم ستظل لهم طالما ظل العشب ينمو والنهر يجري » . تلك العبارة تعني إلى الأبد ، وحيث إن معظم المعاهدات مع الهنود قد خرقت عمليا قبل توقيعها يستطيع الأمريكيون في هذه الحالة الفخر بأن « إلى الأبد » هذه تعني مصادرة أراضي السنكا ونقلهم . (كما نقلها فيليب عطية في دراسته المهمة القصة الحقيقية للهمجية) .

ويلخص الأستاذ عادل المعلم ، مترجم كتاب : ماذا يريد العم سام ، لنعوم تشومسكي هذه المسألة قائلاً :

« كان النمط المتكرر في تطور علاقة المستوطنين بالهنود الحمر كالتالي :

١ – إبداء حسن النية للعيش بسلام وحفظ حقوق الهنود ، ولا مانع البتة من

(١) السنكا : هم قبائل أقصى الغرب من اتحاد الاوركوا .

إجراء بعض المعاهدات والاتفاقيات .

٢ - بعد استقرار المستوطنين واستتباب أحوالهم يتم إقناع الهنود بالترهيب والترغيب بأن من الأفضل لهم أن يتجهوا غربا ، فالأراضي واسعة هناك ، بينما ضاقت هنا .

٣ - يتحرك الهنود للغرب بعد قليل من الهدايا والمكافآت وكثير من التهديدات ، فإذا لم يرضخوا لذلك فلا مفر من افتعال المشكلا ت والمعارك حتى يتحركوا أو يبادوا .

٤ - تكررت الدورة حتى وصلوا للساحل الغربي .

وإلى المزيد من الشهادات حول جرائم الرجل الأبيض كما نقلها فيليب عطية في دراسته المهمة « القصة الحقيقية للهمجية » عن عدد من الهنود والكتاب .

في الرواية التي كتبها المستكشف « آلفا كابيزا دى كافكا » يقول : « اجتزنا مقاطعات عديدة ووجدناها كلها خاوية ، هرب أهلها هائمين على وجوههم في الجبال دون أن يجرؤا على إقامة البيوت أو حرث الأرض خوفًا من المسيحيين » .

« كان المنظر مدعاة لألم لا نهائي ، أرض بالغة الخصوبة والجمال تعج بالينابيع والجداول ، القرى فيها موجودة محترقة ، الناس مهزولون ضعفاء ، الجميع هاربون أو مختبئون ، الجوع يضرب أكبادهم ، منعهم المسيحيون من الزراعة فأكلوا الجذور ولحاء الشجر ، كانوا على درجة من الضعف والجوع بحيث بدوا كما لو كانوا يرغبون في الموت طواعية ، أحضروا لنا ملابس هؤلاء الذين اختبأوا بسبب المسيحيين ، أهدوها لنا موضحين كيف اجتاح المسيحيون في أحيان أخرى الأرض مدمرين حارقين المدن ، حاملين معهم نصف الرجال وكل النساء والأطفال ، بينما هام هؤلاء الذين استطاعوا الهرب كلاجئين » .

ويضيف دي كافكا قائلاً : « وجدناهم على درجة فظيعة من الانزعاج ؛لأنهم لا

يجرؤون على البقاء في أي مكان ، لا يقدرون على فلاحة الأرض ، يفضلون الموت على العيش في رعب من تلك المعاملة الوحشية » .

وإذا كان لدى كافكا ضمير – استثناء – فإن كل البيض بلا ضمير ، فالإنجليزي هيوبرا كنردج كتب سنة ١٧٩٠ مبررًا الغزو والإبادة بقوله : « ما الفائدة التي يفيدونها للأرض هؤلاء المواشي المزينون بالأقراط والريش والبقع واللطع ، إنهم حيوانات مسماة ابتذالاً هنودًا ».

كانت تلك بعض قطرات من بحر الألم الذي عاني منه الهنود الحمر الذين فقدوا اسمهم وحملوا لقبا أطلقه عليهم خطأ المكتشف الأول كريستوفر كولومبس حينما ظن أنه وصل إلى الهند ، ماذا بقى منهم الآن ؟ ، وهل ما بقي هو نوع من الشهادة الحية الباقية لتلهب الضمير العالمي ، أو لتذكر باستمرار الجريمة الكبرى التي ارتكبها الرجل الأبيض ؟

بقى منهم ١,٥ مليون يعيشون في مستوطنات أو معازل أو كأفراد هائمين ، ولا يتمتعون في بلد الديموقراطية والرفاهية بالمستوى اللائق من العيش ، فنصف سكان المستوطنات من الهنود الحمر لا يتخرجون في المدرسة الثانوية ونسبة البطالة تزيد على ٤٠ ٪ بينهم ، ونسبة الوفيات مرتفعة والحالة الصحية سيئة ، كما يعترف بذلك فاين ديوريا أحد المتعاطفين مع الحركة الهندية الأمريكية ، وكذلك فإن معدل الجريمة مرتفع بينهم ، ويدمنون الكحوليات ، فالهندي الذي يهرب من فقر المستوطنة لا يجد أمامه غير الفقر في المدن لافتقاره إلى المهارات الأساسية التي تتيح له فرص العمل [1] .

---

(١) فيليب عطية – مرجع سابق .

■ جرائم أمريكا في هذا الزمان :

أمريكا تبني رخاءها من خلال جريمة «استرقاق السود»

◆◆◆

قامت أمريكا من خلال جريمة كاملة هي جريمة إبادة شعب البلاد الأصلي « الهنود الحمر » ، ثم قامت باستجلاب [1] حوالي ٢٠ مليونًا من الزنوج « الأفارقة السود » ؛ لكي تسترقهم وتستعبدهم للعمل في المزارع والمصانع ، وهكذا فإن أمريكا سرقت الأرض ، وقتلت أصحابها ، ثم أتت بالعبيد لاستثمارها وتحقيق الرخاء للإنسان الأبيض الذي يتمتع بكل الجاه والثروة والنعيم .

ويصل عدد سكان أمريكا الآن إلى ٢٧٠ مليونًا ، ٧٤ ٪ بيض ، ١٢ ٪ سود ، ١٠ ٪ من أصول أسبانية ، و ٣ ٪ من أصول آسيوية ، ١ ٪ هنود حمر وسكان ألاسكا .

وبرغم كل حركات الاحتجاج والحروب الأهلية والقوانين ، لا تزال التفرقة العنصرية تضرب الوجدان الأمريكي بقسوة .

لماذا أحضر الرجل الأبيض هؤلاء العبيد من أفريقيا ؟ لماذا تجشم مهمة إحضارهم ، أي خطفهم من بلادهم ، ثم ربطهم في سلاسل وتكديسهم في السفن ، ثم حراستهم ثم رحلة طويلة مكلفة حتى أمريكا ؟ في حين أنه أباد الشعب الأصلي « الهنود الحمر » ، لماذا لم يحاول استرقاق الهنود الحمر مثلاً بالقوة ، وكان قادرا على ذلك ، ويوفر على نفسه كل هذا العناء ؟

وللإجابة عن هذا السؤال ، نستدعي الذكاء الشديد للرجل الأبيض ؛ لأنه كان يريد طمس معالم الجريمة – جريمة الإبادة ، ولا يريد أن يبقى من السكان الأصليين أحد ليطالبه ذات يوم بالرحيل أو ينظم نفسه في حركات ثورية تطالبه بالخروج وترك البلاد لأهلها ؛ إنه كان ينظر إلى المستقبل ، فإذا ظل الهنود عددًا كبيرًا ، كان من الممكن أن تندلع بينهم حركات لتنظيم صفوفهم وبدء حركة تحرر وطني ، فكان لابد من القضاء

(١) استجلب الأمريكيون حوالي ٢٠ مليون زنجي ، مات منهم في الطريق بسبب نقص التغذية والجوع وسوء الأحوال والتمرد ٩٠ ٪ ولم يصل إلا ٢ مليون فقط .

على السكان الأصليين ، حتى تصبح الأرض بلا صاحب شرعي ، فيصبح الرجل الأبيض هو الصاحب الشرعي لتلك الأرض ، وهكذا كانت الإبادة ؟

ولأن الرجل الأبيض – وفقًا لثقافته وحضارته – لا يستطيع العيش إلا على العنف والنهب والعنصرية ، فإنه راح يستجلب العبيد من أفريقيا ليسترقهم ويأكل عرقهم ويسخرهم في تلك الآلة الجهنمية من الاقتصاد الذي راح يديره الرجل الأبيض ليعيش هو في رخاء ورفاهية على حساب الشعب الأصلي الذي أبيد ، وعلى عرق العبيد المجلوبين من أفريقيا .

كانت أوربا في ذلك الوقت قد بدأت عصر الفتوحات والغزو والتمرد والنهب فيما سمى بعصر الاستعمار وسباق الإعلام ، كانت الدول الأوروبية تتسابق إلى احتلال بلدان آسيا وأفريقيا لتنهب ثرواتها وتستغلها ، ومارست الدول الأوربية كل الجرائم أيضًا ، وهذا شأن الرجل الأبيض دائمًا من قتل وذبح وقسوة ووحشية ، ونهبت ثروات البلاد المحتلة والمستعمرة ، ولكنها أيضًا ابتدعت أسلوبًا جديدًا لاسترقاق سواعد أهالي البلاد الأصليين إذ لا يكفي نهب ثرواتهم ، بل يجب أيضًا نهب سواعدهم ، وهكذا بدأت صفحة من أحط الصفحات في تاريخ البشرية ، صفحة استرقاق العبيد ، كان السيد الأوروبي يذهب إلى أفريقيا تحديدًا ليصطاد .. لا يصطاد الغزال مثلاً ، بل يصطاد الإنسان وينتزعه من بين أهله وعشيرته ووطنه وأرضه ، ويذهب به بعيدًا . كان السيد الأبيض يختار لصيده هدفًا محددًا هو الأسود الشاب ؛ الأسود القوي ، وإذا عرفنا انه تم اصطياد عشرات الملايين « يقدرهم البعض بـ ٢٠٠ مليون أسود » في وقت كان سكان أوربا كلها لا يصلون إلى ربع هذا العدد لأمكننا أن نقول : إنه تم تجريد القارة السمراء من قوتها وسواعدها ، لأنه لم يبق إلا النساء والأطفال والعجائز ؛ وكان هذا سببًا مباشرًا في تخلف تلك القارة ،

أي أن جريمة التخلف والمعَّاناة التي لا تزال تعيشها القارة الأفريقية هي نتيجة طبيعية لتلك المأساة، وبالتالي فجريمة الأوروبيين لا تزال ذات أثر حتى الآن ! !

هؤلاء الضحايا الذين اصطادهم الأوربيون ونزعوهم بلا رحمة من بين ذويهم، كانوا يربطون في السلاسل ويتم تحميلهم على السفن، فيموت منهم من يموت بسبب الجوع أو سوء التغذية أو تفشي الأمراض أو حتى التمرد، كان لا يصل منهم سوى ١٠٪ فقط، أما الباقون فكانوا يموتون، وهذا شيء لا يهم الرجل الأبيض، فالأسود أو غير الأبيض عمومًا عليه أن يموت ويجوع ويعاني من أجل رفاهية الرجل الأبيض.

كانت الثروات المنهوبة من المستعمرات، والسواعد المسترقة هي التي حققت لأوروبا نهضتنا الصناعية، فالثورة الصناعية، ثم الرأسمالية لم تنشأ إلا من خلال الاستعمار، وليس العكس كما يروج بعض المفكرين اليساريين ضيقو الأفق، فلم تكن الرأسمالية هي التي دفعت الدول الأوربية للاستعمار بحثا عن الأسواق كما يقولون، بل كانت ثروات المستعمرات وسواعد العبيد هي التي خلقت الثروة، وبالتالي حققت تراكما رأسماليًا أدى إلى ظهور الرأسمالية والثورة الصناعية، ولم يكن غريبا أن البنوك الكبرى وهي عصب الرأسمالية قد نشأت على مقاهي أرصفة المواني، حيث كان التجار هناك يمولون شراء العبيد وصفقات الخامات المجلوبة من المستعمرات.

وكان لأمريكا الجديدة نصيبها من تلك الجريمة، كيف لا، وهي ابنة بارة للحضارة الأوربية، وهكذا تم نقل عدد من العبيد يقدر بـ ٢٠ مليونًا وصلوا سالمين، ناهيك عن الذين ماتوا في الطريق، هؤلاء العبيد السود المسترقون والمنتزعون قسرا من بين ذويهم، كانوا هم عمد زراعة القطن، والزراعة عمومًا، ثم صناعات النسيج وغيرها، هؤلاء هم الذين صنعوا الثروة الأمريكية وبدونهم ما كان يمكن للأمريكيين أن يستغلوا تلك المساحات الشاسعة من الأرض، ولا أن يزرعوا

ويصنعوا . إنهم عمال بلا ثمن ، اللهم إلا قوتهم ، وهذا أيضًا في أضيق الحدود .

كان الرخاء الذي تحقق للسادة البيض من عرق العبيد هو السبب في نهضة أمريكا ، وهكذا فإن أمريكا قامت من خلال جريمة « إبادة الهنود الحمر » ونهضت بجريمة أخرى وهي « استرقاق السود » .

وقد دفع السود ثمن هذا الرخاء ، فالعمل متواصل بلا رحمة تحت وطأة سوط السيد الأبيض ، ومن يتوان عن العمل أو يصبح غير قادر، فالموت جوعًا أو الموت برصاصة من مسدس السيد ، وكل شيء ملك للسيد الأبيض : المزرعة والزنوج نساء ورجالاً وأطفالاً ، يضرب هذا ويستخدم هذا ، ويعتدي على هذه السيدة أو تلك بل أحيانا يراهن على نوع الجنين في بطن سيدة سوداء مع سيد أبيض آخر ، ويتم بقر بطن السيدة السوداء بلا رحمة لمعرفة نوع الجنين ، فيكسب هذا السيد أو ذاك الرهان ، وتخسر الأم حياتها وحياة الجنين .

وتسجل رواية « جذور » لأليكس هيلي جزءًا من ذلك التاريخ الدامي لمعاملة الزنوج في أمريكا ، وقد يقول البعض : إن ذلك كان قبل الحرب الأهلية الأمريكية ، ولكن الحقيقة أن تلك الحرب لم تكن لتحرير العبيد ، بل كانت تطورا في الأداة الاقتصادية الأمريكية يستدعي إبطال نمط السخرة القائمة باتجاه نمط العمل المأجور « تطور في شكل علاقات الإنتاج » .

ولعل ما يؤكد هذا ما كتبه نيفنز كوماجر في كتابه « موجز تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية » الذي ترجمته دار المعارف عام ١٩٨٣ حيث يقول :

« تبين للزنوج أنهم ليسوا أحرارًا فعلاً ، وإن كانوا أحرارًا قانونًا ، فإن الكونجرس الذي سن تشريعات تحريرهم ، سرعان ما تركهم لسادتهم السابقين ولم يفعل شيئًا ، وكان السود أشبه بلاجئين في بلاد عاثت فيها الحرب خرابا ، ولا

مغالاة في القول بأن عدد العائلات التي تفككت كان في العام الأول للحرية أكثر منه في أي عام من أعوام الرق ، لقد مات الآلاف منهم بالمرض والجوع ، أو راحوا ضحايا للعنف ولم يحاولوا الإدلاء بأصواتهم في الانتخابات ، أو أن يرسلوا أطفالهم إلى مدارس البيض ، أو أن يتجاوزوا حدودهم الاجتماعية ، لأنهم سرعان ما كانوا يتلقون درسًا قاسيًا إذ حاولوا » .

وهكذا فإنه حتى اليوم لا تزال التفرقة العنصرية في المدارس والجامعات والوظائف والشوارع هي السمة السائدة في الواقع رغم صدور القوانين التي تُحّرم ذلك ؛ لأن الوجدان العنصري لدى الرجل الأبيض أقوى من كل القوانين ، ولا تزال أكثرية السود حتى الآن ممنوعة من دخول عدد من مدارس البيض ، أو حتى المرور في شوارع معينة ، وأكثرية المسجونين من السود ، وتتفشى البطالة في صفوف السود أكثر ، ومستوى تعليمهم أقل ، ولعل خير دليل على ذلك استمرار حركات النضال الأسود ضد التفرقة العنصرية ، فبديهي أن أحدًا لن يناضل ضد شيء غير موجود .

وفي الأعوام الأخيرة ، فقط سجلت الأحداث حالات مشهورة للتفرقة العنصرية ، اكتسبت شهرة عالمية بسبب اهتمام الصحافة والتليفزيون بها ، وهي حادثة اعتداء أربعة من رجال الشرط البيض بالضرب بالسوط على زنجي في لوس أنجلوس ولولا تصوير الحادثة بالفيديو مصادفة وثورة السود واندلاع أعمال عنف في المدينة بسبب ذلك لما اهتم أحد بالموضوع ، وكذلك محاكمة لاعب الكرة المعروف « سمبسون » ، الذي اتهم بقتل زوجته وتعرض للتفرقة في القضاء بسبب لونه !

وبديهي أن هناك مئات أو ربما آلاف الحالات من الانتهاك العنصري التي لم يهتم بها أحد على غرار هاتين الحادثتين .

هل تصلح

أمريكا لقيادة العالم؟

◆◆◆

نفسها كقيادة للعالم ، واعتبرت أن هذه هي فرصتها ، وأنه يجب أن يكون القرن الواحد والعشرون قرنا أمريكيا ، وأمريكا لم تقدم نفسها كقيادة عسكرية للعالم فقط ، بل تريد أن تقدم نفسها كقيادة سياسية واقتصادية بل وقيمية وحضارية للعالم ، أو بكلمة أخرى تريد الهيمنة على العالم في كل شيء بدءًا من النفوذ العسكري ، مرورًا بالنفوذ الاقتصادي والسياسي وانتهاء بالنفوذ الثقافي .

وأمريكا التي تريد الانفراد بالقيادة في العالم الجديد أو النظام العالمي الجديد كما يحلو لها أن تسميه لابد أن تستخدم في هذا الصدد «الجزرة والعصا» ، فهي ترسم لنفسها صورة وردية ، ويرسم لها المؤيدون أو التابعون أو المأجورون صورة زاهية وقيما رفيعة ، فهي ذات مسئولية عالمية ، ومدافعة عن الحرية ، وتريد عالما بلا حروب ، وتريد مساعدة العالم كله من أجل الرخاء والحرية .

وبالطبع تقدم قيمها السياسية كما لو كانت أفضل القيم ، فالتاريخ قد انتهى وأثبت صحة اقتصاد السوق ، والليبرالية الرأسمالية ، والنزعة الفردية وهكذا .

ومن ناحية أخرى فإنها تلوح بالعصا الغليظة لمن لا يريد الخضوع لهذا النظام العالمي الجديد أو الهيمنة الأمريكية ، وتهدد بأنها سوف تضرب بقسوة كل من يتحدى جبروتها سواء كان من الأعداء أو الأصدقاء على حد سواء [1] يقول بريجنسكي :

« إن أفول نجم الاتحاد السوفيتي معناه تفرد الولايات المتحدة بمركز الدولة العظمى ذات المسئولية العالمية » .

ويشرح نيكسون في كتابه المهم : « انتهزوا هذه الفرصة » ملامح تلك القيادة

(١) تعمدت أمريكا أن تسرب تقريرًا استراتيجيا أمريكيا تعاونت في وضعه مختلف الأجهزة الأمريكية ، حذرت فيه أية دولة أو قوة غير أمريكية من مغبة منازعة أمريكا في هيمنتها العالمية .

الأمريكية مقدما لها صورة وردية بالطبع .

يقول نيكسون :

سيعلم الجميع أنه بدون الولايات المتحدة الأمريكية فلن يكون هناك سلام أو حرية في العالم أجمع سواء في الماضي أو في الحاضر أو في المستقبل» .

« يجب أن نضطلع بدور أساسي في قيادة العالم لكي نجعله في وضع أفضل مما هو عليه الآن ، وليس لمجرد المحافظة على وضعه كما هو ، يجب أن نعيد الثقة في عقيدتنا ، وفي مثُلنا ، وفي قدرنا ، وفي أنفسنا ، نحن موجودون لنصنع التاريخ ، ونفتح آفاقًا جديدة للمستقبل » .

« ليس هناك مكان أروع إثارة يمكن أن تعيش فيه ولا أرقى منه إلا أمريكا ، لقد ظل الناس على مدى قرون طويلة يحلمون بالسلام والحرية والتقدم في العالم أجمع ، ولم نكن في يوم من الأيام أقرب إلى تحقيق هذه الآمال من يومنا هذا » .

« إن علينا حمل عبء قيادة العالم ، لأننا شعب عريق ، لقد عشنا في حقبة من الزمن لم يتيسر لشعب آخر أن يعيش فيها ، وله ما لنا من مميزات ولن يتيسر لغيرنا في المستقبل – على الأرجح – أن يمر بها ، علينا أن ننتهز الفرصة ليس فقط لأنفسنا ولكن أيضًا لغيرنا » .

« تمثل أمريكا ثلاث قيم لها أهمية كبرى هي :

الحرية ، الفرصة المتاحة ، احترام الإنسان لذاته » .

« إن الولايات المتحدة الأمريكية تستطيع أن تقوم بدور القيادة في العالم وعلى العالم أن يتبع خطانا » .

« لا تستطيع أي دولة سوى الولايات المتحدة أن تقوم بدور القيادة في العالم ، ربما تستطيع إحدى الدول أن تحل محلنا من الناحية العسكرية .. وقد يصل البعض

إلى ما وصلنا إليه اقتصادياً ، ولكن ليس هناك إلا الولايات المتحدة التي تملك القوى العسكرية والسياسية والاقتصادية لتقود العالم في طريق الحرية ، ومقاومة الاعتداء والأهم من ذلك أن تأثيرنا لا ينبع فقط من القوتين لعسكرية والاقتصادية ولكن ينبع أيضاً من الإعجاب بمبادئنا ومثلنا ، ونحن البلد الوحيد في العالم الذي رفع اسمه بقوة مبادئه وليس بقوة سلاحه » أ.هـ ..

إذن أمريكا تقدم نفسها للعالم ولكن أيضاً لأنها تحمل قيما عظيمة ، وينبغي على العالم أجمع أن يدخل في هذه القيم وأن يتخلى الجميع عن قيمهم الحضارية الذاتية ، وأن يخضع وهو سعيد لقيادة أمريكا ، وإلا فإن من يرفض أو يعارض أو حتى يتململ ؛ فالويل والثبور وعظائم الأمور من نصيبه .

وفي الحقيقية فإن هذه الصورة الوردية التي تروجها أمريكا ويروجها مؤيدوها صورة منافقة وكاذبة وتفتقر إلى الحد الأدنى من الجدية ، فلا هي دولة صاحبة قيم عظيمة ولا ممارسات عظيمة ولا هي دولة بهذه القوة التي يتحدثون عنها .

والصورة الحقيقية ، لأمريكا ، تقول:« إن أمريكا ذاتها نشأت من خلال جريمة كبرى وهي إبادة شعب « الهنود الحمر » واستلاب أرضه والعيش فيها رغم أنفه وعلى حسابه « أباد المهاجرون الأمريكيون أكثر من مائة مليون من الهنود الحمر وهو رقم كبير بحساب وقت تنفيذه ... أي أن كل مهاجر أباد أربعة من الهنود الحمر وبالتالي فقد عاش على جماجم أربعة من البشر » .

وهؤلاء الذين أنشأوا أمريكا أو سلبوها من أهلها كانوا من حثالات المهاجرين والمغامرين والأفاكين الأوروبيين ، وهؤلاء بدورهم أبادوا الهنود الحمر ، ثم استقدموا الرقيق الأفريقي ليسخروه في بناء أمريكا ، أي أن أمريكا قامت على النهب والإبادة والعنصرية . والتفرقة العنصرية التي عاشت أمريكا فترة طويلة من

تاريخها القصير تمارسها بصورة رسمية لا تزال موجودة ومتغلغلة في الوجدان الأمريكي ولا تزال آثارها ملموسة حتى الآن في كل مكان بأمريكا ، فأي عالم إذن يمكن أن نتوقعه تحت قيادة أمة نشأت على النهب والإبادة والعنصرية ؟ !!

إن الأمة الأمريكية تمثل كل القيم البشعة للحضارة الغربية ، تلك الحضارة التي قامت على نهب الشعوب واسترقاقها وأذاقت كل البشرية الويلات خلال فترة الاستعمار ولا تزال ، وما دامت الأمة الأمريكية جزءًا من الحضارة الغربية فهي تمتلك كل مقوماتها الحضارية وهي: العنف والقهر والنهب والعنصرية ، بل إنه يمكن القول : إن الأمة الأمريكية هي أسوأ التطورات في الحضارة الغربية لأنها نشأت من حثالة البشر في تلك الحضارة الغربية ولأنها نشأت من خلال جريمة «إبادة الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين» .

إن سجل الجرائم الأمريكية مكتظ ومفعم ، فأمريكا التي تدعي أنها رفعت اسمها من خلال المبادئ ، وليس من خلال القوة، هي نفسها التي قامت بهذه المجموعة الكبيرة من الجرائم وهي كالتالي :

- إبادة شعب أمريكا الأصلي « الهنود الحمر » .
- استرقاق السود وتسخيرهم في بناء أمريكا .
- غزو نيكاراجوا سنة ١٨٨٣ .
- الهجوم على بيرو ١٨٣٥ .
- اقتطاع أرض مكسيكية هي ولاية تكساس حاليًا (من سنة ١٨٤٦ – ١٨٤٨) بالإضافة إلى كاليفورنيا ونيومكسيكو .
- تدمير ميناء جراي تاون في نيكاراجوا – غزو أوروجواي – غزو قناة بنما (١٨٥٤) .

- غزو كل من نيكاراجوا ، كولومبيا عدة مرات منذ ١٨٥٧ – ١٨٩٩ .
- التدخل في هايبتي ١٨٨٨ .
- التدخل في تشيلي ١٨٩١ .
- غزو كوبا واقتطاع قاعدة بحرية في خليج جوانتا نامو (١٨٩٨ – ١٩٠١) .
- غزو كولومبيا ١٩٠١ – ١٩٠٢ .
- غزو هندوراس ١٩٠٢ .
- التدخل في كوبا ١٩٠٦ .
- الاستيلاء على ست مدن في هندوراس ١٩٠٧ .
- سرقة البنك المركزي في هايبتي عن طريق إنزال المارينز الأمريكيين في هايبتي سنة ١٩١٤ .
- قصف فيركروز ١٩١٤ .
- دخول هايبتي مرة أخرى ١٩١٥ .
- دخول المكسيك ١٩١٦ وفي العام نفسه دخلت القوات الأمريكية الدومنيكان وسيطرت عليها بحكومة عسكرية حتى ١٩٢٤ .
- التدخل في السلفادور سنة ١٩٣٢ .
- الإطاحة بحكومة جواتيمالا ١٩٥٤ .
- عملية خليج الخنازير في كوبا ١٩٦١ .
- حصار كوبا جوا وبحرا ١٩٦٢ .
- التدخل العسكري في فيتنام وكوريا لمدة طويلة وكذلك كمبوديا ولاوس وتايلاند .
- مساعدة المخابرات الأمريكية في قتل جيفارا في بوليفيا ١٩٦٧ .

- عملية غزو بنما وجرينادا والتدخل في السلفادور (١٩٨٣ – ١٩٩٠) .

أما ما خص العرب منها :

- دعم قيام إسرائيل والاعتراف بها ١٩٤٨ ، ثم تقديم عشرات المليارات إلى إسرائيل لدعمها فضلاً عن السلاح والمعلومات الاستخبارية وغيرها حتى اليوم .
- التدخل العسكري في لبنان ١٩٨٣ .
- ضرب ليبيا ١٩٨٦ .
- اختطاف الطائرة المصرية إبان حادثة السفينة أكيلي لاورو ١٩٨٦ .
- إسقاط طائرة الركاب الإيرانية المدنية فوق مياه الخليج ١٩٨٨ .
- تدمير العراق والكويت ١٩٩٠ .
- ضرب السودان وأفغانستان ١٩٩٨ .

وهذا بالطبع مجرد عينات من التدخلات العسكرية الأمريكية ، لأن السجل أكثر من أن يحصى .

وحتى بعد أن انهار الاتحاد السوفيتي وانفراد أمريكا بالعالم وتبشيرها بما يسمى بالنظام العالمي الجديد ، فإن أول ممارساتها معنا كان ازدواج المعايير تمامًا ، فعلى حين تحمست لتنفيذ قرارات مجلس الأمن فيما يخص العراق فإنها تقاعست تمامًا فيما يخص إسرائيل ، وفي حين تعمل أمريكا على نزع سلاح العرب من أي نوع فإنها تترك لإسرائيل كل الحرية في الحصول على السلاح بما فيه السلاح النووي »[١] .

ولعل ازدواج المعايير يتضح بصورة هائلة في تزعم أمريكا للحملة على ليبيا بشأن

(١) من المعروف أن أمريكا تصر على حرمان أي دولة عربية أو إسلامية من الحصول على أي تقنية نووية خاصة العراق ، ليبيا ، مصر ، الجزائر ، سوريا ، إيران ، باكستان .

اتهامها بتدمير طائرتين إحداهما فرنسية والأخرى أمريكية وقامت باستصدار قرارات من مجلس الأمن بهذا الشأن في حين أنها تتجاهل إسقاطها لطائرة مدنية إيرانية فوق مياه الخليج سنة ١٩٨٨ ، وكذلك إسقاط إسرائيل لطائرة مدنية ليبية عام ١٩٧٣ وهي الطائرة التي كانت تحمل المذيعة المصرية المعروفة « سلوى حجازي » . وعلى الرغم من أن أمريكا تملأ الدنيا صياحًا حول حقوق الإنسان فإنها تتجاهل تمامًا حقوق الإنسان الفلسطيني المنتهكة على يد قوات الاحتلال الصهيوني .

وإذا كانت الصورة الوردية التي ترسمها أمريكا لنفسها أو يرسمها لها مؤيدوها صورة كاذبة ومنافقة وغير حقيقية ، فإن الصورة الأخرى التي تكمل بها أمريكا ومؤيدوها حصارها حول العالم وهي صورة أمريكا القوية القادرة التي لا تستطيع قوة أخرى تحديها هي أيضـًا صورة مبالغ فيها لإيقاع الرعب في نفوس الآخرين ، وأن الصورة الحقيقية لأمريكا ليست بهذه القوة ولا بهذه القدرة ويمكن بالصمود والمواجهة أو بعوامل الضعف الداخلية الأمريكية أن تسقط هذه القوة بأسرع مما نتصور .

إن الحقائق المعروفة والمنشورة تقول: إن أمريكا أكبر بلد مدين في العالم حاليًا ، وميزان مدفوعاتها يعاني عجزًا هائلاً ، وميزانها التجاري مع بلد مثل اليابان شديد الاختلال لصالح اليابان ، وأن كثيرًا من الصناعات والمؤسسات الصناعية الأمريكية ، إما أفلست أو على وشك الإفلاس وأن البطالة تتفشى في أمريكا، وأن الإيدز والمخدرات وضعف مستوى التحصيل الدراسي والتفرقة العنصرية يؤكد بقوة ونشاط على انهيار أمريكي قريب .

ونيكسون نفسه في كتابه الأخير « الفرصة السانحة » يعترف ببعض هذه الحقائق ..

يقول نيكسون : « وما لم تقم الدولة بتطوير سياسة التعليم لتخريج علماء وباحثين من شباب الأمريكيين ، فسوف نفقد تقدمنا الصناعي والتكنولوجي ،

وأمريكا بها أكثر من ٢٥ ٪ لم يحصلوا على شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، وكثير من الذين حصلوا عليها يفتقدون المهارات اللازمة ليندمجوا في المجتمعات الحديثة ، أما فيما يختص بالعلوم والرياضيات ؛ فشبابنا يأتي في ذيل القائمة التي تضم الدول الصناعية ولو أن لنا قليلاً من المدارس العامة على مستوى جيد ، إلا أن أغلبها أقل من مستوى الدول المتخلفة ، وقد انحدر مستوى أغلب المدارس وأصبح الطلبة لا يشعرون بالرغبة في الدراسة بحماس ، ويقضون ساعة أو أقل في الدراسة بالمنزل وثلاث ساعات أو أكثر أمام التليفزيون يشاهدون برامج تافهة يوميا ، إن أمريكا ينحدر مستواها في التعليم شيئًا فشيئًا خصوصًا فيما يخص العلوم والتكنولوجيا » .

وفيما يخص الاقتصاد يعترف نيكسون قائلاً : « حدث انخفاض في رأس المال في الصناعة مماثل لما حدث في رأس المال البشري في التعليم ، إن الادعاء بأن النقص في الميزانية الفيدرالية لا يهم غير صحيح . إن نقصًا يعادل ٥ ٪ في مجموع الإنتاج القومي يوضح اتجاها معينا للاقتصاد ، ولما كان العجز يعاد تمويله من المدخرات الشخصية والاستثمارات الأجنبية ؛ فإن استنزاف هذه المدخرات في قروض صغيرة الأجل لابد من استثمارها في مشاريع طويلة الأجل يجعله كالمياه التي تنخر في القواعد التي يقوم عليها الاقتصاد » .

ويقول نيكسون : « إن أمريكا لديها مشاكل عويصة في الداخل ، فهناك ٣٨ مليونًا من سكانها لا يتمتعون بالرعاية الصحية ؛ لأنهم لا يستطيعون دفع اشتراكاتها ، واستهلاك المخدرات في أمريكا أكثر من استهلاك دول العالم مجتمعة رغم أنها تأتي في المرتبة العشرين من حيث تعداد السكان ، وفي أمريكا أكبر معدل لارتكاب الجرائم في العالم والأشرار فيها في تزايد مستمر بحيث جعلوا مدننا الكبيرة غير آمنة » .

■ جرائم أمريكا في هذا الزمان :

أمريكا
هي الإرهابي
الأكبر في التاريخ

◆◆◆

إذا اتفقنا بداية على أن العنف بلا مبرر أخلاقي ، أي إذا لم يكن لدفع عدوان أو تحرير أرض أو حفاظ على عرض أو رفع للاستكبار والظلم فهو أمر غير مبرر ومرفوض ، وأن تطبيق هذا المعيار يعطي نتيجة مباشرة ، وهي أن أمريكا الأصلي « على يد المهاجرين الأوروبيين والذي يقدره البعض بحوالي ١١٢ مليونًا ، ومرورًا بجريمة استرقاق السود واستعبادهم في الآلة الإنتاجية الأمريكية وانتهاء بقيام أمريكا بالعدوان المستمر والدائم على عدد كبير من الدول ، فإن أمريكا وفقًا لبنيتها القيمية والثقافية ووفقًا لسلوكها العملي هي صانعة الإرهاب في العالم حاليًا ، فالكونجرس الأمريكي مثلاً أصدر أكثر من ٦٠ قانونا لمعاقبة الدول التي لا تنصاع للسياسة الأمريكية ، أليس هذا إرهابا وتدخلا في الشئون الداخلية للدولة الأخرى؟ وهل تحدد – أمريكا – وبأي حق قانوني أو أخلاقي – سياسات الدول الأخرى ، خاصة أن الكونجرس سمح للحكومة الأمريكية في هذا الصدد باستخدام سلاح العقوبات الاقتصادية أو التدخل العسكري لتحقيق ذلك ؟ ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية أنفقت الولايات المتحدة الأمريكية على أعمالها غير الأخلاقية من اغتيال زعماء وتدبير انقلابات وتزييف انتخابات في البلدان الأخرى وتشويه سمعة قادة ومفكرين .. الخ . ما يقدر بحوالي ٩٥٠ مليار دولار ، وهو رقم كان يكفي للنهوض بقارة أفريقيا مثلاً !! .

وفي هذا الصدد ترصد الدراسات أن أمريكا حاولت قلب نظام الحكم في ١٢٧ دولة ، وحاولت اغتيال ٥٤ زعيمًا وطنيًا في العالم الثالث ، وأشعلت الحرب الأهلية في ٨٥ دولة ، وتقول بيانات وزارة الدفاع الأمريكية « البنتاجون » : إن أمريكا شاركت في ١٧ عملية في الشرق الأوسط منذ عام ١٩٨٠ حتى عام ١٩٨٥ ، منها قتل ٢٠٠ ألف عراقي سواء في العمليات العسكرية أو بعدها ، وإشعال الحرب

الكردية ، وتجويع ملايين الأطفال والنساء في العراق [1] ، ومنها إبادة ١٠ آلاف صومالي على يد مشاة البحرية الأمريكية .

وداخل المجتمع الأمريكي نفسه ، فإن الإرهاب والعنف والعنصرية هي السمة الرئيسة لذلك المجتمع ، فالمجتمع أصلا قائم على العنف والإبادة والبراجماتية ، والأمريكي يتعرض في حياته لإطلاق الرصاص عليه عدة مرات بسبب العنف المنتشر بين أوساط الأمريكيين ، بل وصل العنف أيضًا إلى صبية المدارس الذين يمارسون القتل العشوائي كهواية ، وتقول الإحصائيات إنه في عام ١٩٩١ مثلاً تم اغتيال ٣٨٣١٧ شخصًا في أمريكا بواسطة الأسلحة النارية ، ناهيك عن المجازر الجماعية العشوائية ، وفي ولاية شيكاغو مثلاً يكلف قتل الفرد حوالي ٣٥ دولارًا أما تكاليف حمايته وإنقاذه فتصل إلى ٢٠٠ ألف دولار ، وفي عام ١٩٩٤ مثلاً وصل عدد المسجونين في أمريكا إلى أكثر من مليون شخص وهو أعلى معدل مساجين في العالم ، ويقدر البعض عدد الأسلحة النارية المملوكة للأفراد في أمريكا بحوالي ٢١١ مليون قطعة سلاح ، وأمريكا هي دولة العنف المجنون ، فهي خاضعة لثقافة العنف والمسدس ، وفي دراسة أجرتها وزارة التعليم الأمريكية في المدارس الرسمية « ١٢٠٠ مدرسة جرى إحصاء بها شهدت ١١ ألف حالة اعتداء بالأسلحة و٧ آلاف سرقة وأربعة آلاف حالة اغتصاب واعتداء جنسي في عام ١٩٩٧ ، مع العلم أن ٤٣ ٪ من هذه المدارس لم تبلغ عن كثير من الحوادث التي وقعت بها ! ، وتنتشر في المدارس أيضًا ظاهرة تعاطي بل الاتجار في المخدرات ، وتعد حادثة مدينة جونزبراه نموذجًا مهمًا لهذا الأمر حيث قام طفلان أحدهما عمره ١١ سنة والآخر عمره ١٣ سنة بشن هجوم على المدرسة التي يدرسان فيها وقتلا ٤ طلاب ومعلمة

(١) بصرف النظر عن الموقف من صدام حسين .

بالرشاشات والمسدسات ، ونشرت صحيفة النيوزويك إحصائية عن عدد الأطفال الذين قتلوا في معارك بالسلاح مع زملائهم عام ١٩٩٤ فكانوا ١٥١ طفلاً ، والملاحظة الجديرة بالتسجيل هنا ، أن العنف ينتشر بين أبناء الطبقة الوسطى الذين يعيشون في رخاء ويمتلكون سيارات « وكومبيترات » ويتعلمون في مدارس خاصة .

وبالنسبة للميليشيات المسلحة فإن هناك ٣٥٠ ميليشيًا لها هياكلها المسلحة ، ويتراوح أعضاؤها بين ٥٠ إلى ١٥٠ ألف عضو ويصل إنفاقها السنوي إلى ١٠٠ مليون دولار ، وإحدى هذه الميليشيات المسلحة في المناطق الريفية ولها ٢٥٠ موقعًا على الإنترنت .

■ ■ ■

■ جرائم أمريكا في هذا الزمان :

المؤامرة الأمريكية على مصر

◆◆◆

الدول والشعوب التي تعارض سياستها ، ولكن الحقيقة أنها أيضـًا تتآمر على دول وحكومات من المفروض أنها من أصدقائها ، وخير مثال على ذلك المؤامرة الأمريكية على مصر ، ويرجع ذلك بالطبع إلى أسباب كثيرة ، منها أن أمريكا لا تعرف ما يسمى بالصداقة ، فهي تريد أتباعًا فقط ، وحتى هؤلاء الأتباع يمكن أن تتآمر عليهم أيضًا ، ومصر مثلاً تمثل عمقا عربيا وإسلاميا وثقلا سكانيا وجغرافيًا واستراتيجيًا ، ولذلك فلا بد أن تكون ضعيفة مفككة لا حول لها ولا قوة ، حتى لا تكون رقما مهمًا في المعادلة الإقليمية ، ولأن مصر القوية يمكن أن تشكل نواة لمحور عربي إسلامي فإن القضاء على هذه النواة هدف أمريكي وإسرائيلي ثابت ، وكذلك تريد الولايات المتحدة الأمريكية أن تجعل من إسرائيل القوة الوحيدة المسيطرة في المنطقة ، ولابد من حصار مصر وعزلها أو حتى تفكيكها لتحقيق هذا الهدف . وهكذا ، فإنه لأسباب إسلامية وتاريخية وجغرافية واستراتيجية ؛ فإن مصر مستهدفة لمؤامرة أمريكية إسرائيلية مستمرة .

ويتجلى ذلك في عدد من النقاط منها :

- منع مصر من الحصول أو القدرة على إنتاج سلاح متقدم ، والضغط عليها سياسيًا واقتصاديًا للحيلولة دون دخولها إلى النادي النووي أو حتى إنتاج أسلحة كيميائية أو جرثومية لمعادلة التفوق النووي الإسرائيلي ، وتقوم الولايات المتحدة باستمرار بإثارة موضوع إنتاج مصر – وغيرها من الدول العربية والإسلامية طبعًا – صواريخ طويلة المدى أو أسلحة كيميائية وتهدد بقطع المعونات أو حتى التلويح بالضرب كما أنها تمنع حصول المصريين على أي تعليم في أمريكا يسمح بذلك ، ومن حاول الحصول على التكنولوجيا الأمريكية المتقدمة يتعرض للمحاكمة في أمريكا « قضية المهندس عبد القادر حلمي مثلاً » ، وهناك اتهامات كثيرة حول دور المخابرات

الأمريكية بالتعاون مع المخابرات الإسرائيلية في اغتيال عدد من كبار علماء الذرة والتسليح المصريين « الذكتور المشد ، والدكتور بدير مثلاً » .

* محاولة حصار مصر وإضعافها بإثارة المشاكل حول توزيع حصص المياه في وادي النيل ، وتحريض دول الحوض على مصر « إثيوبيا نموذجًا » .

* التواجد الاستخباري والعسكري والسياسي في دول حوض النيل ومنابع النيل للتحكم في تدفق المياه إلى مصر من المنبع « التواجد في أوغندا ورواندا وبوروندي والكونغو مثلاً » . ومحاولة تحويل مجرى المنابع إلى البحيرات العظمى وتحويلها إلى بنك المياه تشتري منه الدول بالمال ، وبالتالي التحكم في نصيب مصر والضغط لحصول إسرائيل على المياه عن طريق مصر .

* محاولة تفكيك وتقسيم السودان ، وتسليم جنوب السودان إلى عملاء أمريكا وإسرائيل ، وهذا بالطبع خطر على مصر من الناحية المائية والحياتية ، وكذلك من الناحية الاستراتيجية ، وخطر أيضًا على العرب وعلى المسلمين ، فهي محاولة لحصار مصر أولاً ، ولضرب العمق الإسلامي والعربي في أفريقيا وعزل الشمال العربي الأفريقي عن القارة السوداء والتحكم في مداخل البحر الأحمر الجنوبية .

ويمكننا أن ندرك بعض أبعاد المؤامرة الأمريكية على مصر والسودان إذا قرأنا الدراسة التي نشرتها مجلة « الشئون الدولية » الأمريكية ، وهي مجلة ذات صلة بدوائر رسم السياسة الأمريكية في عددها الصادر في « أبريل ١٩٩٨ » حول ما أسمته « بالكتلة الأفريقية الجديدة » . تقول المجلة : « بعد التقلبات التي شهدتها أفريقيا ، كان لابد من إقامة كتلة على أساس المبادئ الأمريكية تتكون من أربع دول هي : أوغندا ورواندا وإثيوبيا وإرتريا ، وتتحدد أهداف هذه الكتلة في إقامة قوات مسلحة تحت الإشراف الأمريكي تمتد بين منطقة البحيرات الأفريقية الكبرى حتى

البحر الأحمر ، وأن هذه الكتلة ستكون أقوى من الجيش السوداني ، والهدف منها هو تفكيك السودان بإثارة الحرب الأهلية ، وبعد ضرب السودان يتم إحداث تغييرات في نيجيريا وتشجيع المعارضة في كينيا ، عزل دولتي أفريقيا الوسطى وتشاد عن السودان ، السيطرة على الصومال ، وأن هذه الكتلة سوف تكون حلفا عسكريًا سياسيًا يعمل في حملات مشتركة من منطقة البحيرات الكبرى حتى الصحراء ، وأنها سوف تغير ميزان القوى في أفريقيا » .

ويعلق الدكتور أنور عبد الملك على هذه الدراسة بقوله :

إن هدف هذه الكتلة الاستراتيجية الجديدة العميلة لحساب الولايات المتحدة الأمريكية والصهيونية هو :

• محاصرة منابع النيل الأبيض في منطقة البحيرات الكبرى ، وكذا النيل الأزرق في إثيوبيا ، وتطويق دائرة النيل الأزرق المركزية في أفريقيا من منابعها في إثيوبيا والبحيرات حتى السودان ومصر من قلب أفريقيا إلى البحر المتوسط ، وهو الهدف الاستراتيجي المواكب لبناء الجناح الجنوبي الشرقي لحلف الأطلنطي بواسطة الحلف الاستراتيجي بين تركيا وإسرائيل ، ومن هذا كله فإن من الواضح أن بيت القصيد إنما هو سلب مصر مكانتها تمامًا ، وشل أي تحرك مستقبلي لها ، ومحاصرتها هي والسودان عن القيام بأي دور ، وتحقيق سيطرة مركز الهيمنة أحادى القطب الأمريكي الصهيوني على القارة الأفريقية وتصفية الوجود العربي حول مصر من الخارطة، أي إنه إلغاء وجودنا .

• الضغط على مصر باستمرار بما يسمى بقضية « اضطهاد الأقليات » ، والسعي نحو اختراق الأقلية المسيحية رغم أنها أسعد أقلية في العالم ، ورغم ما هو معروف عن التسامح الإسلامي خاصة في مصر ، ورغم عدم وجود أي ظلال أو

ممارسات طائفية حقيقية في مصر وعن طريق هذا الاختراق يتم الضغط على مصر ، و إضعاف مكانتها الدولية أو حتى تفكيكها وتقسيمها كما هو موجود في المخططات عن طريق بث الفرقة بين أبناء الوطن الواحد وفي هذا الصدد ، يمكننا أن نفهم صدور ما يسمى بقانون حماية الأقليات من الاضطهاد عن الكونجرس الأمريكي ، وإدراج اسم مصر ؛ على رأس الدول المستهدفة بهذا القانون وتوقيع الرئيس الأمريكي بيل كلينتون لهذا القانون عقب اتفاقية واي بلانتيشن والتي هي بدورها مؤامرة على مصر ؛ لأنها تكرس لقيام حلف إسرائيلي فلسطيني « عرفاتي » أردني تركي ضد مصر وسوريا وإيران والسعودية ، ويعتبر المراقبون هذا القانون بمثابة نوع من إعلان الحرب على مصر ، وتستخدم أمريكا وإسرائيل عددًا من الجمعيات المسيحية في الخارج ، وهي جمعيات مصطنعة وعميلة للترويج لمسألة اضطهاد الأقليات ؛ وهذا كله مقدمة لتقليص دور مصر الإقليمي ومنعها من المشاركة في رسم خريطة المنطقة وإطلاق يد إسرائيل فيها ، وكذلك إشعال الفتنة الطائفية أو حتى التبرير لعدوان أمريكي عسكري على مصر لمنعها من إقامة نهضة زراعية أو صناعية أو علمية .

■ ■ ■

أمريكا بلا ضمير

◆◆◆

لكثرة تكراره ، ولكثرة ممارسة أمريكا لهذا الازدواج ، فأمريكا مثلاً تستخدم حق الفيتو دائمًا ضد العرب ولحماية إسرائيل وهي تتغاضى عن الممارسات الإسرائيلية والصربية في انتهاك حقوق الإنسان ثم تثير الدنيا ولا تقعدها ضد العراق وإيران وليبيا والسودان ومصر وغيرها . والجرائم الأمريكية أكثر من أن تحصى وكذلك فإن متابعة تفاصيل هذه الجرائم والممارسات يحتاج إلى مجلدات ، وسنحاول هنا ضرب بعض النماذج بشيء من التفصيل .

■ الجريمة ضد الشعب العراقي

نحن هنا لا ننحاز لصدام حسين ، بل ربما نرى أنه أحد الأدوات الأمريكية بغبائه المنقطع النظير ، وندين أيضًا استبداده وممارساته القمعية الوحشية ولكن هذا شأن آخر ، وأمريكا في الحقيقة لا تستهدف الإطاحة بصدام حسين ، ولكنها تريد فقط القضاء على حيوية الشعب العراقي وضرب عناصر النهضة في ذلك البلد ، حتى لا يصبح يومًا قوة للعرب أو المسلمين ، ومن المعروف أن العراق يمتلك ثروة مائية وزراعية هائلة ، وهو أيضًا يمتلك ثروات معدنية خاصة البترول ، والشعب العراقي شعب متعلم به كوادر علمية ودينية عالية المستوى ، وهذا معناه أن هذا الشعب لو ترك لحاله لحقق نهضة عظيمة ، ولذا كان من الضروري إدارة سيناريو يحقق لأمريكا القضاء على نهضة العراق ، وتدمير ثرواته بل وجعله دولة من الدرجة العاشرة ، وأهم المخططات في هذا الصدد هو القضاء على كوادره العلمية أولاً ، والحيلولة دون ظهور أجيال جديدة متعلمة في العراق ، ولذلك نرى أن الحصار الأمريكي للعراق لا يستهدف فقط ضرب البنية الاقتصادية والعسكرية للعراق ، بل محاولة قتل الأطفال وتحويل الشعب العراقي إلى شعب جاهل بلا مستقبل ، ويكشف عن هذا الأمر أن الحصار المفروض على العراق لن يؤثر بالطبع على قادة

العراق وحكامه ، ولكنه سوف يؤثر على صحة الأطفال وعلى مستوى تعليمهم وعلى قدراتهم الجسدية والعقلية في المستقبل . وهذا هو المستهدف ، وإذا أخذنا شهادة كاتب بريطاني هو جيف سيمونز في كتابه : « التنكيل بالعراق » وقرأنا ما كتبه الرجل ، لعرفنا حقيقة وأهداف هذا الحصار ، فالرجل يقول : إن الحرب الأمريكية ضد العراق لم تكن حربًا ذات أهداف سياسية أو عسكرية بل هي مجزرة مقصودة ومتعمدة ، ففي القصف الأمريكي للعراق تم قتل ٢٠٠ ألف عراقي ، وجرح ٧٠٠ ألف ، وسقط فوق العراق في حرب الأسابيع الستة ما زنته ٨٨ ألف طن من القنابل وهي قوة تفجير وتدمير تعادل سبع قنابل ذرية من قنابل هيروشيما . ويقول الكاتب البريطاني : « جرب أن تحكي عن العراق وانتظر ما يحدث ، تتحدث عن مليون عراقي قتلتهم الحرب البيولوجية الأمريكية في التسعينات ، وعن آلاف الأبرياء ومئات الآلاف الذين يرغمون على شرب مياه المجاري ، وعن النساء الصامتات اللاتي يحملن أطفالهن المحتضرين ، وعن آلاف الأطفال المصابين بإصابات لا شفاء منها ، وعن الأطفال الرضع المرضى ذوي البطون المنتفخة وعن الأطفال الذين يصابون بالعمى بسبب نقص الأنسولين – وعن الملايين المحرومين من الغذاء والدواء .

ويضيف الكاتب البريطاني : « وحتى نسمة الهواء النقية جرى احتجازها خارج حدود العراق ، وأن الحصار تحول إلى حرب إبادة جماعية ، بلد بأكمله تحول إلى معسكر احتجاز وشعب بأكمله يصطف في طوابير الموت المعجل والمؤجل ١٠٠ ألف طفل في سن الخامسة يموتون سنويًا من الجوع ونقص الدواء » .

يقول الكاتب البريطاني أيضًا : « كانت قوات التحالف تحارب باسم المسيح ولنأخذ أيضًا شهادة روتها صحيفة أمريكية : لقد أحدث الإله المحب للمسيحيين مذبحة دموية ، لم يكن المسيح سوى جحيم التدمير الكامل ، الحرب الكيماوية جرى

استخدامها على نطاق واسع ، فكانت الحرب نووية بمعنى الكلمة ، وفي تقرير سري لهيئة الطاقة الذرية البريطانية يقول : إن ما خلفته قوات التحالف في ميادين الحرب يزيد على أربعين طنا من اليورانيوم ، وأن هناك ٨٠٠ طن من غبار وجزيئات اليورانيوم سوف تستمر في الهبوب على شبه الجزيرة العربية لمدى طويل جدا ، فقد تم تلويث الهواء والتربة والأنهار بكميات مفزعة من الإشعاع المسبب للسرطان ، والكارثة مستمرة لآلاف السنوات القادمة ، ومكتب السكان الأمريكي يعترف بأن معدل عمر العراقيين هبط ٢٠ سنة للرجال و١١ سنة للنساء ونصف مليون حالة وفاة بالقتل الإشعاعي » .

■ مذبحة قانا :

إسرائيل هي جزء من مشروع الهيمنة الغربي على العالم ، وهي مفرزة أمريكية متقدمة ، ربما لأن إسرائيل إفراز غربي ، فهي تحمل نفس سمات الإرهاب والعنف الغربي خاصة الأمريكي ، وهي تشبه أمريكا هنا في مسألة إبادة الشعب الأصلي « الفلسطينيين » وإقامة مجتمع استيطاني على أنقاض المجتمع الأصلي ، وجرائم إسرائيل بحق الشعب الفلسطيني بل والعرب جميعًا أكثر من أن تحصى بدءًا من دير ياسين وانتهاءً بقانا ، ولأن أمريكا هي التي صنعت مع الغرب « إسرائيل » وهي التي تموّلها وتنفق عليها ، فهي مجرد أداة في يد أمريكا ، وبالتالي فإن الجرائم الإسرائيلية هي جرائم تقوم بها إسرائيل نيابة عن أمريكا ، أي هي جرائم أمريكية أساسًا ، وإذا أخذنا جريمة مذبحة قانا مثلاً ، فهي جريمة إسرائيلية بشعة ، وبالتالي أمريكية بشعة ، ومن المعروف أن أمريكا منعت إدانة إسرائيل في الأمم المتحدة بسبب هذه الجريمة ، وبديهي أنها لم تشجب الجريمة ولا ندّدت بها ، ولا فرضت عقوبات على إسرائيل – مثل العراق وليبيا – بسببها ، لأنها هي نفسها المجرم الأصلي » .

ومجزرة قانا كانت جزءًا أصيلاً ومخططًا من عملية عناقيد الغضب التي قام بها

شيمون بيريز ضد لبنان وتم فيها ضرب البنية الاقتصادية من ماء وكهرباء وغيرهما في لبنان كما تم فيها ضرب القرى والمدن اللبنانية بلا هوادة ، ولنأخذ أيضًا شهادة « لارا مارلو » مراسلة مجلة تايم الأمريكية في بيروت في ذلك الوقت « ١٨ ابريل ١٩٩٦ » – وكانت تلك المراسلة من أوائل الذين وصلوا إلى مكان المذبحة بعد وقوعها بقليل – تقول لارا مارلو : « وجدت جثث القتلى مكدسة فوق بعضها من أيدٍ محترقة وأطراف مبتورة وسيقان ممزقة تظهر من تحت الأغطية التي ألقاها جنود قوة السلام فوق أشلاء الضحايا ، كانت بعض الجثث متفحمة ، والبعض الآخر محترقا مشوها ومعظم الضحايا كانوا من الأطفال والنساء وكانت دماؤهم في كل مكان حتى سقف الغرفة كان ملطخًا بالدماء ، وأحذية القوات الدولية كانت تغطيها الدماء ، لأنهم كانوا يبحثون بين عشرات الجثث عن المصابين الأحياء وأخذ أفراد القوات الدولية يحملون اللحم البشري في أكياس بلاستيكية سوداء وشاهدت بعيني أحد أفراد القوات الدولية يمسك في يده بطفل رضيع مقطوع الرأس ، كما رأيت سيدة لبنانية تحتضن رجلاً عجوزًا بعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة ، وكانت كتفه اليمني قد قطعت تمامًا وانفصلت عن جسده وكانت السيدة تصرخ أبي .. أبى ، وعلى طول أرضية الممر الذي يؤدي إلى الخارج كانت هناك آثار أقدام حمراء اللون ستظل ذكرى لما حدث في قانا» .

وقانا هي بلدة لبنانية تقع فيها مراكز قوة السلام الدولية ، وكان أهالي الجنوب قد لجأوا إلى مقر قوة السلام الدولية التابعة للأمم المتحدة الموجودة في بلدة قانا للاحتماء بها من القصف الإسرائيلي الوحشي على جنوب لبنان ، ولكن الإرهاب الصهيوني المدعوم بأمريكا لم يتورع عن ضرب هؤلاء المدنيين حتى في مقر الأمم المتحدة .

أمريكا في عيون هؤلاء

- ■ سياسي أمريكي
- ■ مفكر أمريكي يهودي
- ■ مفكر عربي

◆◆◆

وهويات مختلفة الأول هو الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون ، وهو لا شك من أهم السياسيين الأمريكيين وأحد أهم المطلعين على خفايا السياسة الأمريكية وربما أحد واضعي سياستها الخارجية ، وهو بهذا ليس سياسيًا فقط ، بل مفكر يؤمن بالدور الأمريكي وبالتالي يكشف عن حقيقة توجهات السياسة الأمريكية ومن خلال قراءة في كتابه « الفرصة السانحة » نستطيع أن نفهم بعض ملامح هذه السياسة وأثرها على العالم لمين العربي والإسلامي بالذات .

والثاني هو نعوم تشوفسكي وهو مفكر أمريكي ويهودي أيضًا ولكنه من أكبر الناقدين للسياستين الأمريكية والصهيونية وهو في كتابه « ماذا يريد العم سام » يتحدث عن الأهداف الرئيسية للسياسة الخارجية لأمريكا خاصة بعد الحرب العالمية الثانية وكيف أنه في سبيل تحقيقها انتهت كل ما تنادي به من مبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان وحق تقرير المصير .

والثالث هو الدكتور عبد الوهاب المسيري ، وهو من أهم المفكرين العرب الذين استطاعوا أن يقدموا رؤية تحليلية ونقدية للحضارة الغربية عمومًا والأمريكية خصوصًا ، وقد عاش في أمريكا ودرس تجربتها عن قرب بعيون مثقف مصري عربي مسلم ، وكتابه هو : « الفردوس الأرضي » دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية الحديثة .

أمريكا بعيون رئيس أمريكي أسبق :

« كتاب الفرصة السانحة » لريتشارد نيكسون .

يتضمن كتاب نيكسون الذي نحن بصدده سبعة فصول هي :

(العالم الحقيقي ، إمبراطورية الشر السابقة ، الوطن المشترك عبر المحيط الأطلنطي ، المثلث الباسفيكي ، العالم الإسلامي ، نصف الكرة الجنوبي ، تجديد

أمريكا) ... ومن خلال هذه الفصول السبعة يشرح الرئيس الأمريكي الأسبق أفكاره ويطرح آراءه فيما حدث وسوف يحدث في العالم والتحديات التي تواجه أمريكا لكي تفرض قيادتها وهيمنتها على العالم وتحقق حلمها في جعل القرن الواحد والعشرين قرنـًا أمريكيًا .

وفي الفصل الأول يحلل نيكسون أحداث العالم في السنوات الأخيرة ويصل إلى نتيجة مؤداها أن الشيوعية قد انتهت ، ولكن ليس معنى ذلك نهاية التاريخ ولا نهاية الصراعات ، وينتقد نيكسون الشعار الذي يقول به بعض الأمريكيين : إن على أمريكا أن تعود إلى بيتها بعد الانتصار الذي حققته ، ويرى أن هذا الشعار ليس صحيحا بل محض خيال ، يقول نيكسون : « لقد ثبت فشل الشيوعية ولكن الصراعات القبائلية والدينية ، القديمة قدم الأزل لا تزال مصدر كثير من الحروب والثورات » ، ويصل نيكسون إلى نتيجة مؤداها أن العصر الجديد ربما يكون أكثر عنفا من العصر الذي سبقه .

ويرى نيكسون أيضًا أن القائلين بأن القوة العسكرية لم تعد لها ضرورة ، مخطئون خطأ كبيرًا ويدعو نيكسون إلى التأكيد على استمرار التفوق العسكري الأمريكي والمزيد من القوة العسكرية ؛ لأنه إذا كانت الحرب الباردة انتهت ، فإنه ربما تنشأ حرب ساخنة في مكان آخر .

يقول نيكسون : « إن رسالة الولايات المتحدة الأمريكية الجديدة يجب أن ترتكز على موقف صلب نابع من حقائقها السياسية والجغرافية وليس على الرمال الهشة للمثالية غير الممكن تحقيقها ، إن الدول لديها مبادؤها ومصالحها ؛ ولكي تتمكن من تحقيقها يجب أن تكون لديها القوة لذلك ، بما في ذلك قوة السلاح ، لأن مصالح الأمم قد يتعارض بعضها مع البعض الآخر ، وفي حالة عدم وجود حكم يرتضيه

الطرفان فإن هذا التعارض لن تحسمه إلا الحرب . هكذا كان الوضع قبل الحرب الباردة وفي أثنائها وسوف يستمر بعدها وسوف تظل هذه القاعدة سارية طوال الحياة » .

ولا ينسى نيكسون بالطبع أن يقدم مغالطة معروفة قائلاً : « إن على أمريكا أن تقوم بدور الريادة في العالم لتنشر أفكارها ومبادئها وتكون مثلاً يحتذى بين دول العالم ، وأن أمريكا لا تملك تطلعات إمبريالية أو استعمارية تجاه الدول الأخرى » ! (علامة التعجب من عندنا) .. على أن نيكسون يعود فيعترف دون أن يدري بأنه لا مثالية في السياسة وأن على السياسة الأمريكية ألا تكون مثالية بل واقعية حتى لو كانت غير أخلاقية وأن على الحكومة الأمريكية إقناع الشعب الأمريكي بأن مصالح الولايات المتحدة الأمريكية مشروعة بصرف النظر عن تعارضها مع مصالح الآخرين ، وأنه يلزم استخدام القوة في حماية المصالح الحيوية لأمريكا . ثم يعود نيكسون فينسى المصالح قائلاً :

« إن علينا أن ننشر الفضيلة في العالم وفقًا لمعتقداتنا الدينية » ..... (ص ٢٣) .

ويقسم نيكسون مصالح الولايات المتحدة إلى درجات حسب الأولوية ، فبعضها حيوي ، وبعضها حساس ، وبعضها هامشي ، على أن الغريب في الأمر أن نيكسون جعل الدفاع عن إسرائيل من المصالح الحيوية لأمريكا .

وبالطبع ينهى نيكسون هذا الفصل بفروضه المشروطة قائلاً : « إن أنظار العالم تتجه إلى أمريكا الآن لكي تخرجه من مشاكل ما بعد الحرب الباردة ، وأنه لأول مرة في التاريخ تبدو الفرصة سانحة لكي نجعل القرن القادم عامرًا بالحرية والسلام والتقدم ، ولا توجد اليوم أي دولة خلاف أمريكا تستطيع تحقيق ذلك ، وقد حانت الآن الفرصة الصادقة لتحقيق ذلك ، ويجب علينا أن ننتهز الفرصة » .

وفي الفصل الثاني .. يتحدث نيكسون عن التحدي الذي يواجه أمريكا من الاتحاد السوفيتي السابق ، أو روسيا ودول الكومنولث حاليًا ، وفي هذا الفصل كلام كثير لا يهمنا ، ولكن فيه أيضًا ما يهمنا في إلقاء النظرة على الانتهازية الأمريكية وإصرار أمريكا على تصدير قيمها الحضارية والسياسية والاجتماعية كشرط لتقديم المعونة إلى أي دولة ، فلابد لتقديم المعونة الأمريكية إلى دولة ما أو شعب ما أن يقبل هذا الشعب مثلاً قيمه مثل السوق الحرة ، أي الرأسمالية واقتصاديات السوق وغيرها من القيم الأمريكية والغربية عمومًا ، وكذلك يمكننا فهم التكتيك الأمريكي الذي تم اتباعه مع جورباتشوف ويلتسين ، وتفضيل الأخير على الأول ، ودفع الأمور في الاتحاد السوفيتي ليس إلى التخلي عن الشيوعية فقط بل إلى تفكيك الاتحاد السوفيتي كله بل تفكيك روسيا ذاتها في المستقبل إذا أمكن وكذلك إضعافها بكل السبل دون توصيلها إلى مرحلة الموت ؛ وهي سياسة أمريكية معروفة تتلخص في دفع البعير إلى الغرق ثم انتشاله قليلاً ليتنفس ثم تركه ليغرق ثانية وهكذا ... ! على أن المثير في هذا الفصل أن نيكسون - وفي إطار حديثه عن ضرورة تقليص الإمكانيات العسكرية الروسية خاصة الصواريخ - تطرق أيضًا إلى ضرورة الحرمان التام لدول العالم الثالث الشريرة من هذه الصواريخ ومن القوى النووية برمتها ، في حين وصف بعض هذه الدول بالشريرة مثل : ليبيا والعراق وإيران وسوريا ... فإنه وصف إسرائيل بالطيبة ، وفي حين دعا إلى نزع سلاح الأولى من أي إمكانيات نووية وكذلك من القدرات الصاروخية غير النووية فانه لم يدع إلى الشيء نفسه بالنسبة لإسرائيل ، وليس مصادفة مثلاً أن تكون القوى والدول الشريرة التي ذكرها نيكسون وهي : ليبيا والعراق وإيران وسوريا كلها دولا إسلامية . على أي حال ، هذا الأمر يكشف عن ازدواج المعايير الأمريكية بين

العرب والمسلمين وبين اليهود .

على أن من الجدير هنا أن نسجل لنيكسون صدقه ولو لمرة واحدة حين اعترف بفضل الجهاد الأفغاني في إسقاط الشيوعية والاتحاد السوفيتي حين قال : « إن شجاعة واستبسال المقاومة الأفغانية كانت من أهم الأسباب التي أدت إلى انهيار الإمبراطورية السوفيتية في أوربا الشرقية ، فقد رأت هذه الشعوب ، عندما فشل الجيش السوفيتي في الانتصار على المقاومة الأفغانية أن الفرصة قد سنحت لها وأن الكرملين ليس لديه العزم الكافي للسيطرة على الإمبراطورية السوفيتية » .

ولعل دور الجهاد الأفغاني في إسقاط الإمبراطورية السوفيتية وانهيار الشيوعية أمر لا ينكره إلا مكابر بعد أن اعترف به نيكسون نفسه ، ولعل هذا ما يؤكد بركة وقيمة الجهاد كقيمة إسلامية عظيمة كفيلة بتحرير الشعوب الإسلامية وانتزاع حقوقها واسترداد كرامتها بل التأثير في مجريات الأحداث الكونية ومستقبل النظام العالمي بأسره ، وهو ما يؤكد أننا إذا استعدنا هذه القيمة « الجهاد » لأمكن لنا الانتصار في معركتنا الحضارية الحالية والمستقبلية ولأمكننا أن نحقق سيادة الإسلام وقيمه على العالم كله بإذن الله .

وقد يقول قائل : إن الجهاد الأفغاني انتصر مثلاً بفضل الدعم الأمريكي نكاية في السوفييت ، ولكن هذا القول يفتقر إلى الموضوعية ، لأن هذا الدعم الأمريكي كان محدودًا جدًا . وحتى لو كان كبيرًا فإنه لا يمكن لأي دعم خارجي أن يحقق نتائج ملموسة على أرض الواقع ، لأن الفيصل في هذه المسائل هو قوة المقاومة بشريًا وسياسيًا وعسكريًا ، ولعل الدعم الأمريكي المزعوم لو كان حاسمًا لكانت فرصة المجر أو تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٥٦ ، ١٩٦٨ أكبر لأن المواجهة مع الروس كانت في هاتين الحالتين تستند إلى نظامين للحكم يمتلكان مؤسسات وإمكانيات دولها في

حين أن الجهاد الأفغاني لم يكن يمتلك إلا الجماهير وإرادة القتال في مواجهة الاتحاد السوفيتي السابق ومواجهة نظام حكم يملك ولو بالقمع إمكانيات الدولة الأفغانية .

وفي الفصل الثالث يؤكد نيكسون على حقيقة معروفة ، وهي أن الولايات المتحدة الأمريكية جزء لا يتجزأ من الحضارة الأوروبية بكل قيمها وتراثها ، بل إنه استخدم عنوانًا لهذا الفصل يؤكد ذلك وهو : « الوطن المشترك عبر المحيط الأطلنطي » . كما أنه ختم الفصل بقوله : « علينا أن نسعى لبناء وطن مشترك عبر الأطلنطي من كاليفورنيا حتى كمشاته » . ، ويقول نيكسون أيضًا : « إن القيم الحضارية الغربية حضارة واحدة في أمريكا وأوروبا » ، بل وفي أوروبا الشرقية التي تحررت من الشيوعية أخيرًا ، فإنه يجعل أمريكا بالطبع هي قائدة هذه المجموعة والمسئولة عن حماية هذه الحضارة ونشر تلك القيم ويحذر طبعًا من إمكانية أن تكون أوروبا الموحدة تحديًا كبيرًا للانفراد الأمريكي بالقيادة والقوة ، وهو يدعو إلى عدد من الإجراءات والسياسات التي تحول دون أن تكون أوروبا الموحدة قوة منافسة أو بديلة لأمريكا وأن تظل أمريكا هي القوة الكبرى والقائدة الوحيدة إذا أمكن .

ولعله قد يتبادر إلى ذهن البعض أن هناك تناقضا في كلام نيكسون ، فكيف يتحدث عن وحدة حضارية وقيمية بين أوروبا وأمريكا ويحرص في الوقت نفسه على أن تظل أوروبا أضعف من أمريكا ، ولكن كلام نيكسون هنا متسق مع نفسه بل مع كل القوانين التاريخية والاستراتيجية ، لأنه إذا كان هناك ناقض جوهري بين الحضارة الغربية ككل بما فيها أوروبا وأمريكا وبين الحضارات الأخرى خاصة الحضارة الإسلامية وأن قوى الحضارة الغربية تسعى لابتلاع وتدمير الحضارات الأخرى ، فإن هذا لا يمنع من وجود تناقضات ثانوية قوية أو ضعيفة بين قوى الحضارة الغربية بعضها مع البعض ، ولكن يجب علينا أن ندرك أنه مهما كانت هذه التناقضات بين قوى

الحضارة الغربية قوية فإنها تظل في إطار التناقضات الثانوية وأنها تتلاشى سريعًا بمجرد ظهور التناقض الجوهري ، فهذه القوى تنسى خلافاتها سريعًا تجاه المسلمين مثلاً .

وفي الفصل الرابع ، يتحدث نيكسون عن مستقبل العلاقات الدولية في المثلث الباسيفيكي الذي يضم روسيا والصين واليابان ، وبالطبع يدعو ويخطط لأن تكون الولايات المتحدة الأمريكية هي القائدة والمهيمنة في هذا المثلث ، فهو يلمح إلى الخلافات والصراعات والحروب بين دول هذا المثلث ويلوح بإمكانية استخدامها لإضعاف هذا المثلث ووقوعه بالكامل في الهيمنة الأمريكية ، كما يقدم نيكسون رؤيته لكيفية إدارة العلاقة مع المارد الاقتصادي الياباني وكيفية ترويضه لصالح أمريكا ، وكذلك عن المارد البشري الصيني وكيفية اختراقه والقضاء على الشيوعية فيه والسياسة الأمريكية التي يراها مناسبة لذلك ، ويخلص نيكسون إلى القول : « إن الولايات المتحدة الأمريكية هي الوحيدة التي تملك تأثيرًا محسوسًا على الدول التي تقع على طرفي المحيط الباسيفيكي ، والذي يمكن أن يؤدي إلى التوازن والاستقرار بين الدول في هذه المنطقة » . ويقول أيضًا : « يجب أن يكون وجودنا في الباسيفيكي بحجم كاف يمنع وجود فراغ أمني في المنطقة » . ويضيف : « بالرغم من أن علينا أن نتجنب الظهور بمظهر المحرك للأحداث في منطقة الباسيفيكي إلا أن لدينا دورًا يجب أن نقوم به ، فالولايات المتحدة هي الوحيدة التي لها القدرة على أن تحفظ توازن القوى في المنطقة ، وهذا هو الشرط الأساسي للتقدم والازدهار » .

وفي الفصل الخامس ، الذي جاء تحت عنوان « العالم الإسلامي » — وهو أهم وأخطر فصل في الكتاب باعتباره يمسنا كمسلمين ، ويشكل رؤية أمريكيا لمستقبل العلاقة مع الإسلام — يطرح نيكسون عددًا من الأفكار والتصورات حول الإسلام ، كما أنه يرسم الاستراتيجية التي ينصح الغرب باتباعها إزاء العالم الإسلامي .

وعلى أي حال ، فإن نيكسون قد قال العديد من الحقائق ولكنه أراد بها باطلا ، كما أنه أورد العديد من المغالطات حول العالم الإسلامي .

بداية ، يعترف نيكسون : « بأن الإسلام ليس مجرد دين ، بل هو أساس لحضارة كبرى ، نحن نتكلم عن العالم الإسلامي كوحدة واحدة ليس بسبب وجود لجنة مركزية إسلامية تدير سياسة المسلمين في العالم ، ولكن لأن الدول الإسلامية تجمعها تيارات سياسية وثقافية واحدة نابعة من الحضارة الإسلامية ككل ، وتسري هذه التيارات في جميع البلدان الإسلامية بصرف النظر عن الاختلافات بين هذه البلاد وبعضها .. ويعترف نيكسون أيضًا : « بأنه بينما كانت أوروبا ترتع في غياهب العصور الوسطى كانت الحضارة الإسلامية في أوج ازدهارها ، لقد أسهم الإسلام كثيرًا في تقدم العلم والطب والفلسفة ، وينقل نيكسون عن وبل ديورانت في كتابه « عصر الإيمان » : «أن المسلمين قد أسهموا إسهامًا فعّالا في كل المجالات ، فكان ابن سينا من أكبر العلماء في الطب ، والرازي أعظم الأطباء ، والبيروني أعظم الجغرافيين ، والحسن بن الهيثم أكبر علماء البصريات وجابر بن حيان أشهر الكيميائيين ، وكان العرب روادًا في التربية والتعليم ، فقد قال ديورانت في هذا الشأن : إنه عندما تقدم روجر بيكون بنظريته في أوروبا بعد ٥٠٠ عام من ابن جبير قال إنه مدين بعلمه إلى المغاربة في أسبانيا الذين أخذوا علمهم من المسلمين في المشرق » . ويضيف نيكسون : « وعندما ظهر النوابغ والعلماء في عصر النهضة الأوربي ، فإن نبوغهم وتقدمهم كان راجعًا إلى أنهم وقفوا على أكتاف العمالقة من العالم الإسلامي » .

ويعترف نيكسون أيضًا :

« بإن الشعوب الإسلامية جميعها تفخر بعراقتها وتاريخها وأن الإسلام قد وقف بصلابة ضد الشيوعية أقوى كثيرًا مما وقفت المسيحية ضدها ، وأنه كان للوزاع

الديني الإسلامي في الدول الإسلامية أكبر أثر في عدم تغلغل السوفييت في العالم الإسلامي » .

ويقول نيكسون : « إن المسلمين يزيدون على المليار نسمة ، ويعيشون في ٣٧ دولة من دول العالم ، وينتمون إلى ١٩٠ جنسية ويتكلمون مئات اللغات واللهجات وهذا مصدر قوة كبير لهم ، وأنهم يسيطرون على معظم البترول الموجود في العالم ويتمتعون بخصوبة هائلة في مجال النسل ومن المتوقع تضاعف عددهم في غضون عشرين عامًا .

وأنهم يعيشون في أرض يبلغ طول أضلاعها عشرة آلاف مليون ميل وتمتد من مراكش إلى يوغسلافيا ، ومن تركيا إلى باكستان ، ومن جمهوريات آسيا الوسطي إلى اندونيسيا ، كما يوجدون في الصين والهند والاتحاد السوفيتي السابق » .

وإذا كان نيكسون يعترف بهذه الحقائق ، فليس ذلك من قبيل مدح الإسلام والمسلمين ولكن ليدق جرس الخطر وينذر الغرب والأمريكيين بأنهم يتعاملون مع قوة لا يستهان بها ليست مثل باقي القوى التي تحدث عنها من قبل ، ولكنها قوة تمتلك التاريخ والجغرافيا والحضارة والموارد والسكان ، أي أنها تمثل تحديًا حضاريًا كبيرًا على الغرب وأمريكا .

ويعبر نيكسون عن هذا الأمر قائلاً : « هذه الإنجازات تبين ما كان عليه العالم الإسلامي في الماضي ، وكذلك تبين ما يمكن أن يكون عليه في المستقبل إذا توقفت الحروب بين المسلمين وتوقف عدم الاستقرار السياسي » ... ونيكسون من هنا يضع أولى خططه الاستراتيجية لمنع قيام الإسلام بتحدي الغرب ؛ وهي إزكاء الحروب بين المسلمين وعدم توقفها ، وكذلك استمرار عدم الاستقرار السياسي في العالم الإسلامي » .

ثم يكشف نيكسون عن نفسه أكثر قائلاً : « ويحذر بعض المراقبين من أن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليتيكية متطرفة وأنه مع التزايد السكاني والإمكانيات المادية المتاحة سوف يشكل المسلمون مخاطر كبيرة وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدواني للعالم الإسلامي ويزيد هذا الرأي بأن الإسلام والغرب متضادان وأن نظرة الإسلام للعالم مقسمة إلى قسمين « دار الإسلام » و « دار الحرب » حيث يجب أن تتغلب الأولى على الثانية وأن المسلمين يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب وعلى الغرب أن يتحد ليواجه هذا الخطر الداهم بسياسة واحدة » .

ثم يبدأ نيكسون في وضع تفصيلات خطته لترويض هذا المارد وإخضاعه للهيمنة الأمريكية ، فيبدأ بالقول : « يتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة ودمويون وغير منطقين ، ويتذكر هؤلاء الأمريكيون ثلاث حروب قامت بها الدول العربية لمحو إسرائيل ويتذكرون أيضاً احتجاز الرهائن الأمريكيين في طهران ، وهجوم الإرهابيين على القرية الأوليمبية في ميونيخ والعمليات الفدائية ضد المارينز في لبنان وتفجير الطائرات المدنية » .

« ولكن ليس كل المسلمين إرهابيين ، فهناك مثلاً – والكلام لا يزال لنيكسون – كثير من الساسة في الدول الإسلامية لا تزيد علاقتهم بالإسلام على علاقتهم بمُثله وتقاليده وعادته !!! ... ونيكسون هنا يحقق أكثر من هدف في خطته ، فهو يوضح للأمريكيين ضرورة تشجيع الاتجاهات المعتدلة والتي لا علاقة لها بالإسلام في العالم الإسلامي ، والتي ترفض الإرهاب ، وهو في الوقت نفسه يفتح الباب لهذه القوى لكي تزيد من اعتدالها حتى يرضى عنها الأمريكان ، وينسى نيكسون أو يتناسى هنا أن هذا الإرهاب ما هو إلا جهاد وأن هؤلاء الذين شنوا الحرب على إسرائيل أو

قاوموا الوجود الأمريكي في لبنان أو طاردوا الإسرائيليين في ميونيخ لم يكونوا إلا مجرد مدافعين عن أنفسهم فإسرائيل هي التي احتلت فلسطين ولم تذهب فلسطين إلى اليهود في بلادهم مثلاً ، والعرب الذين شنوا حربًا على إسرائيل كانوا في الواقع يدافعون عن أنفسهم ، وهؤلاء الذين احتجزوا الرهائن في طهران أو طاردوا الإسرائيليين في ميونيخ أو قاوموا التدخل الأمريكي والأوروبي في لبنان كانوا أيضًا يدافعون عن أنفسهم وكانت قضيتهم عادلة .

إن المسألة في تقدير نيكسون وتقدير الغرب هو أن على المسلمين أن يتخلوا عن دينهم ، أو على الأقل عن الجهاد ويتعاملوا مع الإسلام بمنطق تعبدي فقط ، أي أن يستكينوا للتدخل الأمريكي والإسرائيلي وألا يدافعوا عن أنفسهم تجاه العدوان الأمريكي والإسرائيلي وأن يقبلوا طواعية الاندماج في قيم الحضارة الغربية ويتخلوا عن قيمهم الذاتية ، ولعل هذا يتضح من خلال تقسيم نيكسون للمسلمين إلى سنة وشيعة وصوفية مع أن الصوفية ليست طائفة بل هي موقف ، إنما نيكسون هنا يريد للموقف الصوفي الذي يقطع صلة المسلم بالحياة والجهاد أن يكون هو الأصل فيجعله نيكسون عن علم أو عن جهل طائفة إسلامية ثالثة تستحق الدعم والتشجيع الغربي ، وكذلك في تصنيف نيكسون للقوى السياسية في العالم الإسلامي إلى أصوليين ورجعيين وتقدميين ، والأصوليون ند نيكسون هم المصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وينادون بأن الإسلام دين دولة ويحتدون بشدة على الغرب [1] ، على الرغم من أنهم

(١) وهل هناك مسلم لا يريد استرجاع الحضارة الإسلامية ولا يهدف إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ولا يرى أن الإسلام دين ودولة ؟ أما مسألة الحقد على الغرب فبسبب تجاربنا المريرة معه ، وبالتالي فمن المفروض أن يكون كل المسلمين أصوليين يا مستر نيكسون .

ينظرون إلى الماضي فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل فهم ليسوا محافظين ولكنهم ثوار »[1] .

والرجعيون حسب تعريف نيكسون هم الدكتاتوريون الذين يؤمنون بالحزب الواحد ، أما التقدميون فإن نيكسون يقول عنهم : « هذه المجموعة نشاطها محسوس ولكن قل أن تشعر بوجودها ، وهي تسعى إلى ربط المسلمين بالعالم المتحضر من الناحية السياسية والاقتصادية وتتميز هذه المجموعة بالمرونة ولا ينعتون الغرب بأنه ملحد » .

وبالطبع هذه المجموعة التي تدعو إلى ربط المسلمين بالغرب ، أي إفقادهم تميزهم الحضاري وخضوعهم للغرب بحكم توازنات القوة حاليًا هي المجموعة المرشحة لدى نيكسون لتلقي الدعم والتشجيع من الغرب . يقول نيكسون في هذا الصدد : « يجب علينا أن نعاون التقدميين في العالم الإسلامي ففي ذلك مصلحتنا ، فهم يحتاجون لأن يعطوا أنصارهم بديلاً لأيديولوجية الأصوليين المتطرفين[2] وانغلاق الرجعيين » .

ويضيف نيكسون : « إن مفتاح السياسة الأمريكية يكمن في التعاون الاستراتيجي مع المسلمين التقدميين فقط[3] ، وأنه يجب أن يغطي تعاوننا جميع المجالات الاقتصادية والأمنية[4] .

(١) لعل هذه الفقرة تثبت عدم دقة نيكسون وعدم دقة استعمال مصطلح الأصولية لوصف المسلمين الثوار .

(٢) أي استبدال الأيديولوجية الإسلامية بالأيديولوجية الغربية !

(٣) أي المسلمين الذين لا يؤمنون بالأيديولوجية الإسلامية ولا القيم الحضارية الإسلامية ولا يريدون استعادة مجد الإسلام ولا تطبيق الشريعة الإسلامية وينفذون كل مطالب الغرب ولو على حساب شعوبهم .

(٤) هل الأمنية هنا تعني الاحتلال العسكري أم تعني المشاركة في ضرب الأصوليين ؟

ولا ينسى نيكسون طبعًا التأكيد على نقطتين في استراتيجيته مع العالم الإسلامي وهما : استمرار اختلاف المسلمين وعدم وحدتهم ومحاولة تحديد نسلهم !

على أن من الطريف أيضًا أن نيكسون لا يمانع في أن يقوم هؤلاء الموالون لأمريكا في العالم الإسلامي بشتم أمريكا علنا إرضاء لشعوبهم وتهدئة لها بشرط أن يظل سلوكهم وسياستهم لصالح أمريكا ، يقول نيكسون : « علينا أن نتقبل في بعض الأحيان رفض أصدقائنا في العالم الإسلامي لبعض تصرفاتنا التي تسبب لهم حرجًا سياسيًا في بلادهم ، فعندما ألقت الولايات المتحدة القنابل على ليبيا انتقاما منها لمهاجمة بعض الجنود الأمريكيين قام كثير من الزعماء في المنطقة بلعننا على الملأ ، وبالثناء علينا في سرهم ، فيجب ألا يزعجنا أن تضطر الظروف أصدقاءنا أن يتفوهوا ببعض السباب ضدنا » !!!

وفي مسألة تسليح المنطقة أو نزع سلاحها ، ينصح نيكسون أولاً بمد الدول الإسلامية بالأسلحة التي لا قيمة لها ؛ لسببين : أولهما : الحصول على أموال تلك الدول ، وثانيهما : منعها من محاولة تصنيع السلاح بنفسها لأنها قد تلجأ إلى ذلك بنفسها أو بالتعاون مع دول أخرى في حالة حظر السلاح عليها تمامًا ... أما بخصوص الأسلحة الاستراتيجية سواء النووية أو الجرثومية أو الكيميائية أو حتى الصواريخ التقليدية فإنه يجب – في رأي نيكسون – أن تمتنع أمريكا والغرب عن مد الدول الإسلامية تمامًا بها (١) . ، وينصح نيكسون بتقديم السلاح إلى إسرائيل ومحصلة هذا بالطبع أن تصبح إسرائيل هي القوة العسكرية الوحيدة في المنطقة .

وبخصوص إسرائيل والصراع العربي الإسرائيلي يقول نيكسون : « إن التزاماتنا

(١) يصف نيكسون دولا مثل ليبيا والعراق وإيران وسوريا والجزائر بأنها دول شريرة تسعى للحصول على السلاح النووي ! وينسى نيكسون أن إسرائيل حصلت بالفعل على هذا السلاح .

تجاه إسرائيل عميقة جدا ، فنحن لسنا مجرد حلفاء ، ولكننا مرتبطون ببعضنا بأكثر مما يعنيه الورق ، نحن مرتبطون معهم ارتباطًا أخلاقيًا ، إن إسرائيل ليست مكسبًا استراتيجيًا للولايات المتحدة ، بخلاف الرأي السائد في هذا الشأن . إن تعاوننا في أجهزة المخابرات والمناورات الحربية مهم ولكنه ليس حيويا ، ولكن التزامنا تجاه إسرائيل هو ميراث حضاري ، وأي رئيس أمريكي لن يسمح بتدمير دولة إسرائيل » .

وهذا الكلام الخطير من نيكسون يعني أن التحالف بين إسرائيل وأمريكا ليس مجرد تحالف مصلحة ولكنه تحالف بين الحضارة الغربية واليهود على حساب الإسلام طبعًا ، وهذا ما يؤكد النبوءة القرآنية التي تقول بأن هذا التحالف سيقع يومًا ما ... ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ ، وموالاة اليهود والنصارى لم تحدث إلا منذ عهد قريب ولكنها الآن أصبحت إحدى الركائز في السياسة الدولية ، وحتى الفاتيكان برأت اليهود من دم المسيح حسب معتقدهم كما أنها أعلنت أنها لا تمانع في كون القدس عاصمة لإسرائيل ، ومن المعروف أن هناك اتجاها مسيحيا بروتستانتيا يرى بوجوب دعم إسرائيل كواجب ديني لإقامة دولتها من النيل إلى الفرات ؛ لأن هذا هو أحد شروط ظهور المسيح .

ولكن نيكسون يرى أن من الضروري إقامة سلام بين العرب وإسرائيل ، وأن الفرصة سانحة الآن لتحقيق ذلك ، لأن العرب ضعفاء ومنظمة التحرير ضعيفة وروسيا مشغولة بترتيبات بيتها من الداخل ، ويرى نيكسون أن السلام بين العرب وإسرائيل ضروري لهما وضروري لأمريكا لأنها تحمل العبء الأكبر في الخلاف بين العرب وإسرائيل لأنها تمتلك علاقات اقتصادية ومصالح مع العرب والتزام أخلاقي تجاه إسرائيل وأن الصراع بين العرب وإسرائيل يكلف أمريكا كثيرًا كما أن

تأخير حل المشكلة سيقوى من نفوذ الأصوليين في البلاد العربية خاصة المجاورة لإسرائيل !!! .

وفي نهاية هذا الفصل الخطير ، يطرح نيكسون رأيًا غاية في الخبث والخطورة قائلاً : « إن الحقبة القادمة سوف تكون حقبة بناء وتعاون لا حقبة صراعات وهدم » .

ولا ندرى كيف يكون هناك تعاون بين الظالم والمظلوم ، وبين حضارة تقوم على النهب والقهر والعنف ، وحضارة تنادي بالتحرير والانعتاق والعدل ، اللهم إلا إذا كان المطلوب منا أن نستسلم لسكين الجزار .

وفي الفصل السادس الذي جاء تحت عنوان « نصف الكرة الجنوبي » يتحدث نيكسون عن سوء الأحوال الاقتصادية والمعيشية في عالم الجنوب الذي يحدده نيكسون بأن الدول النامية في أفريقيا وأمريكا اللاتينية وشرق آسيا وجنوبها .

ويغالط نيكسون ويكذب حين يقول : « إن الغرب ليس هو السبب في المجاعة وسوء التغذية والأمراض التي تصيب الدول الفقيرة » .

وينسى نيكسون أن عمليات النهب والقهر والاستعباد وجلب الموارد والعبيد أثناء فترة الاستعمار كانت هي السبب في تخلف دول الجنوب ، وأن الرخاء الذي ينعم به أهل الشمال ما هو إلا دماء وثروات أهل الجنوب .

وبالطبع يحدثنا نيكسون عن الواجب الأخلاقي الأمريكي في مساعدة نصف الكرة الجنوبي إلا أن نيكسون ينسى نفسه ويعود فيضع تصورًا لهذه المساعدة يحقق فائدة للشمال أولاً : فهو يرى أن هناك مصلحة اقتصادية واستراتيجية كبيرة ومهمة لذلك تتمثل في المحافظة على استمرار تدفق البترول والخامات من تلك الدول ، الأمر الذي يستلزم شيئًا من المساعدة حتى لا تحدث ثورات متطرفة في تلك الدول تمنع الغرب من الحصول على الخامات اللازمة له ، وكذلك فإن نيكسون يرى أن

مساعدة الجنوب ستعود بالفائدة على الغرب ؛ لأنها سوف تزيد صادرات الولايات المتحدة بما قيمته ٣ تريليونات دولار [1] مما يعطيهم الحيوية في نشاطهم الاقتصادي ويفتح مجالا للعمل أمام الأمريكيين . ويعبر نيكسون عن ذلك قائلاً :

« إن مزيدًا من التقدم الاقتصادي في الدول المتأخرة يعني مزيدًا من المال في جيوب الأمريكيين » !!

ويستمر نيكسون في مناقشة فوائد مساعدة الجنوب بالنسبة لأمريكا قائلاً :

« إن عدم التوازن في مكان يبعد عنا بنصف محيط الكرة الأرضية له تأثير عميق هنا في بلدنا ، ومثل هذه الصراعات يمكن أن ينتج عنها اضطرابات في تدفق البترول أو غيره من المواد الأولية مما يكون له أثر عميق على أمننا الداخلي ، بل إن مسيراتنا الاقتصادية يمكنها أن تقع أسيرة لتصرفات عدوانية » .

ويضيف نيكسون : « ما لم نتبنى تطوير الاقتصاد في الدول المتخلفة فسوف تزدحم حدودنا باللاجئين هربا من الاقتصاد المتعثر في بلادهم للبحث عن فرص عمل عندنا .. ولو أدرنا ظهورنا لهذه المشكلة اليوم فسوف نجد هؤلاء العمال يطرقون أبوابنا بعنف غدًا » .

وفي الفصل السابع والأخير ، يقدم لنا نيكسون أمريكا بطريقة براقة لتكون قائدة العالم بلا منازع قائلاً : « أمريكا لديها دور مهم تقوم به في هذا العالم ولا يمكن أن تقوم به أي دولة أخرى ، ربما تستطيع إحدى الدول أن تحل محلنا من الناحية العسكرية ، وقد يصل البعض إلى ما وصلنا إليه اقتصاديًا ، ولكن ليس هناك إلا الولايات المتحدة التي تملك القوى العسكرية والسياسية والاقتصادية لتقود العالم في طريق الحرية ، ومقاومة الاعتداء ، والأهم من ذلك أن تأثيرنا لا ينبع فقط من

(١) التريليون هو ألف بليون ، أي مليون مليون .

القوتين العسكرية والاقتصادية ، ولكن أيضًا من الإعجاب بمبادئنا ومثلنا ، فنحن البلد الوحيد في تاريخ العالم الذي رفع اسمه بقوة مبادئه وليس بقوة سلاحه » .

وفي الحقيقة فإن نيكسون هنا يصل إلى درجة لا تطاق من الكذب والنفاق ، فالحقيقة أن اسم أمريكا لم يرتفع بقوة مبادئها بل ارتفع على جماجم الشعوب ونهب ثرواتها ، وإعجاب نيكسون بمبادئ ومثل الولايات المتحدة جعله ينسى أنها قامت أساسًا من خلال جريمة إبادة شعب أمريكا الأصلي وهم الهنود الحمر ، فالذين أقاموا أمريكا من أجداده ذبحوا ما لا يقل عن ١٠٠ مليون هندي وهو عدد لو ترك حتى الآن لكان يساوي ٥٠٠ مليون على الأقل ، أي أن كل فرد في أمريكا الآن لكي يوجد فيها جاء على جثة شخص من الهنود الحمر ، ومبادئ الحرية وعدم الاعتداء التي يتحدث عنها نيكسون تتجاهل بالطبع ما قامت به أمريكا من عشرات الاعتداءات على لبنان وجرينادا وفلسطين من خلال دعم اليهود والاعتداء على ليبيا والعراق وبنما والقائمة طويلة جدًا .

على أي حال يعود نيكسون فيرسم خططه لتحقيق هدف أمريكا في الانفراد النهائي بقيادة العالم ، ويقول : إن على أمريكا أن تجدد قوتها حتى تستطيع ذلك وينصح الأمريكان بالابتعاد عن العزلة وضرورة التصدي لمهمتهم الحضارية في قيادة العالم .

ويذكر نيكسون الكثير من المغالطات حول الدور الأمريكي في تحرير العالم ويذكر الأمثلة على ذلك ! ثم يتباهى قائلاً : « إننا مثاليون ، والمثالية [١] كانت دائمًا مصدر قوتنا وفي الوقت نفسه نقطة ضعفنا ، وقد كانت مثاليتنا هي السبب الرئيسي في تأرجح سياستنا الخارجية بين الدفاع المستميت عنها أو الابتعاد والانعزال عن

---

(١) مثالية ازدواج المعايير !

العالم الخارجي لولا أننا كنا مضطرين لمجابهة الأمر الواقع وعندما امتزجت مثاليتنا بالحقائق المجردة فإنها تركت سجلاً [1] في قيادة العالم لم تتركه دولة في الحاضر أو في الماضي » .

ثم يفرك نيكسون يديه فرحًا قائلاً : « إن انهيار الشيوعية يمثل أقصى انتصار للمبادئ الأمريكية » [2] .

ويحدد نيكسون أن المطلوب من العالم إتباع أمريكا قائلاً :

« هل تستطيع الولايات المتحدة أن تقوم بدور القيادة للعالم ؟ » ويجيب قائلاً : « الجواب بكلمة واحدة وهي نعم .. ويمكن للعالم أن يتتبع خطانا » ..

ويحدد نيكسون القيم الأمريكية بأنها جزء من القيم الحضارية الغربية قائلاً :

« إن الحضارة الغربية ليست شكلاً ظاهريا فقط ولكنها أسلوب ... إنها الأسلوب الذي نتجه به إلى آفاق الحرية والابتكار وتحقيق الأهداف » . ويكذب نيكسون مرة أخرى قائلاً : « تمثل أمريكا ثلاث قيم لها أهمية كبرى هي الحرية ، الفرصة المتاحة ، احترام الإنسان لذاته » .

ثم يختم نيكسون كتابه قائلاً :

« نحن لسنا مجرد ركاب في قطار التاريخ بل نحن قادته ولدينا الفرصة لنشكل قرنا أمريكيا ثانيًا ، علينا أن ننتهز الفرصة ليس فقط لأنفسنا ولكن أيضًا لغيرنا » .

■ ■ ■

(١) انهيار الشيوعية جاء بسبب فسادها ولا يعني صلاحية المبادئ الأمريكية بل يعني ضمنا فسادها أيضًا لأنهما نبتا من نفس الأرضية الثقافية وهي الأرضية الثقافية للحضارة الغربية .

(٢) السجل حافل بالجرائم يا عم نيكسون !

■ جرائم أمريكا في هذا الزمان :

أمريكا كما يراها مفكر أمريكي

كتاب « ماذا يريد العم سام »

نعوم تشومسكي

أمريكا كما يراها مفكر أمريكي

كتاب « ماذا يريد العم سام »

نعوم تشوميسكي

◆◆◆

الإطلاق ، وهو عالم لغويات مرموق وأستاذ جامعي متميز ، وتدرس أبحاثه في العديد من الجامعات داخل أمريكا وخارجها ، وبرغم أنه أمريكي الجنسية ، إلا أن له موقفًا نقديًا ومعارضًا للممارسات والسياسات الأمريكية على مستوى العالم .

وهو أيضًا – وهذا أمر مثير للاهتمام – يهودي الديانة ، ولكنه أيضًا من أعلى الأصوات داخل أمريكا وخارجها انتقادا للسياسة الإسرائيلية .

ولا يعنينا بالطبع هنا مناقشة موقف الرجل من إسرائيل ، وإن كان موقفًا يستحق الاهتمام في مكان آخر ، ولكن يعنينا هنا أنه شهادة على أمريكا من أهلها .

والكتاب الذي نحن بصدده هو كتاب « ماذا يريد العم سام » ، وهو من إصدارات دار الشروق – القاهرة عام ١٩٩٨ .

والكتاب يضم أربعة أبواب وهي :

الأهداف الخارجية للسياسة الأمريكية ، التدمير في الخارج ، غسيل المخ ، المستقبل .

ويرصد نعوم تشومسكي عددًا من الوثائق عن الساسة الأمريكيين ، مخططي سياسة الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية .

فرئيس مخططي وزارة الخارجية الأمريكية حتى عام ١٩٥٠ « جورج كينان » كتب في مذكرة رقم ٢٣ سنة ١٩٤٨ الخاصة بالتصور الأمريكي لتشكيل عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية يقول : « عندنا ٥٠ ٪ من ثروات العالم ، وفقط ٦,٣ ٪ من سكانه وبمثل هذا الوضع فإن مهمتنا الحقيقية في الفترة القادمة هي ترتيب نموذج للعلاقات يحافظ على استمرار ذلك التفاوت ولتحقيق ذلك سيكون علينا التخلي عن العواطف والأهداف المبهمة مثل حقوق الإنسان ورفع مستوى المعيشة والتحول للديموقراطية ، ولن يكون اليوم الذي نضطر فيه للتعامل بمنطق القوة

بعيدًا » .

وعلى المنوال نفسه نبه كينان إلى الوسائل التي يتعين استخدامها فقال :

« علينا ألا نتردد إزاء استخدام الحكومة المحلية لشرطتها لسلاح القمع ، فليس في ذلك ما يسبب الخجل » .

ويعلق تشومسكي على ذلك قائلاً : « بناء على ذلك المضمون العملي مع مسائل أخرى غزا الرئيس ويلسون هايتي وجمهورية الدومينكان فقتل محاربوه وخربوا ودمروا النظام السياسي وأحكموا قبضة المؤسسات الأمريكية على البلدين وهيأوا المسرح السياسي في كل منهما لدكتاتورية وحشية فاسدة » .

ونستمر مع جورج كينان ليرسم لنا رؤية أمريكا الاقتصادية للعالم حيث يقول : « على الدول الصناعية مثل ألمانيا واليابان أن تصبح الورش العظيمة للعمل تحت إشرافنا ، أما دول العالم الثالث فعليها أن تكون مصدر إمداد لنا بالخامات وتمثل أيضًا أسواقًا لبيع المنتجات المصنعة وأن تستغل أيضًا لإعادة بناء أوروبا واليابان » .

ويرصد تشومسكي العديد من الممارسات الأمريكية المعادية للديمقراطية ، فالولايات المتحدة تكفلت - بنفسها - بالقضاء على القوى المعادية للفاشية ، بل واستخدمت الفاشيين والنازيين في تمرير سياستها ، فعين الرئيس روزفلت مثلاً عام ١٩٤٢ الأدميرال الفرنسي « جان دارلان » حاكمًا عامًا على شمال أفريقيا الفرنسي ، وهذا الجنرال هو من المتعاونين مع النازي ، وفي إيطاليا تم فرض حكومات استبدادية مباشرة ، أو تم التلاعب في الانتخابات ، وفي اليونان دعمت الولايات المتحدة حربًا راح ضحيتها ١٦٠ ألف قتيل لفرض نظام حكم فاسد ، وكذلك اتبع ريجان النموذج نفسه في أمريكا الوسطي وأماكن أخرى ، ويمكن أن نرصد الممارسات الأمريكية الداعمة للفاشية والدكتاتورية في كل من كوريا وفنزويلا

وكولومبيا وجواتيمالا ، وبفضل دعم الولايات المتحدة الأمريكية للمتعاونين مع النازي سابقاً، فإن هؤلاء أصبحوا مستشارين عسكريين لحكومات الدول البوليسية التي أقامتها الولايات المتحدة الأمريكية في أمريكا اللاتينية على غرار الرايخ الثالث ، بل وأصبحوا جزءًا من تجارة المخدرات والسلاح بإشراف أمريكي مباشر في تلك المناطق .

ويقول نعوم تشومسكي : « إن الولايات المتحدة الأمريكية اعتبرت أن التهديد الرئيسي لنظام العالم الجديد تحت قيادة أمريكا يأتي من الوطنيين في العالم الثالث ومن الأنظمة الوطنية التي تريد تحسين مستويات المعيشة وتلبية رغبات شعوبها ، وأكد المخططون للسياسة الأمريكية على ضرورة منع وصول الوطنيين إلى السلطة وإذا ما وصلوا يتم عزلهم وتنصيب حكومات عميلة تفضل الاستثمار الأجنبي ، بل يجب التحالف مع العسكريين الموالين لأمريكا لسحق أية نزعات وطنية ، وفي دراسة صادرة عن معهد لندن للشئون الدولية عن نظام العلاقات الأمريكية الدولية فإن الولايات المتحدة تلتزم حقيقة بمصالحها ، وهي عندما تتعرض مصالح المستثمرين الأمريكيين للتهديد فعلى الديموقراطية أن ترحل ولا بأس أن يحل محلها حكم التعذيب والقتل » .

وهكذا دعمت الولايات المتحدة الأمريكية الديكتاتورية وأسقطت حكومات برلمانية في إيران ١٩٥٣ ، وفي جواتيمالا ١٩٥٤ ، وكذلك في ١٩٦٣ ، وفي الدومينيكان عامي ١٩٦٣ ، ١٩٦٥ وفي البرازيل ١٩٦٤ ، وشيلي ١٩٧٣ وفي كل المناطق تقريبًا من العالم .

ويقول تشومسكي : « لم يكن عمل القوات الأمريكية في هذه البلدان وغيرها هو القتل العادي ، لكن كان بصفة أساسية هو القسوة والتعذيب ، قطع رؤوس الناس وتعليقها على خوازيق ، رطم الأطفال بالحوائط ، قطع أثداء النساء وتعليقهن من أقدامهن ، وليس هناك استثناء من هذه القاعدة ، فلا يهم إن كانت الدولة المستهدفة

مهمة أو غنية أو قومية ، بل يحدث ذلك في كل مكان . وكمثال في دولة صغيرة فقيرة مثل لاوس في الستينيات ، كانت أفقر دولة ، وما أن شرعت في تحقيق بعض الإصلاح حتى قصفتها واشنطن بسيل متدفق من القنابل ، وكذلك في جرينادا البلد الصغير الذي يقطنه أقل من المليون بكثير ما إن شرعت في الإصلاح الاجتماعي حتى سارعت واشنطن بضربها وتأديب أهلها .

ويصدق هذا أيضًا على السلفادور ونيكاراجوا ، وفيتنام وكمبوديا ، ولاوس ، وباناما وليبيا ، والسودان وشيلي .

وعن حقوق الإنسان ينقل نعوم تشومسكي عن دراسة قام بها لارس شولتز الأكاديمي البارز والمتخصص في حقوق الإنسان – إن المساعدات الأمريكية تميل للزيادة مع الحكومات التي تمارس التعذيب مع مواطنيها » ، وكشفت دراسة أوسع للاقتصادي « ادوارد هرمان » عن تلازم وثيق بين التعذيب والمساعدات الأمريكية .

أما عن رفع مستوى المعيشة التي تزعم أمريكا اهتمامها به ، فإن العكس هو الصحيح دائمـًا ، فأمريكا تشجع نمط التنمية الذي يحترم مصالح المستثمرين الأمريكيين ، وأن الدول التي تحاول التنمية المستقلة تجابه بالعداء والعنف الأمريكي .

ولا يقتصر التدخل الأمريكي هنا على القوات العسكرية فقط ، والتي حدث منها ما يكفي لاتهام كل الرؤساء الأمريكيين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بأنهم مجرمو حرب بل هناك وسائل أكثر تعقيدًا مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ، فالبنك الدولي مثلاً قدم القروض مقابل سياسة تحرير الاقتصاد أي تهيئة الاقتصاد الوطني لاختراق المال الأجنبي وتحكمه فيه مع تخفيضات حادة في خدمة المجتمع ، ويكرس هذا تقسيم المجتمع إلى أقلية ثرية وأكثرية تعاني الحرمان والفقر المدقع .

أمريكا كما يراها مفكر عربي

◆◆◆

الولايات المتحدة الأمريكية [1] واستطاع أن يدرس حقيقتها من الداخل ، وكذا فإنه من أهم المفكرين العرب الذين درسوا الحضارة الغربية دراسة علمية نقدية ، وبالتالي فإن آراء الدكتور المسيري في أمريكا آراء لها وجاهتها وأهميتها ، وسواء اتفقت أو اختلفت معه في هذا الرأي أو ذاك إلا انه يعد مفتاحاً مهمًا لفهم أمريكا وبالتالي وضع التصور الصحيح لمواجهتها . وللدكتور عبد الوهاب المسيري كتاب مهم في هذا الصدد هو « الفردوس الأرضي – دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية الحديثة » صادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت – ١٩٧٩ .

واستطاع الدكتور المسيري أن يحدد لنا رؤية الأمريكيين أنفسهم لأمريكا ، ومبرراتهم لوجودها ، وكذا فلسفتهم في إبادة شعبها الأصلي الهنود الحمر ، وتطابق الرؤية الأمريكية مع الرؤية الإسرائيلية في الكثير من القضايا التاريخية والفلسفية ، فالشاعر الأمريكي والت وايتمان وهو شاعر الديموقراطية الأمريكية في القرن التاسع عشر كان يرى أن كل تاريخ العالم لم يكن سوى هراء ووهم وأنه كان مجرد تمهيد لظهور أمريكا .

والأمريكان مثل الإسرائيليين استخدموا العلامات الدينية لتبرير كل أعمالهم العدوانية من إبادة للهنود الحمر واحتلال لأراضي الغير ، والمفكر الأمريكي « أوسوليفان » كان يسمى إبادة الهنود الحمر والتوسع الأمريكي انه « رؤية عذبة » و« قدر جلي » ، وهو قدر لأنه مكتوب على الأمريكيين ذوي الرسالة الخالدة ، وهو جلي لأنه واضح للعيان ولا جدال فيه ، وحتى الآن لا نعدم أن نجد من يستخدم هذه النغمة الدينية التبريرية مثل الكاردينال سبيلمان الذي كان يسمى الجنود

(١) عاش فيها من عام ١٩٦٣ إلى عام – ١٩٦٩ ثم من عام ١٩٧١ وهو يتردد عليها ويتابع أفكارها باستمرار .

الأمريكان في فيتنام « جنود المسيح » ومثل الجنرال الأمريكي الذي دمر قرية فيتنامية « كي ينقذها » ، وهو هنا مثل الجنرال الإسرائيلي لديه إحساس بأنه صاحب رسالة خاصة وأنه قد اختير لتنفيذها ، ولذلك فهو يقوم بالتخريب والتدمير والفتح والغزو في منتهى البراءة ودون أن يهتز له جفن .

ويرى الدكتور عبد الوهاب المسيري أن كلاً من الأمريكي والإسرائيلي يعتقد أن قمة الفعل هو دائماً ذبح الخصم ، وأن نقطة التشابه الأساسية بين الوجدانين الأمريكي والصهيوني هو العنف العنصري ، وأن العالم الجديد لا يمكن تشييده إلا عن طريق العنف والإبادة : « إبادة الهنود الحمر والفلسطينيين » – ويجب أن نضع في اعتبارنا انه من اليسير على الشعب الأمريكي فهم العقلية الإسرائيلية والتعاطف مع الشعب الإسرائيلي وقيمه اللاأخلاقية من عنصرية وعنف نظرًا للتشابه بين وجدان الشعبين .

والمجتمع الأمريكي كما يرى الدكتور عبد الوهاب المسيري مجتمع ذرائعي – براجماتي (عملي نفعي) – لا يشغل نفسه إلا بما يزيد من راحته وهنائه الماديين ، فليس هناك أعلى ولا أسفل ولا يمين ولا يسار والروح تساوي الجسد ، والجميل لا يختلف عن القبيح ، والجاهل لا يختلف في عمله وحكمته عن العالم ، فالمعيار الوحيد هو النجاح ، ولا فرق بين الحياة والموت أو حتى بين الإنسان والحيوان .

والإنسان الأمريكي يسقط الخلفية التاريخية تمامًا وإذا أبقاها فهي تظل على مستوى الحد الأدنى أو القشرة أو من قبيل الديكور (الزينة) ليس إلا ، وفي داخل هذا الإطار الفلسفي لابد وأن ينشأ نمط إنساني يجسد هذه الصفات التي هي من وجهة نظر هذا الإنسان لا هي بالرذائل ولا بالفضائل لأنها قانون طبيعي يعلو على الخير والشر إن أردنا استخدام المصطلح النيتشوي ، وهذه الشخصية هي الرائد

الأمريكي أو « الكاوبوي » المؤمن بقدراته الخارقة للعادة على إخضاع أي شيء وعلى غزو البرية ، والرجل الأمريكي « الأبيض » هو (البراجماتي) بالدرجة الأولى (والسوبر مان) (الإنسان الخارق) الحق (والكاوبوي) الذي لا يهاب شيئًا ، ويخاطر بكل شيء فيربح كل شيء أو يفقد كل شيء ، ولكننا لو تعمقنا قليلاً في هذه البنية الداروينية النيتشوية لنصل إلى أساسها الاقتصادي لوصلنا إلى شخصية التاجر ، فالرائد هو التاجر الأعظم الذي يتاجر بكل شيء ويخاطر بكل شيء حتى حياته وجسده ، بل انه يكاد يقترب من العاهرة في هذا ، فالعاهرة هي الإنسان – السلعة – التي تصل إلى منتهى التموضع والانحراف الكامل عن الذات الإنسانية حيث يدخل الإنسان في علاقة موضوعية كاملة مع الآخرين ليس فيها خير ولا شر ويكون هو نفسه الذات الخلاقة ، الموضوع الذي يستهلك ، وتكون الذات الأخرى موضوعًا آخر باعتبار أنه مصدر للمال وحسب الرائد يترك تاريخه وتراثه وقيمه وأسرته ويحمل مسدسه وجسده ليدخل في صراع مع الآخرين يكون هو الصائد أو الفريسة ، وفي هذا الإطار يمكننا أن نفهم الجوهر الرأسمالي الكامن وراء عبارات براجماتية نشطة مثل « المخاطرة » « الممارسة الحرة » و « الحرية الكاملة » وغيرها من المصطلحات ذات الطابع الأمريكي ، والسوق هو الذي يحدد كل القيم حسب دوراته اللامتناهية وحسبما تمليه قوانين العرض والطلب الذي لا يمكن لإنسان التحكم فيها ، والرأسمالية تظل منفصلة عن فكرة القيمة ومرتبطة بفكرة الثمن والعرض والطلب وهذا يفسر إيمان الأمريكي المجنون بفكرة الربح دائمًا ، وبأي وسيلة ونحو أي اتجاه وبغض النظر عن مقدار البؤس الذي يحيق بالبشر ، وبهذا المنطق تعامل الأمريكي مع صاحب البلاد الأصلي « الهنود الحمر » ، فالهندي الأحمر من وجهة نظره كائن لا تحده حدود تاريخية أو إنسانية ويمكن اصطياده كالفريسة

دون أي هلع أو وجل أخلاقيين .

والبراجماتية الأمريكية أكثر اتساعًا من حدود البراجماتية الصهيونية مثلاً ، فالأولى يحكمها قانون واقعي ، وهو قانون ضيق وغبي ، ولكنه في النهاية قانون . أما البراجماتية الصهيونية فهي مزيج فريد شاذ بين العقليتين العملية والغيبية التلمودية .

والأمريكي يستهلك دون تساؤل ، وهو لا يستفسر أبدًا عما إذا كان هذا الاستهلاك الغبي سيؤدي إلى سعادته الفردية أم لا ؛ فالسعادة الإنسانية ليست هي الهدف ، وهذا الإطار قد جعل من الأمريكي فريسة سهلة لسعار الحضارة الاستهلاكية ، وحتى تضمن الاحتكارات الأمريكية أن يظل المواطن الأمريكي غارقا في السلع والمادة وفي حالة غيبوبة إنسانية كاملة فإنها تطلق عليه سيلا من الإعلانات الرائعة !! ، وعالم السلع لا يغزو الإنسان الأمريكي من الخارج فحسب بل يغزوه ويقمع إنسانيته من الداخل ، وفي أمريكا فإن الدين الوحيد هو التحليل النفسي ، فمن وجهة نظر سيكولوجية ليبرالية نفسية متحررة غير تقليدية لا يمكنك أن تصدر أحكامًا أخلاقية أو فلسفية من أي نوع على أي فرد ، فغاية المجتمع هو إراحة أعضائه نفسيًا عن طريق تدريبهم على فن التأقلم مع الواقع كما هو وتحقيق الثقة والطمأنينة الكاملتين في النفس « وهي نفس ليس لها وجود حقيقي لأنها متأقلمة مع الواقع مندمجة فيه منسجمة معه ومنه ، والدين يصبح اتجارًا والاتجار دينًا ، وهذا الضرب من التدين التجاري الذي يرى أن الإيمان تجارة مربحة يقبض ريعها ويحول التجربة الروحية إلى شيء كمي يمكن أن يقاس ويحسب بالمليم ، والمسيح بالنسبة للأمريكي هو الساحر الطبيب القادر على القيام بالحيل وعلى الإتيان بالشفاء العاجل ، أما المغزي الروحي الإنساني المهم لحياته وآلامه فهذا ما لا يمكنهم إدراكه ، والأمريكي يريد من المسيح الخلاص العذري المريح ، لأنه أي الأمريكي على عجلة

من أمره ، والمسيح بالنسبة للأمريكي أيضًا نجم أعظم وتكئة لتحقيق الأهداف العملية المباشرة ، وحتى الحواريين يرون المسيح على أنه طريق إلى الشهرة والخلود .

وبما أن المجتمع الأمريكي براجماتي ولا أخلاقي وباحث عن الربح والمنفعة بأي ثمن ، فإن المرأة الأمريكية مثل المهاجرين الجدد والزنوج وغيرهم تدفع الثمن ، فالنظام الرأسمالي يحتاج إلى عمالة فائضة دائمًا « نوع من البروليتاريا (الطبقة العمالية) السائلة غير مرتبطة بوظيفة محددة وعلى استعداد للعمل في أي مكان وفي أي وقت دون أن تصبح جزءًا عضويًا من عملية الإنتاج نفسها ، أي أنها تظل دائمًا خارج الإنتاج وداخله في نفس الوقت » ، ووجود مثل هذه العمالة السائلة مهم وضروري من وجهة نظر الرأسمالية لسببين :

أولاً : للضغط على العمال ، وثانيًا : لتمكين الرأسماليين من نقل رأسمالهم من استثمار ووجود فائض دائم من العمال يمكن الرأسمالي من استئجار أي عدد من العمال في أي وقت ، فلو تحققت العمالة الكاملة لأصبحت حركة النظام بطيئة للغاية ، ويقوم المهاجرون الجدد والزنوج بسد حاجة الرأسمالية الأمريكية في هذا المجال ولكنهم من وجهة نظر الرأسمالية يعدون متخلفين نوعًا ما ؛ لأن خلفيتهم الحضارية تعوقهم عن التأقلم السريع مع النظام وعن الإسهام الكفء في عملية الإنتاج ، كما أنهم لا يمكنهم القيام ببعض الأعمال الفنية .

ومن هنا تكون أكثر من فريق للعمالة الفائضة في الولايات : واحد لمختلف الأعمال اليدوية وقوامه المهاجرين والزنوج ، والآخر للأعمال المتقدمة نوعًا مثل السكرتارية والخدمات الاجتماعية وبعض الأعمال الإدارية وبعض الأعمال الصناعية الخفيفة وقوامه من السيدات ، وهذه العمالة الفائضة تكتسب أهمية خاصة أثناء الحروب المحدودة التي تخوضها أمريكا حيث تحل السيدات محل المحاربين .

وبهذا المعنى تكون سيدات أمريكا أقلية مستقلة مضطهدة اقتصاديًا .

وإذا أخذنا سلم الاضطهاد كمعيار نجد أن المرأة الزنجية هي أكبر ضحية للاضطهاد الرأسمالي الأمريكي ، فالاضطهاد هنا ليس جنسيًا فقط ، ولكن جنسي عنصري طبقي ، فالأمريكان البيض الرجال هم الطبقة الأعلى طبعًا .

وهناك قصيدة كتبتها امرأة أمريكية تعبر عن هذه الحالة تقول القصيدة :

الفتاة الجميلة كالسلعة

تباع وتشترى مع أسهم الشركات

الفتاة الجميلة في هذا المجتمع

يحكم عليها حسب المظهر

وحسب ما ترى على وجهها

يكون في الغالب بقايا المواد الكيميائية

التي يستخدمونها في الحروب .

وهذا البيت الأخير يدل على أن ثمة تكاملًا في بنية المجتمع الأمريكي المسئول عن إنتاج النابالم ومساحيق التجميل ، ففي كلتا الحالتين نجد أن الهدف من عملية الإنتاج هو الإنتاج ذاته بحيث يدخل المجتمع دائرة الإنتاج الآخذة في الاتساع اللانهائي ولضمان هذا تدخل الرأسمالية في حروب تستهلك فيها آلاف الدبابات والطائرات والغازات السامة ، أو تغرى الآخرين بدخولها وبالتالي استيراد هذه السلع ، وتدخل الرأسمالية أيضًا حروبًا داخلية مع الناس ، وبالذات المرأة لتستهلك فيها السيارات والمساحيق والثلاجات والاستقرار النفسي .

■ ■ ■

التحالف العنصري بين أمريكا وإسرائيل

◆◆◆

يلخص الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في كتابه « الفرصة السانحة» الموقف الأمريكي تجاه إسرائيل قائلاً :

« إنني أتذكر بوضوح اجتماعًا حدث في عام ١٩٧٣ مع المسئولين بخصوص حرب الشرق الأوسط ، وكانت في بدايتها ولم تكن هذه البداية في صالح إسرائيل ، وعندما سأل أحد أعضاء الكونجرس إذا كانت الولايات المتحدة ستتخذ أي إجراء في هذا الشأن أجبته بلا مواربة « ليس هناك رئيس أمريكي يمكنه أن يسمح بتصفية إسرائيل » ... وأمر عندئذ بعمل جسر جوي ليدفع عن إسرائيل الهزيمة . وعلينا الآن أن نسأل أنفسنا سؤالاً عن مدى أهمية إسرائيل بالنسبة لأمريكا لدرجة أنه ليس هناك رئيس أمريكي يمكنه أن يسمح بتصفية إسرائيل ، ولدرجة أن يقوم الرئيس الأمريكي نيكسون في ذلك الوقت عام ١٩٧٣ بمد جسر جوي لنقل السلاح من المخازن الاستراتيجية للجيش الأمريكي لحماية إسرائيل ؟!

هل أهمية إسرائيل هنا جيوبوليبكية (سياسية من حيث الموقع الجغرافي) مثلاً ، أم أن هناك تحالفا بين أمريكا وإسرائيل لأسباب أخرى ليست سياسية وغير عسكرية في جوهرها وليست بسبب أهمية أو عدم أهمية إسرائيل بالنسبة لأمريكا ، لنترك أيضًا الرئيس الأمريكي الأسبق يجيب عن السؤال يقول نيكسون : « إن التزاماتنا تجاه إسرائيل عميقة جدًا ، فنحن لسنا مجرد حلفاء ولكننا مرتبطون ببعضنا بأكثر مما يعنيه الورق ، نحن مرتبطون معهم ارتباطا أخلاقيًا ، إن إسرائيل ليست مكسبا استراتيجيًا للولايات المتحدة ، بخلاف الرأي السائد في هذا الشأن . إن تعاوننا في أجهزة المخابرات والمناورات الحربية مهم ولكنه ليس حيويا ، لقد أثبتت الجيوش الإسرائيلية حقا كفاءتها في الحروب إلا أن تأثير إسرائيل محدود في المنطقة ، ولكن التزامنا تجاهها ينبع من ميراث قديم ، فلن يستطيع رئيس أمريكي أو كونجرس أن يسمح بتدمير إسرائيل » .

وإسرائيل هذه التي لا تمثل أي مكسب استراتيجي للولايات المتحدة لا يستطيع لا الرئيس ولا الكونجرس التخلي عنها ، وهي التي اعترفت بها أمريكا بعد دقائق من قيامها ! وهي التي أسهم الغرب عمومًا وأمريكا خاصة في قيامها واستمرارها وتوسعها ، وإسرائيل تحصل على ما تريد من السلاح ومن المواقف السياسية والفيتو وغيرها من أمريكا بدون تحفظ ، وقد حصلت إسرائيل من أمريكا منذ ١٩٧٤ حتى ١٩٨٩ على حوالي ٤٩ مليار دولار كمعونة ، وحصلت على ٤ ,١٦ بليون دولار على هيئة قروض من عام ١٩٧٤ إلى عام ١٩٨٩ ثم تحولت هذه القروض بعد ذلك إلى منح لا ترد ، ناهيك عن المعونات غير الحكومية ، أو ضمانات القروض الحكومية أو التي تقوم بها البنوك الأمريكية لصالح إسرائيل .

وأمريكا التي لا تطيق أن ترى مصنعًا للكيماويات في العالم العربي حتى ولو كان ينتج مبيدات للحشرات هي ذاتها التي تشجع وتساعد وتتجاهل قيام إسرائيل بصناعة القنابل النووية جميع أسلحة الدمار الشامل .

لماذا كل هذا الدعم والحماس لإسرائيل ، مع أنها على حد تعبير نيكسون ليست مكسبًا استراتيجيًا لأمريكا ؟

إن ذلك يرجع لسبب بسيط جدا وهو وجود تحالف عنصري بين اليهود والأمريكان والغرب موجه ضد المسلمين ، أي تحالف صليبي يهودي ضد الإسلام ، وذلك في إطار الصراع التاريخي بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة الغربية الصليبية ، بل إن هناك تفسيرًا صهيونيًا للمسيحية ينتشر بصورة متزايدة يومًا بعد يوم خاصة في أوساط البروتستانت ، ويقول هذا التفسير : إن دعم إقامة إسرائيل وتحقيق إمبراطوريتها من النيل إلى الفرات هو واجب مسيحي ؛ لأن هذا الوجود والتوسع الإسرائيلي شرط لظهور المسيح في فلسطين وقيامه بقيادة الجيوش المسيحية

في معركة ضد الكفار « المسلمين » وهي المعركة المذكورة في الإنجيل :

« المحرف طبعًا » تحت اسم معركة « هرمجدون » أما على مستوى المسيحيين الكاثوليك ، فإن الموالاة والتحالف مع اليهود يشق طريقه الآن على قدم وساق ، فبابا الفاتيكان مثلاً – وعلى خلاف كل التراث الكاثوليكي – أعلن تبرئة اليهود من دم المسيح حسب معتقدهم !

وبابا الفاتيكان نفسه يعلن الآن أنه لا يمانع في الاعتراف بالقدس عاصمة موحدة لإسرائيل بشرط حرية زيارة الأماكن المقدسة ، حتى أسبانيا التي طردت اليهود مع المسلمين منذ ٥٠٠ عام اعتذرت رسميًا عن ذلك لليهود .

وعلى أية حال ، التحالف المسيحي اليهودي أمر جديد ولم يحدث إلا في القرون الأخيرة ، لأن التاريخ بين اليهود والمسيحيين تاريخ مفعم بالصدام ، ولقد تعرض اليهود للعديد من المذابح والاضطهادات الدينية المسيحية في كل الدول المسيحية الأوروبية بدون استثناء على أن هذا التحالف الجديد ، كان قد تنبأ به القرآن الكريم منذ أكثر من ١٤٠٠ عام ، وهذا نوع من الإعجاز القرآني :

يقول الله تعالى في كتابه الكريم وهو أصدق القائلين : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة] .

ونظرًا لأنه كان هناك عداء مستمر واضطهاد من المسيحيين لليهود على طول التاريخ فإن المفسرين القدماء كانوا يفسرون هذه الآية في إطار أن الكفر ملة واحدة ، أي تفسيرًا إجماليًا دون أن يحدوا أو يذكروا تفاصيل محددة لهذه الموالاة ، أما الآن فقد تحققت هذه النبوءة القرآنية خاصة بعد دعم قيام إسرائيل من الغرب المسيحي واستمرار هذه الموالاة والدعم بين الطرفين في أكثر من مجال ... وبذلك تحققت

النبوءة القرآنية بصورة محددة وتفصيلية وهذا من إعجاز القرآن الكريم .

أما موقفنا الآن كمسلمين من هذه الموالاة بين اليهود والنصارى ؛ فيحددها الله تعالى لنا من خلال القرآن الكريم أيضًا في هذه الآية وما بعدها : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ ... و﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ ... و﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾ [المائدة:٥٢]

أي هؤلاء الذين يقولون الآن نحن لا نستطيع مواجهة أمريكا ولا إسرائيل ونخشى أن يدمروننا بأسلحتهم !

■ ■ ■

■ جرائم أمريكا في هذا الزمان :

■ إسرائيل
مفرزة أمريكية متقدمة

■ وإسرائيل
وكيل عن الاستعمار الغربي
والأمريكي

◆◆◆

الصهيوني .. الأولى : ترى أنه جزء من مشروع الهيمنة الغربي على المنطقة في إطار الصراع الحضاري ، والثانية : ترى أن المجتمع الصهيوني مجتمع توراتي ديني قائم على الأسطورة الدينية وأن اليهود بما لهم من نفوذ مالي وإعلامي وغيره نجحوا في السيطرة على صناعة القرار الغربي فحصلوا على الدعم اللازم لمشروعهم .

والحقيقة إنه بشيء من التركيب يمكن أن نجد أن للمفهومين أصلهما التاريخي والواقعي ، فالكيان الصهيوني نشأ أصلا عن رغبة غربية استعمارية لإقامة كيان أو مجموعة وظيفية في هذه البقعة الحساسة من قلب العالم العربي والإسلامي كجزء من مشروع الهيمنة الغربية على المنطقة ، وكحلقة من حلقات الصراع الحضاري بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية ؛ وتلاقت هذه الرغبة الاستعمارية أو غدت مفهوم الحلم والأسطورة المزيفة لدى اليهود عن حق العودة إلى فلسطين وإقامة وطن قومي لهم على أساس التفسير المحرف للتوراة المحرفة أصلا ، أو على أساس الدعاية الدينية اليهودية لجمع يهود العالم في هذه البقعة ، وفي الحقيقة فإن الرغبتين والمصلحتين التقتا في لحظة تاريخية تمخض عنها قيام هذا الكيان ، ويجب هنا أن ندرك أن هناك وجدانًا غربيًا كارهًا ومعاديًا لليهود أصلاً، ومارس الاضطهاد بحقهم طويلاً ، وبذلك فإن إقامة وطن قومي لهم ، يحقق هدفين ، الأول : هو التخلص من اليهود كزبالة بشرية غير مرغوب فيها في الغرب ، ويحقق ثانيًا : الاستفادة من هذا الكيان في تحقيق الأهداف الاستعمارية والكيد للحضارة الإسلامية وتمزيق وحدة المنطقة ومنع نهوضها أو تطورها واستمرار نهجها .

إذن فالكيان الصهيوني هو مشروع غربي في الأساس تمت صياغته داخل أروقة المؤسسات الاستعمارية الغربية قبل أن يفكر فيه هرتزل بفترة طويلة ، فهناك على سبيل المثال لا الحصر نداء نابليون بونابرت إلى يهود العالم من أجل إعادة إنشاء

مملكة القدس القديمة « سنة ١٧٩٩ » في إطار المشروع الاستعماري في الشرق الذي كان يحلم به نابليون وهناك دعوة الرئيس الأمريكي جون آدامز إلى استعادة اليهود لفلسطين « سنة ١٨١٨ » وهناك مذكرة سكرتير البحرية الإنجليزية إلى وزير الخارجية بالمرستون التي يقترح فيها دعوة أوروبا إلى إعادة اليهود إلى فلسطين « عام ١٨٣٩ » وهناك برنامج اللورد سافنبري إلى مؤتمر لندن بشأن توطين اليهود في فلسطين « سنة ١٨٤٠ » ، وهناك مشروع إدوارد متنورد لإقامة دولة يهودية متكاملة في فلسطين تحت الحماية الإنجليزية المؤقتة إلى أن تتمكن هذه الدولة من الوقوف على قدميها « سنة ١٨٤٥ » ، وهناك كتاب أرنست لاهان المستشار الخاص لنابليون الثالث في المسألة الشرقية « إعادة بناء أمة اليهود » « سنة ١٨٦٠ » وهناك كتاب « أرض جلناد » للورنس أوليفنت عضو البرلمان الإنجليزي ووزير الخارجية والذي يقترح فيه إقامة مستوطنة يهودية على مساحة ١,٥ مليون فدان في الأردن وفلسطين « عام ١٨٨٠ » ، ثم هناك تأسيس بلاكستون في شيكاغو لمنظمة البعثة العبرية نيابة عن إسرائيل من أجل حث اليهود على الهجرة إلى فلسطين ، ومذكرة بلاكستون إلى الرئيس الأمريكي بنيامين هاريسون ووزير خارجيته جيمس لين بإنشاء وطن قومي لليهود عام ١٨٩١ وصدور كتاب الدبلوماسي الإنجليزي وليمر هشلر « إعادة اليهود إلى فلسطين » الصادر عام ١٨٩٤ ، كل هذا قبل صدور كتاب تيودور هرتزل « الدولة اليهودية » الذي صدر عام ١٨٩٦ » .

وفي هذا الصدد يقول جمال حمدان في كتابه « استراتيجية الاستعمار والتحرير » ص ١٦٨ : « التقت الإمبريالية العالمية مع الصهيونية لقاء تاريخيا على طريق واحد هو المصلحة الاستعمارية المتبادلة ليكون الوطن اليهودي قاعدة تابعة وحليفا مضمونًا أبدًا يخدم مصالح الاستعمار ، وذلك ثمنا لخلقه إياه وضمانه لبقائه ، ويقول

أيضًا في الكتاب نفسه ص ١٧٦ : « الاستعمار هو الذي خلق إسرائيل بالسياسة والحرب وهو الذي يمدها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال وهو الذي يضمن بقاءها ويحميها علنا » .

ويؤكد روجيه جارودي على هذه الحقيقة أيضًا بقوله : « إن الأب الروحي للصهيونية تيودور هرتزل أشعل الرغبة الاستعمارية في خلق إسرائيل وقدم لها مبررات إقامة هذه الدولة على أساس أنه إذا قامت إحدى الدول الاستعمارية بحماية هذه الدولة اليهودية فسوف تتمتع بميزة على خصومها ، لأن هذه الدولة ستعتبر رأس حربة مغروسة في المنطقة من أجل التغلغل الاستعماري » . وكتب تيودور هرتزل سنة ١٨٩٥ في كتابه الدولة اليهودية قائلاً : « ستكون هذه الدولة بالنسبة إلى أوروبا متراسًا ضد آسيا وستكون بمثابة الحصن المتقدم للحضارة ضد البربرية » .

وفي محاضرة لروجيه جارودي في ١٣ / ١٠ / ١٩٩٦ في فندق الماريوت بالقاهرة قال :

« إن إسرائيل ستلعب دورًا مهمًا في المواجهة الحضارية بين العالم الغربي والعالم الإسلامي نظرًا لموقعها الإستراتيجي في قلب العالم الإسلامي !

وإذا كانت هذه هي أهداف السياسة الاستعمارية من خلق إسرائيل لتكون وكيلاً للاستعمار الغربي وجماعة وظيفية لأداء وتنفيذ أهدافه ، فإن القادة الصهاينة لعبوا على تلك النقطة تجاه الرأي العام الغربي وقواه السياسية وأجهزته ومؤسساته الحاكمة ، وفي الوقت نفسه لعبوا على الأسطورة التاريخية لدى اليهود عن الوعد التوراتي بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، وسواء كان هذا السلوك من قادة الصهاينة نوعًا من الدجل والدعاية أو يعبر عن اقتناعهم الحقيقي ، وسواء كان هؤلاء القادة الصهاينة ملحدين أو مؤمنين فإنهم عكسوا في سلوكهم وتصريحاتهم

وبنائهم للكيان الصهيوني تفسيرًا أسطوريًا توراتيًا – محرفًا بالطبع ومزيفًا وكاذبًا .

فجولد مائير زعيمة حزب العمل التاريخية في تصريح لها لصحيفة لوموند الفرنسية ١٥ / ٥ / ١٩٧١ تقول : « نشأ هذا البلد تنفيذا لوعد الرب ذاته ، ولهذا لا يصح أن نسأله إيضاحًا عن شرعية هذا الوجود » .

ومناحم بيجين « ليكود » يصرح لصحيفة دافار الإسرائيلية ١٤ / ١٢ / ١٩٧٨ بقوله : « لقد وعدنا الرب هذه الأرض ولنا الحق فيها » .

أما موشى دايان « ملحد » فيقول : « إذا كنا نملك التوراة ، وإذا كنا نعتبر أنفسنا شعب التوراة فينبغي أن نمتلك أيضًا بلاد التوراة ، بلاد القضاة أرض أورشليم وحيرون وأريحا » جيروزاليم بوست ١٠ / ٨ / ١٩٦٧ .

وهكذا يتردد دائمًا على ألسنة الزعماء الصهاينة المنطق نفسه سواء كانوا من اليمين أو اليسار أعضاء في حزب العمل أو في كتلة الليكود ، ناطقين باسم الجيش أو الحاخامية ، فالتوراة ترسم كل شيء في إسرائيل ، ترسم ثقافة الأطفال في المدارس ، فبناء على توجيه دافيد بن جوريون ؛ فإن الدين اليهودي في إسرائيل يدرس كمادة إجبارية في المدارس .

والزواج في إسرائيل زواج ديني ، ولا يوجد في إسرائيل دستور ؛ لأن التوراة هي القانون الأساسي للدولة ، والتوراة هي التي تعرف المواطن وتحدد من هو الإسرائيلي وهي ذاتها تحدد حدود الدولة ، بل وتبرر الحرب والإرهاب .

« علينا ألا ننسى أجزاء التوراة التي تبرر هذه الحرب ، فنحن نؤدي واجبنا الديني بتواجدنا ، هنا فالنص المكتوب يفرض علينا واجبًا دينيًا وهو أن نغزو أرض العدو » حاخام برتبة نقيب – هاآرتس ٥ / ٧ / ١٩٨٢ والمذابح من دير ياسين إلى صابرا وشاتيلا تبررها التوراة « وحرقوا كل ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل

ومسن وشيخ حتى البقر والحمير بحد السيف » سفر يشوع الإصحاح (آية ٢١).

وبالطبع فإن هذا الفهم للتوراة – وهي محرفة أصلاً – هو بدوره فهم مغلوط ، والحديث عن الوعد الإلهي لبني إسرائيل في التوراة حديث مغلوط ، لأن اليهود أولاً ليسوا هم أبناء اليهود الأوائل من ناحية ، فهم من يهود الخزر غالبًا ، وحتى لو فرض أنهم أبناؤهم فقد فقدوا أهليتهم بسبب عصيانهم التاريخي المستمر لأنبيائهم ، وأنه بعد الإسلام بالذات فإن الأمة الإسلامية هي الأمة الرسالية ، ونحن بالتالي أولى من اليهود بإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى ويوشع وداوود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم عليهم السلام ، وأن هؤلاء الأنبياء وغيرهم قد بايعوا « محمدًا » الرسول صلى الله عليه وسلم أثناء رحلة الإسراء والمعراج عندما أمّهم في تلك الليلة في الصلاة في بيت المقدس ، وأن موسى وداود وسليمان وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل لو بعثوا اليوم ما كان بوسعهم إلا الدخول في الإسلام ، باعتباره الدين الحق الحنيف الذي جاء به إبراهيم أصلاً من عند الله وجاء به النبيون من قبله ومن بعده ، والذي جاء محمد (صلى الله عليه وسلم) ليكون به خاتم الأنبياء ، وليكون المسلمون هم ورثة كل وعد إلهي .

والكيان اليهودي كيان عنصري ، فهو قائم في تعريف المواطنة ، وكذا في سلوكه السياسي على فترة تجميع يهود العالم الذين يزعمون أنهم من أب واحد وكتلة مؤمنة وديني واحد وأنهم شعب الله المختار وبقية العالم عبيد لهم ، والديموقراطية الإسرائيلية لليهود فقط .

والكيان الإسرائيلي كيان عسكري وعدواني ، فإسرائيل تنفق ٥٠ ٪ من ميزانتها على الجيش ، والمؤسسة العسكرية تتحكم في كل شيء في إسرائيل تقريبًا ، وعلى حد تعبير بنيامين نتنياهو رئيس وزراء الكيان الصهيوني : « فإن القوة العسكرية مؤسسة

لا بديل عنها للمحافظة على أمن إسرائيل ونظريات السلام مع العرب ونظريات الخلاص اليهودي بالسلام يدلان على رؤية غير واقعية ، للواقع السياسي الإسرائيلي وعلى أحلام كاذبة تنبع من محاولة الهروب من الصراع المحتوم علينا ، نتيجة وجودنا كأمة بين الشعوب العربية » بنيامين نتنياهو - كتاب « مكان تحت الشمس » .
وهكذا ، فالمفهوم الإسرائيلي للسلام يتلخص في التفوق العسكري والخضوع الكامل عسكريًا وسياسيًا من جانب العرب للهيمنة الإسرائيلية ، وهذا بالطبع يستدعي استمرار وجود قوة عسكرية هائلة ، واستمرار توجيه ضربات إجهاضية لكل محاولة عربية لامتلاك القوة .

ولأن الكيان الصهيوني جماعة وظيفية أولاً لممارسة العدوان لحساب الاستعمار الغربي « الأمريكي حاليًا » ، ولأن حقيقة وجودهم مصنوع وغير طبيعي ؛ فإن المجتمع الإسرائيلي الذي قام على سلب حقوق الآخرين يحس بهاجس الأمن أو ما يسمى بعقدة الأمن ، وهي عقدة ناجمة عن شعور إسرائيلي داخلي بأن وجودهم على هذه الأرض غير شرعي ، ولم تفلح محاولات زرع ثقافة مصطنعة في إعطاء الإسرائيليين الشعور بالانتماء أو المشروعية ، ولذا فالمجتمع الإسرائيلي مجتمع معسكر ، فأنماط المعيشة في إسرائيل « المستوطنات ، الكيبوتزات ، الموشوفات » وطريقة التجنيد والتعبئة ونظام الاحتياط ووضع المؤسسة العسكرية السياسي ، من حيث كونها مصدرا للنخب السياسية والأمنية رفيعة المستوى ، وأهمية حقيبة وزارة الدفاع في الحكومات الإسرائيلية ونسبة مخصصات الميزانية العامة الإسرائيلية للإنفاق العسكري ، توضح الوضع الذي تمثله المؤسسة العسكرية في إسرائيل .

ويعاني المجتمع الإسرائيلي أيضًا من مسألة عدم تجانس اليهود القادمين من مختلف بقاع العالم ، من غرب أوروبا وأمريكا ، ومن شرق أوروبا ، ومن اليمن

والعراق والمغرب وروسيا والحبشة وغيرها ، وكل منهم يحمل ثقافة مختلفة ، ولن يفلح الحديث عن الأسطورة التاريخية أو وحدة الأصل اليهودي في صهر هذا المزيج غير المتجانس ، وكذلك فإن الوجود العربي للفلسطيني داخل فلسطين المحتلة يمثل مشكلة كبيرة بالنسبة لإسرائيل ، فلا هي قادرة أو راغبة في إعطائهم دولة مستقلة ، ولا هي قادرة أو راغبة في إعطائهم حقوقهم السياسية كمواطنين إسرائيليين ومع تزايد معدلات النمو السكاني الفلسطيني فإن مشكلة ديموجرافية خطيرة ستواجه الكيان الصهيوني .

■ الكيان الصهيوني بعد الحرب الباردة :

إذا كان الصهاينة قد قبلوا أن يقوموا بدورهم كوكيل للاستعمار الغربي في المنطقة مقابل السماح لهم بإقامة كيانهم ودعمه ماديا ومعنويا ، فإن مرور عشرات السنين على هذا الكيان جعل قادته يفكرون في التحول من دور التابع إلى دور الشريك الاستراتيجي ، وتواكب في تلك اللحظة أن حدث متغير مهم في الصراع الدولي ومعادلاته الإقليمية ، فبسقوط الاتحاد السوفيتي السابق ونهاية الحرب الباردة ، قلت أهمية إسرائيل الاستراتيجية بالنسبة للغرب عمومًا وأمريكا خصوصًا ، وتواكب ذلك مع التواجد العسكري الأمريكي في المنطقة بعد حرب تحرير الكويت ١٩٩١ ، أي أن أمريكا جاءت بجيوشها ولم تستخدم هذه المرة - لأسباب كثيرة - الصهاينة كجماعة وظيفية لأداء خدمات عسكرية نيابة عنها ، وهذا بدوره قلل الأهمية الاستراتيجية للإسرائيليين ، ولكي يعيد الإسرائيليون التأكيد على أهميتهم ودورهم ساروا على عدة محاور ، أولاً : زيادة التغلغل الصهيوني في الإدارة الأمريكية خاصة الخارجية والمخابرات والدفاع ومراكز البحث ومؤسسات صنع القرار الأمريكي عمومًا بشكل لم يسبق له مثيل على الإطلاق في تاريخ العلاقة بين

الطرفين .

ثم عملت إسرائيل على تقديم نفسها ليس كتابع لأمريكا بل كحليف استراتيجي – مستقل – لها ، ولو كحليف صغير أو أقل حجمًا . يقول شمويل كاتز في بحثه المعنون : « وجهة نظر إسرائيلية للعلاقة الأمريكية الإسرائيلية » ما مدى صحة القول بأن إسرائيل تعتمد على الولايات المتحدة الأمريكية اعتمادًا تامًا ، أنه قول سخيف ، حتى لو أخذناه على ظاهره ، فإذا كانت إسرائيل توصف دائمًا بأنها حليف ، فمعنى ذلك أن هناك بين الولايات المتحدة وإسرائيل حالة من الاعتماد المتبادل لا تقل : بل إنها تزيد في بعض الجوانب على العلاقة بين الولايات المتحدة وأوروبا الغربية » . ويضيف الباحث الإسرائيلي شمويل كاتز : « لا غني لأمن أمريكا عن إسرائيل الصديقة ، لا بسبب الحقائق الجغرافية السياسية وحدها ، بل أيضًا لأن إسرائيل أصبحت لديها القدرة على خدمة المصالح الأمريكية بشكل إيجابي لاسيما في الشرق الأوسط » ويطرح كاتز أن علاقة الحلفاء هي الأكثر قبولاً بقوله : « ولا شك في أن بالوسع إقامة علاقة صحيحة ومتكافئة كالعلاقة بين الحلفاء بإبرام اتفاق تعاقدي لا يتأثر بالتميزات السياسية ليضمن لإسرائيل أن تحصل لا على منح بل على مقابل للخدمات » .

وطرحت إسرائيل نفسها بعد الحرب الباردة كذراع قوية وفعالة في مواجهة الصحوة الإسلامية ، وإذا كانت دوائر حلف الأطلنطي وأمريكا بالذات قد اعتبرت أن الإسلام هو العدو الجديد بعد انهيار الاتحاد السوفيتي السابق وأن الصحوة الإسلامية تمثل خطرا على المصالح الأمريكية والغربية قيميا وسياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا ، فإن إسرائيل التي تحس بالخطر ذاته عليها مستعدة للقيام بدورها في هذا الصدد لحماية نفسها ولحماية مصالح أمريكا والغرب أيضًا كما

أكثرت إسرائيل من الحديث عن دورها المهم في موازنة الخطر الإيراني المرتقب المتربص بأمريكا والغرب وإسرائيل . وقد طرحت إسرائيل نوعين من التكتيك لخدمة الأهداف الأمريكية بعد الحرب الباردة ، الأول طرحه شيمون بيريز زعيم حزب العمل ورئيس الوزراء الإسرائيلي السابق والذي يتضمن سيطرة أمريكا اقتصاديًا وبالتالي سياسيًا وعسكريًا على المنطقة من خلال إدماج المنطقة في تجمع اقتصادي وعلاقات اقتصادية « السوق الشرق أوسطية » تحقق لأمريكا أهدافها ، وتكرس سيادتها على العالم والمنطقة وتكون إسرائيل فيه أكبر الشركاء والقائد الإقليمي للتنمية التي تحقق بدورها من خلال رفع مستوى معيشة العرب نزع فتيل التطرف الإسلامي الذي يستمد مادته من تدهور الأوضاع الاقتصادية في المنطقة ، وفي الوقت نفسه تحقيق نوع من السلام مع العرب يضمن لإسرائيل البقاء في المنطقة كجزء مندمج فيها من خلال شبكة قوية ومتنوعة من العلاقات الاقتصادية مع المحافظة على تقوية الذراع العسكري الإسرائيلي ونزع سلاح العرب أي أن بيريز كان يريد أن يحقق نوعًا من الربط بين إسرائيل والعرب ؛ يجعل من الصعب على الدول العربية أن تفكر في تقييد صلتها بإسرائيل والتحول إلى علاقة عداء والرؤية الثانية التي تبناها نتنياهو وحظيت بالقبول الإسرائيلي تتمثل في انتخاب نتنياهو بدلاً من بيريز لرئاسة الوزراء ، تقوم على استمرار إسرائيل منفصلة عن الشرق الأوسط وليست مندمجة في نظام شرق أوسطى ، لأن مستقبل إسرائيل والمصالح الغربية من وجهة نظر نتنياهو يتمحور حول إسرائيل ذاتها وقدرتها على الاحتفاظ بشخصيتها في وسط معاد ، وأنه لا توجد وسيلة للتعامل مع هذا المحيط إلا بالقوة والردع «العنف» ، يقول نتنياهو في كتابه : « مكان بين الأمم » السلام الوحيد الممكن تحقيقه بين العرب وإسرائيل هو السلام الذي يعتمد على ردع العرب ، هو سلام حذر

ومسلح يوفر لإسرائيل درجة كافية من القوة القادرة على ردع الجانب العربي عن التفكير في استمرار الحروب » .

وفي الحقيقة فإن إسرائيل قد نجحت بوسائل عدة في إقناع واشنطن بأسلوب التحالف بدلاً من أسلوب التبعية ، فقد أعلن كلينتون أن الطرفين اتفقا على الارتفاع بمستوى تحالفهما الاستراتيجي إلى درجة عليا لتصبح إسرائيل شريكا كاملاً للولايات المتحدة في كل ما يجري من ترتيبات في المنطقة !!!

■ ■ ■

■ جرائم أمريكا في هذا الزمان :

انهيار الشيوعية

لا يعني صلاحية الرأسمالية

◆◆◆

مع الانهيار السريع والدرامي للشيوعية والتفكك المأساوي للاتحاد السوفيتي السابق استغل الغرب الفرصة وقدم أطروحته التي تقول : إن النظرية الوحيدة الصحيحة في هذا العالم هي الرأسمالية الليبرالية (المتحررة من القيود) ، واقتصاد السوق .

وتكاتفت أجهزة الإعلام في أمريكا ، وكذا الدوائر الفكرية والاستراتيجية لاختراع نظرية أو أيديولوجية جديدة ، لتعطي هذا الكلام بعدا فلسفيا وحضاريًا ، وقدمت نظرية تقول : إن تاريخ البشرية قد انتهى عند بلوغه أقصى تطوره السياسي والفكري ، وذلك بوصوله إلى الليبرالية الرأسمالية الأمريكية أو الرأسمالية في صورتها الأمريكية وكانت تلك الفكرة قد بدأت بمقال لكاتب أمريكي الجنسية ياباني الأصل هو : « فرانسيس فوكوياما » ثم توسع فيه فأصدر كتابًا يحمل هذه الفكرة ويدلل عليها تحت عنوان : « نهاية التاريخ والرجل الأخير » ، وبالطبع وجدت هذه الفكرة وهذا الكتاب من يروج له بواسطة قوى الإعلام الأمريكية الجبارة كأيديولوجية جديدة وتفسير جديد للتاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي في العالم على العالم كله أن يعتنقها أو يخضع لها .

وكان الاقتصادي الأمريكي روستو قد وصل إلى نتيجة قريبة من تلك التي وصل إليها فوكوياما إلا أنها لم تحظ بمثل هذا الانتشار الذي حظيت به نظرية فوكوياما ؛ لأن النظرية الأخيرة ظهرت في وقت ملائم لها ووجدت من الأجهزة الأيديولوجية والعسكرية الأمريكية من يروج لها .

والرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون يقرر أن انهيار الشيوعية يعني أن الحل الوحيد المتاح والصالح أمام البشرية هو الرأسمالية الليبرالية في صورتها الأمريكية ، بل إنه حتى يرفض الاشتراكية الديموقراطية وينعى على هؤلاء الذين لا

يزالون يحلمون بها أو يطبقونها أو يروجونها .

يقول ريتشارد نيكسون في كتابه « الفرصة السانحة » : « ويوجد خطر حقيقي بالنسبة لأوروبا في أن تتحول بعد عام ١٩٩٢ إلى دولة اشتراكية ديمقراطية ، وأن تتدخل الحكومات في الأسواق التجارية ، وهذا هو أحد الأسباب التي من أجلها يجب أن توجد أمريكا في أوروبا والعالم أجمع لكي تحول دون ذلك التحول ، إن التزامنا تجاه الحرية والسوق الحر ، يحتم علينا أن نقاوم القوى التي تحاول أن تجعل أوروبا تعود إلى الخلف » .

إذن ، فغير مسموح بغير الرأسمالية الليبرالية ، والسوق الحر ، أو الرأسمالية على النمط الأمريكي ، فليست الشيوعية فقط هي المرفوضة بل أيضًا أي شكل من أشكال الاشتراكية .

وخلاصة الأمر : أن القوى الإعلامية الأمريكية تروج الآن لمقولة : « أن الرأسمالية هي النموذج الصحيح الوحيد وانه غير مسموح بأي نمط آخر غير الرأسمالية في صورتها الأمريكية ، والسؤال يقود إلى سؤال آخر وهو : لماذا انهارت الشيوعية ؟ وهل كان ذلك بفضل ضغط النظام الرأسمالي اقتصاديًا وإعلاميًا عليها ؟ وهناك سؤال ثالث يطرح نفسه وهو : هل بعد انهيار الشيوعية ، هل تصلح الرأسمالية كبديل ؟

وفي الحقيقة ، فإن الشيوعية لم تسقط بسبب الضغط الاقتصادي الرأسمالي عليها ولا بسبب الإعلام الرأسمالي أو اقتناع الشعوب التي كانت تعيش تحت الحكم الشيوعي بأن الرأسمالية أفضل ، إن الشعوب التي ثارت على الشيوعية وأسقطتها لم تفعل ذلك بهدف الحصول على الرأسمالية ، إن تلك الشعوب ثارت على الشيوعية لأن الشيوعية نظام فاسد في أصله الفلسفي وفي تفسيره للتاريخ وفي منهجها السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، أي أنها سقطت من داخلها لأنها أفلست على

المستوى النظري والتطبيقي ، إن أحدا خارج الكتلة الشيوعية لم يكن يحلم بهذا الانهيار السريع والمدوي للشيوعية وحتى من الناحية الإعلامية ، فإن الشيوعية ظلت إلى آخر لحظة متفوقة على الرأسمالية وتجد من يقتنع بها من خارج السور الحديدي للدول الشيوعية أي من هؤلاء الذين لم يعرفوا فسادها لأنهم لم يعيشوا تحت حكمها ، ولعل هذا الأمر يعترف به ريتشارد نيكسون نفسه في كتابه « الفرصة السانحة » يقول نيكسون :

« منذ حوالي اثنين وثلاثين عامًا قال لي خروتشوف في موسكو بشيء من الصلف سوف يعيش أحفادك في ظل الشيوعية ، فأجبته قائلاً : سوف يعيش أحفادك في حرية وقد كنت متأكدًا في ذلك الوقت من خطأ ما قاله خروتشوف ، ولكني لم أكن متأكدًا من صحة ما قلته أنا » – أي أن نيكسون لم يكن متأكدًا من قدرة الرأسمالية على إقناع الشعوب التي تعيش في ظل الشيوعية بأن الرأسمالية صالحة ، وإن كان متأكدا أن الشيوعية فاسدة .

وإذا بحثنا عن سبب خارجي لسقوط الشيوعية وانهيارها ، إنه بالتأكيد لم يكن بريق الرأسمالية ولا بريق القيم الغربية برمتها بل كان في جزء كبير منه يعود إلى الإسلام وبريق الفكر الإسلامي ، الذي كان هو الوحيد القادر على المغازلة الفكرية أمام الشيوعية والتصدي لها والصمود الأيديولوجي لها ، وبالتالي فإن انهيار الشيوعية لا يعني صلاحية الرأسمالية ، بل يعني صلاحية الإسلام والأيديولوجية (العقيدة والنظرية) الإسلامية .

وقد تبدو هذه نقطة غريبة على البعض ، ولكن دعنا نستشهد برجل من أهلها وهو نيكسون أيضًا ... يقول نيكسون في كتابه « الفرصة السانحة » : « لقد وقف الإسلام بصلابة ضد الشيوعية أقوى مما وقفت المسيحية ضدها ، ولقد كان للوازع

الديني في الدول الإسلامية أكبر أثر في عدم تغلغل السوفيت في العالم الإسلامي » .

إذن كان هناك سبب أيديولوجي خارجي لسقوط الشيوعية وهو الإسلام والمبادئ الإسلامية ، وليس هذا فحسب ، بل إذا كان هناك ضغط سياسي وعسكري خارجي أدى أو أسهم في إسقاط الشيوعية فقد كان أيضًا للمسلمين وللجهاد الإسلامي الأفغاني دور فيه ، ونستدعي أيضًا نيكسون للشهادة ، على طريقة ، وشهد شاهد من أهلها ، يقول نيكسون : « إن شجاعة واستبسال المقاومة الأفغانية كانت من أهم الأسباب التي أدت إلى انهيار الإمبراطورية السوفيتية » .

وقد يقول قائل : إن الصمود الأفغاني كان بسبب المساعدات الأمريكية ... وهذا قول يفتقر بالطبع إلى الجدية فإذا لم تكن هناك مقاومة واستشهاد واستبسال وإرادة فولاذية للمجاهدين فإن تلك المساعدات لم تكن تفيد شيئًا ، ثم إن الحقيقة المعروفة تقول : إن أمريكا لم تقدم مساعدات حقيقية للمجاهدين الأفغان ، ونيكسون أيضًا يعترف بذلك ، فيقول نيكسون : « وعندما قام الجيش الأحمر بغزو أفغانستان عام ١٩٧٩ كان رد فعلنا رمزيًا فقد رفضنا مشاركتهم في الألعاب الأوليمبية وأوقفنا صفقة حبوب للاتحاد السوفيتي وأرسلنا بعض الأسلحة التي عفى عليها الدهر للمقاومة الأفغانية » .

إذن ، فقد كان انهيار الشيوعية ليس بسبب صلاحية الرأسمالية ولا بريقها الأيديولوجي ولا حتى ضغطها السياسي أو العسكري ، بل إن انهيار الشيوعية في حد ذاته يحمل في طياته عدم صلاحية الرأسمالية وفسادها أيضًا مثل الشيوعية تمامًا ، لأن كلاً من الشيوعية والرأسمالية قد خرجتا من نفس الأرضية الثقافية ، وهي الأرضية الثقافية للحضارة الغربية ، وبالتالي فإن فشل أحد الإفرازات وثبوت فساده يعني ضمنا فساد الأرضية الثقافية وفساد كل إفرازاتها .. يقول المؤرخ

الإنجليزي أرنولد توينبي مؤكدًا أن كلاً من الشيوعية والرأسمالية خرجا من نفس الأرضية الثقافية : « إن المنافسة بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة على زعامة العالم ، وبين الشيوعية والمذهب الحر بالتالي على اجتذاب ولاء البشرية هو موضوع نزاع عائلي داخل أسرة المجتمع الغربي » .

ونصل الآن إلى السؤال المهم والخطير بعد انهيار الشيوعية : وهل تصلح الرأسمالية لقيادة المسيرة البشرية ؟

وهذا يجعلنا نناقش الرأسمالية في أصلها النظري وفي تطبيقاتها ، وأصل الرأسمالية أنها إفراز طبيعي للحضارة الغربية ، تلك الحضارة التي أفرزت الفاشية والنازية والصهيونية والشيوعية ، وبالتالي فإنه من الطبيعي أن يكون مصير الرأسمالية مثل مصير باقي أخوتها إن شاء الله ، لأنها نشأت «مثلهم» من نفس الأرضية الفاسدة .

إن الجهاز الإعلامي الغربي عمومًا والأمريكي خصوصًا يقدم لنا الرأسمالية كتطور طبيعي داخلي في المجتمع الغربي ، فهل هي حقا كذلك ؟ والجهاز الإعلامي الغربي يقول لنا : إن الرأسمالية نجحت في أن تحقق العديد من الإنجازات في العالم الغربي بحيث أصبح مستوى دخل الفرد في المجتمعات الرأسمالية مقارنًا بالمستويات الموازية في كثير من بلدان العالم الثالث ما لا يقل عن عشرين إلى أربعين ضعفا في الغالب .

والحقيقة ، أن الرفاهية التي تعيشها دول الشمال الرأسمالي لم تكن بسبب الرأسمالية بل بسبب نهب ثروات الشعوب الأخرى واسترقاق أهلها ، وأن الرأسمالية ذاتها نشأت لتكون أداة هذا النهب ، ولنستمع في هذا الصدد لشهادة الأستاذ منير شفيق في كتابه : « الإسلام في معركة الحضارة » ..

يقول الأستاذ منير شفيق : « يجري التركيز النظري عند الحديث عن ولادة

الرأسمالية على اعتبارها مرحلة في سياق تاريخي متتابع تحكمه قوانين داخلية في المجتمع ، ولكن هذه مسألة لا تنطبق على المجرى الفعلي للتطور التاريخي ، أي لا يصعب الإثبات أن عملية العنف الخارجي والتوسع والنهب التي مارستها أوربا قامت قبل ولادة الرأسمالية ، ولم تقم لتلبية حاجة قوى إنتاج رأسمالية أصبحت تلح عليها لممارسة العنف والنهب والتوسع ضد الخارج ، إن الصورة في أوروبا تقول : إن الرأسمالية ظهرت لتلبي الحاجة الناشئة عن النجاح الذي أصابه العنف والتوسع والنهب الخارجي ، فهي أصبحت ممكنة ومتاحة لا نتيجة تراكم داخلي نبع من تطور قوي الإنتاج وإنما جاء نتيجة تراكم جاء من النهب الخارجي ومن ثم سمح التراكم بتطوير قوى الإنتاج وإحداث تراكم داخلي مرتبط به ومضاف إلى التراكم الأساسي الذي جاء ويجيء من عملية العنف والتوسع والنهب .

إن مجيء المجتمع الرأسمالي بعد الإقطاع أو على أنقاضه لا يؤدي إلى الافتراض تلقائيا بأنه تطور طبيعي في أحشاء المجتمع الإقطاعي لأن مجيء حدث بعد حدث في التاريخ لا يعني بالضرورة وجود رابطة سببية بينهما ، وإنما ينبغي أن تدرس الأسباب الحقيقية لحدوث الواقعة الجديدة ، ومن ثم يثبت إن كان هذا التتالي نتاج تطور طبيعي أم نتاج عوامل لا علاقة لها بتطور تلقائي داخلي في الحديث السابق .

وتؤكد الوقائع التاريخية أن ممارسة الإقطاع الأوروبي للتوسع والنهب والعنف كان أسبق من تطور قوي الإنتاج الرأسمالي أو البرجوازية في داخله ، ومن ثم من المهم جدًا تحديد أيهما أسبق أو تحديد أيهما كان سببا لوجود الآخر ، وهنا تطرح الفكرة القائلة بممارسة العنف والتوسع والنهب من الخارج هي التي ولدت الحاجة إلى تطوير قوى الإنتاج وساعدت عليه ، فعندما وجدت أوروبا نفسها قد توسعت في عدد من الأقطار الأفريقية والآسيوية والأمريكتين ، بدأت ترى العالم كله قابلا

للوقوع الكامل في قبضتها ، الأمر الذي جعلها بحاجة إلى نظام ديناميكي (فاعل ومتحرك) نشط قادر على اكتساح العالم كله والسيطرة عليه ، وهذا ما جعل أوروبا تعيد صياغة نفسها في البوتقة الرأسمالية بما يخدم هذا الوضع الجديد ولآفاقه المستقبلية ، قد يقول قائل ولكن التوسع الخارجي والنهب والعنف هي أمور وجدت في مجتمعات عديدة في التاريخ ولم تتطور إلى رأسمالية ، ولكن هذا القول مردود عليه ؛ لأن حدوث التوسع هنا عاش مع تطور محدود للعلوم قد وصله العالم في ذلك الوقت وقد ساعد على استقبال الحاجات الجديدة واستخدامها في تطوير أدوات الإنتاج ، فضلاً عن السمات الخاصة الأساسية للأرضية التي قام عليها النمط المجتمعي الحضاري الأوروبي تاريخيًا ، مثل سمة الملكية الفردية والطبقية وما لعبته من دور عبر المراحل المختلفة ويقود هذا إلى عدم صحة القول بتطور طبيعي للرأسمالية من أحشاء الإقطاع ، وإنما تصبح الرأسمالية نتاج حالة عالمية تكونت في ظرف استثنائي سمح لأوروبا أن تنجح في اجتياح العالم بالقوة ، ومن ثم هي الابنة الشرعية لهذا الشرط العالمي ولا تستطيع أن تستمر إلا بإعادة توليده باستمرار ، أي بإعادة السيطرة على العالم بالعنف وتحقيق أقصى درجات النهب وأقصى درجات الأرباح ، ومن ثم سيطرة قلة من الدول المتصارعة فيما بينها على العالم كله ونهبه والمضي في هذا الطريق حتى النهاية .

إن مسار تطور الرأسمالية لا يتجه إلى تحقيق الرفاهية والتقدم لكل الشعوب بل لعدد محدود جدا منها « أمريكا وأوروبا » ، لأنه كلما تضخمت تلك البلدان أكثر ، أصبحت أكثر ارتباطا بحالة السيطرة والنهب والعنف والتوسع ، أي لم تعد قادرة على الكف عن العنف والنهب والسيطرة ، انه اتجاه التضخم باستمرار والعنف الأهوج والنهب بلا حدود ، والجشع بحده الأقصى » .

إذن فالذين يبشروننا بصلاحية الرأسمالية وأنها الكلمة الأخيرة في التاريخ إنما هم يبشروننا في الحقيقة بهيمنة ورفاهية وسيطرة دولة أو مجموعة دول قليلة على العالم كله ، تقوم فيه بدور النهب والعنف والسيطرة ، وبالطبع نحن من ضمن الدول والشعوب التي ستكون مادة للنهب والعنف والسيطرة أي الضحية ، لأن الرأسمالية لا تستطيع أن تعيش إلا بالنهب الخارجي والعنف والسيطرة .

وإذا كان هذا نصيبنا ونصيب الدول المستضعفة عمومًا في عالم الرأسمالية فإنه حتى الدول التي ستقوم بدور السيطرة في ظل الرأسمالية سوف تعود فتنهار هي الأخرى ، لأنه من المحتوم أن ينتهي هذا العنف والنهب اللانهائي بتدمير نفسه ، لأن ما يحدث أمامنا من التضخم في القوة العسكرية وتلويث البيئة وثقب الأوزون والعنف اللانهائي يجعلنا نقول : إن هذه الدول الرأسمالية المسيطرة تسير في الاتجاه الديناصوري أو اتجاه التدمير الشامل ، أنها تدمر كل شيء .. البيئة والفضاء ، ولا تسمح لنفسها إلا بالاستمرار نحو التضخم حتى الانفجار .

ولكن في ظل هذا ، ما هو الحل ؟ فلنعد إلى الأستاذ منير شفيق الذي يقول : « إن مصير العالم سيظل مظلما ما دامت تلك البلدان برأسماليتها قادرة على استخدام العنف ، أما الأمل ببزوغ فجر جديد ، وهذا لا يكون إلا إذا نجحت الثورة في البلدان الإسلامية وفي بلدان أسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية من جهة أو دمرت الدول الكبرى نفسها بشكل أو بآخر بحرب أو بدون حرب وأصبحت عاجزة عن المحافظة على سيطرتها وغير قادرة على استعادة تلك السيطرة من جهة أخرى ، بل لابد من أن يصل هذا المسار الديناصوري للحضارة الغربية حتى منتهاه ، فتصبح أرض تلك الحضارة عطشى إلى الخروج ، الجاهلية والظلمات والدخول في عالم النور أي الخروج من عبودية المادة والنهب والقوة والانحلال الأخلاقي والحروب

المدمرة حتى للحياة نفسها إلى عالم توحيدي واحد ، تتوازن فيه الجوانب العقيدية والفكرية والثقافية والأخلاقية في حياة الفرد والجماعة والبشرية كلها ، أي تتغير الغايات المتمثلة في تحقيق أكبر قدر من إشباع الشهوة والحاجات المادية والسلع والقوة والسيطرة على حساب الغالبية العظمى من العالم وعلى حساب فطرة الإنسان وجوهره ، وهي تفعل ذلك ، بينما أصبحت تمتلك مخزونا مروعًا من أسلحة الدمار الشامل خصوصًا النووية والجرثومية والكيماوية ، ولا يتوهمن أحد أن ذلك لا يشكل خطرا محدقا ، وما وصول تلك الحضارة إلى هذا المخزون الرهيب إلا دليل على اتجاه مسارها ، وعلى جوهرها الهمجي والمتخلف والرجعي ، وهي العبارات التي طالما استخدمتها هي بحق غيرها من الحضارات ولكنها شديدة الانطباق عليها على الرغم من كل تنظير يخفي تلك الحقيقية الصارخة ، وهنا يحق للإسلام أن يطرح نفسه مشروعًا متألقًا أمام هذا الظلم الدامس الذي تنشره الحضارة الغربية » .

■ ■ ■

الرأسمالية
في صورتها الأمريكية

■ كيف نواجه الرأسمالية ...

■ وما هو البديل؟

◆◆◆

آلة شيطانية ضخمة ، ترأسها بشر ، تقتل الأطفال ، تمتص دماء البشر ، تعذب المرأة وتظلمها ، تجتث جذور الثقافات ، تنتشر المذابح والتطهير العرقي ، وحروب الإبادة ، والطائفية والعنصرية ، الاستعمار ، النازية ، الفاشية ، العنف ، القهر ، تدمير القيم ، نهب ثروات الشعوب والأفراد ، بلا رحمة وبلا هوادة ، وفي كل يوم جديد يزداد جشع تلك الآلة الشيطانية حتى أنها بدأت تأكل نفسها وتنفصل حتى عن إطارها الاجتماعي لتصبح هي ذاتها مستقلة عمن صنعوها بل أصبحت خطرًا عليهم أيضًا .

هذه الآلة الشيطانية هي بالتحديد النتيجة الحتمية للصعود الغربي بدءًا من الكشوف الجغرافية والاستعمار وسباق الإعلام وانتهاء بالبورصات العالمية التي تعمل ٢٤ ساعة في الـ ٢٤ ساعة والخبراء والحاسبات الضخمة والأقمار الصناعية والبث المباشر ، البنك الدولي والجات وصندوق النقد الدولي ومجلس الأمن وقوات حفظ السلام الدولية ! وأخيرًا الشركات العابرة للقوميات ، والتي أصبحت ميزانية واحدة منها أكبر من ميزانية دول وهي مجتمعة . ميزانيتها أكبر من ميزانية الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ، إنه عصر الفوضى واللاثقافة و اللاحضارة .

وضحايا هذه الآلة بالملايين ، بل ألوف الملايين ، شعوب كاملة ، قارات كاملة ، أطفال ، نساء ، رجال ، حضارات ، ثقافات ، فقر ، جهل ، مرض ، مدن الصفيح وإنسان بلا جذور ، تخريب بحت للهياكل الاقتصادية والاجتماعية ليحل محلها كومة ضخمة من الخردة وأناس بلا مستقبل بل بلا حاضر أيضًا .

هل نقول : إن هذه الآلة الشيطانية هي المنظومة الحضارية الغربية باعتبارها أن تلك المنظومة الحضارية الغربية هي التي أفرزت تلك الآلة الشيطانية .. نعم .. ولكن أيضًا لا .. لأن تلك الآلة أصبحت نفسها أكبر من تلك المنظومة واستقلت عنها .

وليس هناك من حل بالطبع سوى تدمير هذه الآلة الشيطانية – الثورة – ثورة المحرومين والفقراء والمهمشين والمقهورين في كل مكان ، ثورة تضم كل ضحايا هذه الآلة ، الأفارقة ، السود ، الشعوب المطحونة في آسيا وأمريكا اللاتينية ، ضحايا تلك الآلة داخل الغرب نفسه كالمرأة مثلاً ، المرأة الغربية التي دفعت ثمن الشذوذ والإباحية تعاني آلاما مبرحة من مجتمع بلا قيم ولا ضمير .

وعلينا الآن أن نحدد طبيعة هذه الآلة الشيطانية ، وكذا جذورها والمنظومة الاجتماعية التي أفرزتها ، وكذلك تطوراتها حتى وصلت إلى حالتها الراهنة البشعة .

وإذا كان من المفيد أن نبدأ بشيء ، فهو المنظومة الاجتماعية والحضارية التي أفرزت تلك الآلة الشيطانية ، وهي المنظومة الحضارية الغربية التي أعطت تلك الآلة سماتها الثابتة والمتغيرة أيضًا . والحضارة الغربية حضارة تقوم على الوثنية والعنف والقهر ، ولا يمكن فهم هذه الحضارة ولا ميكانيزمات (آليات) عملها بعيدًا عن سمات العنف والقهر والوثنية ، الحضارة الغربية هي حضارة إغريقية هيلينية في جوهرها ، أما المسيحية فلم تكن إلا قشرة خارجية لتلك الحضارة ، ذلك أن المسيحية تحولت إلى دين إغريقي وثني داخل الغرب ولم يتحول هذا الغرب إلى المسيحية ، وعلينا أن ندرك في هذا الصدد أن المسيحية دخلت إلى الغرب عن طريق إمبراطور آمن بها وفهمها على طريقته الإغريقية ثم فرضها على شعبه فرضا ، ثم تبنت ممالك هذه الديانة وأكرهت الآخرين على اعتناقها وإلا تعرضوا للذبح ، وليس التنصير الوحشي للساكسونيين على يد القديس بونيفاس إلا مجرد نموذج ينطبق على كل الحالات تقريبًا ، وهكذا تحولت المسيحية إلى ديانة إغريقية ، وبدلاً من التسامح المسيحي ، أصبح العنف جزءًا أصيلاً من المسيحية الغربية .

وحتى اليوم يتم تنصيب بابا روما وفقًا لقواعد البروتوكول (النظام) الخاص

بتنصيب كهنة المعابد الإغريقية ، أضف إلى هذا أو قل نتيجة لهذا فإن الكاثوليكية لعبت دورًا مهمًا في عملية الاستعمار الغربي للعالم ، وكانت دائمًا طليعة للاستعمار وباركت دائمًا أو شاركت في عملية قهر ونهب الشعوب الأخرى على يد الغرب في المرحلة الاستعمارية حتى إن الاستعمار في رموزه كان عبارة عن عسكريين وتجار ومبشرين !

والبروتستانتينية لم تكن إلا تطورا في المسيحية الإغريقية وأكبت مرحلة أخرى من مراحل تطور آلة العنف والقهر الغربي ، ولم تكن إصلاحًا دينيا بل كانت وصفة عالمية للنجاح في الأعمال التجارية ، ولم تكن عقلانيتها المزعومة إلا نفعية حقيقية وباختصار .. كان الاقتصاد السياسي هو الديانة البروتستانتينية الجديدة ، ولا ننسى أن المسيحية الغربية التي أصبح العنف سمتها الرئيسية ارتبطت بالمذابح الدينية والحروب الطائفية ومحاكم التفتيش !

مع الصعود الغربي إبان ما يسمى بعهد النهضة الأوروبية تم بعث الثقافة الإغريقية والهيلينية ، وتم بعث الدول والفكرة القومية وظهرت البروتستانتينية لتلائم قيم العقلانية والتنوير والنفعية ، وأصبحت ديانة جوهرها الاقتصاد السياسي وبدأت مرحلة الاستعمار ، أو ما يسمى بسباق الإعلام ، حيث تسابقت الدول الأوروبية على استعمار العالم ، ومن خلال إبادة شعوب أمريكا واستراليا ، ومن خلال نهب ثروات تلك القارات المكتشفة ، وكذا نهب ثروات الشعوب في آسيا وأفريقيا ، ثم استرقاق سواعد السود لبناء القاعدة الإنتاجية لتمويل عمليات الاسترقاق أو التجارة خلف البحار ظهرت الثورة الصناعية أو التقدم الصناعي الغربي ، والرأسمالية التي أصبحت منذ تلك اللحظة سمة رئيسية من سمات الآلة الشيطانية من سمات الغرب والحضارة الغربية ، ويجب أيضًا أن نضع في اعتبارنا أن

الرأسمالية أيضـًا أصبحت أداة قاسية وحادة في المزيد من الاستعمار وفتح الأسواق والنهب والقهر وتطوير الأداة العسكرية للغرب ومع عام ١٩١٤ كان معظم العالم خاضعًا للاستعمار الأوروبي ، ولكن كان من الطبيعي أن الآلة الشيطانية لا تكف عن العنف فبعد أن مارست هذا العنف والنهب على العالم بأسره مارسته أيضًا مع نفسها ، فكانت الحرب العالمية الأولى والثانية .

واستطاعت الآلة الغربية الشيطانية أن تطور نفسها ، فكانت مرحلة ما يسمى بتصفية الاستعمار ، أو قل مهزلة تصفية الاستعمار ؛ ذلك أنه لم يكن أكثر من تطوير للوسائل في عملية النهب والقهر الغربية المستمرة .

ويعبر المفكر الفرنسي « كِ موريل » عن ذلك قائلاً :

« إن أروع ما حققه الاستعمار هو مهزلة تصفية الاستعمار ، لقد انتقل الرجل الأبيض إلى الكواليس ، لكنه لا يزال مخرج العرض المسرحي » .

وبدلاً من العسكر والتجار والمبشرين ، أصبحت هناك حكومات وطنية تقوم بمهمة القهر نيابة عن عسكر الغرب ، وتقوم أيضًا بالوكالة في تسهيل عملية النهب ، أصبح هناك جيش وطني وشرطة وطنية مهمتها الوحيدة القمع والقهر ، وأصبح هناك وكلاء تجاريون يمررون عملية النهب ، وأصبح هناك مثقفون مغتربون يسهمون في اجتثاث جذور الثقافة وترويض الإنسان المحلي وتنويمه دائمًا .

تطورت آلة النهب والقهر ، فأصبحت عبارة عن خبراء وبورصات عالمية تعمل ليلاً ونهارًا ، أقمارًا صناعية ومحطات بث مستمرة لاجتثاث الثقافات ، مجلس أمن ، وقبعات زرقاء شركات عابرة للجنسيات ، شعارات ومبادئ تسهل عملية النهب وتزيده قوة مثل : حرية التجارة ، حقوق الإنسان ، التنمية ، التصنيع ، التنوير ..الخ .

والأمر الآن أشبه بمركز كبير للنهب تمتد منه شبكة ضخمة من الأنابيب إلى كل

مكان على وجه الأرض ، إنه وحش مفترس يمد خراطيمه في كل اتجاه يمتص دماء الآخرين ويتغذى على خلاياهم العصبية ، ويحولهم إلى حالة غير مسبوقة من البؤس ، وهناك آلات رفع ضخمة تسهم في سرعة تدفق الثروات المنهوبة مثل البنك الدولي ، صندوق النقد الدولي ، البورصات ، حرية التجارة ، المؤتمرات العالمية مجلس الأمن ... الخ ... وحتى القروض والمنح التي تمنح للمنهوبين من وقت لآخر ليست إلا وسيلة لتنظيف أنابيب النهب وزيادة كفاءتها والمزيد من بناء وتشييد محطات لرفع الثروات المنهوبة والقضاء على أية نتوءات اقتصادية أو ثقافية أو هياكل اجتماعية تعرقل أو تبطئ عملية النهب .

وفي كل يوم يزداد الوحش جشعًا ويزيد جوعة ، وفي كل يوم تتطور الآلة ، آلة النهب والقهر الوحشية وتزداد شراهة ويزداد الضحايا كما ونوعًا بالتالي ، وآخر التطورات في هذا الصدد هو الشركات العابرة للجنسيات ، وبدلاً من أن تقوم بعملية النهب دول قومية كهولندا وانجلترا والولايات المتحدة مثلاً ، أصبحت الفكرة القومية وسيادة الدول ذاتها في مهب الريح ، وإذا كانت تلك الشركات العابرة للجنسية اليوم تمثل رأس مال إحداها أكبر من ميزانية دولة ، وتمثل ميزانياتها مجتمعة أكبر من ميزانية الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها ، فإن الأمر مرشح للاتساع في هذا الاتجاه ، وهكذا فنحن أمام تطور جديد لشكل وطبيعة النهب سيؤدي بالضرورة إلى قيام علاقات جديدة واقتصاد سياسي جديد ، ومزيد من الضحايا الذي لن يفلت منه هذه المرة حتى الغرب ذاته ، فالأمر أصبح أكبر من الدولة القومية وحتى من قارة بأكملها .. إن الوحش أصبح غير خاضع لأحد ، ولم يعد له مروضون أو مسيطرون .. إنه المزيد من البؤس .. . والفوضى والجنون أيضًا .

إن أحد علامات هذه الفوضى هو تنميط الإنسان وفقًا لثقافة واحدة ، وإذا كان

الغزو الثقافي والبث المباشر وغير المباشر وسيطرة الغرب على وسائل مهيمنة لنشر ثقافات معينة كان بهدف اجتثاث جذور الثقافات الأخرى وتحويل الإنسان من خاضع بالقوة للنهب إلى مدمن لهذا النهب ، بمعنى أن يسعى هو نفسه إلى الوحش مصاص الدماء ويطلب منه ويلح أن يمص دمه فإن الأمر قد يتجاوز هذا التصور إلى عالم بلا ثقافة ولا حضارة على الإطلاق أو نهاية العالم .. ولكن ينبغي أن تكون نهاية الغرب وحده ، وليس نهاية العالم ، وهذا يقتضي الثورة لتحطيم الآلة الشيطانية .

على أي حال ، يجب أن نفكر في معنى العالمية ، الثقافة العالمية وأن نفكر فيما يروجون له من قيم حضارية واحدة وغيرها .. وأن نديم التأمل في معنى أن مراكز البث الإعلامي الغربي تسيطر على صناعة الأخبار والمعلومات والفنون ، وبالتالي المشاهد والأذواق والأوامر في إطار أنه تغريب للعالم بالقوة بهدف قتل واقتلاع جذور الثقافات الأخرى ، وأيضًا هو في النهاية معاداة لكل ثقافة ، لأنه في عالم ذي ثقافة واحدة فإنه لا ثقافة على الإطلاق ! إنه عصر القرود والكائنات المنحطة .

سنبحث الآن عن الضحايا من جهة .. والمستفيدين من جهة من آلة القهر والنهب الشيطانية .. مع الأخذ في الاعتبار أن الضحايا يزدادون دائمًا كمًا ونوعًا ، وأن المستفيدين يقلون باستمرار لأن الآلة الشيطانية تزداد شراهة بمتوالية هندسية وسنبحث عن الحل أيضًا . سنبحث عن العدل المفقود وهو بحث الإنسان الدائم .

وسنبدأ بسؤال ساذج وهو : هل يمكن إقناع المستفيدين بالكف عن النهب والقهر؟ هل يمكن إيقاف عمل الآلة الشيطانية عن طريق الإقناع ؟ أي هل يمكن تحقيق عدل شامل أو حتى جزئي عن الطريق السلمي ؟ ، والإجابة الوحيدة هي : لا .. لأن طبيعة الآلة وجوهرها عدواني ، قهري ، نهبي ، ومن العبث طبعًا إقناع الوحش بالكف عن امتصاص الدماء .

إذا لا طريق إلا الثورة ، ولكن ما هي أيديولوجية تلك الثورة وإلى أي جذر اجتماعي وثقافي تستند ، ومن هم جنودها ؟ ! وهذا سؤال سنجيب عنه بعد فرز المعسكرين ، معسكر الاستكبار ، وكهنة الآلة الشيطانية ومعسكر الضحايا وبالتالي جنود الثورة .

وسنبدأ في دراسة معسكر الاستكبار والمستفيدين ، وسوف نستطرد قليلاً باتجاه الماضي .. في بداية الاستعمار كان من الممكن أن نجد في المستفيدين دولا قومية ، أو حتى طبقات اجتماعية فقط داخل هذه الدول الاستعمارية: التجار ، البرجوازية الصناعية ، العسكر ، المبشرين .. أما الآن ، ومع التطور الهائل للآلة الشيطانية عن طريق الشركات العابرة للجنسيات ومع ازدياد شراهة آلة النهب والقهر لم يعد هناك سوى كبار رجال المال وأصحاب الشركات العابرة للجنسيات والجنرالات الكبار وأصحاب البنوك الكبرى وشبكات البث ، وعلى مستوى أقل الخبراء ، المثقفين المغتربين الذين يبيعون كلماتهم لقاء شيء من دماء الفريسة والمرتبطين بالترويج للآلة الشيطانية ، الوكلاء التجاريين والحكام المحليين في العالم المستضعف الذين يشاركون في ذبح شعوبهم ونهبها لقاء ثمن كبير أو صغير .

أما معسكر الضحايا فهم كل الشعوب المقهورة والمنهوبة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، وهم أيضًا المرأة في الغرب التي حولتها الآلة إلى سلعة تجارية والتي أتعسها السباق الاجتماعي الغربي الذي يسمح بالشذوذ ، فمثلاً لو كان هناك ٣٠ ٪ من هذه المجتمعات شواذًا وهؤلاء يستهلكون مثلهم في إشباع شذوذهم ، فماذا يبقى للمرأة الغربية سوى العنوسة والحرمان ، ثم لماذا تتحمل المرأة مثلاً عبء الجنين غير الشرعي وحدها وحتى لو كان هناك حديث عن إجهاض آمن .. ليس هناك طبعًا إجهاض آمن ؛ لأنها عملية جراحية في النهاية لها آثارها الصحية مهما

كانت الوسائل الصحية متقدمة ، أليس هذا دليلًا على الظلم الواقع على المرأة ؟ لماذا لا تحتفظ بجنينها ويتحمل الرجل معها أعباء ولادته وتربيته بدلاً من إجهاضه وقتله ؟ المرأة إذن في الغرب ضمن معسكر الضحايا وضمن جنود الثورة بالتالي . والطبقة العاملة الغربية وصغار الموظفين والعاطلون أيضًا والأطفال اللقطاء كل هؤلاء جنود في الثورة ؛ لأنهم ضحايا . وإذا كان الغرب في مرحلة تاريخية من تطور آلة النهب والقهر قد نجح في رشوة البروليتاريا وتحييدها بالتالي عن طريق شيء من المكاسب الاقتصادية والاجتماعية ، فإن استمرار تطور الآلة وبالتالي زيادة جشعها ونهمها اللانهائي سيجعل من المستحيل استمرار تقديم هذه الرشوة وبالتالي فإن هؤلاء الآن أو غدًا سيجدون أنفسهم في معسكر الثورة ويجب الأخذ في الاعتبار هنا تزايد معدلات البطالة والتخلص من العمالة باستمرار في الغرب ، وهذا أمر مرشح للاتساع والتفاقم .

بقي علينا أن نبحث في أيديولوجية تلك الثورة ، وينبغي في البدء أن نقرر حقيقة لا يمكن الشك فيها من منظور فلسفي ، ومن منظور واقعي وتجريبي أيضًا ، ذلك أن أيديولوجية أي ثورة لا يمكن أن تكون مستمدة من الأرضية الاجتماعية والفلسفية نفسها بل والمعرفية التي أنشأت الأوضاع التي سوف نثور عليها ، ولعل هذا بالتحديد كان السبب في فشل تجربتين ثوريتين هما : الثورة الاشتراكية الماركسية ، ولاهوت التحرير المسيحي في أمريكا اللاتينية ، ولا شك الآن ومن منطلق تجريبي ومعرفي أن ثورة تستند في أساسها الأيديولوجي والثقافي إلى ثقافة أفرزت الحالة التي نبغي الثورة عليها هي ثورة زائفة ، بل هي تكريس وتقوية للأوضاع التي يجب الثورة عليها ، لابد إذن أن تكون أيديولوجية الثورة نابعة من سياق ثقافي مخالف بل وعدائي للأرضية الفلسفية والثقافية التي أفرزت الحالة والظاهرة التي تستهدف

الثورة الإطاحة بها .

فالماركسية ، مثلاً ، نشأت من قلب الفلسفة الأوروبية ، وبالتحديد الألمانية ، واستندت في تحليلها الاقتصادي والتاريخي إلى علوم الاقتصاد السياسي وعلم التاريخ الغربي والأوروبي بالتحديد ، ولذلك فشلت وما كان لها إلا أن تفشل بل إن فشلها الطبيعي كان دليلاً جديدًا على فساد المنظومة الحضارية الغربية برمتها .

يقول المفكر الفرنسي سيرج لاتوش في كتابه (تغريب العالم) :

« إن الاشتراكية كما تحققت في الواقع ليست سوى شكل خاص مختلف من النظم الرأسمالية والمجتمعات الغربية ، فنحن نلقي بكل تأكيد التصنيع مع التمدين وتحويل الجماهرية إلى بروليتاريا لكن بوجه خاص عبادة الآلة والتقنية والعلم والتقدم واستئناف مشروع الحداثة المتمثلة في قهر الطبيعة .. إنها ميكانيزمات الرأسمالية نفسها » .

ويقول: « الرأسمالية مجرد آلية – طبيعية عند الليبراليين ، اصطناعية عند الاشتراكيين – وبالتالي ، فالرأسمالية هي الليبرالية والاشتراكية معًا ، وهي مظهر من مظاهر الخصوصية الغربية للغرب » ويضيف: « إن النموذج السوفيتي مثلاً شكل مختلف للمشروع الغربي أكثر مما هو بديل حقيقي له » .

ويقول المفكر الإنجليزي أرنولد توينبي: « إن المنافسة بين الاتحاد السوفيتي – السابق – والولايات المتحدة على زعامة العالم ، وبين الشيوعية والمذهب الحر بالتالي على اجتذاب ولاء البشرية هو موضوع نزاع عائلي داخل أسرة المجتمع الغربي » .

وللأسباب لنفسها كان من الطبيعي أن تفشل أيضًا مسألة لاهوت التحرير المسيحي في أمريكيا اللاتينية وأن تكون ثورة زائفة أيضًا ، لأن جذرها الثوري نبع أيضًا من نفس المنظومة الحضارية الغربية نفسه ومن الوضع الاجتماعي ذاته الذي

كان ينبغي الثورة عليه، فلاهوت التحرير المسيحي في أمريكا اللاتينية ينبع من الكاثوليكية، وهي مسيحية غربية وجزء من المكون الثقافي والحضاري الغربي تحمل نفس سماته وعيوبه ذاتها أيضًا، بل أكثر من هذا، فإن الكاثوليكية بالتحديد تتحمل جزءًا كبيرًا من جريمة استعمار أمريكا اللاتينية وما حدث فيها من إبادة للسكان الأصليين ثم نهب مستمر فيما بعد لثرواتها وشعوبها، وفي هذا الصدد يقول سمير مرقص في مقال له في مجلة القاهرة، عدد يناير ١٩٩٤ تحت عنوان: « تجربة لاهوت التحرير » كانت الكنيسة الكاثوليكية جزءًا من المشروع الكلي لغزو واستعمار شعوب القارة الجديدة وقد أسهمت الكنيسة بفاعلية في فرض القانون الاستعماري على المواطنين الأصليين للقارة اللاتينية، ومن المعروف تاريخيًا أن البابا ألكسندروس السادس هو الذي قضى بتقسيم القارة الجديدة بين الأسبان والبرتغال ».

كانت الدودة إذن داخل الثمرة في كل من الثورة الاشتراكية ولاهوت التحرير المسيحي في أمريكا اللاتينية لأنها نتجت من الشجرة عينها التي كان ينبغي أصلا قطعها وحرقها، وكان من الطبيعي أن تفسد الثمرة.

وعلينا إذن أن نبحث عن جذر أيديولوجي للثورة العالمية على الآلة الشيطانية آلة النهب والقهر الغربية خارج شجرة الحضارة الغربية.

ينبغي، إذن، أن تكون ثورة تستند إلى ثقافة مغايرة، وذات جذر حضاري مختلف بل عدائي، وبما أن جنود الثورة هم كل شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بل المرأة والعمال والعاطلون وصغار الموظفين في أوروبا وأمريكا؛ فإن أيديولوجية الثورة ينبغي أن تستند إلى حضارة ذات قيم عالمية ولا شك أن الإسلام هو وحده الذي يمتلك كل هذه الخصائص التي ترشحه لأن يكون جذرا ثقافيا لتلك الثورة، فالحضارة الإسلامية حضارة عالمية بكل المقاييس، فالخطاب

الإسلامي – من ناحية – لم يوجه إلى منطقة جغرافية أو عرق بشري معين بل للعالم كله « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، ومن ناحية أخرى فإن الحضارة الإسلامية أسهم فيها الأسود والأصفر والأبيض والأحمر ، الأفريقي والآسيوي والأوروبي ، التركي والهندي والعربي والفارسي .. الخ .. وإذا كانت التجربة قد أثبتت أن تلك الحضارة استوعبت إسهام الجميع ؛ فكانت عالمية بالتجربة ، وإن خطابها عالمي في أصله فإنها وحدها القادرة مرة أخرى على احتضان الثورة العالمية الجديدة وأن تكون جذرًا أيديولوجيا لها . وكذلك فإن الحضارة الإسلامية – انطلاقًا من الإسلام – لم تحاول إكراه أحد على اعتناق الدين الإسلامي « لا إكراه في الدين » .. ومن هنا نجد أنه لا يزال في العالم الإسلامي أقليات مسيحية ويهودية .. الخ بل نجد أن تلك الأقليات ومن خلال جو التسامح اندمجت في الحضارة الإسلامية دون أن تدخل الإسلام ، مما يدل على أن الإسلام ، وهو دين رباني – يمكن أن تكون حضارته وثقافته أيديولوجية لغير المسلمين .

نلاحظ أن الحضارة الأوروبية غير عالمية رغم زعمها وترويجها لهذا المصطلح ، لأن العالمية تقتضي معايير عالمية ، ولا يمكن لحضارة أفرزت العنصرية ونهب الآخر أن تكون عالمية ، ولا يمكن لحضارة قامت على استلاب الآخر وقهره أن تكون عالمية .

وبالإضافة إلى ما سبق ؛ فإن الإسلام لم يعرف العنصرية « كلكم لآدم وآدم من تراب » ، « لا فرق بين عربي ولا أعجمي ولا أسود ولا أبيض » ، وكذلك دعا إلى استثمار البيئة عدم قهرها ، ودعا إلى العدل والإنصاف والحرية . فالجهاد الإسلامي مثلاً كفريضة على المسلمين يتوجه لإزالة القهر والنهب وتحقيق الحرية والعدل دون أن يكون فرضا للإسلام على الآخرين ، وبالتالي فالتراث الثوري للإسلام عظيم

جدًا ، وهذا التراث الثوري يجعل الإسلام صالحًا كجذر لأيديولوجية الثورة العالمية ، فإذا كان الجهاد هو في حد ذاته ثورة على الظلم والقهر والنهب وإزالة الاستكبار والاستبداد ومحكوم أيضًا باعتبارات وقيم رفيعة ، بحيث لا يكون هناك عدوان إلا على الظالمين (قاتلوهم حتى لا تكون فتنة) فتنة الظلم والكفر ، والنهب والقهر ، (فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) . فغايات الثورة الإسلامية ، وبالتالي العالمية هي القضاء على النهب والقهر والعنصرية والتغريب وتدمير الآلة الشيطانية الغربية وتحقيق العدل والمساواة واللاعنصرية بل والمجتمع اللاطبقي واحترام كرامة الإنسان أليست هي نفس المبادئ الإسلامية ؟

وكراهية الظلم – بل جعل الثورة عليه فريضة إسلامية هي من الأمور المعلومة من الإسلام تمامًا ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ وفي الحديث القدسي: « **وانتقمن ممن رأى مظلوما فقدر أن ينصره فلم يفعل** » أي أن رؤية الظلم ولو على الآخرين وعدم الثورة على الظالم إنصافًا للمظلوم أمر يستوجب انتقام الله تعالى وغضبه .

ويقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): « لا يقفن أحدكم موقفًا يقتل فيه رجل ظلمًا فإن اللعنة تتنزل على من حضره حين لم يرفعوا عنه ، ولا يقفن أحدكم موقفًا يضرب فيه رجل ظلما فإن اللعنة تتنزل على من حضره حين لم يرفعوا عنه » .

وفي إطار الآداب والقيم المعروفة للثورة والجهاد الإسلامي: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الشورى] .

والتراث الإسلامي نصوصيًا وحضاريًا غني بالدعوة إلى الثورة على الظالمين وفق قيم وآداب رفيعة تحول بين الخلط بين الثورة والفتنة والبغي ، وتحدد هدف الثورة « الظالمين » . ولا شك أن آلة النهب والقهر الغربي وهؤلاء المستفيدين منها ظالمون

جائرون ، لهم ضحايا ومظلومون بالملايين ، والأمر يستحق الثورة وحتى في إطار إنصاف الفقراء والمحرومين وتحقيق العدل الاجتماعي فإن التراث الإسلامي غني بالنصوص والمواقف والرؤى والمناهج التي تجعل منه جذرًا ثقافيًا لأيديولوجية الثورة العالمية ، ثورة الفقراء والمطحونين والمحرومين « ليس منا من بات شبعانًا وجاره جائع » ، والجار هنا قد يكون فردا أو أسرة أو دولة أو قارة أو حتى كوكبا « من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، من كان عنده فضل مال .. أو فضل زاد أو ملبس .. الخ فليعد به على من لا مال له .. الخ » وهي دعوة لتحقيق المجتمع اللاطبقي ، ودعوة أيضًا للثورة على هؤلاء الذين يمنعون ما زاد على حاجتهم في حين يحتاج إليها الآخرون .

وعلى ابن أبي طالب يقول: « ما منع غني إلا بما حرم منه فقير » أي أن تراكم المتعة والغني والمال يأتي من سرقة حقوق الفقراء سواء بسوء توزيع الثروة المتاحة – السرقة من المنبع – أو بأكل فائض قيمة عمل هؤلاء الفقراء بإعطائهم أقل من حقهم في عملهم وكدحهم ، أو بتعطيلهم عن العمل أو الفساد والرشوة .. الخ ..

وأخيرا قول أبي ذر الغفاري ﷺ : « **عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاهر سيفه** » وهو يؤكد هنا وجوب ومشروعية ثورة الفقراء والمحرومين ، وهكذا فالإسلام من حيث عالميته ، ومن حيث كونه ثقافة مغايرة ومعادية للثقافة والحضارة الغربية ، وبحكم نصوصه وتراثه الثوري عمومًا والدعوة إلى ثورة الفقراء والمحرومين خصوصًا يصلح كجذر أيديولوجي للثورة العالمية المنشودة .

ويبقى هنا أن يضطلع المسلمون بعبء الثورة العالمية كجنود لها ، وكطليعة أيضًا لباقي المطحونين والمحرومين في العالم وأن يضطلع علماء الإسلام بتقديم الإسلام

كأيديولوجية للثورة العالمية ، وأعتقد أن الإسلام كدين وكحضارة وأيديولوجية يمكن أن يحرك المسلمين للثورة ، وهو أيضًا كحضارة قادرة على تحريك كل هؤلاء المنتمين إلى الحضارة الإسلامية من مسلمين وغير مسلمين باتجاه الثورة العالمية ، وهو قادر كأيديولوجية ثورية على تحريك كل البشر بمن فيهم حتى أبناء الحضارة الغربية – المرأة والعمال وغيرهم – باتجاه الثورة العالمية ، والأمر هنا ليس تفضيلا بلا مبررًا للإسلام على غيره ، لأن الثقافات الأخرى التي نحترمها ولا نريد القضاء عليها هي ثقافات أما غير ثورية أصلا وإما أنها غير عالمية وإما أنها غير قادرة من الناحية الفلسفية على مواجهة ناجحة مع الحضارة الغربية وبالتالي مع آلة النهب والقهر الغربي .

إن الأمر ليس أكثر من علمية محايدة ، قراءة تقول : إن عدة قرون من الظلم والقهر والفقر والنهب والبؤس على يد الحضارة الغربية وآلتها الشيطانية ؛ ينبغي أن تنتهي ؛ ولن يكون ذلك إلا بالثورة التي يشارك فيها كل الضحايا وهذه الثورة تحتاج إلى جذر ثقافي وأيديولوجي لابد أن يكون عالميا ومعاديا للحضارة الغربية في الوقت ذاته ويحمل تراثا ثوريًا واضحًا ، وليس هناك إلا الإسلام كدين وكحضارة وكأيديولوجية للثورة الذي يمكنه أن يكون هذا الجذر الثقافي للثورة العالمية المنشودة .

■ ■ ■

العولمة صناعة أمريكية

الكوكبية أم صدام الحضارات

◆◆◆

أصبح كل من مصطلح الكوكبية « نسبة إلى كوكب الأرض » أو العولمة أو العالمية أو أن العالم يسير إلى حضارة عالمية واحدة ومصطلح حرب الحضارات أو صراع الحضارات من المصطلحات الكثيرة التداول في الواقع الثقافي العربي والعالمي منذ أن سقطت الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفيتي وزال الاستقطاب الدولي بين الكتلتين الرأسمالية والاشتراكية .

وينبغي بداية أن نرصد مجموعة من الظواهر حول هذين المصطلحين:

* فمن ناحية ، فإن الدعوة والتبشير بما يسمى الكوكبية أو العالمية أو سير العالم إلى حضارة عالمية واحدة قد تفشت في الواقع الثقافي العربي والإسلامي والعالم الثالث عمومًا في حين أن الحديث عن صراع الحضارات قد ظهر في أروقة دوائر الأبحاث القريبة ، وبالتحديد في أحد مراكز الأبحاث الجامعية الأمريكية على يد البروفسيور صمويل هاتنجتون .

* ومن ناحية أخرى ينبغي أن ندرك أن صدام الحضارات ليس اكتشافا جديدًا ، بل هو حقيقة معروفة غابت قليلاً بحكم فترة الاستقطاب الدولي ثم عَادت لتؤكد نفسها من جديد ، وأن أدراك هذه الحقيقة لم يغب عن كثيرين من المفكرين العرب المخلصين أمثال مالك بن نبي الذي تحدث عن محور طنجة جاكارتا في مواجهة محور واشنطن موسكو أو محمد جلال كشك الذي تكلم عن الصراع الحضاري باعتباره الحقيقة الكبرى والتي تحرك الصراع العالمي رغم بروز الاستقطاب الدولي في ذلك الوقت بين الكتلتين الرأسمالية والاشتراكية .

تقوم دعوة الكوكبية أو العالمية أو سير العالم إلى حضارة عالمية واحدة على عدد من الأسس مثل كون العالم قد أصبح قرية إليكترونية صغيرة بحكم تقدم وسائل الاتصال ، وبالتالي أصبح الحديث عن الخصوصية الحضارية والثقافية مجرد وهم ،

وأن القيم الحضارية الغربية ينبغي لها أن تسود العالم بعد أن أثبتت أهميتها وجدواها وأن من يريد أن يرفضها ، فإنما هو يرفض المعاصرة بل وعليه أن ينسحب من هذا العالم ، وأن القيم الحضارية الغربية فإنما هو يرفض المعاصرة بل وعليه أن ينسحب من هذا العالم ، وأن القيم الحضارية الغربية هي قيم حضارية عالمية .

أما صراع الحضارات ، والذي قال به البروفسيور صمويل هاتنجتون أستاذ علم الحكومات ومدير مؤسسة جون أولين للدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفارد الأمريكية ، فهو يقوم على عدد من المفاهيم مثل أن القرنِ القادم هو قرن صراع الحضارات ، وأن الحضارة هي الدين ، وأنه لا خيار في الهوية الحضارية ، أي أن الإنسان لا يملك أن يختار هويته الحضارية بل بها يولد ويموت ، وأن الانقسام الأساسي بين الناس سيدور حول محور الثقافة ، وأن التناقض الأساسي في السياسة الدولية سيكون بين مختلف الحضارات حيث ستشكل حدود هذه الحضارات ساحات القتال المقبل ، وأنه لم يتبق في عالمنا المعاصر سوى ست حضارات هي: الغربية ، والصينية ، واليابانية والهندية والسلافية والإسلامية ، وأن الحضارة الإسلامية هي المرشحة لتحدي الحضارة الغربية ، وبالتالي يجب تجنيد أبناء الحضارة الغربية لمواجهة المسلمين .

ومن اللافت للنظر هنا أن الحديث عن صراع الحضارات تم في مراكز الأبحاث التي تمثل الأساس الاستراتيجي للسياسات الغربية ، أي أن الغرب يدرك هذه الحقيقة ، ويعمل على أخذها في الاعتبار ورسم سياساته على أساسها وبديهي أن صمويل هاتنجتون ليس عميلاً للأصولية الإسلامية ، وبالتالي فنحن أمام حقيقة بديهية يعمل الغرب من خلالها ، فهل تغيب عنا هذه الحقيقة التي طرحها من قبل الكثير من المفكرين الإسلاميين على أساس أنها من البديهات ، هل تغيب عنا هذه

الحقيقة ونعيش في وهم الكوكبية التي تفشت في واقعنا الثقافي العربي ؟

الكوكبية خدعة كبيرة ، بل هي مجرد قفاز لإلهائنا عن حقيقة المسألة ، وبالتالي إخضاعنا في النهاية للحضارة الغربية ، وتبريراتها أكثر فسادا ، فإذا كان العالم قد أصبح قرية إليكترونية صغيرة بحكم تقدم وسائط الاتصال ، فهذا مدعاة للتأكيد على خصوصيتنا الثقافية ، والفرنسيون - وهم جزء من الحضارة الغربية - يقاومون الغزو الثقافي الأمريكي رغم أنه من قيمهم الحضارية نفسها ولم تحل وسائط الاتصال المتقدمة التي حولت العالم إلى قرية إليكترونية صغيرة من أن يرفعوا صوتهم احتجاجًا ويدعون إلى المحافظة على الخصوصية الثقافية الفرنسية .. وإذا كان البعض يعتبر الحضارة الغربية حضارة عالمية ؛ فإن الحضارة الغربية قد أخضعت العالم قهرًا وسلبًا ونهبا ولم تخضعه عن طريق الانفتاح الحر ، بل إن قيم الحضارة الغربية ذاتها قيم غير عالمية ؛ لأنها تقوم أساسًا على العنصرية وسيادة المسيحي الأبيض على باقي العالم ، وبديهي أن وجود العنصرية في صميم القيم الحضارية الغربية يجعلها بالضرورة حضارة غير عالمية ، لأن القيم الحضارية ينبغي ألا تفرق بين لون أو جنس أو دين وإلا كانت دعوة للخضوع الحضاري وليست حضارة عالمية .

وفي الحقيقة ؛ فإن إدراك حقيقة أن الصراع الأساسي في العالم كان ولا يزال حضاريًا يؤكد على ضرورة الاهتمام بالمحافظة على هويتنا الثقافية والحضارية وإلا فمصيرنا مصير الهنود الحمر ، خاصة أن الغرب يدرك أن الحضارة الإسلامية هي أكبر التحديّات التي تواجه نظرًا للصراع التاريخي الطويل والذي لم ينقطع يومًا والممتد في التاريخ والجغرافيا بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ونحن إذا أمام مجموعة من الخيارات .

فإما الانخداع بفكرة الكوكبية والاستسلام للإبادة الحضارية ، وإما مواجهة

التحدي الغربي عن طريق التأكيد على الخصوصية الحضارية الإسلامية ، وأن نحاول إحداث نوع من التعاون بين مختلف الحضارات أو التأكيد على الخصوصية الحضارية الإسلامية والاستعداد لصراع طويل وقاسٍ مع الحضارة الغربية .

وفي الحقيقة ، فإن الحضارة الغربية ذاتها هي التي لا تقبل التعاون الحضاري بل لا تقبل بأقل من الخضوع الكامل لهيمنتها الثقافية ، وبالتالي النهب الاقتصادي والقهر السياسي والعسكري ، وهكذا فليس أمامنا سوى خيار المواجهة .

أما كيف تتم هذه المواجهة فهناك طريقان:

طريق الجمود والسلفية وطريق التحدي والاستجابة ، فأما طريق الجمود والسلفية فهو طريق معتبر ولا شك ولكن ذو إفادة مرحلية ؛ لأن السلفية والجمود ترفض بداهة كل تجديد ، وبالتالي ترفض الخضوع والانفتاح على الغرب ، وهي بذلك أفضل من تقليد الغرب والاندماج فيه ، وأروع ما في الصخرة هو جمودها ، ولكن هذا الجمود والسلفية المفيد مرحليًا لا يصلح ولا يقدر على الاستمرار في المواجهة ، ولن يكون إلا كنوع من صحوة الموت أو الحالة الديناصورية التي ستنقرض في النهاية .

أما طريق التحدي والاستجابة ، فهو طريق التجديد والإحياء الإسلامي ومواجهة قضايا العصر استنادًا إلى الثوابت الإسلامية « الكتاب والسنة » ، أي أنه تجديد من الداخل الإسلامي الحي ، مثل التجديد الذي يحدث دائمًا في خلايا الكائن الحي من داخله وليس بقطع أجزائه وتثبيت أجزاء خارجية .

أي أن المطلوب هو التحدي والمواجهة استنادًا إلى الإسلام واستجابة لمستجدات الواقع ، وتقديم الاجتهادات الكامنة استنادًا أيضًا إلى الثوابت الإسلامية .

وهذا الطريق هو القادر على المواجهة والصمود والانتصار في عالم صراع الحضارات .

الحضارة الأوربية

■ هي حضارة العنف والنهب والمتعة اللاأخلاقية

◆◆◆

منذ أربعة إلى خمسة قرون لم تكن هناك أوروبا التي نعرفها اليوم ، لم تكن هناك دولة قومية ولا نهضة علمية ولا حضارة ، بل كانت أوروبا عبارة عن مجموعة من الأمراء والإقطاعيات ، غارقة في الصراع والحرب والقتال ثم حدثت عملية نهضة بدأت في أكثر من بلد وامتدت لتشمل أوروبا ثم أمريكا ، وهو ما يسمى بعصر النهضة ، وهو ذلك العصر الذي تم فيه بعث الثقافة والتراث والقيم الإغريقية القديمة والتراث السياسي اليوناني والروماني ، وشيئًا فشيئًا سادت الثقافة الإغريقية كل شيء في أوروبا واختلطت بالثقافة السكسونية والجرمانية وشكلت ما يسمى بالحضارة الأوروبية ، وهي حضارة تعكس القيم الثقافية والسياسية التي تقوم على الوثنية ، وإن كانت قد حملت قشرة مسيحية خارجية إلا أن جوهرها وثني .

ومع الكشوف الجغرافية التي بدأت في بلاط الملوك خاصة الأسبان والبرتغاليين ومع اكتشاف الأمريكتين ، بدأ عصر الاستعمار ونهب تراث الشعوب الأخرى واسترقاق أهلها بلا رحمة أو هوادة ، واستخدمت أوروبا تلك الثروات المنهوبة والأيدي العاملة التي جلبتها كرقيق في دفع عملية اقتصادية هائلة تمخضت عن ظهور الرأسمالية ثم الثورة الصناعية ، وذلك لتستخدم هذه الآلية الجديدة السياسية والعلمية « الرأسمالية والثورة الصناعية » في المزيد من النهب والاسترقاق ، وكانت المحصلة النهائية هي الرخاء والرفاهية المادية لجزء من العالم « عدد من الدول الأوروبية » على حساب ٨٠ ٪ من سكان العالم « عالم الجنوب عمومًا » ، وحتى سكان الشمال لم يحظوا جميعًا بالرفاهية بل قطاع صغير منهم على حساب الأغلبية .

إذن ، فالسمة الثانية بعد الوثنية التي تميز الحضارة الغربية هي سمة النهب ، وبالطبع هذا النهب صاحبه القهر والعنف للشعوب المغلوبة على أمرها وصاحب ذلك بالضرورة محاولات فلسفية وفكرية للحديث عن رسالة الرجل الأبيض

وتفوقه وتميزه لتبرير خضوع الشعوب الأخرى لهذا الرجل وتبرير استرقاق العبيد وخاصة السود ومنها نشأت التفرقة العنصرية التي لا تزال موجودة حتى الآن في كل أوروبا وأمريكا من خلال الممارسات غير الرسمية ، وفي جنوب أفريقيا رسميًا وقانونيًا ، وصاحب الرأسمالية ، بالطبع ، عملية البحث عن الربح بأي ثمن والتطاحن فيما بين الرأسماليين لتحقيق أقصى ربح ممكن ، وهكذا أخذت الحضارة الغربية سمتي المنفعة اللاأخلاقية والتطاحن .

وهكذا ، فإن السمات العامة للحضارة الغربية ، هي : الوثنية ، المنفعة اللاأخلاقية ، القهر ، العنف ، النهب ، التطاحن ، العنصرية .

والحضارة الغربية ، أو الحضارة الأوروبية ، تضم بالطبع أوروبا وأمريكا على اعتبار أن أمريكا جزء لا يتجزأ من السياق الحضاري الأوروبي ، بل هي أسوأ أجزائها وأبشع تطوراتها ، وذلك أنها نشأت أساسًا على يد حثالة الأوروبيين من المهاجرين والمغامرين والأفاكين ، أي أن أمريكا تحمل السمات الأساسية للحضارة الغربية وهي: النهب ، الوثنية ، العنف ، العنصرية ، المنفعة اللا أخلاقية ، بل وفي أسوأ صورها وممارستها وانتماء أمريكا للحضارة الغربية أمر لا يختلف عليه اثنان بحكم الأصل والممارسة وريتشارد نيكسون يقول في هذا الصدد: « وطن مشترك عبر المحيط الأطلنطي » .. ويضيف: « علينا أن نبني وطنا مشتركًا عبر الأطلنطي من كاليفورنيا حتى كمشاتة » .

وإذا ما نظرنا إلى الإفرازات الفلسفية والسياسية والاجتماعية ، نجد أن الحضارة الأوربية قد أفرزت الرأسمالية ، وهي إفرازات الرأسمالية ، الشيوعية ، الاشتراكية ، الديموقراطية ، النازية ، الفاشية ، الصهيونية ، وهي إفرازات كلها بشعة ؛ لأن الرحم الذي خرجت منه رحم قذر وبلا ضمير ، فالرأسمالية مثلاً مسئولة عن جزء

كبير من النهب والقهر الذي عانت منه معظم شعوب العالم ، والشيوعية مثلاً ارتكبت المذابح في البلاد التي سيطرت عليها وارتكبت جرائم الغزو بحق الآخرين مثل غزو أفغانستان ، المجر ، تشيكوسلوفاكيا ، والفاشية والنازية تسببتا في حروب طاحنة راح ضحيتها عشرات الملايين من البشر ، أما الاشتراكية الديمقراطية فهي المسئولة عن العدوان الثلاثي على مصر مثلاً سنة ١٩٥٦ حيث كان يحكم البلاد المعتدية أحزاب اشتراكية: حزب العمال البريطاني ، الحزب الاشتراكي الفرنسي ، وحزب العمل الإسرائيلي ، والجزائر مثلاً لم تعان في فترات احتلالها أكبر وأفظع الممارسات إلا عندما كان الحزب الاشتراكي يحكم فرنسا ، وإسرائيل مثلاً تتلقى أكبر الدعم من الحكومات الديموقراطية الاشتراكية في أوروبا ، أما الصهيونية فجريمتها في فلسطين معروفة .

وهكذا ، فإن كل ما أفرزته الحضارة الغربية كان وبالا على البشرية ؛ مما يدل على أنها حضارة فاسدة في أساسها ، بل إن إفرازات الحضارة الغربية لم تتورع عن إلحاق الأذى بأبناء الحضارة الغربية الرأسمالية أنفسهم في الحرب العالمية الأولى مثلاً والفاشية والنازية في الحرب العالمية الثانية التي مات فيها ٦٢ مليونـًا من البشر .

والسجل الأسود للحضارة الغربية يضم إبادة ١٠٠ مليون [1] من الهنود الحمر ومثلهم من الأفارقة الذين ماتوا من جراء القتل أو الحرق أو إرهاق العمل والاسترقاق أو من جراء المعاملة السيئة في المراكب التي كانت تنقل الرقيق من أفريقيا إلى أوروبا وأمريكا ، وفي الجزائر مثلاً قام الاستعمار الفرنسي بقتل وتهجير مليونين من السكان « كانت الجزائر وقتها ٤ ملايين .. أي أنهم قتلوا نصف السكان في عملية الاحتلال ثم راحوا يقتلون مئات الألوف كل عدة سنوات مع كل انتفاضة » .

(١) في وقت كان فيه سكان إنجلترا مثلا ٣ ملايين نسمة أي أن الحضارة الغربية مسئولة عن قتل ٣٠ ضعف سكان إنجلترا من الأفارقة ومثلهم من الهنود .

ولنستمع إلى شهادة الرئيس الجزائري الأسبق في هذا الصدد (١) ، يقول بن بيلا: « إن الصورة ما بين قتل الهنود الحمر وإبادة الزنوج والعرب إلى جرائم هتلر وموسوليني وستالين مرورا على كرومر ونابليون واللنبي وبيجو إلى يومنا هذا ، هناك خيط واحد متسلسل بمنطق واحد ، حلقة مغلقة ، ثم القنابل الذرية والحروب العالمية التي انتهت باستخدام القنبلة الذرية ضد اليابان ، والتي بلغ عدد القتلى في تلك الحروب ٦٢ مليونـًا من البشر ، ثم أفران الغاز وجرائم ستالين المروعة وصولاً إلى ما فعلوه في بيروت وفلسطين . إنها الحضارة الغربية ، حضارة القتل والذبح والتدمير والحروب والقنابل الذرية والإبادة والجوع وإبادة الغابات وإفساد البيئة » .

ويضيف بن بيلا: « تمخضت تلك الحضارة عن إبادة أجناس كاملة مثل الهنود الحمر ، وعن استرقاق الزنوج ، وعن ظهور طفل خبيث هو الاستعمار الذي هيمن ولم تقف حدود هيمنته إلا عند آخر حدود الأرض ولا تزال هذه الهيمنة قائمة ومستمرة إلى يومنا هذا ، وإن كانت الأساليب قد تبدلت وتغيرت وتمخضت تلك الحضارة المريضة عن حروب داخلية وقمع بشعين ، وعن حروب عالمية ١٩١٤ ، ١٩٣٩ وذهب في الأخيرة وحدها ستون مليونـًا من البشر ، وأدت تلك الحضارة إلى ظهور نماذج مثل هتلر وستالين وموسوليني ، وأدت إلى إعدام الزراعة في كثير من بلدان العالم ، خصوصًا النامية وأدت إلى المجاعة التي يموت بسببها خمسون مليونـًا من البشر سنويـًا من ضمنهم خمسة عشر مليون طفل ، ومأساة الجوع هذه تتضخم بسرعة هائلة بسبب القضاء على الزراعة ، وقد بقيت الولايات المتحدة وحدها القادرة على تصدير الغذاء ، وهذه لن تبيع الغذاء لك إلا إذا كنت شخصًا مرضيـًا عنه ، وهناك ١٧ مليون هكتار يتم القضاء عليها سنويـًا ، وهي عنصر

(١) محمد خليفة – حوار معرفي شامل مع بن بيلا .

التوازن البيئي الأول ، ٤٠ ٪ من الغابات الاستوائية انتهى ، وفي ألمانيا ذاتها ، الغابة السوداء الشهيرة ستنتهي خلال عشر سنوات ، كما انتهت بالفعل غابات أخرى في ألمانيا وسويسرا وغيرهما ، وهناك زحف الصحراء ، وهناك مأساة التلوث البيئي التي تتكشف أخطارها كل يوم ، هناك ٤١ دولة مفلسة لا تستطيع حتى أن تدفع فوائد ديونها ، وهي شعوب تعيش شبه متسولة أشبه ما تكون بوضع البعير في الماء بالكاد يبقى رأسه فوق الماء لتتنفس ولا يموت بسرعة ، وهذا الوضع ليس مرشحًا للنقصان بل العكس ، البنك الدولي نفسه يقول : إن الـ ٤١ دولة يمكن أن تصبح مائة دولة ، إن ثلاثة أرباع البشرية اليوم لا يعيش ، بينما الربع يحظى بكل شيء ، ويستهلك كيفما يشاء . والأخطر أن هذه النسبة تزداد تضخما ، فتصبح ٣/ ٤ ، ٤/ ٥ ، ٥ / ٦ وهكذا ، وهناك الاغتراب بسبب تقسيم مجحف وغير طبيعي للعمل إلى أجزاء صغيرة ، إن فرنسا مثلاً فيها تسعة ملايين كلب ، ٨ ملايين قطة تستهلك ٤ مليارات دولار في حين أن ميزانية الصومال مثلاً ٤٠٠ مليون دولار ، أي أن كلاب وقطط فرنسا تأكل أكثر مما يأكل الشعب الصومالي كله عشر مرات . إن النظام الذي تمخض عن هذه الحضارات ينظم الأزمات متعمدًا ويخلقها ويوزعها على الدول الفقيرة والمتخلفة ، وهي حلقات مترابطة من إفلاس الدول إلى المجاعة إلى أزمة البيئة ، إلى التصحر ، أنها أزمة حضارة كاملة .

إن الذين يقدمون لنا أمريكا اليوم كقائدة للنظام العالمي الجديد ، ويبشرون بقيمة الحرية على أنها قيمة أمريكية كبرى ، هؤلاء ينسون أن تلك الحرية المزعومة قد قامت على ذبح الهنود الحمر ، واسترقاق السود ، وإنه باسم تلك الحرية تم دعم إسرائيل على حساب الشعب الفلسطيني ، وأن أمريكا هذه التي يروجون لها ويطلبون منا أن نقبل بقيادتها غزت الكثير من الشعوب ، وأسقطت طائرات مدنية مثل : الطائرة الإيرانية المدنية عام ١٩٨٨ فوق الخليج ، وتمارس ازدواجًا مروعًا في المعايير فيما

يخص العرب والمسلمين .

وهؤلاء الذين يتحدثون عن قيم الحرية والإخاء والمساواة التي فجرتها الثورة الفرنسية يتناسون أن أبناء تلك الثورة الفرنسية هم الذين ذبحوا الشعب الجزائي ونهبوا ثرواته ، بل هؤلاء أنفسهم دعاة الحرية والإخاء والمساواة رفضوا إعطاء الجنسية الفرنسية للجزائريين عندما ضموا الجزائر لفرنسا ، أي أنهم رفضوا تطبيق مبدأ المساواة المزعوم .

وفي الحقيقة ، فإن الذين يتحدثون عن الحضارة الغربية باعتبارها حضارة تقدمية أو صالحة يقعون في الخطأ ، ذلك أنهم ينظرون إلى المسألة في شقها الأوروبي أي بالنظر إلى التاريخ الأوروبي وحده ، وكأن أوروبا هي كل العالم ، أي يذكرون أوروبا وينسون باقي العالم ، ولو كانوا منهجيين لدرسوا الحضارة الأوروبية بمنظور واقعي من خلال ممارستها في العالم كله .. ولو فعلوا ذلك لاكتشفوا أنها أبادت شعوبا واسترقت أخرى ونهبت الجميع ومارست التفرقة العنصرية وزعمت سيادة البيض على غيرهم .. ولو وضعوا هذه الأمور في معاييرهم لكانت الحضارة الغربية حضارة همجية ومتوحشة ورجعية .

وحتى في شقها الأوروبي أو بالنظر إلى التاريخ الأوروبي ، فإن تلك الحضارة تمخضت عن الفاشية والشيوعية والنازية ، وفجرت حربين راح ضحيتهما عشرات الملايين من البشر من أهل أوروبا ، إذن فهي حضارة الصراع حتى مع بعضها البعض ، وكذلك فإنها أفسدت البيئة وأخلت بالتوازن البيولوجي في الكون ، وتسببت في الإيدز والمخدرات ، وفي أسلحة الدمار الشامل ، أي أنها خطر على الآخرين .. خطر على نفسها .. خطر على الأرض كلها ومستقبل الحياة البشرية فيها ، فكيف تكون هذه حضارة مرشحة لقيادة العالم !

الإسلام والغرب ..

تعاون أم مواجهة ؟

◆◆◆

هناك الآن أكثر من اتجاه بشأن العلاقة المفترضة بين الإسلام والغرب أو الإسلام وأمريكا باعتبارها الممثلة الكبرى للحضارة الغربية .

فهناك الغرب وأمريكا وبعض القوى المحلية عندنا تدعونا إلى الالتحاق بالركب الحضاري الغربي والاندماج في الحضارة الغربية والتخلي عن ديننا وحضارتنا وقيمنا أو على الأقل قصر علاقتنا به على العبادة الفردية والضمير، وهؤلاء يقولون: إنه قد ثبت أن الحضارة الغربية حضارة عظيمة ويجب أن تسود العالم ، أو يقولون إنه لا أمل ولا فرصة للمواجهة ومن الأفضل أن ننصاع لها ، وهؤلاء بالطبع منافقون ومخادعون، فلا الحضارة الغربية حضارة عظيمة ، ولا هي حضارة ذات أخلاق ، ولا هي قدر مقدور لا يمكن الفكاك منه ، هؤلاء بالتحديد يدعوننا إلى الاستمرار في أداء دور الضحية والذبيحة خاصة بعد أن شحذ الجزار سكينه وأصيب الآكلون بنهم شديد ، فضلاً عن أننا سنكون مجالا للنهب؛ فإنهم يطلبون منا أن نتخلى عن قيمنا وذاتيتنا ومبادئ ديننا وحضارتنا، وهذا بالطبع مرفوض .

واتجاه آخر يقول بأن الحضارات تتفاعل مع بعضها البعض أو تتزاوج وأن الحضارة الغربية ليست غربية فقط بل إنسانية أي أنها استفادت من كل الحضارات التي سبقتها وتفاعلت وتزاوجت معها وخرجت في النهاية لتكون حضارة الإنسانية كلها ، وهذا الرأي خطير وبراق لكنه خطأ ، ولكي نعرف أنه خطأ ينبغي علينا أن نفرق بين أمرين أحدهما التفاعل والتزاوج والآخر التعاون، فالتفاعل والتزاوج لا يتم إلا بين حضارات أو إبداعات حضارية من عائلة واحدة مثل: الحضارة الرومانية واليونانية والإغريقية والجرمانية والسكسونية وهكذا .. وهذا التفاعل والتزاوج لا يتم بين حضارات من عائلات مختلفة ، أي مختلفة نوعًا وكميًا ، فلا يمكن مثلاً الحديث عن تمازج وتزاوج حضاري بين حضارة تقوم على الوثنية

كالحضارة الغربية، وأخرى تقوم على التوحيد كالحضارة الإسلامية ، والأمر هنا أشبه بعمليات التطعيم التي تتم في النباتات ، فلابد لكي تنجح عملية التطعيم هذه أن تكون بين أنواع معينة من النباتات تنتمي إلى عائلة واحدة ، أو عائلات متقاربة ، ولكن هذا التطعيم يفشل تمامًا إذا ما تم بين شجرتين لا ينتميان إلى عائلة أو عائلات نباتية متقاربة .

وفي الحقيقة،فإن إمكانية التزاوج والتفاعل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية أمر مستحيل ، لأن أي دراسة متعمقة للأساسات التي قامت عليها كل من عائلة الحضارة الإسلامية وعائلة الحضارة الأوروبية لا تترك مجالا للشك في أن لكل منهما طريقًا مختلفًا وسياقًا خاصًا ، لهذا يهدف الحديث عن التواصل الحضاري أو التفاعل الحضاري أو التزاوج الحضاري إلى الإلحاق والتبعية الحضارية باعتباره جزءًا أساسيًا في عملية الإلحاق الاقتصادي والثقافي والسياسي والسيطرة العسكرية .

وينبغي في هذا الصدد أن نلتفت إلى مجموعة من النقاط ، فالداعون إلى الاندماج في الحضارة الغربية ، ينسون نقطة أساسية، وهي أن الحضارة الغربية لن تقبل الاندماج بها وأن يصبح غيرها جزءًا منها يستمتع بنفس الحقوق الحضارية معها ، إنهم فقط يعنون بالاندماج أن نظل تابعين وأن نظل مجالا للنهب دون مقاومة ، ففرنسا مثلاً التي أدمجت الجزائر فيها وجعلتها جزءًا من فرنسا لم تقبل أن تعطي الجنسية الفرنسية للجزائريين مثلاً ولم تقبل أن يكون لهم نفس حقوق الانتخاب التي للفرنسي مثلاً !

والداعون إلى التزاوج والتفاعل الحضارى مع الحضارة الغربية ينسون الظروف المشبوهة التي ظهرت فيها مثل هذه الدعوة ، فهذا الموضوع لم يطرق بعيدًا عن غايات ذات علاقة بالصراع الدائر بين القوى الاستعمارية والشعوب المقهورة

والمستضعفة ، فعندما طرح منظورا أوروبيا هذا الموضوع كانوا في أغلبهم يرمون إلى سيادة الحضارة الأوروبية على العالم بكل ما تحمل من فلسفات وقيم ومعايير ومفاهيم ، وذلك من خلال الترويج للحضارة الأوروبية وضرب الحضارات الأخرى ، أو طمسها ، أو الإنقاص من قدرها أو خلطها بما يلغيها ، وهو أمر يؤدي بالشعوب إلى فقدان هويتها ومقومات شخصيتها الأساسية ، وإلى ضرب عوامل وجودها المادي والثقافي المستقل ، فتصبح مكشوفة أمام طغيان المستعمرين ثم تتحول إلى تابع ذليل يلتقط الفتات ، ويقف على العتبات ، دون السماح له بالدخول إلى صدر البيت .

والشيء الوحيد الممكن في العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ولو من الناحية النظرية هو التعاون على أساس استقلال كل منهما وعلى أساس انفراد كل منهما بخصائصه الذاتية المتميزة دون أن تحاول السيطرة أو ظلم أو نهب الأخرى ، والإسلام بالطبع يرحب بالتعاون ويدعو إليه في إطار الاحترام المتبادل والعلاقات المتكافئة ، ولكن هل تقبل الحضارة الغربية التخلي عن النهب والظلم والعنصرية والعنف من أجل هذا التعاون ؟ ! .. لنأخذ مثلاً مجال العلوم الطبيعية ، وهذه الأطروحة تنقسم إلى قسمين: قسم خاص بالحقائق العلمية والمكتشفات العلمية ، وقسم خاص بتوجيه هذه العلوم في اتجاه معين أي لإنتاج سلعة ضرورية مثلاً أو كمالية ، للقضاء على مرض أو لنشر مرض ! لإنتاج أدوات تسعد الإنسان أو لإنتاج أسلحة الدمار الشامل ، لإصلاح البيئة والمحافظة عليها أو لتخريبها وتلويثها .

أي أن هناك شقًا علميًا وشقًا قيميًا ، والحضارة الإسلامية مثلاً عندما كانت متقدمة علميا كانت توجه هذه العلوم لإسعاد الإنسان وتلبية حاجات كل البشر ،

بل وكانت تسعى سعيًا لنشر العلوم ولا تحجبها عن الآخرين ، لأن حبس العلم جريمة في الفقه الإسلامي ، أما الحضارة الغربية فإنها عندما تقدمت علميا استخدمت منجزات العلم في تحقيق أكبر وسائل النهب وقهر الشعوب الأخرى وظلمها بل إنها أيضاً تحجب العلم عن الشعوب الأخرى ، بل وتحاكم من يجرؤ على نقل شيء منها لبلاده « قضية الدكتور مهندس عبد القادر حلمي مثلاً » بل تغتال كل من ينجح علميا في البلاد الأخرى .

على أية حال من الناحية النظرية يمكن التعاون في الاستفادة من العلوم الطبيعة ونقلها دون ربط ذلك بغايات وأهداف استخداماتها أي في الشق العلمي دون الشق القيمي ، ولكن هل تقبل الحضارة الغربية ذلك وهي التي تغتال العلم ، وتحرم نقل العلم وتحاكم من يفعل ذلك ، بل وتضرب أي نهضة علمية في أي مكان خارج دائرتها الحضارية ؟ !

نؤكد مرة أخرى أن الإسلام يحض على التعاون ، ويحرص عليه ، ولكن التعاون ليس الاندماج والتزاوج والإلحاق ، التعاون يقوم على استقلال حضاري كامل، فالحضارة الغربية عندما نقلت العلوم الطبيعية من الحضارة الإسلامية أخذتها دون شقها القيمي أخذتها وهضمتها ووجهتها وفقًا لمعاييرها الحضارية ، ووجهتها للتدمير والتلويث والإفساد وتحقيق أكبر قدر من آليات النهب ، أما نحن فمن المفروض أن نأخذ العلوم الطبيعية من الغرب دون شقها القيمي فنهضمها وتصبح جزءًا من شخصيتنا الحضارية المستقلة فنوجهها طبقا لمعاييرنا وقيمنا الحضارية في إسعاد الإنسان وتحقيق الرفاهية لكل البشر وليس لنا وحدنا .

هل هناك فرصة للتعاون مع الغرب ؟

قلنا : إنه لا يمكن ولا نقبل لا الإلتحام الحضاري مع الغرب ولا التزاوج

والتفاعل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية لانتمائهما إلى عائلتين حضايتين مختلفتين، ولأن هذا في النهاية يعني التحول إلى تابع ذليل يظل خاضعًا للنهب والسيطرة . وقلنا إن العلاقة الصحيحة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية هو التعاون على أساس الاستقلال الحضاري الكامل والشخصية الحضارية المستقلة ، ولكن هل هناك فرصة للتعاون ؟ .. هل يقبل الغرب هذا التعاون ؟ .. هل تاريخنا معه يسمح بذلك ؟ .. هل تركيبة الحضارة الغربية تسمح بذلك ؟ ..

إن تركيبة الحضارة الغربية تقوم على النهب والقهر والعنصرية . ورخاء ورفاهية أهل الحضارة الغربية جاء من نهب ثروات الشعوب الأخرى واسترقاق أهلها ، ولكي تستمر هذه الرفاهية لابد أن يستمر النهب والقهر ، فهل أهل الحضارة الغربية مستعدون للتوقف عن النهب والقهر والعنصرية ؟ هل هم مستعدون للتخلي عن رفاهيتهم القائمة على ثروات الآخرين من أجل التعاون معنا أو مع غيرنا ؟

أعتقد أن ذلك صعب ، بل يبدو مستحيلا ، وبالتالي فإمكانية التعاون بشروطها الصحيحة صعبة أيضًا ، بل تبدو مستحيلة، وحتى إذا حدثت المعجزة وتخلى أهل الشمال عن القهر والعنف والعنصرية فماذا يبقى من الحضارة الغربية ؟ إنهم يسقطونها تمامًا ، إنهم يفقدونها سماتها الأساسية ، أي يقبلون الاندماج في نمط حضاري آخر، وفي حالة دخولهم في النمط الحضاري الإسلامي مثلاً ، فإننا لن نعاملهم معاملة التابع ، بل معاملة الإسلام التي تقول : إنهم أصبحوا مثلنا تمامًا لهم ما لنا وعليهم ما علينا .

وإذا كانت تركيبة الحضارة الغربية لا تسمح بالتعاون إلا بانتفاء خصائص الحضارة الغربية ذاتها ، وبالتالي فالتعاون هنا صعب ويكاد يكون مستحيلاً ، ورأى أهل الحضارة الغربية فينا وموقفهم منا لا يسمح بقيام مثل هذا التعاون ، فهم

ينظرون إلينا نظرة صليبية عنصرية حاقدة لا تقبل بأقل من تدمير حضارتنا تمامًا وفي قول لا يخلو من الدلالة يقول المعلق السوفيتي فاسيليف:

« إن أمريكا الآن تنظر إلى العالم الإسلامي بوصفه إمبراطورية الشر الجديدة التي حلت محل الاتحاد السوفيتي السابق الذي كان إمبراطورية الشر القديمة والتي تركزت كل الجهود الأمريكية خلال أكثر من أربعين عامًا للقضاء عليها » .

وهذا المعلق السوفيتي المشهور فاسيليف استخدم هذه الحقيقة ، أي المصطلح ذاته المستخدم دائمًا من قبل الأوروبيين والأمريكيين تجهنا ، فالبابا أوربان الثاني الذي فجر الحروب الصليبية قال في مجمع كلير مونت في سنة ١٠٩٥ :

« إن إرادة الرب تحتم على المسيحيين تخليص بيت المقدس من أيدي إمبراطورية الشيطان » . وعندها خر الكهنة الحاضرون راكعين تحت قدمي البابا !

والبارون دي كارافو يقول: « أعتقد أن علينا أن نعمل جاهدين على تمزيق العالم الإسلامي وتحطيم وحدته الروحية مستخدمين من أجل هذه الغاية الانقسامات السياسية والعرقية .. دعونا نمزق الإسلام بل نستخدم من أجل ذلك الفرق المنشقة والطرق الصوفية .. وذلك لكي نضعف الإسلام ، لنجعله عاجزًا إلى الأبد عن صحوة كبرى »(١) .

ويقول يوجين روستو اليهودي:

« إن الحوار بين المسيحية والإسلام كان صراعًا محتدمًا على الدوام ، ومنذ قرن ونصف القرن خضع الإسلام لسيطرة الغرب أي خضعت الحضارة الإسلامية للحضارة الغربية والتراث الإسلامي للتراث المسيحي ، وتركت هذه آثارها البعيدة

(١) مروان بحيري – الدراسات الاستعمارية في الإحياء الإسلامي في القرن ١٩ .

في المجتمعات الإسلامية »[١].

يقول لورانس براون:

« لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة ، ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبررًا لهذا الخوف ، لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودي والخطر الأصفر وبالخطر البلشفي إلا أن هذا التخويف كله لم نجده كما تخيلناه ، إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا ، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا اللدود ، ثم رأينا البلاشفة حلفاء لنا ، أما الشعوب الصفر «الصين ، اليابان » فإنها ليست خطيرة لهذه الدرجة ، ولكن الخطر الحقيقي كان في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع ، وفي حيويته ، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي »[٢].

ويقول مورو بيرجر في كتابه « العالم العربي »: « لقد ثبت تاريخيًا أن قوة العرب تعني قوة الإسلام فليدمروا بتدميرهم الإسلام »[٣].

ويضيف مورو بيرجر: « إن الخوف من العرب واهتمامنا بالأمة العربية ليس ناتجًا عن وجود البترول بغزارة عند العرب ، بل بسبب الإسلام ، ويجب محاربة الإسلام للحيلولة دون وحدة العرب التي تؤدي إلى قوة العرب ، لأن قوة العرب تتصاحب دائمًا مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره »[٤].

ويقول ج . سيمون: « إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية »[٥].

---

(١) نقلا عن عبد الوراث سعيد » أمتنا والنظام العالمي الجديد » .

(٢) د . مصطفى الخالدي .. د . عمر فروخ – التبشير والاستعمار .

(٣) جلال العالم – قادة الغرب يقولون – المختار الإسلامي .

(٤) محمد محمد الدهان – قوى الشر المتحالفة – دار الوفاء .

(٥) د . عمر فروخ – مرجع سابق .

ويقول سالازار دكتاتور البرتغال السابق: « إن الخطر الحقيقي على حضارتنا هو الذي يمكن أن يحدثه المسلمون حين يغيرون نظام العالم » ! ولما سأله أحد الصحفيين: ولكن المسلمين مشغولون بخلافاتهم عنا .. أجابه: « أخشى أن يخرج من بينهم من يوجه خلافهم إلينا)» [١] .

ويقول ريتشارد هرير دكمجيان: « إن قلة فقط خارج نطاق العالم الإسلامي كانت قادرة على توقع انبعاث إسلامي في البيئة المعاصرة وإن ضعف البصيرة في مجال التصور الذي أحدثته المادية الغربية والماركسية قد أعمى بقوة كل العلماء ورجال الدين الذين مالوا إلى استبعاد قوة الإسلام أو التقليل من شأنها » [٢] .

ويحذر المفكر الألماني باول شمتز قائلاً : « سيعيد التاريخ نفسه مبتدئا من الشرق ، عودا على بدء من المنطقة التي قامت فيها القوة العالمية الإسلامية في الصدر الأول للإسلام وستظهر هذه القوة التي تكمن في تماسك الإسلام ووحدته العسكرية ، وستثبت هذه القوة وجودها ، إذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها والاستفادة منها وستقلب موازين القوى ؛ لأنها قائمة على أسس لا تتوافر في غيرها من تيارات القوى العالمية » [٣] .

ويقول المفكر الإنجليزي هيلد بيلوك: « لا يساورني أدنى شك في أن الحضارة التي ترتبط أجزاؤها برباط متين وتتماسك أطرافها تماسكًا قويًا ، وتحمل في طياتها عقيدة مثل الإسلام لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب بل ستكون أيضًا خطرًا على أعدائه ».

---

(١) جلال العالم مصدر سابق .

(٢) ريتشارد هرير دكمجيان – الأصولية في العالم العربي – ترجمة عبد الوارث سعيد – دار الوفاء .

(٣) باول شمنز – نقلا عن عبد الوارث سعيد – أمتنا والنظام العالمي الجديد .

وما بين الحقد على الإسلام ، وكراهيته ، والدعوة إلى تدميره والقضاء عليه أو التخويف منه ، ومن خطره التي تسود الروح الفكرية الأوروبية على اختلاف مدارسها ، هل هناك فرصة للتعاون بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ؟ .. الإجابة: هذا صعب بالطبع .

وإذا تركنا كل ما سبق والتفتنا قليلاً إلى التاريخ ، نجده مفعمًا بالصراع الدامي الذي خاضته الحضارة الأوروبية ضد الإسلام للقضاء عليه ، خاصة الإسلام دفاعًا عن نفسه ونشرًا لقيمه وإنقاذا للعالم من الظلم والطغيان .

خاض الإسلام معارك شرسة ضد الحضارة الأوروبية المتوحشة منذ اللحظة الأولى ، واستطاعت جيوش الإسلام أن تنتصر في اليرموك وعمورية وحطين ، ثم بدأت أوروبا تستعيد المبادرة ، فظهرت الحروب الصليبية بدءًا من سنة ١٠٩٥ حتى ١٢٩٤ في المشرق العربي أما في المغرب العربي فإن الإسلام استطاع أن يفتح أفريقيا والأندلس .

واستمرت المعارك مع الحضارة الغربية في الأندلس ثمانية قرون ، وفي بلاد المغرب العربي ألف عام قبل دخول الأندلس . وأثناء الحكم الإسلامي للأندلس وبعد سقوط الأندلس ، ولم يتوقف الصراع مع الحضارة الغربية لا في الشرق ولا في الغرب ، ففي الشرق ظهرت الخلافة العثمانية واستطاعت أن تنقذ العالم الإسلامي من السقوط ، ودخلت في معارك طاحنة مع أوروبا انتهت بفتح القسطنطينية ١٤٥٣ على يد محمد الفاتح ، بل انتشرت جيوش الإسلام في أوروبا مرة أخرى تعاود الهجوم ، وتعرضت الخلافة العثمانية إلى ضغط رهيب انتهى بسقوطها ، وقبل ذلك بقليل بدأت أوروبا حملتها الصليبية الثانية على العالم الإسلامي ، والمسماة باسم الاستعمار بدءًا من هجوم نابليون ١٧٩٨ وانتهاء بسقوط معظم بلاد العالم

الإسلامي في قبضة الاحتلال الأوروبي ، وفي المغرب العربي ظلت أوروبا ترسل حملاتها الصليبية إلى المغرب بعد سقوط الأندلس ، فتعرضت الجزائر وحدها إلى ١٠٠ حملة صليبية في أقل من ٣٠٠ عام بعضها برتغالي والآخر فرنسي أو إنجليزي أو أسباني أو ألماني أو بلجيكي بل حتى أمريكي ، وانتهى الأمر بسقوط الجزائر في يد الاستعمار الفرنسي ١٨٣٠ ثم تبعتها المغرب وتونس .

إذن فعلى الرغم أننا لا نرفض التعاون مع الحضارة الأوروبية في إطار الاستقلال الحضاري لكل منا ، إلا أنه لا التركيبة الحضارية الغربية تسمح بذلك ولا رأى قادتها فينا وأهدافهم تجاهنا تسمح بذلك ، ولا تداعيات التاريخ القديم والحديث تسمح بذلك ، وبالتالي لكي نعيش لا نخضع ونذوب وننتهي لابد من المواجهة

حرب شاملة في مواجهة حرب شاملة ..

إذن ، فالمعركة حتمية ، ولا سبيل هناك إلا المواجهة ، أو الموت ، حتى المواجهة مع الهزيمة ربما تعطينا الفرصة في الصمود والحفاظ على البذور صالحة تحت التربة لتعود من جديد لتثمر في مرحلة أخرى ، ولكن الانصياع والخضوع لا يعني فقط خسائر هائلة في الحاضر بل يعني تدمير المستقبل ، لأنها تطال البذور الكامنة تحت التربة .

والمعركة هنا معركة حضارية شاملة ، أي سياسية واقتصادية واجتماعية وعسكرية وثقافية ، والغرب يستخدم معنا كل الوسائل السياسية والعسكرية ، والاقتصادية والاجتماعية ، والثقافية أيضًا ، وما دام الغرب يشن علينا حربًا شاملة فلا بد من مواجهته بحرب شاملة ، تواجه بالكفاح ، وحتى إذا سلمنا بصحة مقدمة هؤلاء وهي أن الغرب وأمريكا أقوياء بدرجة لا يمكن مواجهتها ، فإن النتيجة التي توصلوا إليها خطأ ، لأن معنى مثل هذه القوة الهائلة للغرب وأمريكا أن الخضوع

لهم سيؤدي إلى النهاية والموت والاندثار، وأن الخضوع لن ينقذنا ولن يحقن دماءنا، بل إن الخضوع سيتسبب في خسائر أكثر من المواجهة حتى ولو كانت غير متكافئة، على الأقل، فالمواجهة سوف تقلل الخسائر وسوف تسمح للبذور الكامنة تحت التربة بالبقاء، بعيدًا عن يد الغرب فتعود لتثمر في فرصة أخرى مستقبلية.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الحضارة الغربية تحمل في داخلها الكثير من نقاط الضعف التي ينبغي الصمود واستثمارها أو الصمود وانتظار أن تؤدي تلك المواقع الضعيفة في جسد الحضارة الغربية إلى انفجار داخلي، فالإنسان في الحضارة الأوروبية مثلاً يفتقد التوازن بين حاجاته المختلفة ويفتقد التوازن في علاقاته مع الجماعة، وهذا يؤدي إلى انتشار الأمراض النفسية والجريمة والانحراف والشذوذ الجنسي وزيادة استهلاك الخمور والمخدرات إلى حدود أصبحت تهدد حياة مئات الملايين من سكان أوروبا وأمريكا، وهو ما يمكن أن يؤدي على المدى المتوسط أو الطويل إلى انهيار الحضارة الغربية من داخلها، أضف إلى ذلك أن الرغبة في تحقيق أقصى قدر من النهب، وبالتالي عدم التورع عن استعمال أقصى قدر من العنف ومع تزايد قوة الأسلحة الفتاكة يجعل العجلة العسكرية تدور بلا توقف، مما يجعلها في النهاية قابلة للانفجار من داخلها أو بالتصادم مع بعضها البعض وإذا كانت الحرب العالمية الثانية التي نشأت بسبب التنافس على الربح بين دول كلها تنتمي إلى الحضارة الغربية قد أدت إلى قتل ٦٢ مليون إنسان، معظمهم من الأوروبيين، فكم يا ترى سوف يقتل في المعركة المسلحة والحرب الشعبية، وعلينا أن نواجهه بالوسائل السياسية، ونواجهه برفض الخضوع لوسائل النهب التي يمارسها ومن خلال بناء نمط اقتصادي مستقل وغير تابع ويعتمد على قوانا الذاتية ويقطع تمامًا خيوط التبعية مع الغرب، ونواجهه أيضًا بتصفية كل مراكز الثقافة المغتربة وكل

أشكال الاختراق الثقافي ، ونواجهه بثورة ثقافية شاملة تعتمد على تأكيد قيمنا الحضارية ، ونواجهه بالوحدة ، ورفض التجزئة التي فرضها علينا ، ونواجهه بتعبئة شعبية شاملة ، ونواجهه بحرب حضارية شاملة في مواجهة حرب حضارية شاملة .

ويجب أن ننتبه هنا إلى نقطة خطيرة ، وهي أن أخطر هذه المواجهات هي على الجانب الثقافي ، لأن الاختراق الثقافي يدمر حياتنا من الداخل ويقلل قدرتنا على المواجهة ، ويضرب فينا قيمنا الإيجابية مثل : الجهاد والوحدة والرفض ، وبالتالي يجعلنا عاجزين عن المواجهة في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية ، ولابد أن ننتبه إلى أنه ما دامت الحرب حضارية وشاملة فليس من المعقول مثلاً أن نستخدم قيمًا ووسائل واستراتيجيات مستمدة من الغرب لمحاربته بها ومهما كانت براقة فإنها لن تجدي في مواجهته ، فكيف أواجهه على أرضيته الثقافية والحضارية ؟ ، لابد أن أواجهه بأساليب وتكتيكات وقيم ووسائل واستراتيجيات مستمدة من ذاتنا حتى تظل قادرة على الاستمرار .

هناك من يروجون بأنه لا قدرة ولا سبيل إلى مواجهة الغرب وأمريكا ، وأن توازن القوى مختل تمامًا لصالحهم وأنه لا داعي للمواجهة لأنها لن تفيد وأنه من الأفضل الخضوع أو البحث عن سبيل للتفاهم ، وإذا كنا ندرك أنه لا سبيل للتفاهم فإن المتاح وفقًا لمنطق هؤلاء هو الخضوع فقط ، مع العلم أن القدرات التدميرية لتلك الدول أصبحت هائلة بالمقارنة إلى مثيلتها أثناء الحرب العالمية الثانية ، وبالإضافة إلى ذلك ؛ فإن الرغبة في الربح بدون وازع أخلاقي ولا مراعاة للتوازن البيئي يمكن أن تؤدي إلى كارثة تهدد كوكب الأرض بأكمله .

ويلخص الأستاذ منير شفيق في كتابه:

« الإسلام في معركة الحضارة » نقاط الضعف في الحضارة الغربية كالتالي:

١ – التطور العام غير المتوازن بالنسبة إلى مختلف المجالات ، فقد تكثف في المجالات المادية واختل على مستوى العلاقات الإنسانية والأخلاقية ، مما يؤدي في النهاية إلى الإسراع بسقوطها لأن حالها يصبح كحال الذي يقف على قدم واحدة ، فمهما بلغت قدمه من القوة إلا أنها ضعيفة حين يتعرض الجسد كله إلى هزة قوية .

٢ – اتسعت الهوة بين أصحاب تلك الحضارة والغالبية العظمى من شعوب العالم ، مما دفع بها إلى مواجهة قوى لا قبل لها بها ، فالأقلية الظالمة مهما قويت وتمكنت تظل ضعيفة أمام قوة الأغلبية المظلومة صاحبة الحق ، فالتضاد مع حقوق غالبية الشعوب ومصالحها يؤدي إلى انهيار تلك الحضارة مهما طال الزمن .

٣ – التآكل الداخلي يشكل سمة أساسية مميزة لمجتمعات الحضارة الإفرنجية سواء أكان ذلك على مستوى المجتمع منفردًا أم على مستوى صراع تلك المجتمعات فيما بينها ، إن الصراع على امتلاك القوة والسيطرة والتنازع لامتلاك الثروة يؤديان بالإسراع بعملية التآكل الداخلي .

٤ – إن إطلاق الغرائز والنزعات البهيمية وانتشار الفساد والانحلال قد يصل في تلك الحضارة إلى ضعف داخلي شديد يجعلها غير قادرة حتى على الإفادة من قوتها المادية ، مما قد يكرر صورة الجندي الروماني الذي ربط بالسلاسل لكي لا يفر في معركة اليرموك ، على الرغم من الكثرة العددية للرومان في تلك المعركة ، وقوة دروعهم ، وطول رماحهم ومضاء سيوفهم وفراهة خيولهم .

وقد يقول قائل : إن الحضارة الغربية يمكن أن تعالج نقاط ضعفها أو تتخلص منها ، وبالتالي تجدد نفسها ، وهذا القول يعكس جهل أصحابه بطبيعة وجوهر الحضارة الغربية وطبيعة وجوهر نقاط الضعف فيها ، لأن نقاط الضعف هنا هي من صميم وجوهر الحضارة الغربية وليس عارضًا عليها ولا ناشئا من عوامل

جانبية أو إهمال من القواد أو غيرها إنها تنبع من داخلها ومن صميمها بطريقة تلقائية وحتمية بحيث إنه من المستحيل عليها معالجتها أو التخلص منها ، وإذا حاول أهل الحضارة الغربية التخلص من تلك العيوب فإنهم سيتخلصون من الحضارة الغربية ذاتها .

فمثلاً ، إن السعي لتحقيق أقصى درجات القوة العنيفة المادية من أجل السيطرة على العالم ونهب ثرواته بلا حدود يجعل تلك الحضارة تدوس على كل القيم والمعايير التي تتعارض مع هذا السعي ، أو بتعبير آخر إن ذلك السعي يسخر كل شيء من أجله ، وهذا في حد ذاته يسمح بالتفوق في مجالات محدودة ، وهذه نقطة قوة أساسية في الحضارة الغربية ، وهي أيضاً سبب انهيارها المتوقع في مجالات أخرى ، المجالات الأخلاقية والنفسية والإنسانية واندلاع أشد الصراعات الداخلية والخارجية ، مما يشكل بدوره نقطة الضعف المركزية في هذه الحضارة ، إن نقطتي القوة والضعف المتولدتين عن تلك السمة الأساسية في الحضارة الغربية ستصلان في نهاية المطاف إلى تدميرها إن لم يعرضا مستقبل الإنسانية كلها إلى خطر قريب من شبه الإبادة الجماعية »[(١)].

ومثل آخر: إنه إذا حاول نظام حكم عنصري التخلص من عنصريته ، فإنه من الحقيقة يتخلص من نفسه ، لأن العنصرية هنا هي التي شيدت بناءه ، وهي التي تسمح له بالاستمرار ، فلولا النهب والاسترقاق والفصل العنصري لما كان هذا النظام العنصري قد نشأ ، ولما كان قد حقق لنفسه هذا الرخاء ولما استطاع أن يستمر لحظة بعد التخلص من العنصرية .

■ ■ ■

■ جرائم أمريكا في هذا الزمان :

الإسلام

هو النظام العالمي الجديد

◆◆◆

مع التقدم الهائل في وسائل المواصلات والاتصال أصبح العالم بمثابة قرية إليكترونية صغيرة ، وبالتالي أصبح هناك ضرورة ومبررًا للحديث عن مصير إنساني وأحد ، وعن ضرورة وجود معايير دولية واحدة ، أو حدوث شكل من أشكال المشاركة الإنسانية الشاملة ، ولكن هناك اتجاهًا قويًا يجد من يسنده إعلاميًا وعسكريًا وسياسيًا واقتصاديًا عن ضرورة جعل الحضارة الغربية بقيمها وخصائصها هي النظام العالمي الجديد على أن تكون أمريكا هي قائدة هذا النظام العالمي الجديد .

وإذا كنا نقبل ونرحب وندعو إلى المشاركة الإنسانية الشاملة ، لأن العالم أصبح شديد الترابط ، وجعلته وسائل الاتصال والمواصلات قرية إليكترونية صغيرة ، فإننا لا نجد هناك ارتباطا شرطيا بين ذلك وبين إخضاع هذا العالم للمنظومة القيمية للحضارة الغربية ، أو لأي منظومة حضارية واحدة ، هذا العالم الصغير المترابط المتصل يمكن أن تتعايش فيه أكثر من حضارة دون أن تمارس إحداها على الأخرى قهرًا أو تسلطًا أو تستهدفها للتذويب أو التدمير أو الإلحاق ، والحضارة الإسلامية مثلاً في وقت تفوقها لم تمارس قهرا أو تسلطًا أو إلحاقًا على الحضارات الأخرى ، وتركت المسألة للخيار الحر .. « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .. ولا إكراه طبعًا في الحضارة ولا في القيم الحضارية .

ومع ذلك فإننا أيضًا لا نمانع في أن يسود العالم نمط حضاري واحد بشرط أن يكون ذلك من خلال الاختيار الحر وليس القهر والعنف والإجبار ، ولابد أن تكون هذه الحضارة التي ينبغي لها أن تسود العالم عالمية في قيمها ومعاييرها ، وهذا شرط بديهي فكيف تسود العالم حضارة ليست عالمية ! ! ؟ هذا طبعًا بالإضافة إلى شروط أخرى كالعدل والمساواة والأخلاق والإحساس بالمسئولية وغيرها .

والذين يدعون مثلاً إلى سيادة الحضارة الغربية على العالم ، يدعون في الحقيقة إلى سيادة حضارة غير عالمية على العالم ، وهذا منتهى التناقض والمغالطة . وما دام الحديث عن العالمية ؛ فلنبحث عما إذا كانت تلك الحضارة المرشحة وهي الحضارة الغربية ذات قيم عالمية أم لا ، أي أن نخضع الحضارة الغربية في قيمها وخصائصها وممارساتها لفحص وتمحيص عالميين .

الحضارة العالمية – مثلاً – ولأنها عالمية يجب أن تضم الأبيض والأسود والأصفر والأحمر يجب أي لا تكون عنصرية ، أما الحضارة الغربية فهي عنصرية حتى النخاع وسجلها العنصري حافل ، بدءًا من إبادة شعب كالهنود الحمر ، مرورًا باسترقاق السود وانتهاء برفض فرنسا إعطاء الجنسية الفرنسية لشعب الجزائر حينما أدمجت الجزائر بالقوة وجعلتها جزءًا من فرنسا .

الحضارة العالمية يجب مثلاً أن تكون ذات معايير واحدة ، تقيس بها الأوروبي والعربي والهندي والصيني بمعيار واحد ، أما الحضارة الغربية هي حضارة مزدوجة المعايير فلا يعقل مثلاً أن تتجاهل طرد وتشريد الشعب الفلسطيني وقمعه بلا رحمة على يد القوات الإسرائيلية ، وأن تتجاهل الإرهاب الإسرائيلي ضد الشعب الفلسطيني واللبناني وتصيح في وجه الإرهاب الليبي ! وليس من المعقول مثلاً أن تتحدث الحضارة الغربية عن حقوق الإنسان ، والديموقراطية وحرية الانتخابات ونزاهتها ، ثم لا تقبل بخيار الشعب الجزائري من خلال صناديق الانتخاب ، وتتآمر على خياره وتأتي وتدعم حكومة توقف المسار الانتخابي !

الحضارة العالمية يجب مثلاً أن تسعى لإسعاد كل البشر وليس أوروبا وأمريكا وحدهما ، والحضارة الغربية ليست عالمية بهذا المعيار ، لأنها تعتمد في رفاهية شعوب أوروبا وأمريكا على نهب ثروات الشعوب الأخرى وإفقارها . الحضارة العالمية بما

أنها عالمية يجب أن تكون أمينة على البيئة ومستقبل الحياة البشرية على كوكب الأرض ، أما الحضارة الغربية فهي حضارة غير أمينة تفسد البيئة وتخل بالتوازن البيولوجي في الكون وتؤدي إلى التلوث ويمكن أن تؤدي بكارثة على مستوى الكرة الأرضية كلها .

الحضارة العالمية يجب أن تكون حضارة ذات مسئولية أخلاقية ، والحضارة الغربية التي يموت في ظلها ٥٠ مليونـًا من البشر جوعًا سنويـًا منهم ١٥ مليون طفل ليست بالطبع عالمية بهذا المعيار .

إذن ، فالمعايير العالمية لا تجعل الحضارة الغربية حضارة عالمية ، وبالتالي فمن الطبيعي والواجب وفي إطار الحديث عن الحضارة العالمية أن نبحث عن حضارة أخرى تتفق مع المعايير العالمية .

وإذا بحثنا في العالم عن المنظومات الحضارية الموجودة لنأخذ منها واحدة تصلح لصفة العالمية لوجدنا هناك الحضارات الفرعونية ، الآشورية ، السومرية ، الفارسية .. وهذه كلها إما اندثرت وإما اندمجت طواعية في الحضارة الإسلامية ، ونجد الحضارات الصينية والهندية واليابانية والأفريقية الزنجية وهذه حضارات لا تحمل رسالة ثقافية ، وبالتالي لا تصلح لصفة العالمية ، ولا يبقى إلا حضارة الهنود الحمر وهذه تمت إبادتها بجريمة كاملة المعالم على يد الحضارة الغربية ، فليس أمامنا إلا الحضارة الإسلامية ، وهذه وحدها المرشحة لقيادة العالم ، والتي تحمل وحدها صفة الحضارة العالمية .

وهذه الحضارة الإسلامية تمتلك رصيدًا هائلا من التراث القيمي والأيديولوجي وأثبتت حيويتها وإيجابيتها وتعرضت لضغوط هائلة أمام الحضارة الغربية ولكنها صمدت أي أنها أولاً لا تزال موجودة ولا تزال حيوية ، والجميع يعترف بهذه

الحقيقة ، أي حقيقة حيوية الحضارة الإسلامية واستمراريتها وعدم القدرة على تدميرها .

يقول أعداؤها عنها ذلك مثل باول شميتز مثلاً: « إن انتفاضة العالم الإسلامي صوت نذير لأوروبا وهتاف يجوب آفاقها يدعو إلى التجمع والتساند الأوروبي لمواجهة هذا العملاق الذي بدأ يصحو وينفض النوم من عينيه ، هل يسمعه أحد ؟ .. هل من مجيب » [١]؟

إذن فهي حية ، بل ولا تزال خطيرة على أوروبا القوية !

ويقول باول شميتز أيضًا: « إن القوة الإسلامية قوية وحيوية وموجودة لأنها قائمة على أسس لا تتوافر في غيرها من تيارات القوى العالمية » [٢].

ويعترف بذلك المفكر الإنجليزي هيلد بلوك: « لا يساورني أدنى شك إن الحضارة التي ترتبط أجزاؤها برباط متين وتتماسك أطرافها تماسكًا قويًا وتحمل في طياتها عقيدة مثل الإسلام ، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب بل ستكون أيضًا خطرًا على أعدائه » [٣].

ويقول لورانس براون: « الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام ، وفي قدرته على الانتشار ، وفي حيويته المذهلة » [٤].

ويقول ريتشارد نيكسون: « ويحذر المراقبون من أن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليتيكية متطرفة وأنه مع التزايد السكاني والإمكانيات المادية المتاحة سوف

---

(١) باول شميتز نقلا عن عبد الوارث سعيد .. مرجع سابق ..

(٢) باول شميتز – مرجع سابق .

(٣) نقلا عن عبد الوارث سعيد – مرجع سابق .

(٤) نقلاً عن د . عمر فروخ – مرجع سابق .

يشكل المسلمون قوة هائلة ومخاطر كبيرة »[1] .

إذن ، فاستمرار التواصل الحضاري الإسلامي ، واستمرار الإسلام وحيويته المذهلة وقدرته على التجديد والانتشار أمر لا يختلف عليه اثنان ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المسلمين يشكلون مساحة جغرافية هائلة وثقلاً سكانيًا كبيرًا يمتد من طنجة إلى جاكرتا ، ومن أنقره إلى جنوب أفريقيا ، وكذلك الإمكانيات والثروات الهائلة لأمكننا أن نرشح الإسلام ليكون الحضارة العالمية . وفي هذا الصدد فإن هناك العديد من العوامل التي تزكي وترجح هذا المنحى .. فمن ناحية ، فالعالم الإسلامي يقع في ثقله الأساسي في قلب العالم ، وفي أهم المساحات الجغرافية فيه ، كما أنه يوجد أيضًا بنسب متفاوتة في جميع القارات والدول بعكس الحضارة الغربية التي تتركز في أوروبا وأجزاء من أمريكا الشمالية واستراليا ، ولا يمكننا أن نقول : إن هناك تواجدا حضاريًا حقيقيًا للحضارة الأوروبية في أمريكا الجنوبية أو أفريقيا أو حتى آسيا ، لأن الموجود في تلك البلاد شكل من أشكال الخضوع والإلحاق القسري دون السماح لهم بدخول البيت الحضاري والقيمي للحضارة الغربية ، أما المسلم فهو بالضرورة يحمل السمات الحضارية للإسلام والحضارة الإسلامية سواء كان في أفريقيا أو آسيا أو أوروبا أو أمريكا الشمالية أو الجنوبية أو استراليا أو حتى في بلاد « الواق واق » .

والنقطة الثانية ، في هذا الصدد أن القيم الحضارية الإسلامية من خلال المسلمين موجودة في كل القوميات والأعراق والأجناس ، فالعربي والتركي والفارسي والهندي والصيني والياباني ، والأوروبي ، والأمريكي ، بل والقوقازي يوجد بينهم مسلمون ، وكذلك السود والبيض والحمر والصفر مما يجعل الحضارة الإسلامية

---

(١) ريتشارد نيكسون – الفرصة السانحة – ترجمة أحمد صدقي مراد .

مقبولة مسبقا من شخصيات من كل القوميات والأعراق والألوان والأجناس ، بعكس الحضارة الغربية التي تقتصر على جنس واحد هو الأبيض ومساحة جغرافية محدودة في أوروبا وأمريكا الشمالية واستراليا .

والنقطة الثالثة ، في هذا الصدد هي أن الحضارة الإسلامية أيام قوتها نجحت في التعايش مع العديد من الحضارات الأخرى ، دون أن تمارس قهرا حضاريًا على أحد بل وسمحت لهذه الحضارات أن تعبر عن نفسها وأن تستمر ، ولو كانت الحضارة الإسلامية حضارة تقوم على القهر لكانت أدمجت تلك الحضارات معها قسرا أو دمرتها وقد كانت تمتلك القوة لتحقيق ذلك ، وبالتالي فإن جميع حضارات الأرض لا تزال قائمة يمكن أن تقبل التعايش في ظل الحضارة الإسلامية دون قلق ، ويمكن أن تتفاعل معها بلا حساسية لأنها قريبة من العائلة الحضارية للإسلام أولاً ، ولأنها من خلال التعايش مع الإسلام أيام مجده نسجت علاقات ووشائج يمكن البناء عليها اليوم ، بل إننا لا نبالغ في القول بأن الانتماء الحضاري الإسلامي لا يقتصر على المسلمين بل يضم معهم معظم سكان الأرض في آسيا وأفريقيا وحتى مسيحيو الشرق يؤكدون أنهم ينتمون إلى الحضارة الإسلامية وإلى الإسلام كثقافة وحضارة ووطن مع احتفاظهم بعقيدتهم الدينية ، فها هو ذا الزعيم القبطي مكرم عبيد يقول: « أنا مسلم وطنًا ، مسيحي عقيدةً » .

وإذا تركنا كل هذه الجوانب التي تزكي ترشيح الحضارة الإسلامية لتكون حضارة العالم في الغد ، وأخضعنا القيم والممارسات الحضارية الإسلامية للمعايير الضرورية لأي حضارة تريد أن تكون عالمية ، وهي المعايير التي أثبتنا بها في الجزء الأول من هذا الفصل عدم صلاحية الحضارة الغربية للعالمية لوجدنا أنه من ناحية ضرورة أن تكون الحضارة العالمية حضارة لا عنصرية وتسمح بدخول الأبيض

والأسود والأحمر والأصفر فيها ، فهذه سمة واضحة في الحضارة الإسلامية ، فلقد ضمت تلك الحضارة على قدم المساواة بالفعل ومنذ نشأتها جميع الألوان والأعراق والقوميات دون تمييز ، بل كان من قادتها ومفكريها وفلاسفتها وحكامها وأمرائها الأبيض والأسود والأحمر والأصفر ، العربي والتركي والفارسي والمغربي ، والنص القرآني يقول:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ، والحديث الشريف يقول: « **لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى** » .. بل أكثر من هذا فإن تجربة الإسلام الأولى قد ضمت بلالاً الحبشي ، وصهيب الرومي ، وسلمان الفارسي كإشارة وإرادة إلهية واضحة الدلالة ، وكذلك فتجربة الإسلام المعاصرة ومن خلال الحركة الإسلامية جعلت رجلاً أسود أمينًا عامًا لها هو الدكتور « حسن الترابي » ، ومنظمة الدول الإسلامية جعلت أفريقيا أمينا لها هو « حامد الغابد » .

ومن حيث عدم ازدواج المعايير ، فإن الحضارة الإسلامية أبرز من يقدم هذا .. « **والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها** » .. والخليفة عمر بن الخطاب ﷺ يأتي بالقبطي المصري الذي ضربه ابن عمرو بن العاص ويقول له: اضربه كما ضربك .. اضرب ابن الأكرمين ..

والتوجيه الإلهي يأمر المسلمين بضرورة عدم ازدواج المعايير حتى مع الأعداء وحتى مع الذين نكرههم ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ .

ومن حيث ضرورة أن تكون الحضارة العالمية أمينة على البيئة وعلى مستقبل الحياة البشرية على الأرض ، فالحضارة الإسلامية أكبر من يبرز هذا المفهوم ، لأن عملها في الدنيا مرتبط بالمسئولية أمام الخالق ، وبالتالي فلا تبحث عن المنفعة

اللاأخلاقية بل تجعل كل عمل موجه لإرضاء الله تعالى ولإسعاد البشر ، وبالتالي فلا إفساد للبيئة ، ولا إنتاج أشياء ضارة أو مدمرة على حساب سعادة الإنسان بل كل شيء يخضع لتوجيه وأهداف عليا تحرص على التوازن الفردي والجماعي وتحرص على عدم الإفساد وتحرص على أن يكون هدفها سعادة الإنسان وليس مجرد الربح والإنتاج . بل إن الحضارة الإسلامية في أيام الدولة العباسية كانت تستطيع أن تحقق الانشطار النووي ولكن المسار العلمي المرتبط بالغايات والأهداف الأخلاقية حال دون ذلك ، لأنه لم يكن ضروريًا للإنسان في ذلك الوقت .

والحضارة الإسلامية حضارة مسئولة ، فإذا كانت الحضارة الغربية يموت في ظلها وبسببها ٥٠ مليونـًا من البشر سنويًا بسبب المجاعة من ضمنهم ١٥ مليون طفل ، فإن الحضارة الإسلامية لا تسمح بالجوع في أي ظرف ولا تسمح بأن يستأثر مجموعة من الناس بالرفاهية على حساب الآخرين .. ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ﴾ .. ليس منا من بات شبعانا وجاره جائعًا « .. والجار هنا قد يكون فردًا أو أسرة أو مدينة أو دولة أو قارة وهكذا .. « إذا جاع الناس فلا مال لأحد » .. « لأخذت فضول أموال الأغنياء فردتها على الفقراء » .

وليس الجوعى أو الفقراء أو الأطفال وحدهم الذين تقول الشريعة الإسلامية بمسئولية الدولة الإسلامية عنهم ، بل حتى الحيوانات .. فعمر بن الخطاب يقول: « لو أن دابة في العراق عثرت لخفت أن يحاسبني الله عليها ، ويقول يا عمر : لماذا لم تمهد لها الطريق » !

والحضارة الإسلامية لم تقم على النهب والقهر والإكراه ، فأولاً : ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ وثانيًا : الجهاد الإسلامي والفتح الإسلامي لم يكن بسبب أو رغبة في النهب والسيطرة بل كان من أجل تحرير البشر وتحقيق حرية الاختيار أمامهم ،

بمعنى إزالة الأنظمة الطاغوتية التي تقهر الناس على الفقر أو الجهل أو تخضعهم لأفكار معينة لا يستطيعون رفضها ، ثم ترك الناس بعد ذلك ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر دون خوف من إفقار أو نهب أو تعسف أو ظلم ، ولنستدعي شاهدًا من أهلها ليقول لنا هذا ، وهو « غي دي بوشير »[1] . يقول د . محمد عصفور نقلاً عن « غي دي بوشير »: يتساءل غي دي بوشير « هل يمكن أن نعتبر التوسع الإسلامي ظاهرة استعمارية ؟ وهو ينفي ذلك سواء من حيث الأساس أو من حيث البنيان ، فمن حيث الأساس لم تكن تقف وراء التوسع الإسلامي حوافز التوسع الاستعماري ولا غاياته ، فهو لم يكن يرمي إلى إخضاع الشعوب ولا استغلال مصادر الثروة الاقتصادية في البلاد المفتوحة لصالح الفاتحين وحدهم بل كان يرمي إلى دعوة الشعوب إلى الدين الجديد ، هذا إلى جانب أن الفتح الإسلامي كان يستهلم هدفًا مزدوجًا ، فقد كان يرمي إلى غلبة حق القوة وقوة الحق في وقت واحد معًا ، أما المستعمر الأوروبي فلم يكن يستبقي إلا حق القوة ، كان الفاتح الإسلامي يشرك أهل الأمصار المفتوحة في الفتح بعد اعتناقهم الدين الجديد ، فيصبحون بدورهم فاتحين فيحيون حياة جديدة بمعنى الكلمة فيصبحون أكفاء للفاتح يقفون معه على قدم المساواة ، وهو أمر لم يفعله المستعمر المسيحي قط ، ذلك أنه عندما كان يدخل أهل المستعمرات في ديانته ، فقد كان يمنحهم مساواة شكلية تقع على الصعيد الروحي في أحسن الأحوال ، أما على المستوى الدنيوي فقد كانت أوروبا عن طريق المستعمر هي التي تحتفظ بكل الحقوق وهي التي تمارس الحكم .

أما من حيث البنيان فلم تكن الإمبراطورية الإسلامية ، وهي ثمرة الفتح تتميز بالقسمات الخاصة التي يتسم بها الاستعمار ، فلقد كان مجرد اعتناق الإسلام كافيًا

(١) نقلاً عن الدكتور » محمد عصفور «- جريدة الوفد.

لأن يتيح لأي شعب أن يشارك في الفتح وفي تصريف شئون البلاد . وما يسترعى النظر في ظاهرة التوسع الإسلامي أنه لم تتحقق السيطرة في أي لحظة من اللحظات لقوم ما أو لجنس ما ، بل كانت سيطرة الدين هي التي تتجاوز إطار الأقوام والأجناس ، ولذلك لم تكن ثمة عاصمة واحدة يعود التوسع بالمنفعة عليها وحدها ، ولم يكن الفاتحون من عرب الجزيرة وحدهم بل كانوا في أغلب الأحيان من أهل الشام أو مصريين أو أندلسيين ، فلم يجر فتح أسبانيا على يد العرب بل على يد الأندلسيين بعد أن أسلموا فتغلغل الإسلام في حياتهم إلى أعماق بعيدة بعد أن كان لاختلاطهم بالشاميين والمغاربة أثر كبير من خصائصهم القوية ، وطارت ثقافتهم الرفيعة فيما وراء الحدود الإسلامية وأسهمت إلى حد كبير في تطور الفكر الأوروبي والمعرفة الأوروبية من خلال قرون ما قبل عصر النهضة » .

ويرى الأمير شكيب أرسلان في مقال بعنوان (التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي) أن أحد الوزراء العثمانيين كان مرة في أحد المجالس في جدال مع بعض رجال دولة أوروبا فيما يتعلق بهذا الموضوع ، فقال لهم الوزير العثماني: « إننا نحن المسلمين من ترك وعرب وغيرهما مهما بلغ بنا التعصب في الدين فلا يصل بنا إلى درجة استئصال شأفة أعدائنا ، وإن كنا قادرين على استئصالهم ، ولقد مرت بنا قرون وأدوار كنا قادرين فيها على ألا نبقى بين أظهرنا إلا من أقر بالشهادتين ، وأن نجعل بلداننا كلها صافية للإسلام ، فما هجس في ضمائرنا خاطر كهذا الخاطر أصلاً ، وكان إذا خطر هذا ببال أحد من ملوكنا ، كما وقع للسلطان سليم الأول العثماني ، تقوم في وجهه الملة ويواجهه مثل « زنبيلي على أفندي » شيخ الإسلام ويقول له بلا محاباة ليس لك على النصارى واليهود إلا الجزية وليس لك أن تزعجهم عن أوطانهم فيرجع السلطان عن عزمه امتثالا للشرع الحنيف ، فبقى بين أظهرنا أهل

حتى أكبر القرى وأصغرها من نصارى ويهود وصائبة وسامرة ومجوس ، وكلهم كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، أما أنتم معاشر الأوربيين فلم تطيقوا أن يبقى بين أظهركم مسلم واحد ، واشترطتم عليه إذا أراد البقاء بينكم أن يتنصر ، ولقد كان في أسبانيا ملايين وملايين من المسلمين ، وكان في جنوب فرنسا وفي شمالي إيطاليا وفي جنوبها مئات الألوف منهم ، ولبثوا في هاتيك الأوطان أعصرًا مديدة ، ولا تزالون تستأصلون منهم حتى لم يبق في جميع هذه البلدان شخص واحد يدين بالإسلام ، ولقد طفت ببلاد أسبانيا كلها فلم أعثر فيها على قبر واحد يعرف أنه قبر مسلم »[(١)] .

ويقول دكتور إسماعيل الفاروقي: « لقد بلغ المجتمع الإسلامي حدودًا تفوق التصور في توفير حرية الاعتقاد للآخرين ، ولقد مد المسلمون تلك الميزة – حرية الاعتقاد – التي منحها الله لليهود والمسيحيين والصائبين في القرآن حتى شملت الزرادشتيين ، والهندوسيين ، والبوذيين والموالين للديانات الأخرى عندما اتصلوا بها »[(٢)] .

ولم يقتصر الأمر على مجرد حماية الأقليات وتحقيق حرية الاعتقاد للآخرين ، بل تعدى إلى قيام المسلمين بحفظ التراث الحضاري للديانات الأخرى ، فهذا أبو الريحان البيروني ، وهو من أعظم علماء المسلمين ، قد لخص مذهب المانوية في مواضع كثيرة من كتبه ، وقال إن كتب « ماني » تضمنت كيدًا للأديان والإسلام من بينها ، ثم أضافت أنه وجد يومًا مجموعة من الكتب فيها كتاب اشتمل على كتب المانوية وعدة رسائل « لماني » وفي جملتها سفر الأسفار ، فغشيني له من الفرح ما

(١) شكيب أرسلان – حاضر العالم الإسلامي .

(٢) د . إسماعيل الفاروقي – الإسلام بين الديانات السماوية العظيمة .

يغشى الظمآن من رؤية الشراب »[1] .

« إن هذا العالم الجليل المتمسك بالإسلام وهو أحد علمائه ويعرف أحكامه العظيمة يعز عليه كتاب يتضمن كيدا للأديان وللإسلام فلا يطالب بحرقه أو مصادرته ولا يمتنع عنه ، ولكنه يفرح ويغشاه من الفرح ما يغشى الظمآن من رؤية الشراب »[2] .

الذين لا يفهمون الإسلام ، أو يكرهونه ابتداء يحاولون أن يقرنوا الجهاد في الإسلام بالعنف الأوروبي ، ويقولون إن هذا مثل ذاك ، وإذا كان العنف الأوروبي هو غاية في حد ذاته ووسيلة للسيطرة والقهر والنهب ، فالجهاد في الإسلام وسيلة فحسب عكس العنف الأوروبي ، إنه وسيلة للقضاء على القهر والنهب والسيطرة .. إنه في الحقيقة ثورة من أجل التحرير ، تحرير الإنسان في كل مكان من العبودية للبشر إلى العبودية لله وحده .

وإذا كان مفكرون منصفون من الغرب مثل إن دوبشير كما ذكرنا من قبل قد أثبت اختلاف الفتح الإسلامي عن التوسع الأوروبي في الغايات والأهداف والممارسات ، فإن الأمر في حقيقته ـ وإذا ما تم فهم الجهاد الإسلامي والفتح والغزو في الإسلام في إطار موضوعي ـ يكون تأكيدا جديدًا على عالمية الإسلام بل وإحساسه بالمسئولية الأخلاقية تجاه البشر جميعًا ، إن الجهاد في الإسلام ليس موجها ضد الناس ولكنه موجه ضد الأكاسرة والقياصرة ، إنه ليس موجها ضد المستضعفين بل موجه ضد من يستضعفونهم ..

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ [النساء:٧٥]

إن الفتح الإسلامي والجهاد الإسلامي عندما فتح فارس مثلاً فإنه في الحقيقة قد

(١) محمود الشرقاوي – تقويم الفكر الديني .

(٢) فهمي هويدي – موقع غير المسلمين في المجتمع الإسلامي – دار الشروق .

حرر الفرس من طغيان الأكاسرة وأعطاهم حق الاختيار كاملا ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وعندما فتح الإسلام الأندلس التي كان يسود فيها قبل الفتح الإسلامي نظام إقطاعي يعطي الحق للسيد الإقطاعي في التحكم في رقيق الأرض بيعًا وشراءً وقتلاً وتجويعًا كما يريد ، فإن هذا الفتح قد حرر هؤلاء العبيد وأعطاهم الأرض التي يزرعونها ليحصلوا على خيراتها وهو بذلك قد منع نهب السيد الإقطاعي لعرقهم وحررهم في الوقت ذاته .

يقول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة] .

أي جاهد حتى لا تستمر فتنة إكراه الطغاة للناس على فكر معين وأسلوب معين ، وحتى لا تستمر فتنة القهر والاستبداد والظلم والنهب ، وحتى لا تستمر فتنة تأليه الحكام لأنفسهم وإرغام الناس على ذلك ، أي جاهدوا لتخرجوا الناس من عبادة رب الناس الذي يستوي أمامه الأمير والصعلوك ، المالك والأجير ، قاتلوا فإذا انتهوا أي كفوا عن القهر والنهب وتأليه أنفسهم على حساب الناس فلا عدوان إلا على الظالمين ، أي لا عدوان إلا على من يعود إلى الظلم أو يحاوله مرة أخرى .

إن مفهوم الجهاد في الإسلام مرتبط بمفهوم الدعوة ، وهو وسيلة لتحقيق حرية الدعوة ، أي تحقيق كل الحرية والإنصاف والعدل للناس وتركهم بعد ذلك يختارون ما شاءوا من عقيدة ، وصحيح أنهم كانوا يختارون الإسلام ، ولكن ذلك ليس بسبب شيء آخر سوى أنه دين الفطرة .

إن الله تعالى خلق الناس على فطرة الإسلام ، بل عرفهم به قبل أن يبعثهم في الأرض ، وهو ما يسمى في الفقه بميثاق الذراري: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ [الأعراف] .. ثم إن الله تعالى قد خلق للناس عقولا يستطيعون بها الاهتداء بسهولة ويسر إلى وجود الله ووحدانيته ودينه الحق « الإسلام » كما أنه تعالى خلق في الكون من الآيات والعبر ما يؤكد وجود الله تعالى ووحدانيته وصحة دينه «الإسلام» ، ثم من وقت لآخر يذكر الناس بهذا الدين والمنهج ويمدهم بالأسلوب الصحيح لإعمار الحياة والفوز في الآخرة عن طريق الرسل والأنبياء . وما دامت الفطرة والقلب والعقل كله تقود إلى الله ووحدانيته ودينه الحق « الإسلام» .. إذن فمن الطبيعي أن يهتدي الناس إلى الإسلام بسهولة ويسر ، ولكن القوى الشيطانية جاءت لتحول بين الناس وفطرتهم وعقولهم وقلوبهم ، جاءت لتطمس الفطرة بأساليبها الملتوية ، جاءت لتمنع حرية التفكير عن طريق الاستبداد السياسي والقهر والإعلام الموجه ، جاءت لتقوم بنهب الناس وتحويلهم إلى محرومين حتى يؤدي هذا الحرمان إلى الضغط على الناس بعيدًا عن فطرتهم وبعيدًا عن تشغيل عقولهم واستخدامها .

والمطلوب من المسلمين والهدف ـ بالتالي ـ من الجهاد هو إزالة هذه القوى التي تحول بين الناس وحرية التفكير ، أو تحرم الناس اقتصاديًا أو تضللهم إعلاميًا واجتماعيًا ، والمطلوب هو إزالة هذا الطغيان السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، لتصبح هناك حرية ويصبح هناك اختيار بلا ضغوط سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية ، ويصبح هناك إشباع لحاجات الناس فلا يظلون أسرى هذه الحاجات .

المطلوب ببساطة من المسلمين ، والهدف ـ بالتالي ـ من الجهاد هو إزالة الإكراه بأي صورة من الصور سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية أو إعلامية ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ المطلوب هو تحقيق حرية الاختيار ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

وهكذا فإن الجهاد والفتح في الإسلام ليس قهرًا بل تحريرًا ..



جرائم أمريكا والغرب

٢

العقل الإسلامي

على الطريقة الأمريكية

◆◆◆

مقدمة

العلاقة بين الإسلام والغرب، الإسلام وأمريكا، صراع الحضارات، تعاون الحضارات، الإسلام والعنف، الاعتداءات الأمريكية على عدد من الدول العربية والإسلامية، هذه القضايا وغيرها، قضايا مهمة ومطروحة على الساحة العربية والإسلامية، السياسية والفكرية، الحكومية والشعبية، وهي ليست جديدة، بل هي القضايا الأهم منذ عشرات السنين لأسباب متعددة مرتبطة بالمصالح البترولية ومرتبطة أكثر بالدعم الغربي والأمريكي المستمر - والظالم - للكيان الصهيوني، وترتفع نبرة الاهتمام عادة مع ارتفاع ممارسات الظلم على الشعب الفلسطيني، أو كلما استعملت الولايات المتحدة الأمريكية حق النقض «الفيتو» في مجلس الأمن الدولي أو قدمت المزيد من الدعم العسكري والمالي والسياسي لإسرائيل، أو كلما ناشدتها وطالبتها الدول العربية ذات العلاقة المتميزة معها باتخاذ موقف متوازن في الصراع العربي الصهيوني وتجاهلت الأخيرة هذا الطلب.

على أنه في غضون السنوات الأخيرة، تصاعدت بصورة كبيرة مسألة العلاقة مع أمريكا والغرب، بمناسبتين:

الأولى : حرب الخليج الثانية، وما حدث فيها وبعدها، وحجم المعاناة والخسائر والموت الذي لاقاه الشعب العراقي منذ ١٩٩١ م حتى الآن، الأمر الذي أحدث تأثيرا هائلا على الوجدان العربي والإسلامي تجاه الولايات المتحدة والغرب.

والمناسبة الثانية: هي سقوط الاتحاد السوفيتي السابق، بما ترتب عليه من انفراد الولايات المتحدة بالهيمنة على العالم، وهذا معناه ضرورة مناقشة قضية العلاقة

معها، لأنها أصبحت الأقوى وزعيمة العالم بلا منازع، أي لا يمكن تجاهلها ولا تجاهل نفوذها، ولا تجاهل التقاطع الحتمي مع آرائها ومصالحها خصوصا مع تصاعد حدة الحديث عن صراع الحضارات واعتبار الحضارة الإسلامية هي الحضارة الوحيدة القادرة على تشكيل تهديد جدي للعصر الأمريكي والعولمة «هذا في رأي الأمريكيين خصوصا صامويل هاتنجتون» ولم يخلُ الأمر بالطبع من تصريحات هنا أو هناك « في الغرب وأمريكا» يعتبرون الإسلام هو العدو المرشح، وأن المسلمين والعرب هم مصدر الإرهاب.

وفي الحقيقة، إن ذلك كله كان يشكل جزءا كبيرا من الصورة منذ عشر سنوات على الأقل، وكان قبلها يشكل جزءا لا بأس به من الصورة، ولكن بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م أصبح هذا الأمر يشكل الصورة كلها تقريبا، ومع اتهام جماعة بن لادن «تنظيم القاعدة »: وجماعات ومنظمات إسلامية أخرى، ثم دول عربية وإسلامية بأنها ترعى الإرهاب ومن ثم إعلان أنها مستهدفة للعقاب الأمريكي، وتزامن هذا بدءا من ٧ أكتوبر ٢٠٠١ م بعدوان واسع النطاق على أفغانستان - طال بالضرورة المدنيين والمرافق - فإننا كعرب ومسلمين أصبحنا جميعا في فوهة المدفع، ثم الاجتياح الإسرائيلي للضفة الغربية بدءا من يوم ٢٩/ ٣/ ٢٠٠٢م.

وهكذا فإن مناقشة العلاقة بين الإسلام والغرب، الإسلام وأمريكا - موضوع قديم، ولكنه أصبح الآن الموضوع الأهم.

وفي الحقيقة، إنني من خلال تأليف حوالي ٧٠ كتابا سياسيا في مختلف قضايا الواقع السياسي الإسلامي والعربي المعاصر، وآلاف المقالات في عشرات الصحف، قد اهتممت مبكرا بقضية العلاقة بين الإسلام والغرب، والإسلام وأمريكا تحديدا؛ فأصدرت ثلاثة كتب في الموضوع مباشرة، هي على التوالي: **الإسلام وأمريكا حوار**

أم مواجهة ١٩٩٣م، المواجهة بين الإسلام والغرب ١٩٩٦م، جرائم الأمريكان في هذا الزمان ١٩٩٩م، وقد تطرقت في تلك الكتب الثلاثة، إلى تاريخ الصراع الحضاري الممتد في الزمان والمكان بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية وطبيعة التركيب القيمي للغرب وأمريكا، وعدم صلاحية الحضارة الغربية وأمريكا لقيادة العالم، ومظاهر العنصرية الغربية والأمريكية ضد العرب والمسلمين، والصهيونية وإسرائيل باعتبارهما إفرازا طبيعيا للحضارة الغربية ومؤامرة غربية على العالم العربي والإسلامي قبل أن تكون مؤامرة يهودية.. وغيرها من القضايا ذات الصلة بالموضوع، ولا شك أن الكتابة في هذا الصدد كانت جزءا من اشتباكي المستمر مع القضايا الحية ومناقشتها بمنظور إسلامي معاصر، وقد توقعت في تلك الكتب الثلاثة وكثير من المقالات أن تحدث عمليات إرهابية خطيرة ضد أمريكا، وأنه يمكن للإنسان أن يكتشف الوسائل القادرة على إنزال الألم بأي قوة مهما كانت سطوتها وإمكانياتها، من خلال مفهوم حرب الفيل والنمل وقلت: «نعم أمريكا أقوى دولة في العالم، وهي تمتلك المال والسلاح والنفوذ السياسي، ولكنها لا تستطيع أن تحمي كل مصالحها في العالم إلا بأعباء ثقيلة، لا تستطيع احتمالها طويلا، وكذلك إسرائيل التي تستمد قوتها من قوة أمريكا ، أما نحن فنمتلك القدرة على الضرب في أماكن غير متوقعة ويمكننا أن نسبب لأمريكا صداعا مستمرا وخسائر باهظة، والأمر أشبه بالحرب بين الفيل والنمل، فقوة الفيل وكبر حجمه هي نفسها عناصر ضعفه، وصغر حجم النمل وكثرته واستعداده للموت هي عناصر قوته « كتاب جرائم الأمريكان في هذا الزمان» [1].

وقلت أيضا: «إن مواجهة العدو بسلاح الاستشهاد مثلا هي مواجهة ناجحة

---

(١) الكتاب صادر عام ١٩٩٩م.

وهو سلاح لا يمكن القضاء عليه أو إلغاء مفعوله ، مهما كانت قوة العدو واستحكاماته، وأذكر أنه عندما قام المجاهدون في لبنان بتنفيذ عملية ضد قوات مشاة البحرية الأمريكية «المارينز» في بيروت في ٢٣/ ١٠/ ١٩٨٣ م وأدت العملية إلى قتل وإصابة مئات الأمريكيين، وقف الرئيس الأمريكي وقتها رونالدريجان – أمام الكونجرس عندما سئل عن سبب حدوث ذلك، وأين الاستخبارات والأقمار الصناعية والاستحكامات فقال: « إنه لا شيء يفيد في مواجهة تلك العمليات، لأن جميع الاستحكامات العسكرية والاستخبارات في العالم قائمة على عنصر خوف المهاجم من الموت، فإذا كان المهاجم لا يخشى الموت، بل يحرص عليه ويصر عليه ويريده مقدما فإنه لا حل هناك».

وهكذا لخص ريجان جوهر المسألة وحقيقتها!!

وقد جاءت أحداث ١١ سبتمبر ، لتؤكد هذا الرأي وتلك القراءة المستقبلية التي توقعتها، وليس هذا فخرا بمقدار ما هو ثقة في صحة المنهج الذي استخدمته في تحليل طبيعة الصراع وشكله ومستقبله وأدواته وآلياته.

ويمكننا أن نؤكد من جديد، أن الإنسان أقوى من التكنولوجيا وأنه مهما كانت قوة الولايات المتحدة الأمريكية باستخباراتها واستحكاماتها ونفوذها العسكري والأمني والاقتصادي والسياسي والإعلامي، فإن مجموعة صغيرة قادرة على إنزال الألم والأذى الكبير بها.

وفي الحقيقة ، فإن خطورة ما حدث في ١١ سبتمبر في نيويورك وواشنطن من تدمير لمبنى البنتاجون – والبرجين التابعين لمركز التجارة العالمي «رمز القوة والمال» ليس فقط في كمية الخسائر المادية الباهظة التي نتجت عن العملية، بل في التداعيات النفسية والسياسية المترتبة، فمن ناحية ، فقد سقطت نظرية الأمن الأمريكي المطلق

إلى الأبد، وأحس الأمريكيون لأول مرة منذ نهاية الحرب الأهلية الأمريكية وخروج الاحتلال الإنجليزي، أي منذ ما يزيد على قرنين من الزمان، أنهم مهددون داخل بلادهم وأن الموت يمكن أن يصل إليهم في أعلى مبنى وأقوى مكان عندهم.

ليس هذا فحسب، بل إن ظهور حالات مرض الجمرة الخبيثة في بعض الولايات جعل حالة من الذعر والرعب تسود الأمريكيين ؛ لأنهم أدركوا أن حربا جرثومية قد بدأت ضدهم، وأن من الممكن لتنظيم القاعدة أو غيره، بن لادن أو غيره أن يصل إليهم بجراثيم وأوبئة وموت مؤكد داخل بلادهم ، وأنهم أمام عدو صعب المراس قادر على تنفيذ تهديداته، وهكذا أصبحنا أمام قطب جديد في السياسة الدولية وبعد أن كان الحديث عن عالم أحادي القطبية، وانفراد أمريكي بالهيمنة في العالم، أصبح الحديث يدور عن تحالف دولي ضد القطب الجديد المسمى بالإرهاب.

ولا شك أن هذا القطب الجديد يمكن أن يتحول من الإرهاب إلى حركة عالمية لمناهضة الهيمنة الأمريكية، وأن يتطور إلى تحالف شعبي ضد الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، وأن يضم كل المستضعفين في العالم، وليس المسلمين أو الشعوب الإسلامية فقط، أو جماعات بن لادن والمتعاطفين معه فقط.. وهذا تطور خطير جديد يمكن أن يحدث تحولا هائلا في السياسة الدولية.

أحداث ١١ سبتمبر، ثم غزو أفغانستان والعدوان الصهيوني على الضفة الغربية، وضرب المدنيين بها، ثم الحديث عن إمكانية غزو وضرب بلاد عربية أخرى أو إسلامية بدعوى محاربة الإرهاب وتسريب الحديث والمعلومات عن إمكانية غزوه وضرب كل من العراق – إيران – سوريا – لبنان – السودان – بل واتهام مصر بتشجيع بن لادن على حد قول صحيفة الواشنطن بوست التي رأت أن كلا من الرئيس حسني مبارك والسيد عمرو موسى أمين جامعة الدول العربية يدعمان

الموقف السياسي لبن لادن. أو أنهما «أي الرئيس وعمرو موسى» يقولان: إن السياسات الأمريكية غير العادلة في العراق وإسرائيل تبرر أعمال بن لادن ضد أمريكا.

التغيرات المحتملة في العالم بعد أحداث ١١ سبتمبر ثم غزو أفغانستان ثم الاجتياح الإسرائيلي للضفة الغربية أكثر من أن تحصى، ولها تأثيرات كبيرة على كل القضايا المطروحة والأفكار أيضا ، فلا شك أن تغيرات حادة في معادلة الصراع العربي الصهيوني ستحدث وكذا تغيرات على مستقبل الحركة الإسلامية، ثم شكل العلاقة بين الإسلام والغرب، وتغيرات ربما غير متوقعة ولا محسوبة على شكل علاقات الشعوب بالحكومات، والدول ببعضها البعض، بل وعلى المستوى الداخلي الأمريكي ذاته.

والمسألة بالطبع تستحق التأمل والتفكير، حتى ندرك السلبي من الإيجابي فيها، فنستعد لتلافي السلبيات، والاستفادة من الإيجابيات ورسم السياسة الصحيحة لبلادنا في هذا العالم الذي تغير وسيتغير كثيرا منذ ١١ سبتمبر.

■ ■ ■

■ جرائم أمريكا في هذا الزمان :

حادث الثلاثاء الرهيب

◆◆◆

مثيل في تاريخ العالم وتاريخ الولايات المتحدة الأمريكية.. الحادث الأكبر من نوعه، كيف تم؟.. وهل يمكن اتخاذ احتياطات مستقبلية لمنع مثل هذه العمليات؟.. وما هو أثر ذلك الحادث الضخم جدا على شكل العالم وعلاقات وسياسات الولايات المتحدة الأمريكية المستقبلية وعلى أوضاع الصراع في الشرق الأوسط؟.. وما دلالات الحدث؟.. وغيرها من الأسئلة التي طرحت نفسها بقوة على العقل السياسي والاستراتيجي في كل مكان.

بعيدا عن الفرح المشروع، والشماتة الطبيعية.. وعن مسائل الإدانة والشجب والتنديد التي صدرت هنا وهناك وعن الدموع الحقيقية أو دموع التماسيح التي سالت بغزارة على وجنات هذا وذاك، فإن المسألة تستحق التأمل رغم أن هذا التأمل المطلوب شيء صعب جدا مع ضخامة الحدث وسخونة الموقف، ودراماتيكية الأحداث والوقائع.

في يوم الثلاثاء الحزين أو العظيم على حسب موقفك!.. في صباح ذلك اليوم الموافق ١١/ ٩/ ٢٠٠١ م – الصباح بتوقيت واشنطن ونيويورك وبعد الظهيرة بتوقيت الشرق الأوسط اهتز العالم بقوة.. ذلك أن عددا من الرجال قرروا أن يموتوا ولكن بعد أن يوقعوا بالولايات المتحدة الأمريكية أكبر ضربة من نوعها، ضربة تفوق نتائجها ماديا وبشريا حربا كاملة.. أو ربما عدة حروب خاضتها الولايات المتحدة هنا أو هناك.. قرر هؤلاء الرجال أن يلقنوا السيد الأمريكي المتغطرس درسا لن ينساه، كان منطق هؤلاء الرجال – أيًّا كانوا – أن الولايات المتحدة الأمريكية تمارس كل أشكال البلطجة والاستكبار في العالم، وتتسبب في آلام ضخمة لشعوب كثيرة.. يأتي على رأسها الشعب الفلسطيني الذي يعاني منذ عشرات السنين من حالة مستمرة من التشرد والموت والفقر والحاجة وفقدان

الوطن والأحبة على يد عصابات إسرائيل التي تؤيدها الولايات المتحدة الأمريكية وتعطيها السلاح اللازم للقتل، والمال اللازم لتمويل تلك الثكنة العسكرية المسماة إسرائيل لتعربد كما تشاء وتنزل الموت وتشيع الخوف بالعرب من حولها وبالفلسطينيين في قلبها، آلام ضخمة عانتها شعوب العراق وليبيا والسودان وإيران وأفغانستان وغيرها على يد السيد الأمريكي الذي تسبب مثلا في وفاة ما يزيد على المليون عراقي في الحرب والحصار والتلوث ونقص الأمصال والأدوية والغذاء والماء لمدة زادت على عشر سنوات بلا رحمة أو شفقة.

إنها أمريكا التي يزدحم ملفها من أول يوم بالقمع والدماء ، والتي لم تترك مكانا في آسيا وأفريقيا أو أمريكا اللاتينية إلا وارتكبت فيه عشرات المجازر والفظائع.

أمريكا التي قامت على إبادة شعب الهنود الحمر، ونمت على سواعد الاسترقاق الأسود، وهي التي لم تقبل حتى بالاعتذار عن الاسترقاق في مؤتمر أخير لم يمر على وقت الحادث إلا أيام قليلة، وصممت على ألا توصف إسرائيل بالعنصرية وإلا انسحبت معها من المؤتمر!!..

كان هؤلاء الرجال - حين عقدوا العزم على الانتقام للبشرية، وحجزوا التذاكر في رحلات الطيران الداخلي الأمريكي - يفكرون أيضا فيما آل إليه العالم من فقر وفوضى بسبب الهيمنة الأمريكية ، وما سوف يؤول إليه من حرمان اقتصادي واجتماعي بسبب العولمة والنهب والجات وسوق المال والبورصات ومراكز التجارة العالمية، فحددوا أهدافهم في رموز الهيمنة الاقتصادية، ورمز الرأسمالية الأمريكية المتوحشة، ومركز نهب العالم وامتصاص أرزاق الفقراء في كل مكان من العالم بألاعيب الاقتصاد الحر، إنه مركز التجارة العالمي في نيويورك.. ذلك الوحش - مصاص الدماء، والمرتفع في برجيه وعدة مبان ملحقة تدار منها عمليات نهب العالم

وقطع أرزاق العمال والفقراء ومص ثروات الشعوب، وكذا مبني وزارة الدفاع الأمريكية « البنتاجون» الذي يمثل الذراع القوية لتحقيق الأهداف الأمريكية الظالمة، والقادرة على إنزال العقاب بمن يجرؤ على معارضة أمريكا أو يقول لها : لا.. إنه رمز القوة الأمريكية المتغطرسة ، والذي منه تدار عمليات قمع العالم والسيطرة عليه بالقوة ودعم إسرائيل.. إلخ، وكذا مبنى وزارة الخارجية الأمريكية الذي يجوب رجاله وسفراؤه العالم لنشر الخوف والفزع والحصول على التسهيلات، والتجسس على الآخرين، وتحديد الوسائل والطرق الكفيلة بإخضاع العالم، ثم إحدى مقرات الرئاسة الأمريكية التي تمثل رأس الذئب الجائع وذروة سنامه.. وهكذا انطلق الرجال!..

وركبوا الطائرات.. لم يكن معهم شيء إلا إرادتهم وربما سكاكين صغيرة حصلوا عليها من الطائرات نفسها أو حملوها معهم، أو قاطع أوراق صغير يمكن إخفاؤه، ونجحوا في السيطرة على طائرات واتجهوا بها بقوة لتصطدم بمبنى وزارة الدفاع وبمركز التجارة العالمي وبمنتجع رئاسي في كامب ديفيد.. إلخ.

وكانت الحصيلة انهيار المباني، وقتلى وجرحى بعشرات الألوف. وأيا كان الرأي في مشروعية القتل ؛ فإن الرسالة قد وصلت وتوجع الذئب، كما يتوجع ضحاياه، وبكى الأمريكيون كما يبكي الآخرون، الفلسطينيون، العراقيون وغيرهم.. وفرح من فرح هنا وهناك حين رأى الحزن مرتسما على وجوه الأمريكيين والرعب يسيطر عليهم لدرجة أن يختبئ الرئيس الأمريكي لمدة طويلة في مكان غير معلوم.. نعرف فيما بعد أنه كان قاعدة تحت الأرض خوفا من طائرة لم تكن قد وصلت بعد إلى هدفها!.. رأى الضحايا في كل مكان على شاشات التلفاز، الأمريكية يفرون في كل مكان مفزوعين مثلما يحدث للفلسطينيين يوميا.

الحادث أو الحوادث والوقائع تستحق التأمل، ومرة أخرى بعيدا عن الشماتة أو الفرح، أو سكب دموع الحزن، فما حدث قد حدث، وبداية ، فإن الولايات المتحدة الأمريكية هي أكبر قوة في العالم وتمتلك أحدث الأسلحة والأجهزة الاستخباراتية والتجسسية من أقمار صناعية إلى أجهزة تجسس إلى حاسبات ضخمة، وتتجسس على كل العالم وعلى كل فرد في أمريكا وخارجها، ولها برامج تراقب أجهزة الهاتف العادي والمحمول، والمحادثات السلكية واللاسلكية، وعندها جهاز مخابرات جبار، يعمل به عشرات الألوف ويجند جواسيس في كل مكان ويخترق كل شيء وكل منظمة تقريبا علنية أو سرية، موالية أو معادية، وميزانيات ضخمة لتمويل كل ذلك، وهناك استحكامات ووسائل رقابة في الموانئ والمطارات والشوارع.. إلخ.. ومع هذا ورغم كل هذا نجح عدد من الرجال في تجاوز هذا كله ونفذوا ما أرادوا، وهذا يعني أن الإنسان أقوى من التكنولوجيا، وأن الإرادة الإنسانية فوق كل شيء، وقادرة على تجاوز أعتى الاستحكامات والاستعدادات، ولعل هذه الخبرة الإنسانية تفتح باب الأمل أمام إمكانية الثورة على الظلم مهما كان قويًا، وتحدي الاستكبار مهما كان محصنًا، وهي خبرة عرفتها البشرية قديمًا وحديثًا وتأكدت من خلال العمليات الاستشهادية التي تم تنفيذها في فلسطين المحتلة، وقبلها في لبنان ضد مقر قيادة القوات الأمريكية «المارينز» والفرنسية ١٩٨٣، ثم مقر الحاكم العسكري الإسرائيلي في صور فيما بعد والعمليات ضد سفارتي الولايات المتحدة الأمريكية في نيروبي ودار السلام.

ولكن الجديد في تلك الخبرة أن ما حدث سابقا كان يتم في دول إفريقية أو في لبنان أو فلسطين المحتلة، وربما يزعم البعض أن ذلك يرجع إلى ضعف الأجهزة الأمنية في تلك الأماكن، وأن ذلك مستحيل في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها،

ولكن الحقيقة أن الاستحكامات الأمنية في إسرائيل قوية، وكذا فإن تنفيذ العمليات في إسرائيل والولايات المتحدة يعني أن من الممكن النجاح بالإرادة وحدها في قلب أمريكا ذاتها وفي أحشائها « نيويورك وواشنطن» وأن من الممكن إنزال قدر هائل من الألم والوجع والخسائر بالمتغطرسين مهما كانت أدوات المهاجم بسيطة أو حتى بلا أدوات، فالعمليات الأخيرة أثبتت ذلك.. فالمهاجمون مجموعة من الناس قرروا الانتقام، ولم يكن معهم سوى ثمن تذاكر الطائرات، ورجال مدربون على قيادة الطائرات، أما السيطرة على الطائرات فعن طريق أدوات من الطائرة نفسها أو تهريب أشياء صغيرة مثل قاطع الورق أو سكين صغيرة، وربما بلا شيء عن طريق العضلات والإرادة القوية، وهكذا فإن تحدي الاستكبار لا يرتبط بالإمكانيات بل بالإرادة، وكذلك فإن تصميم المدن والتجارة والعلاقات والمباني وبسبب طبيعة الحياة التي لا يمكن تغييرها فإن تنفيذ تلك العمليات سهل لأنه من الناحية العملية لا يمكن تحويل كل مطار إلى ثكنة عسكرية، ولا يمكن تحويل كل مبنى إلى قلعة وإلاّ فقدت الحياة معناها وفقدت التجارة مكاسبها، ولا يمكن بداهة حراسة كل شخص وكل مبنى وكل موقع وإلا توقفت الحياة عمليًّا.

على كل حال فإن الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان كان قد اعترف بذلك حينما سأله أحد أعضاء مجلس النواب الأمريكي عن التقصير في حماية قوات مشاة البحرية في بيروت الذين تمت ضدهم عملية عام ١٩٨٣ على يد المقاومة اللبنانية عن طريق عملية استشهادية فقال الرئيس الأمريكي: « إن جميع الاستحكامات المعروفة في الدنيا قائمة على خوف المهاجم من الموت فإذا قرر المهاجم أن يموت فإنه لا حل هناك».

العملية التي تمت سواء كانت تعود إلى تنظيم معين أو تستند إلى جماعة أو مجرد

عمل مجموعة لا علاقة لها بأحد ؛ فإن الإمكانيات تظل ضعيفة والنجاح يرجع إلى الإرادة، ولعل الأثر المترتب على العملية لا يقتصر فقط على الخسائر المادية والبشرية وهي خسائر باهظة، بل في إثارة حالة من الفزع والخوف وهو أمر له ما بعده، وكذا الارتباك وإعادة تنظيم الأوضاع داخل الأجهزة الأمريكية وهو أمر مكلف طبعا، وكذلك في حالة الشلل التي أصابت حركة الطيران التجاري في أمريكا، وإغلاق البورصات، وإخلاء المباني الحكومية وغيرها من الأمور التي تتسبب في خسائر إضافية.

وهكذا فإن الألم شديد وإيقاع الوجع بأمريكا – الوجع الشديد – ممكن جدا: ﴿ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ ﴾ [1].

وعلينا أن نتأمل أيضا ماذا يمكن أن يحدث لأمريكا أو لإسرائيل أو لأي مستكبر.. فلو كانت العملية ترجع إلى تنظيم كتنظيم بن لادن مثلا فإن معنى ذلك أن بإمكان مثل هذا التنظيم وعن طريق المال والرشوة مثلا للعلماء السوفيت في روسيا أو أذربيجان أو غيرهما – من دول الاتحاد السوفيتي السابق – بإمكان هؤلاء الحصول على سلاح ذري أو بيولوجي واستخدامه، ولك أن تتصور الباقي..

إنه الرعب الكامل، ولو كانت تلك المجموعة لا تنتمي إلى تنظيم معين بمعنى أن الممارسات الأمريكية استفزت أي مجموعة من الناس، ولو فردا واحدا فقرر أن يخطف طائرة أو « باص » أو شاحنة وينفذ بها عملية فإن من المستحيل وقف ذلك، لأنه لا يمكن مراقبة كل الناس كل الوقت، ولنا أن نتصور المسلمين مثلا كأمة، حوالي ١٥٠٠ مليون نسمة سينتشرون في كل الدول والقارات والمدن والقرى والبحار واليابسة، أي لا يمكن القضاء عليهم ولا باستخدام القنابل الذرية،

(١) سورة النساء: الآية (١٠٤)

وبالتالي فإنه لا طريق هناك سوى التوقف عن الظلم!!.. ولعل هذه النتيجة هي المعنى المهم والأثر الأهم من عمليات يوم الثلاثاء ١١/ ٩/ ٢٠٠١م.

ماذا سيكون شكل العالم بعد الحادث الرهيب؟، وهل يصلح حادث مثل هذا لإعادة تشكيل العالم؟.. والإجابة: أن هذا الحادث سيكون له آثاره البعيدة جدا.. نظرا لضخامته من ناحية، والخسائر التي لا تحتملها أمريكا من ناحية أخرى، وبالتالي سوف يؤثر على توجهاتها، وكذا سهولة تنفيذ مثل تلك العمليات واعتمادها فقط على الإرادة والشجاعة والإيمان والمغامرة فقط ثم تفكير باقي دول العالم خاصة فرنسا وأوروبا في إمكانية حدوث ذلك معها، وإذا ناقشنا أولا ردود الأفعال العربية - الحكومية والشعبية - وكذا بعض الجماعات والقوى نجد أن بعض الرؤساء والجماعات شجبوا ونددوا بمثل هذا الحادث، وهذا شيء متوقع لأنه لا يمكن لأحد أن يتبنى الدفاع عن مثل هذا الأمر لأسباب معروفة، والبعض الآخر شجب وندد ولكنه لفت النظر إلى جرائم أمريكا وممارساتها وضرورة تغيير سياساتها وهؤلاء أشجع من النمط الأول، ولكن الوجدان الشعبي العادي الذي يلمسه أي مراقب في الشوارع المصرية أو العربية كان فرحا وشامتا، ويعبر عن إحساس بالفرح لإصابة الأمريكيين بشيء مما أصابونا به، بل عبر كثيرون من الطبقات الشعبية على المقاهي والمحلات بأن بن لادن يحظى بحبهم واحترامهم، وذهب البعض إلى ضرورة أن تساعده الدول العربية برغم أن التهمة لم توجه رسميا إليه حتى ساعة صدور تلك التعليقات. بعض المثقفين والمعلقين المتغربين ودعاة التطبيع اعتبروا أن ما حدث يمثل كارثة للعرب والمسلمين؛ لأنه سوف يترتب عليه أن تستفيد إسرائيل من حالة الغيظ الأمريكي وتزداد في تشددها، وهذا بالطبع مردود عليه بأنه لا إسرائيل ولا أمريكا تحتاج لحادث لكي تفعل بنا ما تفعل فهما فعلتاه قبل الحادث

وسوف تفعلانه بعده ؛ لأن ذلك استراتيجية أمريكية وإسرائيلية ثابتة.. وكذلك يروج هؤلاء أن تشددا متوقعا مع المهاجرين العرب والمسلمين، سواء المقيمين منهم في أوروبا وأمريكا أو الراغبين في السفر، وأن معاملة المسلمين في أمريكا والغرب عموما سوف تزداد سوءا.

وقد يكون هذا صحيحا جزئيا أو مؤقتا، ولكنه أيضا سياسة ثابتة تتم وستتم بحادثة أو بدونها، بل إن تلك الحادثة ربما تجعل الأمريكيين يفكرون مرتين قبل اضطهاد أي عربي أو مسلم لأن هؤلاء لا يفهمون إلا لغة القوة، وهذا هو الأثر المتوقع على المدى الطويل.. بل إن إحساس أمريكا والغرب وإسرائيل بأن العرب والمسلمين قد عرفوا طريق الاستشهاد والانتقام وأن خبرتهم بذلك أصبحت معروفة ومتاحة سوف يؤدي بالضرورة إلى التوقف جزئيا أو كليا عن اضطهاد العرب والمسلمين وتغيير السياسات العالمية تجاه القضية الفلسطينية وقضايا العرب والمسلمين عموما، وهو أمر إيجابي بالطبع على عكس ما يروج بعض دعاة التغريب والتطبيع.. إن العالم سيتغير إلى الأفضل بفضل رجال قرروا أن يموتوا!! رغم أسفنا طبعا على الضحايا!!

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ (1).

■ ■ ■

(1) سورة النساء: الآية (٧٨)

■ جرائم أمريكا في هذا الزمان :

الأهداف غير المعلنة لغزو أفغانستان

◆◆◆

بدلا من التفكير الهادئ في الأسباب، ثم تحديد الجناة، انطلقت الآلة الإعلامية الأمريكية في اتجاه حشد معين، وأصبح الحديث عن حروب صليبية جديدة، وعن إمبراطورية الشر (العرب والمسلمين) وعن ضرورة ضرب الإرهاب ومن يحميه ثم دعوة العالم للمشاركة والتأييد ومن لا يساعد أمريكا يصبح عدوها، فليس هناك خيار ثالث..

التأمل الهادئ في أسلوب الحشد الإعلامي والسياسي والعسكري الأمريكي للحملة المزعومة على الإرهاب، يعطي الانطباع بأن هناك أسبابا أخرى – غير الإرهاب – أو أسبابا أخرى غير معلنة للحملة الأمريكية عموما والحملة الأمريكية على أفغانستان خصوصا.

وبداية ، فإن عددا من الحقائق باتت لا تخفى على أحد، يمكن رصدها بسهولة بمجرد التأمل.

فحوادث ١١ سبتمبر كانت حقا رهيبة، ولكنها ليست الأولى من نوعها بالنسبة لأمريكا، فقد حاول الإرهابيون أنفسهم حسب ادعاء الولايات المتحدة الأمريكية وأجهزتها الاستخباراتية والفيدرالية FBI, CIA نسف مركز التجارة العالمي نفسه من قبل، وتم ضبط أناس ومحاكمتهم، أي أن الدليل المادي المزعوم ضد أفغانستان كان موجودا منذ ١٩٩٣ م وكذا فإن عمليات مثل نسف السفارتين الأمريكيتين في كل من نيروبي ودار السلام منذ ثلاث سنوات، وكذا نسف مقر قيادة البحرية الأمريكية «المارينز» في بيروت عام ١٩٨٣م والمدمرة الأمريكية كول في مياه عدن وضرب الأمريكيين في الصومال بل والتمثيل بجثثهم، وكلها حالات كانت أمريكا تتهم فيها بن لادن شخصيا، أو ما يسمى بالأفغان العرب أو منظمات إسلامية على علاقة مباشرة ببن لادن وطالبان وأفغانستان، ربما فيما عدا نسف قيادة مشاة البحرية

في بيروت عام ١٩٨٣ م المنسوبة لشيعة لبنان ، وفي كل مرة كان رد الفعل يتمثل في الانسحاب الأمريكي من المكان محل الهجوم، أو السكوت على مضض أو ضرب مجموعة من المنشآت بالصواريخ لامتصاص غضب الشارع الأمريكي أو رد الاعتبار، وصحيح أن هذه المرة – حادثة ١١ سبتمبر – هي الأكبر من نوعها، ولكن كمية الغضب ورد الفعل الأمريكي كانا يقتضيان ضربات صاروخية سريعة مثلا لأفغانستان لتهدئة الرأي العام الأمريكي، ولكن الذي حدث أن العكس هو الذي يحدث، فمن ناحية تم توصيل رسالة إعلامية واضحة تثير المزيد من الغضب وتؤججه، وعلى حد تعبير الكاتبة الأمريكية سوزان مونتاج في صحيفة اللوموند: «فإن الفجوة التي تفصل بين ما حدث وما يستوجب فهمه من تلك الأحداث من ناحية وما تروج له الشخصيات العامة والتحليلات الإخبارية في وسائل الإعلام الأمريكية من ناحية أخرى لهي فجوة مثيرة للخوف وتدعو للاكتئاب، ففيما يبدو أنهم جميعا قد اتفقوا على شن حملة إعلامية تهدف إلى معاملة الرأي العام الأمريكي معاملة الأطفال» وتضيف نفس الكاتبة « أن المسئولين الذين يشغلون مناصب رسمية أو هؤلاء الذين يأملون في ذلك أو هؤلاء الذين شغلوها يوما ما، من الواضح أنهم قد تآمروا جميعا بإرادتهم بالاتفاق مع وسائل الإعلام الرئيسة على عدم تحميل الشعب الأمريكي عبء معرفة الحقيقة».

وهكذا ، فإن هناك توجها مرسوما نحو حشد الشعب الأمريكي بطريقة ما باتجاه الموافقة على حملة عسكرية ضخمة - لأسباب سوف نحللها – حتى لو أدى الأمر إلى سقوط خسائر في صفوف القوات الأمريكية، أو حتى لو أدى الأمر إلى عقاب شعوب بكاملها أو التسبب في ضحايا أكثر عشرات المرات مما حدث في نيويورك وواشنطن، أو حتى لو أدى الأمر إلى عقاب جماعي بحثا عن شخص أو بسبب

شخص، وذلك بدلا من مناقشة القصور المخابراتي والأمني، وضعف أجهزة الرصد والتوقع، أو البحث في أسباب نقمة شعوب وجماعات على السياسات الأمريكية.

أضف إلى هذا أن الأهداف تم تحديدها، والقوات بأعداد ضخمة جدا تم تحريكها قبل أن تكون هناك أدلة قاطعة على الفاعل الحقيقي، حتى الآن ومع مرور الوقت يثبت شيئا فشيئا مدى التخبط في الاتهامات ونشر أسماء لا تزال حية هنا أو هناك على أنها التي قامت بالعملية، وإذا كانت المباحث الفيدرالية الأمريكية لم تعرف حتى الآن على وجه الدقة أسماء الذين قاموا بالعملية فكيف لها أن تعرف صلتهم ببن لادن مثلا ، وقد ثبت ذلك بعد ظهور أخطاء في أسماء القوائم الأمريكية المنشورة عن منفذي العملية وظهور بعضهم في السعودية والإمارات وغيرهما، المهم أنه لا دليل حتى الآن قاطعًا على الجاني، وبداهة لا يليق بدولة عظمى مثل الولايات المتحدة أن تمارس رد الفعل بدون دليل، اللهم إلا إذا كان التحرك في حد ذاته مخططا من قبل ويحتاج الذريعة أو التوقيت المناسب، ولعل التأمل في الحجم الضخم من قوات بحرية – رغم عدم وجود منافذ بحرية لأفغانستان – وطيران وصواريخ وقوات برية، وحشد دولي، والبحث عن قواعد وتسهيلات في باكستان وطاجيكستان وأوزبكستان وتركيا واليونان... إلخ يعني أننا أمام حملة كبرى سوف تستغرق وقتا طويلا، وكذلك حديث الرئيس الأمريكي عن حشد الشعب الأمريكي وإمبراطورية الشر وضرورة اجتثاث الإرهاب في كل مكان – وهذا مستحيل طبعا – يعني أن الأمر أكبر من مجرد حملة لرد الاعتبار، أو ضربات توجه لأفغانستان عن بعد، وكذلك معرفتنا بأن عقاب طالبان في حد ذاته – وهي الضعيفة عسكريا – عن بعد هو أفضل ؛ لأن دخول الجيش البري الأمريكي

المستنقع الأفغاني أمر ليس سهلا، وله مخاطر جمة ، ومع ذلك تصر عليه الولايات المتحدة، لماذا؟ ومن أجل أي أهداف، هل من أجل القبض على بن لادن وعدد من رجاله أو حتى قادة طالبان؟! بالطبع لا، والمسألة تحتمل أكثر من هذا السبب الذي يخفي أسبابا.

ثم إذا تأملنا إصرار الولايات المتحدة على أن تنفرد بتلك الخطوة بدون الحاجة إلى قوات أطلسية على غرار ما حدث في يوغوسلافيا بدعوى أن ذلك أفضل من حيث عدم تضارب القرارات!! ودون الرغبة في الحصول على تفويض من مجلس الأمن كما حدث في العدوان على العراق عام ١٩٩١، يعني أن هناك أجندة أمريكية خاصة بالمنطقة وبالموضوع وليست أجندة دولية.

وكذا لو تأملنا ما أكده عدد من المصادر منها : صحيفة الجارديان البريطانية من أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تفكر في غزو أفغانستان قبل شهرين من حدوث الهجوم على واشنطن ونيويورك في ١١ سبتمبر الماضي، وأنه تم عقد اجتماع لمدة أربعة أيام في منتصف شهر يوليو ٢٠٠١ الماضي ضم مسئولين أمريكيين وروسًا وإيرانيين وباكستانيين.

إذن فالإطاحة بطالبان - أو بالأحرى الرغبة الأمريكية في التواجد في أفغانستان - هي أمور سابقة على حوادث الثلاثاء الرهيب وأن هناك بالتالي أسبابا لتلك الرغبة الأمريكية غير معاقبة بن لادن أو القضاء على الإرهاب.

لماذا حرص الرئيس بوش على أن يحصل على دعم كل من الحزبين، وكل من المجلسين، بطريقة تشبه الإجماع ولماذا حدث هذا الإجماع في دولة عريقة في الديمقراطية ولا تتفق عادة على رأي واحد؟ هل يمكن تفسير ذلك في أن مصلحة الرأسمالية ومراكز المال والصناعة في الولايات المتحدة الأمريكية التي تستفيد عادة

من الحروب خاصة الكبيرة منها في إغراء الحزبين «الجمهوري والديمقراطي» وحشد أعضاء الكونجرس، ثم خداع الرأي العام عن طريق الإعلام لتحقيق مصالحها، وهل يفهم في هذا الإطار أيضا أن تلك الحملة الأمريكية الدولية ضد الإرهاب لن تكتفي بأفغانستان وستصل إلى لبنان والسودان والعراق وإيران وسوريا، وكل هذا يخدم المشروع الصهيوني الذي بات غير قادر على مواجهة المقاومة الإسلامية، وهل تستغل إسرائيل الفرصة - فرصة انشغال العالم في الحرب الضخمة على الإرهاب والدول التي تؤويه - في إعادة هيكلة الواقع الفلسطيني على الأرض بما يجعلها قادرة على إملاء مطالبها، لماذا لا نفكر أيضا في أن الوجود العسكري الأمريكي في أفغانستان سيجعل من الممكن تحييد السلاح الباكستاني والإيراني الممكن استخدامه ضد إسرائيل!! خاصة أسلحة الدمار الشامل النووية وما تحت النووية، الأمر الذي يطلق يد إسرائيل في المنطقة بعد إخراج هاتين القوتين من المعادلة وبعد ضرب العراق ولبنان وربما سوريا والسودان لتخويف مصر، ولكن أليس وجود القوات الأمريكية في ذلك القوس من الخليج حتى باكستان وطاجيكستان وبحر قزوين سوف يقلل من قيمة إسرائيل الاستراتيجية؟!

الشيء الوحيد القابل للفهم هو أن الولايات المتحدة الأمريكية تريد أن تدخل أفغانستان لتبقى فيها، يمكنها أن تقيم حكومة من شخصيات من الأغلبية والمعارضة، أو تعيد أبناء ظاهر شاه أو هو شخصيا ولكن ذلك لا يمكن استمراره إلا تحت مظلة الوجود العسكري الأمريكي المستمر في أفغانستان، وربما أيضا إقامة قواعد دائمة في باكستان وطاجيكستان وأوزبكستان، والمطلوب طبعا هو السيطرة على بترول بحر قزوين، وبذلك تكون القوات الأمريكية قد أحكمت سيطرتها ووجودها المباشر على بترول الخليج وبترول بحر قزوين، أي أحكمت سيطرتها على

شريان الحياة، ويمكننا أن نفهم أيضا أن تستغل الولايات المتحدة هذا الوجود لدعم حركات انفصال في الصين مثلا، أو التحكم في إمداد الصين بالبترول الذي من المتوقع أن تصبح الصين مستوردة له بكميات كبيرة في وقت قريب أو ربما المسألة متصلة بإعادة هيكلة آسيا بطريقة معينة بالتحالف مع تركيا واليابان مثلا، وكل الاحتمالات مفتوحة، ولكن الواضح فيه أن رغبة الولايات المتحدة في الوجود العسكري في أفغانستان وما حولها بصورة مستمرة هي السبب الأكبر في كل ما تفعله ، وليس موضوع معاقبة بن لادن أو طالبان إلا الذريعة، ولعلها وجدت في حادث الثلاثاء ما يعجل بتحقيق تلك الخطة المعدة سلفا، ولا يعني هذا أنها هي التي فعلت ما حدث في واشنطن ونيويورك أو أنها شجعت عليه أو سهلته، ولكن من يدري كيف تدار الأجهزة الأمريكية ومن يخترقها، أو يحركها أو يشكل وصاية عليها؟!

في كل الأحوال فإنه رغم تلك الرغبة الأمريكية التي تحقق للولايات المتحدة التحكم في كل بترول العالم تقريبا من الخليج إلى بحر قزوين والتي تحققت بفعل حرب الخليج الثانية ثم حرب الإرهاب المزعومة ، وبرغم كل المكاسب المتوقعة لصالحها غير البترولية، فإن من الممكن أيضا أن تكون تلك هي بداية النهاية للولايات المتحدة، ويحدث لها ما حدث للاتحاد السوفيتي السابق في أفغانستان، وربما يكون الحريق ضد الوجود الأمريكي ليس في أفغانستان فحسب بل قد يمتد هناك إلى باكستان ثم الخليج العربي ذاته. من يدري؟!

■ ■ ■

■ جرائم أمريكا في هذا الزمان :

العالم على مفترق طرق

◆◆◆

رد الفعل الأمريكي على حوادث الثلاثاء الرهيب، سوف تحدد شكل العالم في السنوات القادمة، وكثير من الأمور ستختلف بعد حدوث رد الفعل هذا، وتداعياته القادمة وشكله.

وبداية ، فإن الألم الشديد الذي نزل بأمريكا والخسارة الرهيبة التي لحقت بها، والتي ربما لم تحدث في تاريخها كله «عشرة آلاف قتيل، و ٧٠٠ مليار دولار من الخسائر متمثلة في انهيار المباني الضخمة، وتعطل حركة الطيران المدني عدة أيام، وتراجع البورصات وإغلاق أسواق المال لمدة أسبوع، وتراجع سعر الدولار وغيرها» مقارنة بحادثة بيرل هاربور التي قام فيها اليابانيون بتدمير الأسطول الأمريكي في بيرل هاربور وأوقعوا فيها ٢٥٠٠ قتيل، ٥٠٠ مليون دولار خسائر مادية بأسعار الأربعينيات – حوالي ١٠٠ مليار بأسعار اليوم – هذا فضلا عن سقوط هيبة السيد الأمريكي، وزعزعة غروره بقوة، وتهشيم جزء كبير من وجهه العسكري والاقتصادي.

كل هذا كان فرصة لأن يعيد الأمريكيون التفكير مرتين، بمعنى أن يطرحوا على أنفسهم سؤالا بديهيا، هو : ما السبب في تعرض الولايات المتحدة لذلك كله، ولماذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية هدفا للإرهاب؟ هل هناك أخطاء في سياساتها الخارجية مثلا تسببت في ظهور نوع من الحقد الأسود عليها؟ هل ممارساتها قد أدت إلى إشعال الغضب في نفوس عدد من البشر كبيرًا أو صغيرًا، لدرجة التفكير في الموت والقيام بعمليات انتحارية ضد أمريكا كرد فعل على هذه الممارسات، وإذا أخذنا مثلا العرب والمسلمين الذين أصبحوا متهمين لدى الإدارة الأمريكية والصحافة الأمريكية – كجماعة بشرية – تشعر أو يشعر جزء كبير منها بالغيظ والغضب من سياسات الولايات المتحدة الأمريكية، فهل لهذا الأمر أصل حقيقي

وسبب موضوعي مثلا؟، هل هو إنشاء إسرائيل ودعمها المستمر، وبالتالي التسبب في فظائع ومآسٍ للشعب الفلسطيني والشعوب العربية والاعتداء على مقدسات المسلمين؟ هل القتل اليومي للفلسطينيين بطائرات أمريكية يمكن أن يؤدي إلى نوع من التفكير لدى الضحايا وذويهم وأبناء دينهم «هذه ليست حرب الديمقراطية ضد الإرهاب، هذا ما سيطلب من العالم أن يعتقده في الأيام القادمة، إنها حرب لها علاقة أيضا بالصواريخ الأمريكية التي نزلت على منازل الفلسطينيين وبطائرات الهليوكوبتر الأمريكية التي ألقت حمم النار على عربات الإسعاف في لبنان عام ١٩٩٦ وبالقنابل الأمريكية التي سقطت على قرية لبنانية اسمها قانا، وميليشيات لبنانية الاسم إسرائيلية الزي، أمريكية التمويل قتلت واغتصبت المئات في معسكر للاجئين «صابرا وشاتيلا».

وعلى حد قول الكاتب والمفكر الأمريكي – اليهودي غير الصهيوني – ناعوم تشومسكي «كانت التفجيرات في نيويورك وواشنطن فظيعة ولكنها ليست أشد فظاعة من جرائم أخرى ارتكبتها الولايات المتحدة الأمريكية في حق شعوب أخرى كان آخرها ما فعلته حين دمرت بلا جريرة نصف إنتاج الدواء السوداني في مصنع الشفاء بالخرطوم».

هل تفكر الولايات المتحدة، مفكروها، وسياسيوها، وحكامها وجماعاتها – الرئاسة – المخابرات – البنتاجون – الكونجرس – الصحافة ... إلخ في أن سياسة الحصار على العراق مثلا أدت إلى مليون قتيل معظمهم من الأطفال؟ وأن العولمة والجات والرأسمالية المتوحشة تتسبب في تهميش المزيد من الناس والفقراء كل يوم، خاصة في الجنوب؟ أم أن الضجيج والصياح سيكون البديل، للوصول إلى أهداف لا علاقة لها بمصلحة أمريكا؟ هل تدرك الولايات المتحدة الأمريكية أن القوة

والاستخبارات والاستحكامات مهما كانت لن تحمي أمريكا، بل يحميها سياسة أخلاقية؟ هل تكف مثلا عن استخدام الفيتو ضد كل قرار يدين إسرائيل؟!! أم أن العكس سيحدث تماما، بمعنى هل تستغل قوى معينة في أمريكا وخارجها حالة الغضب والغبار الشديد المتصاعد من المباني المهدمة لإحداث حالة من التضليل والهيستريا لدى الرأي العام، فيفسر الأمر على أن هناك أقواما شريرة تريد القضاء على أمريكا الطيبة، هكذا شريرة بلا مبرر ولا دافع، وأمريكا طيبة على طول الخط، وأن الصراع هو بين الخير الذي تمثله أمريكا وبالتالي إسرائيل الشر الذي يمثله كل من يرفض الأمركة، أو يقاوم إسرائيل، أو ينتقد العولمة، أو يظهر الضجر من قوانين السوق.

الحقيقة أن هذا ما حدث، فالمسألة وصفت على أنها أفعال شريرة تستحق القضاء عليها في كل مكان، القضاء على الإرهاب ومن يدعمه، ولو على حساب كل شيء، يمكن ضرب أهداف مدنية ومنشآت وإسقاط ضحايا من البشر العاديين في أفغانستان، سوريا، لبنان، اليمن، إيران، السودان، ليبيا،بل ودعوة إخوانهم من العرب والمسلمين في المشاركة في المجهود والحرب ضد هؤلاء الأشرار اليوم أو غدا، وإلا فهم بدورهم أعداء لأمريكا، وللحضارة، فالحرب بين التحضر والهمجية وهذا يقتضتي فعل كل شيء لحماية التحضر، حتى لو كان الفعل نفسه غير متحضر، إنها بالطبع فرصة للقضاء على كل البؤر المعادية لأمريكا وإسرائيل، وتحويل المعركة إلى حرب عالمية ثالثة ضد الإسلام والمسلمين، والهيستريا بدأت في عمليات الانتقام الفردي والجماعي من الوجود الإسلامي في الغرب وأمريكا، والاعتداء على المساجد والمراكز الإسلامية والأفراد والمؤسسات والنساء المحجبات وأطفال المدارس.. إلخ، وكذا ظهرت الدعوات لمنع هجرة المسلمين إلى الغرب والتشدد في

قوانين الإقامة والهجرة ودفعهم إلى العودة إلى بلادهم، وكذلك في تحويل المجتمعات الأوروبية وأمريكا إلى مجتمعات بوليسية على حساب الحرية الفردية، وكل هذا بالطبع سيزيد من حالة الغضب والعداء لأمريكا والغرب ويعطيه المزيد من الوقود، وبالتالي يزيد من فرصة تكرار الأعمال الإرهابية ؛ لأنه مهما تطورت وسائل الأمان فإن الإرهاب بدوره سيطور نفسه وهذه سنة الحياة في كل شيء، ولن تستطيع كل الإجراءات منع الإرهاب ، مهما كانت محكمة، وهذه أيضا سنة كونية يجب أن تعرفها أمريكا، فدرع الصواريخ لن يحميها، والتفتيش الدائب في المطارات لن يحول دون خطف الطائرات! ويمكن أن تأتيها الضربة من أماكن وطرق لا تخطر على بالنا الآن، وربما يدخل هذا في سنن الله تعالى القاضية بانهيار الحضارات المغرورة والقوة المتغطرسة، ويمكن أن يكون ما حدث في «الثلاثاء» الرهيب هو المقدمة لتنفيذ إرادة الله وسنته في انهيار الحضارة الأمريكية لأنها تغطرست ولم تخضع للسنن الكونية في استمرار الحضارات.

■ ■ ■

الآثار المتوقعة لحادث ١١ سبتمبر على المعادلات الدولية والإقليمية

◆◆◆

ما بعد ١١ سبتمبر ليس مثل ما قبله بالتأكيد ... فكثير من العلاقات والمعادلات الدولية والإقليمية يمكن أن تتغير، وهذا يعني أن علينا دراستها وبالتالي الاستفادة منها، أو تقليل آثارها الضارة علينا، وبدون الدراسة والبحث ومعرفة موقفنا في العالم الجديد والتحرك بسرعة إزاء هذا الواقع ، فإننا نكون قد أخطأنا في حق مستقبلنا.

حادث ١١ سبتمبر رفع الغطاء عن كثير من الحقائق، ودفع بها إلى الصدارة وأحدث مستجدات جديدة لم تكن موجودة.

من الحقائق التي رفع عنها حادث ١١ سبتمبر الغطاء، ذلك الموقف المعادي جماهيريا ورسميا وشعبيا في الغرب وأمريكا للإسلام والمسلمين، فالتفسير السريع الذي اندفع إلى الصدارة قبل أن تبدأ التحقيقات أصلا، هو أن العرب والمسلمين هم المسئولون عن الحدث، وأن أسامة بن لادن وجماعة القاعدة وأفغانستان وطالبان يجب معاقبتهم، وتحركت الأساطيل والطائرات والجنود لتنفيذ المهمة قبل أن يتأكد أحد من جدية الاتهام، وسجلت الحوادث اليومية زيادة الاعتداءات على العرب والمسلمين المقيمين بأوروبا وأمريكا، ودار الحديث علنا وهمسا عن الإسلام الذي يفرز العنف، وعن إمبراطورية الشر التي يمثلها المسلمون.. وكان معنى هذا أن العداء للإسلام والموقف من العرب والمسلمين موقف سابق قد وجد الفرصة للتعبير عن نفسه.

ومن تلك الحقائق أيضا أن مفهوم الحرية المزعوم في الغرب وأمريكا قد سقط في الامتحان.. فالشبهات حامت حول كل عربي ومسلم، ومنع كثيرون من السفر، أو اعتقل البعض بلا ذنب ثم أفرج عنه بعد ذلك، وصدرت تشريعات تبيح القمع – للعرب والمسلمين تحديدا – بل وتم تجميد أرصدة لجماعات وأفراد وهيئات خيرية

دون أن يصدر حكم قضائي بذلك.

وعندما تم ضرب أفغانستان – وهي الدولة الأضعف والأفقر – على يد الدولة الكبرى والأقوى، مع حلفائها الأقوياء إنجلترا وكندا واستراليا واستعداد فرنسا لذلك ودعم ألماني وياباني وتواطؤ روسي.. إلخ اكتشفنا أننا أمام الغرب كل الغرب وليس الأمريكان وحدهم وأن هذا الغرب الذي كثيرا ما صدع رؤوسنا بمبادئ الحرية والعدالة والقانون الدولي، يمارس سياسة العقاب الجماعي، ويضرب دولة وشعبا بحجة البحث عن رجل أو مجموعة رجال – دون الرجوع حتى للأمم المتحدة – وكان هذا سقوطا عمليا للمبادئ المزيفة للحضارة الغربية.

سنفترض أن بن لادن مسئول فعلا، وكذا تنظيم القاعدة وحكومة طالبان، وأنهم يستحقون العقاب - حسنٌ - فلتعاقبهم أمريكا ولكن لماذا لا تعاقب في نفس الوقت الذين ارتكبوا الجرائم في حق الشعب الفلسطيني والعراقي والذين ضربوا الطائرة المدنية المصرية عام ١٩٧٢م، والإيرانية عام ١٩٩٠م والذين ضربوا المدنيين والمنشآت المدنية في السودان وليبيا، واعترفوا بالخطأ فيما بعد، والذين ارتكبوا جرائم الإبادة ضد الهنود الحمر والأبورجيين« سكان استراليا الأصليين» وجرائم الاسترقاق والاستعمار والمذابح هنا وهناك؟ أليست هذه عنصرية؟!!!

واكتشفنا أيضا أن أقوى الدول والشعوب في مواجهة أمريكا كانت أفغانستان – وأضعفها موقفا هي باكستان التي تمتلك القنبلة الذرية، وحجة باكستان في الخضوع هي خوفها على منشآتها النووية، وهكذا فإن الحصول على عناصر القوة كانت من عوامل الخضوع، فلم تزدنا القنبلة النووية إلا خضوعا ، والمفروض أنها كانت عامل قوة، وهذا يفتح الباب واسعا لمناقشة الأسلوب الصحيح للتنمية والحصول على عناصر الصمود، فما دمنا في حالة مواجهة – أردنا أو لم نرد – مع الغرب وأمريكا

فعلينا أن نختار أسلوب التنمية وعناصر القوة التي تدعم صمودنا وليس العكس، وفي هذا الصدد علينا التركيز على التنمية المستقلة غير المرتبطة بنظام الاقتصاد الدولي والعولمة – بمعنى التركيز على الزراعة والمشروعات الصغيرة، لأن هذه من الصعب ضربها ، ومن الصعب التحكم فيها (١) أما بناء مصانع كبيرة والحصول على سلاح ثقيل ،فهذا يزيدنا ضعفا، لأنهم يمتلكون سلاحا أقوى، ولأنهم يستطيعون ضرب المصانع الكبيرة والأسلحة الثقيلة، سنضرب مثلا إذا كان لدينا الرغبة في بناء مصنع كبير للدواء مثل السودان، يمكن ضربه بصاروخ كروز أوتوماهوك في لحظات، أما إذا أنشأنا بنفس التكاليف ١٠٠٠ «ألف» معمل صغير للدواء فهذا يصعب تدميرها، والمسألة أشبه بوضع البيض في سلة واحدة أو وضعها في عدد من السلال، والمثل المعروف يقول لا تضع كل البيض في سلة واحدة، وكذا القواعد العسكرية والإمكانيات العسكرية الضخمة يسهل ضربها، وهي أصلا لن تحسم المعركة لصالحنا لأن الغرب وإسرائيل متفوقان علينا عسكريا ومعلوماتيا وعلميا ويجب ألا نخدع أنفسنا، بل يجب الاعتراف بالحقيقة ثم البحث عن الوسائل الصحيحة لتجاوز هذه الحقيقة وتحقيق أهدافنا. ليس معنى هذا أننا نرفض القوة والتقدم، ولكن نقول : يجب أن ندرك ما حولنا وإمكانياتنا وتحدياتنا وظروفنا ومواجهتها بالأسلوب الصحيح، وهو التنمية المستقلة، وتوزيع المشروعات في كل مكان، والتركيز على الزراعة، وبناء الإنسان القوي المؤمن وليس الترسانة العسكرية القوية وممارسة الحرب الشعبية وليست النظامية.

***

(١) راجع في هذا الصدد كتابنا خطوط عريضة في المشروع الحضاري الإسلامي، وكتاب صفحات من كفاح شعب مصر، الجزء الأول.

من الحقائق المستجدة التي أفرزها حادث ١١ سبتمبر، هو أن العالم لم يعد مقصورا على قطب واحد، فما حدث يعني أنه بالإمكان إنزال الخسائر الباهظة بأقوى دولة في العالم، وأنها لم تعد محصنة أو لا يمكن الوصول إليها أو معاقبتها، بل يمكن ذلك بأساليب متاحة مع قدر من العزم والتصميم، وأنه إذا كان الاتحاد السوفيتي السابق قد سقط ؛ فإن قطبا جديدا هو الإرهاب قد صعد، وسوف يحدث هذا نوعا من التوازن الدولي يمكن استفادة الشعوب منه كما كانت تستفيد من التناقض السوفيتي الأمريكي.. بل أكثر من هذا أن الباب أصبح مفتوحا أمام ظهور تحالف شعبي ضد أمريكا يمارس ضدها النضال بكل أشكاله لانتزاع حقوق الشعوب ويصمد في مواجهتها، وهذا التحالف يضم كل المستضعفين في العالم ومناهضي العولمة والحركات الإسلامية وغيرها، ويمكن أن يكون الجذر الحضاري الإسلامي جذرا أيديولوجيا لهؤلاء، على أساس أن المسلمين ربع العالم وهم أول المستهدفين أمريكيا ، وعلى أساس أن الإسلام دين عالمي خطابه غير عنصري قادر على حشد المسلمين وغير المسلمين تحت لوائه، وهذا يرتب ضرورة تطور مفاهيم ووسائل وخطاب الحركات الإسلامية وعلماء الدين لتقديم خطاب عالمي، مدافع عن كل مستضعف وليس كل مسلم فقط، وتقديم الإسلام كأيديولوجية للفقراء، ولا شك أن النص الديني الإسلام، والممارسات الحضارية الإسلامية تسمح بذلك، ومن الحقائق المستجدة أيضا، أن الحكومات أدركت أنها أيضا مستهدفة أحيانا وأن الضربات ستطولها الواحدة بعد الأخرى، ما لم تقدم الولاء والخضوع الكامل لأمريكا ، وهذا غير ممكن لأنه يثير مشاكل مع الشعوب، ومن الأفضل طبعا أن ترضي الحكومات شعوبها وتقف بجانبها بدلا من العكس.

من الحقائق المستجدة كذلك. أن الجميع اكتشف أن أمريكا هي العدو في

أفغانستان والعراق وفلسطين، وبالتالي فإن الخلاف الذي كان يحدث على الأولويات قد تلاشى، بل إن كل القوى العربية مثلا القومي والوطني والإسلامي أصبح في خندق واحد، ولا بد أن يفرز لغة وخطابا واحدا سيكون إسلاميا غالبا لأن الحرب حرب حضارية وليست حربا قومية أو وطنية فقط، وهذه ميزة يجب أن يرتفع الخطاب الإسلامي لاستيعابها ليس بمنطق «ألم نقل لكم» ولكن بمنطق أننا جميعا شركاء في الدفاع عن أمتنا.

أحداث ١١ سبتمبر والعدوان على أفغانستان أفرز نوعا من النشاط والحيوية في صفوف الشعوب، فالمظاهرات في باكستان وأندونيسيا ومصر والمغرب والسودان واليمن ولبنان والعراق، وإيران وتركيا وكل مكان قد اندلعت، وشعار الموت لأمريكا لم يعد مقصورا على الإيرانيين وحلفائهم والمتعاطفين معهم، بل انتقل إلى كراتشي وجاوة وسومطرة.. وعلماء السعودية السلفيون هم الأكثر راديكالية في مواجهة أمريكا وكذلك علماء باكستان المتأثرون بالفقه السلفي.

وهكذا أصبح الجميع في الخندق عينه، السنة والشيعة، السلفيون وغير السلفيين.. إلخ وهذا أمر له ما بعده بكل تأكيد.

وربما يرجع هذا إلى الإحساس بالثقة في النفس عقب أحداث ١١ سبتمبر وبصرف النظر عن مشروعية العمل من عدم مشروعيته، وأيا كانت نتائجه فإن معنى توجيه الاتهام إلينا، عربًا ومسلمين ، القدرة على القيام بعمل خطير مثل هذا يحتاج إلى الدقة والتنظيم، هو في حد ذاته نوع من إعطاء الثقة بأننا لا نزال أمة قادرة على إفراز أذكياء وأكفاء حتى لو كانوا أشرارا، وأننا لسنا أمة نائمة أو عاجزة أو غائبة عن الوعي، وهذا بالتحديد ما جعل عددا من الرموز الفكرية التخريبية تحاول أن تقول : إنه لا يمكن لعربي ومسلم أن يقوم بكل هذا العمل الذي يحتاج إلى الدقة

والخسارة، وتم توجيه الاتهام إلى اليهود وإسرائيل أو الصرب أو اليمين الأمريكي أو اليابانيين، وكان منطق هؤلاء أننا نبعد التهمة عن العرب والمسلمين حتى لا يتعرضوا للانتقام والخسارة، والحقيقة أن أمريكا تحركت وضربت وأن العقاب نزل، والذي يترتب على هذا التفسير هو سحب رصيد الثقة الذي تراكم داخلنا عقب الحادث، أكثر من هذا فإن إدراك الغرب أن العرب والمسلمين قادرون على فعل أعمال بهذا المستوى حتى ولو كانت أعمالا شريرة فسوف تقلل من غرورهم تجاهنا، وغطرستهم ضدنا، وسوف يدفعهم في التفكير لعدم استفزازنا، وذلك بعد الخروج من حالة رد الفعل الحالية، وفي كل الأحوال فإن النتائج ستكون لصالحنا، لأن هؤلاء وغيرهم لا يفهمون إلا لغة القوة ولا يحترمون إلا القادر على إنزال الأذى بهم.

***

التأثيرات المحتملة على قضية العرب والمسلمين الأولى – وهي قضية فلسطين – تأثيرات متنوعة وأحيانا متعارضة ولا بد من دراستها وفحصها وتحديد اتجاهاتها لنخرج بالمحصلة سلبا أو إيجابا.

وبداية ، فإن ضربات ١١ سبتمبر كانت رسالة إلى الولايات المتحدة بأن ممارساتها في العالم عموما وفي فلسطين خصوصا كانت أحد أهم الدوافع لارتكاب الحادث، وقد تأكدت هذه الرسالة فيما بعد في كلام أسامة بن لادن وغيره، وكذا سيل التحليلات الذي ربط بين الحادث وممارسات إسرائيل ودعم أمريكا لها، وإذا كانت هذه الرسالة لم تستوعب بعد، بسبب ظروف المفاجأة والصدمة، فإنها لا بد ستصل إلى عقول الأمريكيين أعربوا عن أن ما نزل بهم كان بسبب إسرائيل – في استطلاع للرأي أعرب ٥٨٪ من الأمريكيين عن ذلك – وكذلك في الإشارات التي

أطلقها الرئيس الأمريكي ورئيس الوزراء البريطاني حول اقتناعهما بضرورة قيام الدولة الفلسطينية، وفي الوقت نفسه يجب ألا نخدع بهذا، فلو لم يستمر الضغط لتلاشى ذلك سريعا جدا، على أي حال فإن هذه نقطة إيجابية لصالحنا أحدثتها أحداث ١١ سبتمبر، ومن الآثار الإيجابية على معادلات الصراع أيضا، أن أمريكا أدركت أن إسرائيل عبء عليها، وأن قواتها مضطرة للوجود في آسيا الوسطى لأسباب مختلفة وهذا يعني أن القوت الأمريكية بنفسها أصبحت موجودة في هلال واسع من الخليج إلى بحر قزوين، وبالتالي قلت الأهمية الاستراتيجية لإسرائيل، ولعل هذا ما يفسر التراشق اللفظي بين شارون والأمريكيين وخوف شارون من أن يتم التضحية بإسرائيل لإرضاء العرب والمسلمين كما حدث لتشيكوسلوفاكيا إبان الحرب العالمية الثانية وتحذيره من أن ذلك لم يمنع وقوع الحرب.

وأكثر من هذا أن الثقة المترتبة على الحادث في نفوس العرب والمسلمين والفلسطينيين سوف تؤكد خطر الاستشهاد وهذا يضرب إسرائيل في صميم وجودها. فقد أصبح من الممكن تطوير العمليات الاستشهادية ضد إسرائيل بالطريقة ذاتها خاصة أن هناك ١,٢ مليون فلسطيني عربي يعيشون داخل فلسطين ١٩٤٨م، ولديهم جوازات سفر إسرائيلية وحاصلون على الجنسية الإسرائيلية.

وفي المقابل فإن هناك آثارا للحادث لصالح إسرائيل، فيمكن لإسرائيل أن تستفيد من حالة الغضب الشعبي والحكومي الغربي على العرب والمسلمين، وكذا فإن وجود القوات الأمريكية في آسيا الوسطى، في قلب باكستان، وبجوار إيران يعني تحييد القوة النووية الباكستانية التي كانت تمثل عنصر توازن لصالح العرب ضد القوة النووية، وكذلك تحييد قوة الصواريخ الباليستية الإيرانية التي كانت تهدد إسرائيل.

وكذلك فإن من الممكن ضرب العراق وسوريا وإيران ولبنان وليبيا وربما السودان واليمن والضغط على مصر، بحجة مطاردة الإرهاب، واستهداف حزب الله في لبنان وحماس والجهاد الإسلامي في فلسطين ، وكل هذا بالطبع يصب في خانة المصلحة الإسرائيلية.

■ ■ ■

أفغانستان

التاريخ والجغرافيا

◆◆◆

هل يكون الغزو الأمريكي لأفغانستان هو بداية النهاية والطريق إلى تراجع أمريكا وبدء منحنى هبوطها بعد أن وصلت إلى حالة الانفراد بالقوة في العالم، كما حدث للاتحاد السوفيتي السابق عقب غزوه وفشله في أفغانستان.. أم يحدث العكس وتصبح أمريكا هي أول قوة في التاريخ المعاصر تستطيع إخضاع الأفغان والسيطرة على بلادهم؟! وهو الأمر الذي لم يستطع تحقيقه الإنجليز أو السوفيت..

هل تلعب الجغرافيا الدور نفسه، أم أن الآلة الأمريكية سوف تستطيع إخراج الجغرافيا من العوامل المحددة لمصير الصراعات في أفغانستان.

إنها أسئلة محورية، ربما تشكل الإجابة عنها، شكل العالم في القرن الواحد والعشرين.

في كل الأحوال، فإن التاريخ والجغرافيا – حتى الآن – لعبا دورًا في منع أي قوة خارجية من الاستقرار في أفغانستان ، وسوف نتعرض لهذا التاريخ والجغرافيا.

***

تقع أفغانستان في قلب آسيا، وهي دولة قارية بلا أية منافذ بحرية، وتبلغ الحدود الدولية لأفغانستان ٥٧٦٩ كيلو مترًا، منها ٢٤٦٦ كيلو مترًا مع باكستان في الشرق والجنوب، و٨٤٩ كيلو مترًا مع إيران في الغرب، و٧١ كيلو مترًا مع الصين في الشرق، و٢٣٨٣ كيلو مترًا مع دول الاتحاد السوفيتي السابق«طاجيكستان، أوزبكستان، تركمانستان، كيرخيزيا، كازاخستان».

تبلغ مساحة أفغانستان ٦٥٢٢٢٥ كيلو مترًا مربعًا، ويشبه شكلها شكل ورقة الشجرة، وعاصمتها «كابول» ، وأهم المدن هي مزار الشريف في الشمال، هيرات في الغرب، قندهار في الجنوب، جلال أباد في الشرق، وتنقسم أفغانستان إلى ٣١ ولاية وتنقسم كل ولاية إلى مديريات تنقسم بدورها إلى مراكز وقرى.

وبخصوص السطح والمناخ، تنقسم أفغانستان إلى ثلاث مناطق رئيسية هي: السهول الشمالية وتتمتع هذه السهول بتربة خصبة، تكثر فيها الزراعة ورعي الأغنام، ويبلغ متوسط درجة الحرارة في تلك السهول ٣ درجات مئوية في يناير و٣٢ درجة مئوية في يوليو، ويبلغ المعدل السنوي للأمطار في هذه المنطقة ١٨ سم٣.

والمنطقة الثانية – وهي الأكبر – وتبلغ ثلثي مساحة أفغانستان، وهي المرتفعات الوسطى، ويبلغ أقصى ارتفاع لها ٧٦٢٠ مترًا، ويبلغ متوسط درجة الحرارة في هذه المرتفعات ٤ درجات مئوية تحت الصفر في يناير، و ٢٤ درجة مئوية في يوليو، ويبلغ المعدل السنوي للأمطار هناك ٣٨ سم٣، والمنطقة الثالثة هي الهضبة الجنوبية الغربية وتقع في جنوب غرب أفغانستان ويبلغ متوسط ارتفاعها ١٠٠٠ متر، ومساحتها تبلغ ٨٠ ألف كيلو متر مربع، والمعدل السنوي للأمطار فيها ٥ ,٢٣سم ٣، ويبلغ متوسط درجة الحرارة فيها ٢ درجة مئوية في يناير، ٢٩ درجة مئوية في يوليو، وتوجد في أفغانستان أربع مجموعات نهرية أساسية هي: مجموعة نهر أموداريا، مجموعة هاري رود في الشمال ومجموعة هلمند في الجنوب، مجموعة نهر كابل في الشرق.

يبلغ عدد سكان أفغانستان ٢٥ مليون نسمة، ويوجد بها ٢٠ جماعة عرقية أهمها البشتون ٤٣٪، الطاجيك ٢٧٪، الأوزبك ٦ ,٦٪، الإيماك ٣ ,٥٪، الفاراسون ٢ ,٥٪، الهزارا ٣ ,٣٪أ

وسكان أفغانستان معظمهم من المسلمين السنة على المذهب الحنفي ٨٢ – ٩٠٪ وشيعة على المذهب الجعفري ٨ – ١٧ ٪، وأهم اللغات هي البشتو والداري« لهجة فارسية يتكلم بها عدد كبير من السكان».

والتاريخ المعاصر لأفغانستان يبدأ من عام ١٧٤٧ م عندما أسس أحمد شاه الأبدالي «أحمد شاه بابا» دولة أفغانستان واتخذ من قندهار عاصمة له، وبسبب موقع أفغانستان الجغرافي تتنافس عليها العديد من القوى الدولية الطامعة، فحدث صراع بين الإمبراطوريتين البريطانية «في الهند» والروسية خلال القرن التاسع عشر، وقد تشكلت حدود أفغانستان الحديثة بناء على هذا التنافس لتصبح دولة عازلة بين هاتين الإمبراطوريتين، وفي القرن العشرين ظلت أفغانستان أيضا بسبب موقعها الجغرافي ميدانا للتنافس الأيديولوجي والتجاري بين روسيا ثم الاتحاد السوفيتي فيما بعد بريطانيا، ثم الاتحاد السوفيتي وأمريكا، وقد خاضت أفغانستان العديد من الحروب ضد بريطانيا التي كانت تستهدف السيطرة عليها لتضمها إلى إمبراطوريتها الهندية في آسيا، مثل الحرب من ١٨٣٩ م – ١٨٤٢ م وأسفرت عن أسوأ هزيمة لبريطانيا في التاريخ الحديث، ثم عاودت بريطانيا الكرة ١٨٧٨ م – ١٨٨٠ م وانتهت أيضا هذه الحرب بانسحاب القوات البريطانية، ثم مرة أخرى عام ١٩١٩ م واستمرت عدة أسابيع، تقهقرت فيها القوات البريطانية إلى داخل الهند يتبعهم الأفغان مما اضطر بريطانيا لتوقيع معاهدة روالبندي في ٨/ ٨/ ١٩١٩ م التي اعترفت فيها بريطانيا باستقلال أفغانستان داخليا وخارجيا.

وبسبب الموقف الدقيق لأفغانستان في إطار الصراع بين القوى العظمى فإنها التزمت الحياد في الحربين العالميتين في القرن الماضي (١٩١٤م– ١٩١٨م/ ١٩٣٩ م – ١٩٤٥ م).

ومن ناحية الإمبراطورية الروسية ثم الاتحاد السوفيتي السابق، فإن العلاقات الأفغانية معها مرت بالعديد من الأحداث، فقد عقدت أفغانستان وروسيا معاهدة عام ١٨٧٣ م لرسم الحدود بينهما، واعترفت فيها روسيا باستقلال أفغانستان

وسيادتها على أراضيها ، وفي عام ١٩٢١ م وقعت أفغانستان مع الاتحاد السوفيتي الذي كان قد ظهر لتوه بعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧ م معاهدة للصداقة والتعاون بين البلدين، وفي عام ١٩٥٦ م زادت المساعدات الروسية لأفغانستان ، وكذلك النفوذ السياسي والأيديولوجي ثم جاء الانقلاب الشيوعي في أفغانستان في ٢٧ أبريل ١٩٧٨م، ثم توقيع اتفاقية صداقة مع السوفيت في ٥/ ١٢/ ١٩٧٨ م ثم الغزو السوفيتي لأفغانستان في ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩م.

وقد تعاقب على حكم أفغانستان عدد من الملوك بدءا من أحمد شاه بابا ١٧٤٧م وانتهاء بالملك ظاهر شاه ١٩٣٣م – ١٩٧٣م ثم أطاح به رئيس وزرائه محمد داود في ١٧ يوليو ١٩٧٣م وأعلن قيام الجمهورية في أفغانستان، ثم جاء الانقلاب الشيوعي سنة ١٩٧٨ م ليطيح بمحمد داود ليحل محله نور الدين تراقي الذي ما لبث أن تعرض لانقلاب على يد حفيظ الله أمين في سبتمبر ١٩٧٩ م ثم تعرض حفيظ الله أمين لانقلاب مدعوم من السوفيت مباشرة هو انقلاب بابراك كارمل في ديسمبر ١٩٧٩ م ثم أقصى كارمل عن السلطة وأحل السوفييت محله محمد نجيب الله سنة ١٩٨٦ م ثم حكومة المجاهدين الأفغان مايو ١٩٩٢ م، ثم حركة طالبان منذ عام ١٩٩٦ م وحتى الآن.

***

الغزو السوفيتي لأفغانستان الذي بدأ عام ١٩٧٩ م، وانتهى عام ١٩٨٩ م تجربة تستحق الاهتمام، ذلك أنها ربما تكون نموذجا يحتذيه الشعب الأفغاني في مقاومته للغزو الأمريكي الجديد، وربما تكون نتائجه مشابهة أيضا، فينهزم الأمريكيون في أفغانستان ويحدث لهم ما حدث للسوفييت من تراجع وضعف.

الغزو السوفيتي لأفغانستان بدأ في ١٩٧٩ م لإسناد حكومة موالية، أو بالتحديد

تنصيب حكومة موالية، فالقوات السوفيتية هي التي أطاحت بحكومة حفيظ الله أمين، ثم جاءت بكارمل من المنفى لتجعله رئيسا للجمهورية،، لدرجة أن بابراك كارمل ألقى بيانه على الشعب الأفغاني عن طريق إذاعة طشقند وليس إذاعة كابول وفي نفس الوقت كان المزيد من القوات السوفيتية يتدفق برا وبحرا وجوا على أفغانستان عام ١٩٨٢ م ٨٥ ألف جندي، وصلوا إلى ١١٥ ألف جندي عام ١٩٨٥.

وهكذا فإن الشعب الأفغاني كان عليه أن يواجه نظاما عميلا، وأن يواجه جيش هذا النظام العميل، وأن يواجه ١١٥ ألف جندي وفي أقل الحالات ٨٥ ألف جندي سوفيتي مدعومين بطائرات ودبابات وصواريخ واستخبارات إحدى القوتين العظميين في ذلك الوقت، وبديهي أن الحدود السوفيتية مع أفغانستان كانت عاملا لصالح السوفييت، على عكس الأمريكان الذين عليهم أن يستأجروا أو يحصلوا على تسهيلات من باكستان وطاجيكستان وأوزبكستان.. إلخ، وكذلك علينا أن نقارن بين حجم القوات السوفيتية الغازية «١١٥ ألف جندي» وبين القوات الأمريكية « ٣٠ ألف جندي من قوات المارينز ودلتا وغيرها»، وكذلك إدراك أن الجيش البري السوفيتي كان هو الأكبر في ذلك الوقت.

ليس هذا فحسب، بل إن الأيديولوجية الشيوعية كانت تجد من يروج لها ويدافع عنها داخل أفغانستان وخارجها ، وهذا يجعل حشد الشعب الأفغاني في مواجهة السوفيت أصعب منه في مواجهة الأمريكان، وكذلك فإن السوفيت فعلوا كل شيء من أجل غسيل مخ الشعب الأفغاني، ومارسوا التضليل والقمع معا، وافتتحوا مدارس عقائدية، واستقدموا الشباب الأفغاني للدراسة في موسكو وغيرها، ولم يتورعوا كذلك عن القتل والتعذيب والحبس وكل أنواع القهر بحق الشعب الأفغاني.

وهكذا فإن المقارنة مع الظروف الحالية إبان الغزو الأمريكي ليست لصالح الأمريكان على طول الخط، اللهم إلا وجود حصار على أفغانستان من جيرانها، وهو أمر سوف يؤدي إلى سقوط طالبان ولكن هذه ليست النهاية، بل هي البداية، وسوف يتآكل النصر الأمريكي السريع على مر الأيام وسوف نرى.

ومع إدراك أن السوفيت خسروا ٤٠ ألف قتيل، وأن الشعب الأفغاني استطاع أن يمارس المقاومة بلا انقطاع حتى انتهى الأمر بانسحاب السوفيت عام ١٩٨٩م « ١٥ فبراير ١٩٨٩ م » لأمكننا توقع المصير المنتظر للغزو الأمريكي.

ولا ننسى هنا أن نقول إن قوات رمزية أو حقيقية جاءت من مختلف الدولة الشيوعية في ذلك الوقت لمساعدة السوفيت في حربهم ضد الشعب الأفغاني، جاءت قوات من كوبا وألمانيا الشرقية وبلغاريا واليمن الجنوبي «عدن» على غرار ما يحدث الآن من مشاركة بريطانية وفرنسية ويابانية وألمانية وكندية وأن السوفيت استخدموا جميع الأسلحة: الطائرات القاذفة والمقاتلة والمروحية وجميع الدبابات والعربات، والأسلحة الكيميائية أيضا ناهيك عن الأعمال الاستخباراتية لجهاز الـ K.G.B «جهاز المخابرات السوفيتي».

لننتظر ما تسفر عنه الأيام، أو السنوات، ونرى مصير الأمريكان على غرار مصير الروس أو العكس، صحيح أن الأمريكان قد حققوا انتصارات واضحة، فأطاحوا بنظام طالبان، ودمروا الكثير من قوات القاعدة، وأقاموا حكومة تابعة لهم في أفغانستان، ولكن السنوات ستقول كلمتها، لأن المقاومة ستنشأ حتى من بين الأنقاض، وسوف تتآكل القوات الأمريكية مع الوقت ومن يدري؟!

■ ■ ■

.. واكتشفنا أن الإعلام الغربي كاذب

◆◆◆

حقائق تكشف، ومفاجآت لنا ولغيرنا حدثت مع الغزو الأمريكي لأفغانستان؛ فقد اكتشفنا مثلا أن ما كان يروج له الإعلام الغربي من أن حركة طالبان قد ألغت الإذاعة أو أنها تحرم تعليم البنات ما هو إلا كذب صريح، ذلك أن الأخبار القادمة من أفغانستان عن طريق الإعلام الغربي ذاته تقول بأن الطائرات الأمريكية قد ضربت الإذاعة الأفغانية بالقنابل وأوقفتها عن البث، إلى حين قام المهندسون الأفغان بإصلاحها، فكيف تم إلغاء الإذاعة على يد حركة طالبان، وهي ذاتها تم استهدافها بالضرب؟!!

وكذلك نقلت إذاعة الـ B. B. C البريطانية في قسميها العربي والإنجليزي، وعلى شبكة الإنترنت أن صحفية إنجليزية قد زارت مدرسة البنات في شمال كابول، وأن تلك المدرسة استمرت تعمل رغم القصف الأمريكي، ورغم أن جدرانها كانت مثقوبة بفعل طلقات المدفعية التابعة للتحالف الشمالي للمعارضة، بل نقلت تلك الصحفية صورة عن مدى التقدم العلمي، والأدبي لبنات المدرسة، وأن بنات المدرسة كن على مستوى عال من الوعي السياسي، وإدراك أبعاد الأزمة بين حكومة طالبان والحكومة الأمريكية وأحداث ١١ سبتمبر وغيرها من القضايا المطروحة، فكيف يتفق هذا مع ما روجته دوائر الإعلام الغربي من أن حركة طالبان ترفض تعليم البنات؟!

وعلمنا في إطار هذا الصراع أن كلا من الملا عمر رئيس حركة طالبان وأسامة بن لادن، وعدد آخر من قيادات طالبان، وقيادات تنظيم القاعدة يجيدون استخدام وسائل الإعلام بما فيها شبكات التليفزيون، فكيف يتفق ذلك مع ما روّجته وسائل الإعلام الغربي عن تحريم هؤلاء للتليفزيون مثلا؟! ربما يكون هؤلاء يحرمون الإسفاف في التليفزيون وغير التليفزيون، وهذا شيء وتحريم التليفزيون كأداة لنقل

الطيب والخبيث شيء آخر، فالطيب مقبول والخبيث مرفوض وليس الأداة نفسها «التليفزيون» هو المحرم عندهم.

تواترت الأنباء أيضا عن أن الحكومة الأمريكية طلبت من شبكات التليفزيون والصحف ووسائل الإعلام المختلفة فرض نوع من الرقابة على نفسها وعدم بث وجهة نظر أسامة بن لادن أو قيادات طالبان، حتى لا يتأثر الرأي العام بهم، وهذا كلام يتنافى تماما مع حرية الرأي والإعلام الغربي والأمريكي المزعومة، لأن بث ما يتفق مع وجهة نظر طرف واحد هو نقيض الحرية تماما.

بل أكثر من ذلك ضغطت الحكومة الأمريكية على حكومة قطر لكي توقف قناة الجزيرة القطرية أو تمنعها من نقل ما يحدث في أفغانستان أو بث أحاديث أسامة بن لادن أو الملا عمر، واتهمت واشنطن قناة الجزيرة بأنها تروج للأفكار المعادية لأمريكا.. فهل هذه هي الحرية التي تفهمها أمريكا والغرب.

أضف إلى ذلك أن الحكومة الأمريكية قامت بشراء واحتكار كل الصور التي تلتقطها الأقمار الصناعية التجارية من أفغانستان، وذلك لكي تتحكم فيما ينقل أو لا ينقل من صور الضحايا أو الحياة في أفغانستان في ظل الغزو الأمريكي، فهل احتكار المادة الإعلامية يتفق مع حرية تداول المعلومات والصور وحرية الصحافة والإعلام عموما؟.

■ ■ ■

أمريكا
تضرب المدنيين

◆◆◆

إذا سلمنا جدلا بأن أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة، وطالبان التي تؤويه كلهم مسئولون عن أعمال الإرهاب، وإذا سلمنا جدلا بأن أمريكا - وهي لم تفعل - قدمت إلى محكمة دولية محايدة - الأدلة على ذلك ومن ثم صدر حكم من قضاة محايدين بإدانة هؤلاء، وحتى إذا سلمنا جدلا أن الولايات المتحدة الأمريكية هي شرطي العالم، وأنها تطارد شارون، وبن اليعازر، بل تطارد الرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلينتون بتهمة ضرب مصنع دواء مدني في السودان - بعد أن اعترفت الدوائر الأمريكية بأن لا صلة لهذا المصنع بالإرهاب أو أسامة بن لادن، وطاردت من أسقط الطائرة المدنية الإيرانية فوق مياه الخليج عام ١٩٨٨م، وقبلها الطائرة المدنية المصرية المدنية عام ١٩٧٢ م « طائرة مصر للطيران التي ماتت بها المذيعة المصرية المعروفة سلوى حجازي» وطاردت من ارتكب المذابح الاستعمارية في آسيا وأفريقيا ومن ارتكب جرائم الإبادة للهنود الحمر وسكان استراليا الأصليين، ومن ارتكب جرائم التفرقة العنصرية بل والاسترقاق العنصري.. إلخ.

إذا سلمنا جدلا بأن كل هذا حدث، فإن التحرك الأمريكي للقبض على أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة وقادة طالبان قد يكون مبررا، وبديهي بأن معاقبة هؤلاء لا تستدعي معاقبة الشعب الأفغاني، الفقير الجائع الضعيف، ولأن أمريكا ومن يروج لها يزعمون أنها تمتلك أحدث المعلومات وأدقها، وأن طائرات التجسس والأقمار الصناعية تستطيع بدقة أن تحدد ما يقوله الرجل لزوجته على فراش الزوجية، وتستطيع أن تصور بدقة ما يحدث على مساحة ١٠ سم٢، بل وتحديد نوع وشكل وحجم الحشرات في تلك المساحة، ولأنها تمتلك الصواريخ الذكية والقنابل التي لا تخطئ الهدف والموجهة بالليزر.. إلخ.. فإن من العبث أن نقول : إن الضربات الأمريكية التي أصابت المدنيين كانت نوعا من الخطأ الفني، اللهم إلا إذا كانت

أمريكا تكذب وتدعي في نفسها وقوتها واستخباراتها واستطلاعها ما ليس فيها.

وهكذا فإن جريمة ضرب المدنيين في أفغانستان جريمة غير مبررة في كل الأحوال وتستدعي محاكمة مرتكبيها، وتعويض الضحايا.

ومن المعروف حتى الآن، أن أمريكا ضربت قوات تابعة للأمم المتحدة، أو هيئات الإغاثة الدولية في أفغانستان، وضربت مستشفيات، وقصفت دور المسنين، وهدمت بيوتًا وأحياء وقرى كاملة ليس بها أي شبهة عسكرية، بل اعترفت بذلك كله مدعية أنه من قبيل الأخطاء الفنية.

وفي الحقيقة ، فإن قناة الجزيرة، والبريد الإليكتروني وغيرهما من وسائل الإعلام حافلة بصور ومعلومات عن مذابح الأمريكان للأفغان، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن قرية «كورام» التي تبعد ٤٠ كيلو مترا عن مدينة جلال آباد والتي كانت تضم من ٢٥: ٣٠ كوخا أو بيتا، نام أهلها مطمئنين ذات مساء من أكتوبر ٢٠٠١م، لتفاجئهم الطائرات الأمريكية من طراز الشبح والتنين السحري وتلقي عليهم أطنانا من القنابل ذات الألف رطل والخمسة آلاف رطل أيضا، فتهدم جميع البيوت، وتقتل جميع السكان أو تجرحهم « ٢٠١ قتيل، ١٧ جريحا » بل وأهلكت الأغنام والأبقار« حوالي ١٠٠٠ رأس غنم وماشية »، ولم ينج من المذبحة إلا هؤلاء الذين كانوا خارج القرية « حوالي ٣٠ فردا».

ويحكي أحد أبناء القرية الذي كان موجودا خارجها ساعة القصف، ويدعى تورخان أنه عاد ليجد حظيرة ماشيته يتصاعد منها الدخان ورائحة اللحم المشوي، فقد احترقت الأبقار، وليجد بيته مهدما، وقد دفن تحت أنقاضه أولاده الستة وزوجته. يقول تورخان: « أمريكا تريد قتل شعبنا وتركيعه، إنها لا تبحث عن طالبان أو القاعدة».

من القرية ذاتها عاد عبد الكريم الذي كان خارج القرية لشراء احتياجات الأسرة ساعة القصف، ليجد بقايا أطفاله الخمسة وزوجته وبقايا الصاروخ الذي مزق أجسادهم.

وكما يقول الصحفي محمد طعيمة في جريدة العربي الأسبوعية المصرية فإن كورام نموذج لثلاث عشرة قرية جبلية يسكنها رعاة يعيشون على الرعي وبيع الأحطاب التي تجمعها نساؤهم، لا يعرفون اسم بوش أو بلير أو بن لادن، ولكن قراهم تحولت إلى خرائب، واحترقت جثث زوجاتهم وأولادهم بل ومواشيهم.

وهكذا تختلط دماء وعظام الأبناء والزوجات، والرجال، بعظام ودماء ولحوم المواشي المحترقة، وركام المنازل وبقايا الصواريخ وقيم المدنية الأمريكية والأوروبية.

وما حدث في تلك القرى، حدث في الأحياء بالمدن، ومات المدنيون بالمئات وجرح الآلاف.. والبقية تأتي، ولا جديد في الأمر حين تجد أن بقايا الأقدام والرؤوس، أو بقايا أسرة كاملة أب وأم وأطفال، أو بقايا عروسين على سرير جريدي، كانا لتوهما قد تزوجا.. وشكرا للحضارة الأمريكية.

■ ■ ■

■ جرائم أمريكا في هذا الزمان :

سقوط طالبان

ومرحلة جديدة من الصراع

◆◆◆

السقوط السريع لعدد من المدن الأفغانية بدءا من مزار الشريف ذات الموقع الاستراتيجي ثم حيرات وكابول وقندهار وغيرها من المدن الأفغانية بيد قوات التحالف الشمالي المعارض، تفتح ولا شك مرحلة جديدة من الصراع في أفغانستان وتغير المعادلات الإقليمية والدولية.

وبداية فإن صمود حركة طالبان من يوم ٧ أكتوبر ٢٠٠١ م حتى ١٣ نوفمبر ٢٠٠١ م أي ٣٧ يوما كاملة وما يزيد على خمسة أسابيع، ونقصد صمودها منذ بدأت الحرب يوم ٧ أكتوبر حتى سقوط كابول وعدد من المدن والمناطق الأفغانية الأخرى يوم ١٣ نوفمبر، هذا الصمود لم يكن متوقعا أصلا، نظرا لكثافة الضربات بالصواريخ وقنابل الـ ١٥ ألف رطل، والقنابل العنقودية، والغارات ليل نهار على المدن والمرافق وكل شيء تقريبا، وهذا الصمود غير المتوقع لطالبان طوال تلك المدة فتح الباب للتفاؤل بإمكانية استمرار هذا الصمود طويلا، ولكن الذي حدث أن انسحبت طالبان من المدن في غضون ساعات أو أيام قليلة، مما أربك الكثير من الخطط على الناحيتين وعلى أكثر من مستوى ، فالذين راهنوا على صمود طالبان أو كان لديهم الأمل في ذلك أصيبوا بإحباط شديد، وهذا بالطبع سيؤثر على حجم المعارضة الشعبية للمخطط الأمريكي في أفغانستان بل وفي العالم كله، وهو لا شك أمر سلبي، وكذلك فإن هناك قوى ودولًا راهنت على استمرار صمود طالبان أكثر من ذلك حتى يتأخر دورها في الأجندة الأمريكية التي تستهدفها بعد الخلاص من الموضوع الأفغاني، وحتى لو كانت هذه القوى والدول معادية لطالبان أصلا، فإنها كانت تود صمودها فترة أطول لإشعار أمريكا أن المسألة ليست سهلة، وحتى لا تنفتح شهية الأمريكان لمزيد من العمليات العسكرية ضد القوى المستهدفة مثل حزب الله وحماس والجهاد ، وبالتالي لبنان وسوريا وإيران، وأيضا العراق

والصومال والسودان واليمن.. إلخ.

ولا شك أن هذا السقوط المفاجئ لدفاعات طالبان والذي يعد في جزء منه نجاحا للحملة الأمريكية سوف يجعل كثيرا من هذه الدول تعيد ترتيب أوراقها وكذا خطابها، وربما تصرفاتها بصورة كبيرة، وهذا بالطبع سيأتي على حساب القوى المكافحة ضد إسرائيل مسلحة وغير مسلحة وعلى مجمل خطاب المجتمعات العربية ونعني الحكومة والجماهير والقوى الرسمية وغير الرسمية.

سقوط دفاعات طالبان بهذه الصورة أربك أيضا الطرف الآخر، أربك باكستان التي أصبحت هي الخاسر الأكبر من دخول التحالف الشمالي المعادي لها إلى كابول، وهو المتحالف في قطاع كبير منه مع الهند عدوة باكستان التقليدية ، وهكذا فإن أوراق باكستان تآكلت بسرعة.

الإنجاز الذي حققته قوات التحالف الشمالي، وسقوط دفاعات طالبان يعني أن زمن الاستحقاقات قد أتى، فحاجة الولايات المتحدة الأمريكية لباكستان وروسيا والصين وطاجيكستان وأوزبكستان وإيران قد قل كثيرا، وأن على هذه الدول أن تستعد لصراع أو على الأقل تنافس أو تجامل تجاه الولايات المتحدة الأمريكية، وعليها أيضا أن تأخذ في اعتبارها أن قوة جديدة هي القوات الأمريكية التي نزلت لأول مرة بصورة واسعة إلى أراضي أفغانستان وأقامت أكثر من قاعدة بعد أن اطمأنت إلى عدم مواجهة قتال حقيقي من طالبان أو غيرها ، وهذا يعني أن لاعبا جديدا وقويا قد أصبح موجودا يريد التهام الجزء الأكبر من الكعكة إن لم يكن الكعكة كلها.

وهكذا فإن سقوط كابول ليس إلا فصلا جديدا من الصراع سيأخذ أشكالا أخرى، ويمكننا أن نرى سيناريوهات كثيرة منها : تقسيم أفغانستان، أو تركها في

حالة فوضى، أو وضعها تحت وصاية قوات دولية وحكومة متنوعة تشرف عليها الأمم المتحدة وكل هذا لن يزيد الطين إلا بلة، لأن العلم الأمريكي سيتغير إلى علم الأمم المتحدة، ولكن جوهر السيطرة والنفوذ الأمريكي سيظل كما هو، لأن قوات التحالف الشمالي أو قادة الفصائل المعارضة أو حكومة موسعة، أو حالة فوضى أو تقسيم، كل هذا لم يتم - والجميع يعرف ذلك - إلا بواسطة الضرب الأمريكي، ولو رفعت أمريكا يدها قليلا ؛ فإن الأمور لن تظل كما هي.

من هذه اللحظة فإن على الجميع أن يسترضي أمريكا، بعد أن كانت أمريكا تسترضي الجميع، وهكذا فإن سقوط دفاعات طالبان، أحرق كل أوراق المساومات لدى الأعداء والأصدقاء على حد سواء، وهو ما جعل الكثيرين في مختلف العواصم الإقليمية والدولية لا يرحب بدخول قوات المعارضة لكابول.

***

الصورة السابقة هي صورة ما يبدو فوق السطح، ولكن ربما يكون من المفيد تأمل التفاصيل، فقوات التحالف الشمالي لم تحقق هذا الإنجاز بفضل شجاعتها أو كفاءتها فهي لم تدخل في معارك أصلا، بل انسحبت قوات طالبان أصلا ولم تقاتل بجدية، وكان الفضل في ذلك شدة الضربات العسكرية الأمريكية، أي أن قوات التحالف لم تفعل سوى حصاد الزرع ولكنها عندما كانت في مواجهة مع طالبان بدون الدعم الأمريكي المباشر كانت مهزومة ، وكانت طالبان تسيطر على ٩٠٪ من الأرض، ومن ناحية أخرى فإن هذا الإنجاز الذي حققته قوات تحالف الشمال ليس إنجازا عسكريا ولا سياسيا، بل سينظر إليه الشعب الأفغاني على أنه خيانة، وأن الحكومة الجديدة أيا كان شكلها هي حكومة صنعتها القوى الأجنبية وهذا يذكرنا بحكومة بابراك كارمل الذي جاء على يد القوات السوفيتية، وقد سيطر ساعتها بفضل

تلك القوات على كل أفغانستان، ولكن هذا لم يؤدِ إلى استقرار الوضع، بل ظلت المقاومة تمارس دورها، وتآكلت السيطرة السوفيتية ومن ثم سيطرة الحكومات التابعة لها بدءا من كارمل وانتهاء بنجيب الله على مر الأيام والشهور والسنوات.

ما يمكن توقعه من خلال التدقيق في تفاصيل الصورة، هو أن قوات طالبان لم تدخل في معارك جدية، ولم يسقط أسراها بالآلاف ولم نر مواقعها محطمة، وهذا يعني أنها قررت الانسحاب، لأنها لم تعد قادرة على الاستمرار تحت الضرب، ولم تعد قادرة على ضبط الأمور وإدارة عجلة الحياة اليومية للمواطنين، ففضلت أن تنقل هذه الأعباء للمعارضة، وتتخلص بالتالي من مسئوليات صعبة ثم تحافظ على قواتها وتلجأ إلى الجبال وتبدأ حرب عصابات طويلة الأمد، وهذا يعني أنها قررت إطالة أمد الحرب والاحتفاظ بقواتها ما أمكن وعدم دخول معارك خاسرة مع قوة عظمى مدججة بالسلاح في المدن والأماكن المكشوفة، وبالتالي إعادة السيناريو السوفيتي ولكن الأمر ليس بهذه البساطة، فالدعم الدولي والإقليمي للمقاومة الأفغانية ضد السوفيت كان له دوره في استمرار المقاومة، وهذا غير موجود الآن، ومن الصعب أيضا التكهن بعدم انهيار طالبان من الداخل لأسباب كثيرة، ولكن في كل الأحوال فإن انهيارها سيؤدي إلى ظهور زعامات أخرى وقوى أخرى تقود حركة المقاومة، لأن شعبا ما خاصة الشعب الأفغاني وعلى الأخص قبائل الباشتون لن تقبل بإقامة حكومات بأيدي الأجانب أيا كان شكلها، وهذا يجعل المسألة طويلة ومعقدة، ومن يدري إلى أين ستقود تلك المعادلات الجديدة المنطقة والعالم في السنوات القادمة؟! والطبيعي أن قتل الملا عمر وبن لادن وتفكيك طالبان والقاعدة لن يكون نهاية المطاف فالأفكار لا تموت وتراث المقاومة مستمر تحت سطح، خاصة مع استمرار حالة الظلم في العالم وفي المنطقة.

مستقبل الصراع مع أمريكا بعد نجاحها في أفغانستان

◆◆◆

النجاحات التي حققتها القوات الأمريكية في أفغانستان، والتي أعطت أمريكا الكثير من الغطرسة والنفوذ في العالم، هذه النجاحات وشكل الصراع في أفغانستان في المستقبل القريب والبعيد، وكذا في منطقة وسط آسيا ثم أثر ذلك كله وتداعياته على المنطقة العربية والقضية الفلسطينية ، هذا كله ينبغي أن يكون محور اهتمام خاص للمحللين العرب تحديدا، حتى نعرف ماذا يراد بنا وماذا سيكون مصيرنا، وما الموقف الصحيح تجاه ذلك بداية فإن النجاح الأمريكي في أفغانستان، هو من نوع النصر الرخيص الجبان ، فالمواجهة غير متكافئة أصلا، الأمريكان استخدموا التحالف الشمالي لتحقيق أهدافهم، ولكن علينا أن ندرك أيضا أن في كل بلد تحالفا شماليا مماثلا، ولو لم يكن هذا التحالف موجودا، لأوجده الأمريكيون بالأموال والرشاوى، وفي المحصلة فإن هذا النصر الأمريكي لا يعبر عن شجاعة أو ذكاء ولكنه أيضا نوع من النجاح في النهاية ، ومن البديهي أن أمريكا لا يهمها أن نصفها بالفروسية مثلا، وكذلك علينا أن نتأمل في هذا الكم الهائل من اللامبالاة بحقوق الإنسان، والضرب بالأعراف الدولية عرض الحائط متمثلا في التمثيل بجثث القتلى، أو قتل الأسرى، في أكثر من مكان وحديث وزير الدفاع الأمريكي المباشر عن عدم رغبته في استلام أسرى ودعوته إلى قتلهم مباشرة، وهو أمر ينسف مصداقية القيم الغربية كلها – المزعومة وغير المزعومة – وعلى الجانب الآخر، فإن رواية طالبان تقول : إن الحرب لم تنته بعد، وأن خطة الانسحاب من المدن كانت معدة سلفا، وأن هذا سوف يسفر في المستقبل القريب عن حرب عصابات واسعة، بدأ يظهر جزء منها كما قال أيمن الظواهري في حديثه لمجلة المجلة اللندنية مؤخرا.

وأيا كان الأمر، فإن ما فعلته طالبان والقاعدة هو من نوع الشهادة على التاريخ، مثل الحسين بن علي في خروجه على الأمويين تماما، فرغم عدم تكافؤ القوى، فإن

اللحظة كانت تقتضي نوعا من المواجهة لإعلان البراءة وتحديد الحق من الباطل، ولولا ذلك لتكرس الباطل نظريا بعد تكريسه عمليا، بمعنى تحويل الباطل إلى حق، وضياع الحق والمصداقية إلى الأبد.

وسواء قتل بن لادن أو أسر، أو لم يعلم له أحد مكانا، وكذلك الملا عمر وزعماء القاعدة – والمسألة مسألة وقت في نظري فلن يهربوا إلى الأبد – فإن هؤلاء قد أدوا ما عليهم من واجب، وأنهم سيتحولون إلى رموز، وربما كان قتل بن لادن تحديدا مفجرا لتيار من الوعي والثورة في العالم، فالأفكار والمبادئ مثل تماثيل الشمع، تدب فيها الحياة بالاستشهاد.

***

من حق عناصر القاعدة علينا أن نشهد لهم بالشجاعة في المواجهة رغم ضعف الإمكانيات، ومن حق طالبان علينا أن نشهد أنها حققت وحدة أفغانستان خمسة أعوام متتالية، وأنها حققت الأمن، وأنه برحيلها رحل الأمن وانتهت الوحدة وسوف يدب الخلاف بين عناصر التحالف الأمريكي « الشمالي وغير الشمالي » ويكفي طالبان أنها كانت أول حركة تحرر وطني في العالم لا يفسد رجالها ولا ينهبون أموال البلاد كما حدث في كل الثورات التي وصلت إلى الحكم هنا وهناك ويكفيها أيضا أنها تصرفت بإحساس عال من المسئولية عن الناس في أفغانستان، فقد انسحبت من المدن لتجنيب الناس المزيد من الضربات الأمريكية، وأيا كان مصير تلك الحركة فقد دخلت التاريخ من باب نظافة اليد والوفاء والإحساس بالمسئولية عن الجماهير، ورفض المساومة على مبادئها.

على أية حال فإن النجاح الأمريكي في أفغانستان أغرى أمريكا وإسرائيل بالمزيد وفتح شهيتها لالتهام كل من يقول..لا، وأصبح الحديث الآن جهرا عن ضرب

سوريا وإيران والعراق والسودان والصومال ولبنان، وحزب الله وحماس والجهاد، وهذا أمر خطير جدا على الواقع العربي، خصوصا أن الحكومات ضعيفة وعاجزة، بل إن البعض سوف يسارع إلى ضرب جزء من أبنائه وتمزيق نسيجه الحي لإرضاء أمريكا.

ومن تداعيات هذا النجاح إمكانيات ظهور خلف أمريكي روسي هندي في وسط آسيا، وأمريكا وضعت قواتها بالفعل وبنت قواعدها في طاجيكستان وأفغانستان، والهند خلعت قبعة الساحر ولبست القبعة الأمريكية وتشددت مع باكستان وضغطت في قضية كشمير، وباكستان بين شقي الرحى، وهي الخاسر الأكبر – كعموم المسلمين– من الموضوع الأفغاني، والمسلمون في كل مكان في العالم أصبحوا في موضع اتهام، وتداعت الأمم عليهم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها.

ولكن لله تعالى تدابيره.. و﴿ **لَيْسَ لَهَا مِنْ دُوْنِ اللهِ كَاشِفَةٌ** ﴾، والله تعالى لا يسمح بهذا الخلل في الكون: ﴿ **وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ** ﴾[1]، ولا أحد يدفع أمريكا الآن، فهل تفسد الأرض أم تتدخل عناية السماء.

■ ■ ■

(١) سورة البقرة: الآية (٢٥١).

■ جرائم أمريكا في هذا الزمان :

المتربصون بالعراق

◆◆◆

انفتحت شهية الغول الأمريكي لاستعمار العالم كل العالم والحجة الجاهزة أو الذريعة التي لم تعد تنطلي على أحد محاربة الإرهاب ، ولكن المطلوب تسوية كل النتوءات والحكومات والدول والجماعات المناوئة أو المعارضة أو حتى غير المتعاونة مع أمريكا بعد أفغانستان ، والحديث عن نشر القوات الأمريكية لمدة طويلة هناك في طاجيكستان وفي أفغانستان ثم في القرن الأفريقي عن طريق الصومال، وقبل ذلك أو بعده أو في التوقيت ذاته يدور الحديث عن تأديب العراق أو تمزيقه وتقسيمه واستخدام عناصر عراقية على غرار تحالف الشمال، وفي كل بلد يوجد من هو مستعد لبيع نفسه للأعداء والزعم بأنه بذلك يقضي على الإرهاب أو الديكتاتورية أو يحلم ببناء بلد معاصر متحضر تحت الأحذية الأمريكية الثقيلة.

الصقور في الإدارة الأمريكية واللوبي الصهيوني وأعداء الإنسانية عموما يفبركون بحماس الأدلة والآلة الإعلامية تعمل لتهيئة الرأي العام الأمريكي لضرب العراق..

جورج بوش الابن ومعه نائبه ديك تشيني يريد أن يظل العالم يلهث وأن تظل القوة الأمريكية تستعرض نفسها حتى لا يفكر أحد في المعارضة يوما للمخططات الأمريكية ، والأصح أنها المخططات الرأسمالية العسكرية - عسكرة العولمة - وإعادة الاستعمار القديم، جورج بوش الابن يريد أن يكرر سيناريو الأب ولكن الظروف مختلفة ربما لا ينسى جورج بوش الابن أن العراقيين حاولوا اغتيال جورج بوش الأب بسيارة مفخخة في الكويت عام ١٩٩٣ م بعد أن فقد الأب منصب الرئاسة وجاء إلى الكويت ليحتفل بما يسمى عيد تحرير الكويت من أبناء العم أو الأشقاء وهكذا ضرب الكويتيون يومها المثل في القبول بالعمل رعاة خنازير تحت حذاء الأمريكيين بدلا من أن يعملوا رعاة أغنام أو أبقار تحت حكم العراقيين ، وبالطبع لا

يصح تفسير السلوك الأمريكي فقط بمسألة ثأر الابن لوالده، فالمسألة أكثر تعقيدا.

الانقسام الأمريكي حول توجيه ضربة للعراق أو إسقاط الحكومة لن يستمر بالطبع طويلا، فكل من الرئيس بوش ونائبه ديك تشيني ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد ونائبه بول ولفويتز يؤيدون الضربة، وفي المقابل فإن وزير الخارجية كولن باول ونائبه ريتشارد ان ميتاج وجورج تينت مدير المخابرات المركزية الأمريكية يتحفظون على هذه الخطة، ولكن صوت العقل يضيع عادة أمام مصالح التحالف الرأسمالي العسكري الحاكم الحقيقي لأمريكا، والمطلوب فقط تهيئة الجو الدولي، إقناع روسيا ذات المصالح الواسعة مع العراق وإقناع تركيا وغيرها من دول الجوار، وإقناع الدول العربية المعتدلة بهذا الأمر، ثم تهيئة الرأي العام الأمريكي والعالمي لتلك الخطة، اللوبي الصهيوني والمتحالفون وممثلو الرأسمالية والعسكرية في الإدارة الأمريكية وفي الكونجرس يضغطون بشدة لضرب العراق، والميديا الإعلامية تنشر صور الرئيس العراقي بجوار صور أسامة بن لادن، والسيد باتلر رئيس مفتشي الأمم المتحدة المشهور والذي انكشف أنه عميل للموساد والمخابرات الأمريكية معا ظهر على السطح مرة أخرى، ليقول: إن العراق يمتلك أسلحة خطيرة، جرثومية وكيميائية، وأنه هو الذي زود من قام بالحرب الجرثومية، بجرثومة الانتراكس – رغم أنه ثبت أن الجرثومة متشابهة مع ما كان ينتج داخل المعامل العسكرية الأمريكية ذاتها، وهذا لا يهم، المهم هو «الزن» على أذن الرأي العام الأمريكي، وكذلك قال باتلر: إن العراق كان على علاقة بتنظيم القاعدة في السودان، وأن محمد عطا اجتمع مع مسئولين عراقيين في جمهورية التشيك بعد ذلك، وقد ثبت أن هذا أيضا غير صحيح ولكن من يسمع؟! فقد كذبت جمهورية التشيك نفسها ذلك، وما يقوله باتلر يقوله غيره في الإعلام الأمريكي بكثرة وتكرار حتى الملل هذه الأيام، والنتيجة أن

استطلاعات الرأي العام الأمريكي – الصحيحة أو الملفقة – تقول: إن ٦٦٪ من الشعب الأمريكي يؤيد العمل على إسقاط النظام العراقي.

صعوبة تنفيذ المخطط ضد العراق، حسب الرؤية الأمريكية التي يطرحها باول، أن العملية تحتاج إلى ١٨٠ ألف جندي أمريكي يقاتلون داخل العراق، وأن احتمالات فقد ٥٠ ٪ من هذه القوات أمر وارد، وأن العراق يمتلك قدرات عسكرية أكبر كثيرا من تنظيم القاعدة وحكومة طالبان التي أطاح بها الغزو الأمريكي لأفغانستان ، وأن على القوات الأمريكية أن تتعامل مع قوات مدربة تدريبا عاليا متمثلة في الحرس الجمهوري والقوات الخاصة التي يشرف عليها قصي نجل الرئيس العراقي ، وهي تضم ٢٠٠ ألف جندي بالإضافة إلى جيش القدس والجيش الشعبي« ٤ ملايين مقاتل » ، وأن العراق لا بد أنه أخذ في اعتباره الاحتياط للقصف الجوي وإخفاء أسلحته ومعداته حتى لا تطولها قنابل الطائرات والصواريخ عن بعد، وإلا فإن كل خبرات السنين السابقة والأحداث تكون قد أُهْدِرَتْ، وأن المعارضة العراقية لا تملك جنودا وعناصر ونفوذا على الأرض يمكن مقارنتها بالتحالف الشمالي في أفغانستان، أضف إلى ذلك أن الرفض العربي سيكون هذه المرة مختلفا؛ فليس هناك كويت محتلة والعراق غير أفغانستان في الوجدان العربي واقتراب الغول الأمريكي من سوريا ولبنان سيثير الاعتراض، وقد عبر السيد عمرو موسى الأمين العام للجامعة العربية بقوله: إن توجيه ضربة لأي بلد عربي معناه نهاية التحالف ضد الإرهاب، وكذلك فإن مصر مثلا لديها ميزانية تصديرية إلى العراق في سنة ٢٠٠١ م مثلا بحوالي ١٨٠٠ مليون دولار ، وهي لا تريد أن تخسرها وأكثر، وزيارة المسئولين الاقتصاديين المصريين ورجال الأعمال إلى بغداد على قدم وساق، ومصر لا تريد أن تخسر ذلك، وبديهي أنها وسوريا مثلا لن

يقدمان جنودا كما حدث عام ١٩٩١م، وهكذا فإن الأمر مختلف، ولا بد من الاعتماد على قوات أمريكية مباشرة، وهذا يحتاج إلى أرض للانطلاق منها، كل هذه الاعتراضات والمتغيرات، لا يعيرها صقور واشنطن المتربصون بالعراق إذنا، فالكاتب الأمريكي «بايبس» رد بلسان الصقور قائلا: « لا يهم»، لا يهم أن نخسر أصدقاءنا في المنطقة، ولا يهم دعمهم، بل يهم كسب الحرب ضد الإرهاب لا كسب أصدقاء، والتحالف الدولي والمساعدة العربية مسألة شكلية لا أكثر ولا أقل، الحصول على أرض ينطلق منها الهجوم سهل، فتركيا جاهزة، وهي تكفي جدا، وعلى حد تعبير جيمس وولس مدير المخابرات الأمريكية السابق وهو من الداعين بقوة إلى ضرب العراق « فإن الطائرات الأمريكية يمكن أن تنطلق من الأراضي التركية، شمالا على أن تساندها الطائرات المنطلقة من الجنوب من فوق حاملات الطائرات الأمريكية في مياه الخليج، وهكذا أخذت زيارة بولنت أجاويد رئيس الوزراء التركي منتصف يناير ٢٠٠١ م أهمية خاصة، والأتراك كما يبدو جاهزون لتقديم هذه الخدمة، فوزير الدفاع التركي « صباح الدين شكماكو غلو» قال: إن حكومته مستعدة لمساعدة واشنطن في خططها المقررة، وكذا تصريحات رئيس الوزراء التركي بولنت أجاويد: بأنه من الوفاء لأمريكا أن نساعدها، فلطالما ساعدت تركيا في حربها ضد الإرهاب «بقصد مساعدتها في حربها ضد حزب العمال الكردستاني ودورها ، وفي القبض على زعيمه عبد الله أوجلان» الخطة – إذن تدخل مراحلها النهائية، وعلى حسب تصريحات مسئول أمريكي رفيع المستوى لمجلة النيوزويك الصادرة في أوائل يناير ٢٠٠٢م ، فإن المطروح الآن ليس إذا كانت الولايات المتحدة ستضرب العراق أم لا، بل السؤال هو متى؟!

السيد عمرو موسى، من جهته أحس بخطورة المسألة حيث صرح بأن توجيه

ضربة لأي بلد عربي معناه نهاية التحالف الدولي ضد الإرهاب، ولكن الحكومات العربية غائبة، رغم تهديد ذلك لمصالحها، والشعوب العربية مكبلة وأمريكا لم يعد يهمها أحد.

في هذا الإطار تأتي خطورة تحركات ما يسمى بالمعارضة التي أصبحت في معظمها عملية مباشرة للأمريكان، وكان ما يسمى جماعة المؤتمر الوطني العراقي قد قدمت خطة حرب معدلة لا تدعو فقط إلى قصف أمريكي جوي للعراق، بل نشر قوات أمريكية في شمال وجنوب العراق، وكان فرانسيس بروك قد تصور أنه من الممكن الإطاحة بالحكومة العراقية عن طريق تدريب فرقة من خمسة آلاف من المنشقين العراقيين يدعمهم مرتزقة، مع تحديد منطقة حظر برى يمنع فيها تحرك القوات الحكومية العراقية البرية والمشاة والمدرعات، وأن تدخل هذه القوة إلى جنوب العراق – حيث معظم النفط العراقي – ربما في قاعدة جوية مهجورة غرب البصرة مثلا وتبقى هناك وعلى حد قوله : « إذا استولت القوات المتمردة على البصرة فعندها تكون النهاية فإنك لا تحتاج الذهاب إلى بغداد أوقف عنها النفط فستنهار ».

وهكذا فإن ضرب العراق – ربما بات مسألة وقت، ولكن المؤكد أن من الضروري تحرك الدول العربية بسرعة، كي لا نقول يوما: أكلت يوم أكل الثور الأبيض.

■ ■ ■

الأهداف الحقيقية

للعدوان الأمريكي على الصومال

◆◆◆

كما كان للعدوان الأمريكي على أفغانستان أهداف معلنة – هي القضاء على الإرهاب، وأهداف أخرى حقيقية غير معلنة اتخذت من موضوع الإرهاب وأحداث ١١ سبتمبر ذريعة مناسبة وقوية.. فإن العدوان الأمريكي المتوقع على الصومال يحمل نفس السمات، أي وجود أهداف معلنة وأخرى حقيقية..

ومن الضروري بالطبع البحث في ثنايا العلاقات الدولية، وأوضاع الجغرافيا السياسية ومناطق النفوذ في العالم وأهداف الولايات المتحدة الأمريكية بعد انفرادها بالقوة في العالم عقب سقوط المنظومة الاشتراكية وتفكك الاتحاد السوفيتي وتغير علاقات وتوازنات القوى في العالم.

بداية فإن الأهداف المعلنة ثم نصف المعلنة، ثم غير المعلنة تشكل إطارا واحدا، وهي ذات علاقة ببعضها البعض، ولا يمكن علميا ولا موضوعيا فصلها عن بعضها البعض، اللهم إلا لدواعي البحث وتحديد ما فوق السطح ثم الجزء الغاطس من جبل الجليد.

الأهداف المعلنة كما روجتها وتروجها الأبواق الأمريكية، هي القضاء على الإرهاب، وادعاء وجود معسكرات وعناصر تابعة لتنظيم القاعدة في الصومال أو قوى ذات علاقة قوية بتنظيم القاعدة مثل الاتحاد الإسلامي الصومالي، وأن الاتحاد الإسلامي يحتفظ بمعسكرات في منطقة لوق على الحدود الصومالية الإثيوبية وجزيرة رأس كابمولف على الحدود الكينية الصومالية، إن تنظيم القاعدة يمتلك على الأقل معسكرا واحدا للتدريب في منطقة «جيدو» الصومالية، وأن هناك شبكة مالية تتولى مهام تمويل الإرهاب خصوصا مؤسسة البركات الصومالية التي قامت الولايات المتحدة بتجميد أرصدتها ووقف نشاطها.

وهذه الادعاءات الأمريكية هي ذاتها تثبت أن هناك أهدافا غير معلنة، فهذه

المعلومات مشكوك في مصداقيتها تمامًا لأنها جاءت من المخابرات الإثيوبية – العدو التاريخي للصومال – أو جاءت من عدد من الفصائل الصومالية المستبعدة أو المهزومة ، وبالتالي صاحبة المصلحة في تكرار تجربة تحالف الشمال الأفغاني والوصول على أسنة الرماح الأمريكية إلى السلطة بالتالي، ومما يؤكد فساد هذه الإدعاءات أن بعثة مراقبين من كبار موظفي الأمم المتحدة قامت بجولة في الصومال لتقييم الوضع الأمني والسياسي وزارت البعثة كل المناطق المزعوم وجود معسكرات بها منطقة جيدو، منطقة لوق، جزيرة رأس كابمولف« وأكدت الحكومة الصومالية تهافت هذه الادعاءات وناشدت الولايات المتحدة عدم التورط في معلومات يقدمها بعض المغرضين، ومن ناحية ثانية فإن شبكة التمويل المزعومة ما هي إلا مجموعة أهلية مصرفية تقوم بتحويلات مدخرات الصوماليين المقيمين في الولايات المتحدة الأمريكية إلى ذويهم في الصومال، لأن انهيار الدولة وعدم وجود بنوك موثوق بها جعل من الضروري نشأة مثل هذه المؤسسات لخدمة الصوماليين، وكانت التحويلات عن طريق هذه المؤسسة وغيرها تتم بمئات الدولارات وليس الآلاف أو الملايين، ولا شك أن تجميد نشاط مثل هذه المؤسسة الحيوية للصوماليين في الخارج يكشف عن مدى الغطرسة الأمريكية والنزق أيضا وعدم الإحساس بمدى الضرر الذي أصاب الأهالي في الصومال الذين كانوا يعيشون على مثل هذه التحويلات من أبنائهم في الخارج.

أما الحديث عن الاتحاد الإسلامي، فهو فصيل صومالي قد ضعف كثيرا ، ولم يعد هناك مبرر لملاحقته، وفي كل الأحوال فإن الصوماليين ليسوا على أجندة الاتهام في أحداث ١١ سبتمبر، ولكن ربما يكون السبب هنا – نصف المعلن – هو الثأر لما حدث للأمريكيين في الصومال عام ١٩٩٣م، وما دامت شهوة الانتقام قد انطلقت،

فلماذا لا يمارس الكاوبوي الأمريكي كل ما يريد في كل مكان، وينزل العقاب بكل شعب أو أمة أو حتى قارة مست شعر أمريكا ذات يوم، وهذا - في حد ذاته يدخلنا في الأسباب غير المعلنة، وهي نشر نوع من الخوف والرعب في العالم من خلال ما حدث في أفغانستان ، وما سوف يحدث في الصومال وغيرهما، بحيث لا يجرؤ أحد بعدها على معارضة أمريكا أو أن يقول : لا، وأن يقوم الجميع فورا بتنفيذ الأوامر والأحلام الأمريكية وإلا تعرض للأهوال على طريقة « أحلام سيادتك أوامر يا أفندم».

الاستعدادات الأمريكية لضرب الصومال لم تعد تخطئها العين، والمسألة مسألة وقت، والضغط على الحكومة المؤقتة في الصومال حقق نتائجه ولم تجد تلك الحكومة مفرا من الموافقة على نشر القوات الأمريكية والسماح لتلك القوات بفعل ما تشاء على أرض الصومال، والمعلومات عن الأهداف المفترضة تم جمعها عن طريق بعض الفصائل، وعن طريق المخابرات الإثيوبية وعن طريق بعثة أمنية أمريكية - زارت الصومال وجمعت ما شاءت من المعلومات، وحصلت الإدارة الأمريكية على التسهيلات المطلوبة من جمهورية أرض الصومال لاستخدام ميناء ومطار مدينة بربرة لخدمة القوات الأمريكية - والألمانية التي سوف تشارك - وكذلك تم الحصول على تسهيلات من الحكومة الإثيوبية، والأخبار المتسربة تتحدث عن تجنيد عدد من الضباط السابقين في الجيش الصومالي وبعض الفصائل «على غرار تحالف الشمال الأفغاني»، وتعتزم كذلك إنشاء قاعدة عسكرية في مدينة بيداوة، لعل هذه القاعدة تفسر الأسباب الحقيقية للعدوان على الصومال، فالمسألة ببساطة شديدة، أن الولايات المتحدة الأمريكية قررت وراثة كل النفوذ الاستعماري في العالم وحدها، ومن أراد فليعمل من خلالها « بريطانيا، ألمانيا ... مثلا ».

بل قررت إعادة شكل الاستعمار القديم الذي ظننا يوما أنه انتهى من العالم، وذلك باحتلال بلاد ومناطق ووضع قوات فيها ، وإقامة حكومة أمريكية بالكامل فيها طوعا أو كرها، وبعد أن وضعت الولايات المتحدة الأمريكية قواتها في آسيا وقواعدها في الخليج ، فإنها تستكمل الباقي بإقامة قواعد في القرن الأفريقي وفي أفريقيا عموما، والجميع بات يدرك ذلك ، فالراغبون في العمل من خلال أمريكا يؤيدون ضرب الصومال «بريطانيا – إيطاليا – ألمانيا » بل إن وزير الدفاع الألماني رودولف شاربينج أشار إلى أن الصومال سوف تكون مستهدفة بشكل حتمي والخلاف هو على التوقيت ليس إلا، أما فرنسا مثلا والتي تتمتع ببقايا نفوذ استعماري في أفريقيا فهي تعارض العمل العسكري الأمريكي في الصومال، طالبة أدلة دامغة على وجود شبكة القاعدة هناك، وأن يكون العمل من خلال الأمم المتحدة، فإذا صدر قرار بذلك على حد تصور فرنسا، فإنه من الأفضل دعوة الحكومة الصومالية لمطاردة وتصفية تلك العناصر فإذا نجحت كان بالطبع لا ترضاه الولايات المتحدة التي لا تستهدف لا القاعدة ولا الإرهاب ولكنها تستهدف نشر نفوذها الاستعماري التقليدي القديم، ويبدو أن عودة الاستعمار القديم من خلال الجيوش والحكومات العميلة هو الحقيقة الأولى التي صاحبت ظهور القرن الواحد والعشرين وسوف تشكل جزءا مهمًا من العلاقات الدولية في بداية هذا القرن.

فوا أسفاه على الجهود والتحليلات والتحركات التي تحدثت عن عنصر نهاية الاستعمار وعن تصفية الاستعمار وعن تلك الأحلام التي سادت العالم لنصف قرن كامل من القرن الماضي، وتبخرت في لحظات تحت اسم محاربة الإرهاب، وكان الاستعمار القديم في مرحلته الأولى – على أساس أن المرحلة الأمريكية هي المرحلة

الثانية – يزعم أنه جاء ليمدن ويطور الدول المستعمرة، والأمريكان جاءوا أيضا للقضاء على الإرهاب والتعصب ونشر التمدن.. نفس المنطق – نفس الوجوه..

الصومال بالطبع بالنسبة لنا ليست أفغانستان.. فالسيطرة الأمريكية وبالتالي الإسرائيلية عليها تعني تهديد الأمن القومي العربي مباشرة، أمن دولة الشمال الأفريقي العربي، أمن السودان ومصر تحديدا، أمن البحر الأحمر – « البحر العربي» أمن المملكة العربية السعودية والجزيرة العربية برمتها، خصرنا الجنوبي بالتحديد، وهكذا ، فالمسألة شديدة الخطورة، ومهما كانت حالتنا وضعفنا فيجب أن نتحرك لتقليل الخسارة على الأقل، وقد تحرك من هم أقل منا شأنا واهتماما ومن هم أكثر، تحرك أصحاب المصالح في أفريقيا من الدول الغربية، ألمانيا تحركت وأرسلت جيوشا وأساطيل.

وبحثت عن موضع أقدام بالتنسيق مع أمريكا وكذلك فعلت بريطانيا وإيطاليا، تحركت فرنسا، بل تحركت أيضا إثيوبيا وكينيا، وحاولا الحصول على شيء من المكاسب بتسريب معلومات ملفقة، والمساعدة في المجهود العسكري الأمريكي المتوقع وربط بعض المنظمات المعارضة أو القبلية بها بالاتحاد الإسلامي الصومالي ومن ثم بتنظيم القاعدة، وهكذا تحصل على النفوذ في الصومال وتكيد لحكومتها التي جاءت عن طريق توافق قبائلي تحت رعاية جيبوتي بعيدا عن كينيا والصومال، وتحصل على دعم أمريكي لها لتصفية كل أنواع المعارضة في إثيوبيا وكينيا خاصة المرتبطة أو المعبرة عن الأعراق الإسلامية، بل إن ما يسمى بمجلس المصالحة والإصلاح الصومالي سارع بالاتصال بالأمريكان وأعلن تأييده للحرب ضد الإرهاب والاستعداد لأن يُكَوِّنَ حكومة أمريكية في الصومال على غرار الحكومة الأفغانية.

وفي كل هذا فإن مصر والعرب ودول الشمال الأفريقي، والسعودية وغيرها من الدول العربية ذات الصلة المباشرة بالموضوع الصومالي وبالقرن الأفريقي لا تزال تتفرج من بعيد!!.

■ ■ ■

استنساخ العقل الإسلامي على الطريقة الأمريكية أخطر من الحرب والضرب

◆◆◆

إذا كانت آلة العسكرية الأمريكية قد تحركت واستطاعت أن تدمر أفغانستان، ومن قبلها العراق، وتستعد للمزيد من التدمير لدول عربية وإسلامية أخرى، ناهيك عن التدمير عن طريق الوكيل الوحيد «إسرائيل» والذي أصاب ويصيب دول الجوار والفلسطينيين بالطبع، فإن آلة الإعلام والسياسة والاقتصاد تحركت بموازاة ذلك وقبل ذلك وبعده، وهكذا فنحن أمام حرب أمريكية شاملة تستهدف القضاء على أمتنا واستعادة استعمارنا استعمارا مباشرا، وكل هذا مفهوم، ولكن أخطر من الحرب والضرب محاولة تدمير الهوية عن طريق الغزو الثقافي والفكري الذي لا نستطيع صده أو رده، وأخطر منه وأخطر محاولة تغيير مناهج التعليم في الدول العربية والإسلامية وهي آخر قلاعنا، ولو تم ذلك - لا قدر الله - لكان هذا بداية النهاية الحقيقية لأمتنا، لأن التعليم هو حجر الأساس في بناء الشخصية، والمطلوب - من وجهة نظرهم - مسخ هذه الشخصية والقضاء على تميزها العقائدي والفكري ومن ثم السياسي والثقافي والحصول بالطبع على نسخة إنسانية مشوهة من النموذج الأمريكي قابلة للتبعية لأمريكا، بل مدمنة ومستمرة لتلك التبعية وتقبل بدور التابع والخادم بسهولة، وهذا الكلام جزء من مشروع أمريكي واسع النطاق لإعادة صياغة العالم أمريكيًّا وتسوية النتوءات والتمايزات الثقافية والعقائدية للشعوب، وبالتالي يصبح العالم ممهدا للخضوع للهيمنة الأمريكية بدون مقاومة تذكر.

الأخبار تواترت عن تقديم الولايات المتحدة الأمريكية لعدد من المذكرات إلى الدول العربية والإسلامية تدعو إلى إعادة النظر في تدريس المناهج الدينية والتاريخية والثقافية، ورفع فكرة الجهاد والمقاومة، وتغيير كل ما يتصل بالتاريخ الإسلامي ضد الصليبيين أو الإسرائيليين، وكذلك رفع ما يتصل بأخلاق اليهود في القرآن

الكريم، والدعوة إلى ما تسميه تلك المذكرات: التسامح الديني – وإن شئت سَمِّه: (الخضوع العربي) لأننا أصلا أمة التسامح، ولن يعلمنا الغرب التسامح، بل نحن الذين علمنا العالم هذا التسامح – وغيرها من المفاهيم المتصلة بالعولمة، وإذا أضفنا إلى ذلك التدخل الأمريكي في شئون الأقليات، وكذلك الاحتجاج على تجريم جريمة الشذوذ أو غيرها، لأمكننا أن نفهم ما هو المراد بنا.

بالطبع فإن تلك المطالب ليست جديدة، وحدث شيء منها إبان توقيع مصر اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨ م والدخول في منزلق التطبيع مع الكيان الصهيوني، وكذا عندما تم تسلل الأمريكيين إلى مراكز البحوث التربوية والتعليمية في مصر عن طريق برنامج المعونات الأمريكي وتم تشويه عدد من المقررات الدراسية، وضغط ساعات اللغة العربية لحساب اللغات الأجنبية وكذلك تغيير المفاهيم وتسريب ما أمكن من المفاهيم المتأمركة، ولكن الجديد هو أن الطلب هذه المرة محدد ولا يلجأ إلى التسلل بل هو مطلب واضح وجاد وقطعي وإلا فالحرب !! والأمر شديد الخطورة بالطبع، ولا ننسى في هذا الصدد أن إسحاق شامير كان قد طالب بإلغاء كلمة «الجهاد» من القاموس الإسلامي «القرآن والسنة» وذلك في مؤتمر مدريد عام ١٩٩٢م في إطار الحديث عن عملية السلام المزعومة ، وكأن السلام لا يستقر إلا بإلغاء عقائدنا وتحريف نصوصنا الدينية الربانية والنبوية.

ويقال إن عددا من الدول العربية قد استجاب – كنوع من الانحناء للعاصفة وسوف تتم مراعاة ذلك بالتدريج على حد قولهم، ونذكر هنا ما قاله المعلق الأمريكي الشهير توماس فريدمان «من الآن وحتى السنوات العشر المقبلة سنعمل على استنساخ عقل إسلامي يفكر على طريقتنا نحن الأمريكان».

وهكذا فنحن بصدد إظهار طبعة منقحة من الإسلام «الإسلام الأمريكي» يقوم

به خبراء التربية والثقافة الأمريكيين بإعادة صيغة الإسلام على الطريقة الأمريكية، إسلام بلا رجولة ولا تميز ولا هوية، ولا روح مقاومة، وهو أمر يعني مباشرة حذف معظم آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن الولاء والبراء، أو عن الجهاد والحرب والمقاومة، أو عن بني إسرائيل، وكذلك إلغاء تاريخنا الذي عشناه وعرفناه، والذي يشكل الغزو والتحدي الصليبي الغربي جزءا كبيرا منه، ليس فقط في الحملات الصليبية على الشرق من ١٠٩٨ م – ١٢٩٥ م، أي تلك التي حدثت طوال ٢٠٠ عام على فلسطين والشام ومصر وتونس بل أيضا في كل المواجهات في الأندلس وفي المغرب العربي « حرب الألف عام »، ثم المواجهة في قلب أوروبا « الدولة العثمانية » وعلينا أن نسقط من ذاكرتنا بالتالي صلاح الدين الأيوبي وعماد الدين زنكي، بل وخالد بن الوليد ومحمد الفاتح.

هذا المطلب الأمريكي لن يكون الأخير بالطبع، وبالتالي فرفضه وتحمل نتيجة ذلك سيكون أفضل من القبول به ومحاولة الالتفاف عليه، لأن هذا المطلب ستتبعه مطالب، بإلغاء جامعة الأزهر مثلا، والزيتونة والقرويين وفاس والنجف وقم، أو الخضوع لنوع من التفتيش على خطب الجمعة والعيدين، أو إلغاء المدارس الدينية والجامعات الدينية عموما، وفي مرحلة لاحقة محاولة فرض اللغات الأجنبية « الإنجليزية مثلا » كلغة رسمية ولغة لتلقي التعليم بدعوى العصرية والقضاء على منابع الإرهاب، وهذا ليس غريبا على العقل الغربي الذي تمثل أمريكا النسخة الأخيرة له، فقد فعلتها فرنسا في الجزائر ووصل الأمر إلى حد تجريم تعليم اللغة العربية والقرآن الكريم ومعاقبة من يقوم بذلك، ولكن الشعب الجزائري مارس تعليم اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم سرًّا وكان هذا جزءا من عملية الثورة على المستعمر وشكلا من أشكال مقاومته.

إنها ، إذن ، حرب أمريكية على الهوية، لا يقبلها أحد ذو كرامة وتدخل في صميم شئوننا الداخلية، بل ومساس خطير بالأمن القومي، وهنا نسأل سؤالا بريئا: هل يسمح لنا الأمريكيون أو الإسرائيليون مثلا بالتفتيش في مناهجهم التعليمية، ومطالبتهم بتغيير بعضها لأن بها أمورا تمسنا؟! ومن المعروف أن تلك المناهج مليئة بالافتراءات على العرب والمسلمين وعلى الدين الإسلامي تحديدا وعلى الحضارة الإسلامية، وترسم صورة مغايرة للحقيقة وتزرع وجدانا معاديا في العقل الغربي ضد كل ما هو عربي وإسلامي، وهل يسمح لنا الأمريكيون والإسرائيليون بالمطالبة بتغيير القوانين العنصرية ضد الأجانب في القانون الأمريكي والإسرائيلي خاصة ما تمت صياغته بعد ١١ سبتمبر؟

ومن المهم هنا أن نذكر مثلا، أن إسرائيل لا تسمح طبقا للقانون الإسرائيلي بممارسة التبشير المسيحي على أرضها، وكذلك فإن أحدا لا يجرؤ على تغيير المناهج الإسرائيلية الممتلئة بالأساطير التاريخية والعداء والحقد والمناهج العنصرية الإسرائيلية ضد العرب الذين هم غير موجودين أصلا، وإن وجدوا فعلى الإسرائيلي قتلهم أو طردهم، ثم إن المدارس الدينية الإسرائيلية التي أفرزت أمثال إيجال عامير قاتل رابين، وباروخ جولد شتاين مرتكب مجزرة المسجد الإبراهيمي بمدينة الخليل، هذه المدارس تحظى بالدعم الحكومي الإسرائيلي، ولا يجرؤ الأمريكان مثلا على المطالبة بإلغائها أو تعديل مناهجها، بل كل إسرائيل كمجتمع وفكرة وحكومة ومدارس وتعليم وتربية كلها عنصرية حتى النخاع ولا تجرؤ أمريكا على المطالبة بتغيير عقلها مثلا!!

المطلب الأمريكي خطير شكلا ومضمونا، وهو جزء من الحملة على العالم الإسلامي، بل دخول في منطقة الألغام، لأن أحدا لن يقبل هذا بسهولة، وربط

الموضوع بالإرهاب مغالطة خطيرة، فالإرهابيون المزعومون بمن فيهم المتهمون بارتكاب حوادث ١١ سبتمبر ليسوا خريجي المدارس الدينية، بل خريجو مدارس مدنية وبعضهم تعلم في الغرب، وكذا فإن عددا كبيرا من قادة وعناصر القاعدة بمن فيهم أسامة بن لادن وأيمن الظواهري كلهم من غير خريجي المدارس الدينية، بل إن عددا لا بأس به من ذوي الأصول - وليس الجنسية فقط - الإنجليزية والأمريكية والفرنسية وغيرهم الذين دخلوا في الإسلام حديثا أو منذ فترة قاتلوا في صفوف طالبان، أو قاموا بمحاولة اختطاف طائرات « وريتشارد ريدلي مثلا »، وهم ليسوا خريجي مدارس دينية إسلامية، بل تعلموا وتربوا وشربوا ثقافتهم من مجتمعات غربية، وهكذا فإن ربط الموضوع بالإرهاب هو نوع من الخداع والصحيح أن محاربة الإرهاب تستخدم كذريعة لتمرير أمركة العالم، وإعادة بناء العقل الإسلامي على النمط الأمريكي.

ولا شك أن من دواعي الاستفزاز لعقلنا وحضارتنا أن يزعم الأمريكيون أو غيرهم، أننا نحتاج إلى من يلقننا مفاهيم الحرية أو حقوق الأقليات أو احترام المرأة أو غيرها من المفاهيم ؛ لأن ذلك كله جزء لا يتجزأ من قيمنا الحضارية أكثر من الغرب عشرات المرات، فالحرية من صميم المنهج الإسلامي، بل هي مقدمة على التوحيد لأن حرية الاختيار أساس المسئولية والحساب والعقاب وكذلك ضرب نصنا النظري «الكتاب والسنة» وتراثنا الحضاري وممارساتنا ـ أروع أمثلة التعايش بين الأقليات ومختلف الأجناس والأعراق، ويكفي أن أقليات عرقية ودينية عاشت ولا تزال في كنف المجتمعات الإسلامية ولم يحدث لها تطهير عرقي كما حدث ويحدث في الغرب « أوربا وأمريكا » حتى الآن تقريبا، والحرية الغربية مثلا حرية عنصرية وإلا لماذا يسكت الغرب وأمريكا على انتهاك تلك الحرية بصورة يومية

وعلى مدار الساعة في فلسطين المحتلة منذ ٥٤ عاما وقبله عشرات الأعوام، والأمثلة أكثر من أن تحصى في إطار العنصرية الغربية تجاه الآخر بل تجاه المرأة، وهكذا ففاقد الشيء لا يعطيه فلن يعلمنا الغرب وأمريكا قيما هم أنفسهم يفتقدونها على المستويين العالمي والإنساني.

ولا يعني هذا بالطبع أننا نرفض التطوير أو الاستفادة من كل تقدم وكل قيمة صحيحة ونبيلة « فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها »، شريطة ألا يكون ذلك نوعا من الإملاء، وشريطة أن يكون ذلك أمرا صحيًّا وليس في إطار إعادة تشكيل وتنميط العالم بما يتلاءم مع عنصر الهيمنة الأمريكية.

■ ■ ■

بن لادن ...

رجل في مواجهة أمريكا

◆◆◆

■ أسامة بن لادن رجل في مواجهة أمريكا

أسامة بن لادن ذلك الرجل المنسوب إليه تدبير عملية ١١ سبتمبر أي تدمير برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك « رمز الرأسمالية والعولمة » وأحد مباني وزارة الدفاع ، لأن أحدا لم يفكر قبل بن لادن في الهجوم على الداخل الأمريكي أو عبور المحيط لغزو أمريكا منذ استقلالها عن بريطانيا، وفي الوقت ذاته فإن تلك الوزارة وزارة الحرب أو « البنتاجون » هي التي خططت وأدارت مئات الحروب في كل مكان بالعالم، وهي وحدها التي قصف رجالها المدن بالقنابل الذرية.

أسامة بن لادن.. المنسوب إليه قتل الآلاف.. من الأمريكيين والمتسبب في خسائر لا حصر لها اقتصادية ونفسية.. بل الذي جعل من أمريكا ومخابراتها وقادتها أضحوكة بين الشعوب، وأسقط الهيبة الأمريكية في ساعة أو بعض ساعة.

هذا الرجل الذي أثار ولا يزال يثير الرعب داخل أمريكا وأوربا، وتقوم أمريكا - من أجل القبض عليه - بغزو دولة أفغانستان وإرسال الأساطيل والطائرات والضرب بالصواريخ والقنابل زنة الـ ٥٠٠٠ رطل، وتحريك الجيوش، وطلب النصرة من الحلفاء. هذا الرجل الذي ذهب إليه لإحضاره - حيا أو ميتا كما يقول الرئيس الأمريكي بوش - ٤٤ ألف كوماندوز، و٥ آلاف طائرة هليوكوبتر، ورصد له الرئيس الأمريكي ٤٠٠ مليون دولار لمن يقدم معلومات تؤدي إلى القبض عليه أو معرفة مكانه، وحشد له ٣٨٠٠ عميل ومخبر سري وهو أكبر عدد من العملاء الذين يشتركون في عملية سرية في كل تاريخ الأجهزة الرهيبة والخفية في تاريخ العالم، وذلك للوصول إليه أو إغراء أحد أعوانه بخيانته.

هذا الرجل الذي تحول إلى بطل شعبي وأسطورة، وأصبح محبوبا جدا لدى الفقراء في كل مكان، والعرب والمسلمين بصورة خاصة، والفلسطينيين بصورة

أخص، هذا الرجل الذي يرفع المتظاهرون صوره في كل مكان في باكستان، أندونيسيا، مصر، المغرب، السودان، ماليزيا.. إلخ، هذا الرجل الذي أصبح معبود نساء الغرب، والصورة المثلى للرجل المثير لخيال هؤلاء النساء الغربيات. لدرجة أن تطبع صوره على ملابسهن ويتحدثن سرا وعلنا عن سر الجاذبية الجنسية التي يتمتع بها أسامة بن لادن لا فرق في ذلك بين النساء العاديات والمثقفات، فالصحفية الإنجليزية جين ماركاتني ، الصحفية بصحيفة التلجراف اللندنية تعترف بأنها مشدودة مثل غيرها من نساء الغرب إلى تلك النظرة الصارمة التي تحملها عينا أسامة بن لادن، تقول جين ماكارتني: « أسامة بن لادن ليس تشي جيفارا، فهو رجل مختلف تماما في الشكل والمنظر والمظهر والكلام، إنه مثل فالنتينو، إنه مثال للأسطورة الرومانسية، صحيح أن أسامة بن لادن ليس جيفارا لكنه يبدو لنا نحن النساء أكثر صرامة وحسما في عمامته البيضاء، إنه رجل يبدو في كامل صفات القوة ».

وتضيف الصحفية الإنجليزية«ماكارتني»: « إن هذه الحالة البيولوجية والسيكولوجية التي تعيشها نساء الغرب الآن هي نفسها سواء كان أسامة بن لادن إرهابيا أو لم يكن، من أي أرض جاء وإلى أي مكان ارتحل، بل إن أسامة بن لادن بالنسبة لنساء الغرب هو الحامي الدائم لهن، وهو لم يسئ إليهن ولن يكون عدوهن وتختتم كلامها بقولها : نحن نعيش عصر الأسامية الحريمية بكل ما فيها من عبق الإرهاب، والشبق والانطلاق والانفلات، إنها بداية عصر جديد ».

أسامة بن لادن ذلك الاسم الذي تحول إلى رمز وبطل لدى كل هؤلاء الفقراء الذين تسحقهم العولمة، والرأسمالية والاستعمار والنهب، وهؤلاء المطحونون تحت أحذية الطغاة، وكل من يشعر بالظلم في العصر الأمريكي أسامة بن لادن الذي صوره البعض على أنه جيفارا العصر، الذي ترك المال والسلطة ورفاهية الحياة

ليمارس فعل الثورة النبيل، وصوره آخرون على أنه مانسون زعيم الهيبيز الذين رفضوا الحضارة الظالمة واحتجوا عليها سلبيا – وبديهي أنه ليس مثل مانسون، فابن لادن لم يلجأ إلى السلبية بل قام بفعل إيجابي أيا كان الرأي في هذا الفعل المنسوب إليه – وصورته النساء في الغرب على أنه فالنتينو « الرومانسي » ووصل الأمر إلى أن تصفه إحدى الصحف الأمريكية بأنه فنان شامل، موهوب في الإخراج المسرحي، ويفهم في كتابه السيناريو والحوار والملابس والإكسسوار والديكور من خلال تحليل شكله وملابسه وخلفية الصور والكلام الذي قاله وطريقة نطقه في بيانه المسجل تليفزيونيا والذي أذاعته قناة الجزيرة القطرية، أسامة بن لادن الذي أجاد استخدام الآلة الإعلامية لدرجة جعلت المسئولين الأمريكيين يطلبون ويضغطون على وسائل الإعلام لعدم نشر تسجيلات معه أو نقل كلامه حتى لا يؤثر على الرأي العام، رغم أن ذلك طبعا ينسف فكرة حرية الإعلام الأمريكية – المزعومة – نسفا.

من هو أسامة بن لادن، هل هو البطل القديس الثائر على الاستكبار الأمريكي والزاهد في رفاهية الحياة والتارك للمال ونفوذ أسرته واتجه للجهاد والمقاومة والثورة، أم هو ذلك الإرهابي المعقد، الذي صنعته المخابرات الأمريكية ثم انقلب عليها، أم هو تاجر المخدرات الذي يزرع الحشيش والأفيون في أحراش أفغانستان ويصدرها إلى أوروبا ويحصل على المال ليمول به عملياته الإرهابية؟!

أسامة بن لادن، هو ذلك الرجل السعودي، الجنسية – والتي أسقطت عنه الحكومة السعودية تلك الجنسية فيما بعد – والمولود في الرياض عام ١٩٥٧ م، والذي ترجع جذور والده إلى حضر موت باليمن، وأمه سورية الأصل، ترتيبه الثالث والأربعون بين إخوته وبين الذكور هو الحادي والعشرون «عدد إخوته الذكور والبنات ٥٣ أنجبهم والده من ١٣ زوجة».كان أبوه حمالا بسيطا، جاء إلى

المملكة العربية السعودية من اليمن، وعمل بلا كلل حتى أصبح أكبر مقاول إنشاءات في المملكة العربية السعودية وحقق من عمله ذلك ثروة كبيرة، يقدر البعض نصيب أسامة فيها بحوالي ٣٠٠ مليون دولار، كان الأب عصاميا، ومتواضعا ويميل إلى التدين، وقد احتفظ هذا الوالد – بعد ثرائه – بالكيس « القفة » التي كان يستخدمها عندما كان حمالا، وعلَّقها في مكان بارز في منزله حتى لا ينسى أو ينسى أبناؤه فضل الله عليهم ولا يغتروا بمالهم على الناس.

نشأ أسامة نشأة أخلاقية ودينية، وكان مجلس والده يضم عادة علماء الدين البارزين، فقد كان الوالد يرتبط بهم بصلات قوية وصداقة ، وغالبا كان لا يبخل عليهم بالمال، وسمع أسامة في هذه المجالس قضايا الإسلام، وتحديات العالم الإسلامي، ورأي الإسلام وعلماء الإسلام في الأمور المطروحة، ولا شك أن ذلك ساهم في تشكيل وعيه الديني والسياسي، ولا شك أيضا أن مجمل التطورات العالمية والمحلية التي كان العالم والمنطقة يضطرمان بها قد صقل وعيه مبكرا، خصوصا قضية الصراع مع إسرائيل، وكذا تصاعد المد الإسلامي في فترات شباب بن لادن، حصل بن لادن على شهادة جامعية عليا في الإدارة من إحدى الجامعات السعودية، وعمل مع إخوته في المقاولات وكان نشاطه نسخة منهم، إلا أنه تميز عن إخوانه في نشاطاته المستقلة، بالمحافظة على صفة الحلال للمال، عدم الاستثمار إلا في البلاد الإسلامية إلا لضرورة، تحاشي شبهة الربا، تجنب الاستثمار في البورصة والأسهم الغربية، يصفه أتباعه بأنه على درجة جيدة من الذكاء والثقة بالنفس ودقة الملاحظة والبديهية وأنه يتريث في اتخاذ قراراته ويلجأ إلى المشورة دائما، كما يصفه أتباعه بالشجاعة، ويقولون : إنه من الممكن أن تنفجر قنبلة بجانبه ولا تتحرك منه شعرة، وقد تعرض خلال جهاده في أفغانستان إلى أربعين حادثة قصف ثقيل دون أن يشعر

بالخوف أو يفر من المعركة، وهو يتمنى الشهادة، وقد جرح عدة مرات وأشرف على الموت، وهو - رغم ذلك - حذر جدا، فهو لا يسمح بوجود أجهزة إليكترونية في المكان الذي يقيم فيه حتى لا تساعد في الاستدلال عليه من خلال أجهزة خاصة، وإنه لا يثق إلا في المجموعة التي يعرفها جيدا، ويحيط تحركاته وقراراته بالسرية التامة، ويجيد استخدام وسائل وحيل التضليل، ويرى كثير ممن قابلوه أنه قليل الكلام لا يرفع صوته غالبا ولا يبالغ في الضحك، صبور يتحمل الصعاب، له شعبية قوية عند أتباعه؛ فهم يحبونه حبا جمًّا، يتجنب التميز عن أتباعه ويشارك المرافقين له في كل نشاطاتهم وحياتهم اليومية ويعيش مثلهم في المأكل والملبس والمسكن.

تزوج بن لادن مبكرا، في سن ١٧ سنة، ثم تعددت زوجاته فيما بعد، وله الكثير من الأولاد «لا أحد يعرف عددهم بالضبط».

عندما غزا الروس أفغانستان سنة ١٩٧٩م، حدثت ضجة واسعة في العالم الإسلامي خاصة في السعودية ومصر احتجاجا على هذا الغزو، وتداعى الكثيرون للجهاد بالمال والنفس ومساعدة الأفغان في حربهم، فسافر أسامة على الفور إلى هناك والتقى بقادة المقاومة ثم عاد بعد شهر واحد، ليقوم بتنظيم حملة تبرعات ومساندة للأفغان، وتكررت رحلاته إلى باكستان بغرض تقديم الدعم.

وفي عام ١٩٨٢م اجتاز الحدود إلى داخل أفغانستان وشارك بنفسه في القتال ثم قرر أن يقوم من خلال شركته بإنشاء طرق ومعسكرات وشق الجبال لمساعدة المقاومة الأفغانية، ونجح في ذلك نجاحا كبيرا، وفي عام ١٩٨٤ م أنشأ بيت الأنصار في بيشاور كمحطة لاستقبال المتطوعين القادمين من البلاد العربية وتدريبهم وإدخالهم إلى مناطق القتال، وقد زادت حركة التطوع من العرب عام ١٩٨٦م -

١٩٨٨ م فقرر أن يسجل ذلك في سجل خاص يتابع به حالة كل شخص إذا استعلم عنه أهله أمكن الإجابة عليهم، وقد سَمَّى هذا السجل بسجل القاعدة، وأطلق اسم تنظيم القاعدة على أتباع بن لادن لهذا السبب وفي تلك الفترة استطاع أسامة بن لادن أن يقيم علاقات واسعة مع الجيش الباكستاني، والقادة الأفغان، والمتطوعين العرب، وقد ساعده ذلك كله في تشكيل تنظيم القاعدة وإدارة علاقاته بالقوى المحيطة به فيما بعد، وقد حظي بن لادن باحترام جميع الفرق والقوى والقبائل والشباب المقاتل، لأنه كان يقاتل بنفسه ويصمد كثيرا في المعارك وبرزت له بطولات خاصة في عدد من المعارك منها معركة مأسدة الأنصار التي وقعت في شهر يونيو عام ١٩٨٧م، وقال عنها أحد القادة الأفغان وهو عبد رب الرسول سياف: « إن الإخوة العرب في مأسدة الأنصار قد أثبتوا بسالة كانت محل إعجاب الجميع ».

بعد هزيمة السوفيت وخروجه من أفغانستان، عاد أسامة بن لادن إلى السعودية، ثم أحس بأنه محاصر فقرر الرحيل إلى باكستان ومن ثم إلى السودان، إلا أنه صدر قرار بتجميد أمواله في السعودية عام ١٩٩٢ م لأنه كان يعارض الوجود الأجنبي « الأمريكي – الإنجليزي » في الخليج عموما وفي السعودية خصوصا، وفي عام ١٩٩٤م صدر قرار سعودي بحرمانه من جنسيته، وفي إبان تلك الفترة قام أسامة بن لادن بتنفيذ عدد من المشروعات في السودان، منها طريق التحدي الذي يربط بين بور سودان والخرطوم، وكانت تكاليف المشروعات التي نفذتها شركات أسامة بن لادن في السودان حوالي ٢٠٠ مليون دولار لم تدفع الحكومة السودانية منها إلا ١٠٪، وفي عام ١٩٩٥ م حدث انفجار في الرياض « نوفمبر ١٩٩٥ م» ونسب إلى مجموعة متأثرة ببن لادن وتنظيم القاعدة، وأحس أسامة بن لادن بأن هناك ضغوطا على السودان وأنها لم تعد تحتمل إقامته، فرحل عنها إلى أفغانستان في عام ١٩٩٥م،

وهناك كان في استقباله الشيخ يونس خالص والشيخ حقاني، ما أن وصل إلى أفغانستان حتى أعلن عدم الدخول في الصراعات التي كانت محتدمة بين الفصائل في ذلك الوقت وكانت حركة طالبان قد بدأت تظهر منذ عام ١٩٩٤م، ثم زحفت إلى جلال آباد حيث كان يقيم أسامة بن لادن وكان كل من الشيخ يونس خالص، والشيخ حقان قد انضما إلى حركة طالبان وتم ترتيب مقابلة بين الملا عمر زعيم طالبان وأسامة بن لادن، وأعلن الملا عمر أن أسامة بن لادن في ضيافة طالبان، وفي عام ١٩٩٦م، وعندما استولت طالبان على العاصمة كابول، انتقل أسامة بن لادن للعيش هناك وأصبحت طالبان القوة الأساسية في أفغانستان، وتوثقت علاقة أسامة بن لادن بها، وكان رجال طالبان يرون أن أسامة بن لادن له ماض مشرف في الجهاد ضد الغزو الروسي وكذلك أنه ساعد حركة طالبان في إنقاذ كابول مرتين من هجوم أحمد شاه مسعود بعد انكشاف أحد الجبهات، وأنه أقنع عددا من الشباب العربي المتخصصين بتقديم المساعدة لطالبان بشأن إعمار أفغانستان، وفي الوقت ذاته كان بن لادن يرى أن طالبان ذات مشروع لتطبيق الشريعة الإسلامية، وأنهم لم يصابوا بما أصيبت به الأحزاب الأخرى وزعاماتها من حب السيطرة المجردة والاستعداد لحرق البلد من أجل التنافس على الحكم وإهمال تطبيق الإسلام.

ولم تكن الحركة تمانع في نشاطه، أو مواقفه الداعية إلى إخراج القوات الأمريكية من الجزيرة العربية دون أن تشارك هي مباشرة في ذلك، وقد حدث «حادث الخبر» ضد التواجد الأمريكي – عام ١٩٩٦ م – ولكن أصابع الاتهام لم تشر إلى بن لادن مباشرة، إلا أن أسامة بن لادن أصدر بيانا من ١٢ صفحة وقعه باسمه الشخصي بعنوان « إعلان الجهاد لإخراج الكفار من جزيرة العرب » وبعد ذلك نسب إلى بن لادن وتنظيم القاعدة عمليتا نسف السفارتين الأمريكيتين في كل من كينيا وتنزانيا

عام ١٩٩٨م، ثم عملية تدمير المدمرة الأمريكية كول في مياه عدن عام ٢٠٠٠ م.

***

لا شك أن هناك محاولات ستستمر طويلا في تشويه صورة أسامة بن لادن، أو التقليل من شأنه، وذلك حتى لا يتحول إلى نموذج وبطل في نظر كل مناهضي أمريكا وكل المقهورين تجاه جبروته وحتى لا تحدث ثقة بالنفس في إمكانية إنزال الوجع والألم بالجبابرة والمغامرة بعدم السكوت عليهم، كل هذا مطلوب أمريكيًّا، بل مطلوب أحيانا لأسباب أخرى، ومحاولة تشويه صورة بن لادن أخذت أكثر من وسيلة ، منها اتهامه بالعمالة للمخابرات الأمريكية وأنها صنعته وخرج عليها، وهو اتهام وقع فيه صحفيون وكتاب كبار رددوا المسألة بدون وعي وكأنها مسلمة لا يرقى إليها الشك، والحقيقة أن ذلك محض افتراء وغباء، فالرجل لم يذهب إلى أفغانستان حبًّا في الأمريكان، بل كواجب إسلامي لمناهضة الغزو السوفيتي، وإذا توافق ذلك مع رغبة الأمريكان في ذلك الوقت على أساس الصراع بين أمريكا والاتحاد السوفيتي وحالة الاستقطاب الدولي فإن ذلك لا يعني الرجل في شيء، أكثر من هذا فإن الاستفادة من التناقضات بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت ليس عيبا، بل فعله الجميع « دول عدم الانحياز ومنها مصر في عام ١٩٥٦ م وغيرها وحتى ١٩٧٠ م» ولا تعني الاستفادة من هذا التناقض العمالة لإحدى القوتين، على أنه لم يحدث أصلا أن تعاون أسامة بن لادن بالذات مع الأمريكان في أي شيء، وبديهي أن أسامة بن لادن الذي ينحدر من أسرة غنية واسعة النفوذ، والذي كان نصيبه في ثروة تلك الأسرة حوالي ٣٠٠ مليون دولار، فهو ليس في حاجة - شكلا أو مضمونا - للعمالة لأحد لا الأمريكان ولا غيرهم، ثم هو شارك بنفسه في القتال ، وهذه ليست صفات عملاء، وكل حياته

تؤكد أنه رجل صاحب مبدأ أو موقف ورجولة، سواء اتفقت معه أو اختلفت وهو ليس صاحب مصلحة شخصية من أي نوع.

على أي حال فإن الرجل قد نفى أي علاقة أو تعاون – مبرر أو غير مبرر – بالأمريكان، ونحن نصدقه، أما ترويج هذه الفرية على نطاق واسع ؛ فهو جزء من الحملة النفسية لسحب آثار جهاد بن لادن على الشعوب المقهورة، ويدخل في الإطار ذاته القول بأنه يتاجر بالمخدرات أو غيرها من الأقوال. وفي محاولة لتفسير سلوك بن لادن – بعيدا عن البطولة والرجولة – روج بعض المحللين النفسيين، أن أسامة شخص معقد بسبب زواج أبيه لأكثر من زوجة وأنه كان صبيا وحيدا بين ٥٣ من الأخوة، وهو كلام قد يصلح للحياة الاجتماعية في الغرب ولا يصلح بالطبع لتفسير الظروف الاجتماعية في البلاد العربية والإسلامية عموما، والمملكة العربية السعودية في ذلك الوقت خصوصا.

وفي الإطار ذاته تم ترويج كلام عن علاقات نسائية في شباب بن لادن في بيروت ومدريد، وهو كلام غير صحيح بالطبع، لأن نشأة بن لادن وأسرته وزواجه في سن ١٧ سنة لا تسمح بتصديق هذا الهراء.

لم تقتصر المحاولات على تشويه صورة أسامة بن لادن فقط بل اشتملت أيضا على محاولة التقليل من قيمته، فهو – في رأي البعض – ليس صاحب مشروع سياسي، وليس مثل جيفارا، والغريب أن هؤلاء ينسون أو يتناسون، أن الرجل يطالب برحيل القوات الأجنبية عن الجزيرة العربية، وبالتوقف عن ضرب وحصار العراق، والتوقف عن دعم إسرائيل ضد الفلسطينيين، ولولا هذا الكلام لما جرؤ أحد أن يطالب أمريكا بربط مناهضة الإرهاب بحل المشكلة الفلسطينية، وكذا فإن الجذر الثقافي والحضاري والديني للرجل يعني أنه صاحب مشروع، أليس في

الإسلام مشروع لحكم الدول والعالم وللعلاقات الدولية وغيره، وهل شرط أن يكون الزعيم الثائر هو ذاته المفكر!! ليس شرطا بالطبع، والمشروع الإسلامي معروف ومنشور على يد أكثر من مفكر في أكثر من مناسبة بل وهناك برامج حزبية تم نشرها وطبعت في كتب ونشرت في صحف.

ثم إن المقارنة وبين جيفارا وبينه ظلم للرجلين معا، فكلاهما ثائر على الظلم، الأول: كان جذره الثقافي ماركسيا والثاني جذره الثقافي إسلاميًا، ولو كان جيفارا حيًّا حتى اليوم لانحاز إلى الجذر الثقافي الإسلامي بعد أن انكشف عدم صلاحية الماركسية أو لاهوت التحرير المسيحي لمواجهة الرأسمالية لأنهما خرجا من نفس الأرضية الحضارية الحضارة الغربية – التي خرجت منها الرأسمالية ولا بد أن تفشل في مواجهتها، وشرط نجاح أي منظومة أو أيديولوجية في مواجهة الرأسمالية، أن يكون جذرها الثقافي مستمدا من حضارة ونموذج حضاري خارج الحضارة الغربية، وأن يكون خطاب هذه الحضارة عالميا وغير عنصري ومنحازًا للفقراء، وهذا بالضبط هو الخطاب الإسلامي.

وفي الإطار ذاته قال البعض : إن الرجل مصاب بالخلل لأنه يعادي أمريكا أكثر من عدائه لإسرائيل التي هي السبب في عدائه لأمريكا، وهكذا فإنه يترك الأصل ويهتم بالفرع، وهذا كلام أوله خطأ وآخره خطيئة، فالمشرع الصهيوني برمته مشروع غربي، وإذا كانت أمريكا هي وارثة المشروع الاستعماري الغربي، فإن إسرائيل بالتالي مشروع أمريكي حاليا، يعمل كوكيل عن الاستعمار الأمريكي، وكمفرزة أمريكية وغربية متقدمة، وكغدة سرطانية في جسد الأمة، وهي الذراع التي تستخدمها أمريكا في تحقيق أهداف الغرب الاستراتيجية والحضارية والتكتيكية، وبالتالي فإن أمريكا هي الأصل، ومحاربة الأصل أفضل طبعا، وإن كان ذلك لا يمنع من مواجهة الذراع والفرع معًا، فقط علينا أن ندرك أن الصراع الأصلي هو مع أمريكا

والغرب والرأسمالية.

***

أصبح بن لادن بطلا شعبيا أسطوريا، وسواء كان هو الذي فعل ما حدث في ١١ سبتمبر، أو لم يكن، وسواء كان وراء الحرب البيولوجية ضد أمريكا أو لم يكن، وبصرف النظر عن الرأي في تلك الأعمال – غير المبررة – فإن الغضب وتراكم الغيظ والاستفزاز لدى الشعوب من ممارسات أمريكا، صنعت من الرجل بطلا وأسطورة، وجعلته يصبح أهم شخصية في العالم، وسوف يكون محور تمجيد فني وعاطفي من كل الفقراء والمستضعفين في العالم، ومحورا لهجوم المستكبرين وأفلامهم وأعمالهم الإعلامية المختلفة.

■ ■ ■

النص الكامل لشريط الفيديو الذي حطم أعصاب أمريكا

◆◆◆

■ بن لادن: إرهابنا محمود ولم نقتل بريئا

- الذين ناصروا المستضعفين في أفغانستان ضد السوفيت لا يمكن أن يقتلوا الأبرياء.
- أحداث ١١ سبتمبر رد فعل على الظلم المتواصل ضد أبنائنا في فلسطين والعراق والسودان والصومال.
- أمريكا تقوم على قوة اقتصادية لكنها هشة وما أسرع أن تهاوت.
- المعركة الدائرة الآن في أفغانستان أظهرت عجز الجيش الأمريكي!

إن الحمد لله نحمده ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد، فبعد مرور ثلاثة أشهر على الضربات المباركة ضد الكفر العالمي ضد رأس الكفر «أمريكا» وبعد مرور شهرين تقريبا على الحملة الصليبية الشرسة على الإسلام، يطيب لنا أن نتحدث عن بعض دلالات هذه الأحداث.

فهذه الأحداث بينت أمورًا كثيرة في غاية الأهمية للمسلمين، فقد اتضح بجلاء أن الغرب عامة وعلى رأسه أمريكا يَحْمِلُ من الحقد الصليبي على الإسلام ما لا يوصف، والذين عاشوا هذه الأشهر تحت القصف المتواصل من الطائرات الأمريكية بأنواع مختلفة يعلمون ذلك حق العلم.

فكم من قرى أبيدت بدون ذنب، وكم وكم، لو حسبنا من الملايين الذين شردوا في هذا البرد القارس، هؤلاء المستضعفون من الرجال والنساء والولدان تؤويهم اليوم الخيام في باكستان لا ذنب لهم، مجرد شبهة، فشنت أمريكا هذه الحملة الشرسة.

ولو كان عند أمريكا من الأدلة ما يصل إلى درجة اليقين أن الذين قاموا بهذا

العمل كانوا ينتسبون إلى أوروبا، كالجيش الأيرلندي مثلا، لكان عندها من السبل الكثير لعلاج هذه المشكلة، ولكن لما كان الأمر مجرد شبهة تشير إلى العالم الإسلامي فظهر الوجه القبيح الحقيقي وظهر الحقد الصليبي على العالم الإسلامي بوضوح.

وبين يدي هذا الكلام أحب أن أؤكد على حقيقة الصراع بيننا وبين أمريكا، وهو في غاية الأهمية والخطورة ليس للمسلمين فقط بل للعالم أجمع، فما تتهم به أمريكا هذه الفئة المهاجرة المجاهدة في سبيل الله لا يقوم عليه دليل وإنما هو البغي والظلم والعداون.

فتاريخ المجاهدين العرب - بفضل الله سبحانه وتعالى - واضح، فقد خرج هؤلاء منذ ٢٠ سنة عندما ظهر الإرهاب المذموم الحقيقي على أيدي الاتحاد السوفيتي ضد هؤلاء الأطفال وضد الأبرياء في أفغانستان، ترك المجاهدون العرب أعمالهم وجامعاتهم وأهلهم وعشيرتهم ابتغاء مرضاة الله، نصرة لدين الله ثم نصرة للمستضعفين من أبناء المسلمين.

فالذين خرجوا لنصرة المستضعفين لا يعقل اليوم أن يذهبوا لقتل الأبرياء كما يزعم الزاعمون، فهذا التاريخ ، أمريكا كانت تؤيده، كل من يجاهد كل من يقاتل ضد الروس، فلما مَنَّ الله على المجاهدين العرب أن ينصروا المستضعفين في فلسطين أولئك الأطفال الأبرياء غضبت أمريكا وقلبت ظهر المجن لكل من قاتل في أفغانستان.

فإن ما يجري اليوم في فلسطين أمر في غاية الوضوح ومحل اتفاق البشرية منذ آدم عليه السلام، فإن الفطر قد تفسد ويختلف الناس في كثير من الأمور، ولكن هناك بعض الفطر يحفظها الله سبحانه وتعالى من الفساد إلا من شذت نفوسهم وبلغت مبلغا عاتيا في الظلم والعدوان، فمن الفطر المتفق عليها أن الناس - حتى وإن

أصابهم بعض الظلم وبعض العدوان - نفوسهم لا تستطيع أن تقتل الأطفال الأبرياء.

وما جرى في فلسطين وما يجري اليوم من قتل متعمد للأطفال ، هذا أمر في غاية القبح وفي غاية الظلم والعدوان وهو يهدد البشرية جمعاء.

وما عرف التاريخ أن أحدا يقتل الأطفال إلا نادرا وهو مذهب فرعون، والله سبحانه وتعالى مَنَّ على بني إسرائيل هؤلاء إذ نجاهم من فرعون : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾، فتذبيح الأطفال أمر اشتهر به رأس الظلم والكفر والعدوان فرعون، ولكن بني إسرائيل استخدموا نفس الأسلوب ضد أبنائنا في فلسطين، والعالم أجمع نظر وشاهد العساكر الإسرائيليين وهم يقتلون محمد الدرة وغير محمد الدرة كثير.

فالعالم بأسره في شرقه وغربه على اختلاف مللِه مجرد كون الناس ناسا استنكروا هذا الفعل، ولكن أمريكا سادرة في غيها تؤيد هؤلاء الظلمة ، هؤلاء المعتدين على أبنائنا في فلسطين، والله سبحانه وتعالى بيّن أن النفس إذا بغت واعتدت ووصلت إلى حد أن تقتل نفسا بغير حق ، فهذا أمر في غاية البشاعة، ولكن أبشع منه أن يقتل الأطفال الأبرياء، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾.

فهؤلاء في الحقيقة كأنما قتلوا جميع الأطفال في العالم، إسرائيل ومن ورائها أمريكا، وما الذي يرد إسرائيل عن قتل أبنائنا غدا في تبوك وفي الجوف وفي حولها من المناطق، وما سيفعل الحكام إذا وسعت إسرائيل من أرضها المطبوعة في كتبهم - الظالمة الجائرة الزائفة - كما يزعمون، وقال إن حدودنا إلى المدينة، ماذا سيفعل

الحكام وهم يرضخون لهذا اللوبي الصهيوني الأمريكي.

فلا بد للعقلاء أن يستيقظوا، وأن ما أصاب محمد الدرة وإخوانه سوف يصيب غدا أبناءهم ونساءهم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فالأمر في غاية الخطورة، والإرهاب المذموم تمارسه أمريكا على أبشع صوره في فلسطين وفي العراق، وبوش الأب هذا الرجل المشئوم كان سببا في قتل أكثر من مليون طفل في العراق فضلا عن غيرهم من الناس من الرجال والنساء.

أحداث ١١ سبتمبر ما هي إلا رد فعل للظلم المتواصل الذي يمارس على أبنائنا في فلسطين وفي العراق وفي الصومال وفي جنوب السودان وفي غيرها كما في كشمير وأسام.

وأحداث ٢٢ جمادى الآخرة الموافق الحادي عشر من سبتمبر ما هي إلا رد فعل للظلم المتواصل الذي يمارس على أبنائنا في فلسطين وفي العراق وفي الصومال وفي جنوب السودان وفي غيرها كما في كشمير وأسام، فالأمر يخص الأمة بأسرها فينبغي على الناس أن يستيقظوا من رقادهم وأن يهبوا لإيجاد حل لهذه الكارثة التي تهدد البشر جميعا.

وأما الذين أدانوا هذه العمليات فهؤلاء نظروا إلى الحدث بصفة مستقلة ولم يربطوه بالأحداث الماضية والأسباب التي أدت إليه، فنظرتهم قاصرة ولا تنطبق ولا تنطلق لا من أصل شرعي ولا من أصل - أيضا - عقلاني، وإنما رأوا الناس ورأوا أن أمريكا والإعلام يذم هذه العمليات فقاموا يذمونها.

وهؤلاء مثلهم كمثل ذئب رأى حملا فقال لهذا الحمل – ولد النعجة – أنت الذي عكرت عليَّ الماء في العام الأول، قال يا هذا لست أنا قال بل أنت، قال إنما أنا ولدت في هذا العام، قال إذن أمك التي عكرت عليَّ فأكل هذا الحمل، فما كان من هذه الأم

المسكينة التي رأت ابنها يمزق بين أنياب هذا الذئب إلا أن دفعتها عاطفة الأمومة فنطحت هذا الذئب نطحة لا تقدم ولا تؤثر، فصاح الذئب وقال انظروا إلى هذه الإرهابية، فقام هؤلاء الببغاوات يرددون ما يقول الذئب ويقولون : نعم نحن ندين نطح النعجة لهذا الذئب، أين أنتم من أكل الذئب لابن هذه النعجة.

فإن هذه الضربات المباركة الموفقة إنما هي ردود فعل لما يجري على أرضنا في فلسطين وفي العراق وفي غيرها، وإن أمريكا في مواصلتها لهذه السياسة بمجيء هذا الابن جورج بوش الذي ابتدأ حكمه بغارات جوية عنيفة على العراق أيضا ليؤكد على سياسة الظلم والعدوان، وعلى أن دماء المسلمين لا ثمن لها.

فكان هذا الرد المبارك بفضل الله سبحانه وتعالى، وهذه الضربات المباركة لها دلالات عظيمة، فقد أوضحت بجلاء أن هذه القوة المتغطرسة المتكبرة (هبل العصر أمريكا) تقوم على قوة اقتصادية عظيمة، ولكنها هشة ما أسرع أن تهاوت بفضل الله سبحانه وتعالى.

فالذين قاموا بالعمل ليسوا تسع عشرة دولة عربية ولم تتحرك الجيوش ولا وزارات الدول العربية التي ألفت الخنوع والظلم الذي يصيبنا في فلسطين وفي غيرها، وإنما تسعة عشر من طلاب الثانويات – أرجو الله سبحانه وتعالى أن يتقبلهم – هزوا عرش أمريكا وضربوا الاقتصاد الأمريكي في صميم فؤاده وضربوا أكبر قوة عسكرية في عمق قلبها بفضل الله سبحانه وتعالى.

فهنا دلالة واضحة على أن هذا الاقتصاد العالمي الربوي المحوق الذي تستخدمه أمريكا مع قوتها العسكرية لفرض الكفر والإذلال على الشعوب المستضعفة يمكن بسهولة أن يتهاوى، فتلك الضربات المباركة قد ألحقت بأمريكا – باعترافهم هم في أسواق نيويورك وفي غيرها –أكثر من تريليون دولار خسارة

بفضل الله سبحانه وتعالى، وبإمكانيات بسيطة استخدموا طائرات العدو ودرسوا في مدارس العدو فلم يحتاجوا إلى معسكرات تدريب، وإنما فتح الله عليهم وأعطوا هذا الدرس القاسي لتلك الشعوب المتكبرة التي لا ترى للحرية معنى إلا أن تكون للجنس الأبيض، أما الشعوب الأخرى فيرون أنها ينبغي أن تكون ذليلة مستعبدة لا يحركون ساكنا بل يصفقون لرؤسائهم عندما يضربوننا كما حصل من قبل في العراق.

فأقول : إن القوة العسكرية الأمريكية وإن أظهرت أمريكا استعراضها لهذه القوة في أفغانستان في الفترة الأخيرة وصبت جام غضبها على هؤلاء المستضعفين، فقد أخذنا بفضل الله سبحانه وتعالى دروسا عظيمة ومهمة في كيفية مقاومة هذه القوة المتكبرة.

فعلى سبيل المثال، لو أن خط الجبهة مع العدو يبلغ في طوله ١٠٠ كم فينبغي أن يكون هذا الخط عريضا، بمعنى: لا نكتفي بخط دفاع بعمق أو بعرض ١٠٠م أو ٢٠٠ م أو ٣٠٠ م بل ينبغي أن يعرض هذا الخط إلى عدة كيلو مترات وتحفر الخنادق على طول الجبهة وعلى عرضها، فكثافة القصف الأمريكي تستنزف قبل أن تصل إلى نهاية تدمير هذه الخطوط وتكون هناك قوات خفيفة وسريعة للحركة من خط إلى خط ومن حركة دفاعية إلى حزمة دفاعية.

فاستفدنا هذا بعد القصف الكثيف الذي مارسه الأمريكان على خطوط الشمال وعلى خطوط كابل، وبهذه الطريقة تمر السنوات ولا تستطيع أمريكا بإذن الله سبحانه وتعالى أن تكسر خطوط المجاهدين.

ومن جهة أخرى - كما هو معلوم - إن القتال لا بد له من عنصرين، عنصر الأنفس المقاتلة، وعنصر المال مثل شراء السلاح، وهذا الأمر مؤكد في كتاب الله سبحانه

وتعالى، كما قال سبحانه وتعالى في آيات كثيرة يؤكد على هذا المعنى منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾.

فبالمال والنفس، فالقاعدة العسكرية الأمريكية وإن كانت المسافة بيننا وبينها بعيدة جدا وأسلحتنا لا تصل إلى طائراتهم فبالإمكان بواسطة الخطوط الدفاعية العريضة امتصاص هذه الضربات، وطريقة أخرى ضرب القاعدة الاقتصادية التي هي أساس للقاعدة العسكرية فإذا انتهى اقتصادهم شغلوا بأنفسهم عن استعباد الشعوب المستضعفة. فأقول من المهم جدا التركيز على ضرب الاقتصاد الأمريكي بكل وسيلة ممكنة، وهؤلاء الذين يدّعون الإنسانية ويدّعون الحرية رأينا هنا إجرامهم الحقيقي، فالإنسان تكفيه شظية وزيادة عليه وزنها سبعة جرامات، فأمريكا من حقدها على هؤلاء الطالبان ومن حقدها على المسلمين كانت ترمي على إخواننا في الخطوط قذائف تصل القذيفة الواحدة إلى ٧ أطنان، يا أهل الحساب يعني ٧ آلاف كيلو يعني تساوي ٧ ملايين جرام بينما يكفي الإنسان ٧ جرامات وزيادة عليه.

وعندما فجر الشباب – نرجو الله أن يتقبلهم شهداء – في نيروبي أقل من اثنين طن قالت أمريكا هذا ضرب إرهابي، وهذا سلاح تدمير شامل ، وأما هي فتستخدم قذيفتين كل قذيفة ٧ ملايين جرام فهذا لا حرج فيه.

ويطلع علينا وزير الدفاع بعد أن قصفوا قرى بكاملها بدون سبب وإنما من أجل إرهاب الناس وجعل الناس يخافون من استضافة العرب أو الاقتراب منهم، طلع وزير الدفاع وقال : هذا من حقنا. من حقهم أن يبيدوا الشعوب طالما أنها مسلمة وطالما أنها غير أمريكية، هذا هو الإجرام بعينه، واضح بَيِّنٌ وكل ما تسمعون من قولهم : إنه خطأ هذا من الكذب الواضح البين.

فقبل أيام ضربوا كما زعموا مواقع القاعدة في خوست وأرسلوا قذيفة موجهة على مسجد قالوا وقعت بالخطأ، وبعد التحري اتضح أن العلماء في خوست كانوا يصلون صلاة التراويح وكان عندهم اجتماع بعد صلاة التراويح مع البطل المجاهد الشيخ جلال الدين حقاني الذي كان أحد أبرز قيادات الجهاد السابق ضد الاتحاد السوفيتي والذي رفض هذا الاحتلال الأمريكي على أرض أفغانستان، فقصفوا المسجد والمسلمين في الصلاة فقتل منهم مائة وخمسون ولا حول ولا قوة إلا بالله، وسَلِمَ الشيخ جلال نرجو الله أن يبارك في عمره.

هذا هو الحقد الصليبي، فليتنبه الذين يرددون الكلام دون أن ينتبهوا إلى أعوانه ويقولون نحن ندين الإرهاب، نحن إرهابنا ضد أمريكا هو إرهاب محمود لدفع الظالم عن ظلمه لكي ترفع أمريكا دعمها عن إسرائيل التي تقتل أبناءنا، والأمر واضح بَيِّنٌ ألا تعقلون؟

أمريكا ورؤساء الغرب كثيرا ما يرددون أن حماس والجهاد في فلسطين وغيرها أيضا من المنظمات المقاتلة يسمونها منظمات إرهابية، إذا كان الدفاع عن النفس إرهابا فأي شيء هو المشروع، فدفاعنا لا يختلف وقتالنا لا يختلف عن قتال إخواننا في فلسطين كحماس، نقاتل من أجل لا إله إلا الله لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ولنرفع الظلم عن المستضعفين في فلسطين وفي غيرها.

الأمر واضح بين، وما ينبغي لمسلم عاقل أن يقف في ذلك الخندق تحت أي تأويل من التأويلات، فهذه أخطر وأعنف وأشرس حرب صليبية تشن ضد الإسلام، وبإذن الله نهاية أمريكا قريبة ونهايتها ليست متوقفة على وجود العبد الفقير، أسامة قتل أم بقي، فبفضل الله قد قامت الصحوة وكان من مكاسب هذه العمليات أرجو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل هؤلاء الشباب في الشهداء وأن

يجمعهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

فهؤلاء الشباب قاموا بعمل عظيم جدا، بعمل جليل جزاهم الله عنه خير الجزاء ونرجو الله أن يكونوا زخرا لآبائهم وأمهاتهم، فقد رفعوا رأس المسلمين عاليا وأعطوا أمريكا درسا لن تنساه بإذن الله سبحانه وتعالى.

وقد حذرت فيما مضى في لقاء مع قناة ABC أن أمريكا بدخولها في صراع مع أبناء الحرمين سوف تنسى أهوال فيتنام، وهذا الذي كان بفضل الله سبحانه وتعالى وما خفي كان أعظم بإذن سبحانه وتعالى.

فمن بلاد الحرمين خرج خمسة عشر شابا – نرجو الله أن يتقبلهم في الشهداء – من أرض الإيمان، هناك أعظم كنز للمسلمين حيث يأرز الإيمان كما صح عن نبينا عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة كما تأرز الحية إلى جحرها، وأيضا خرج اثنان من شرق جزيرة العرب من الإمارات، وخرج آخر من الشام وزياد الجراح – نرجو الله أن يتقبله في الشهداء – وخرج الآخر من أرض الكنانة من مصر محمد عطا فنرجو الله أن يتقبل الجميع شهداء.

فهؤلاء في تصرفهم هذا أعطوا دلالات عظيمة جدا، وبينوا أن هذا الإيمان الذي في قلوبهم يستدعي مقتضيات كثيرة ويستدعي أن تقدم الروح من أجل لا إله إلا الله، فهؤلاء فتحوا بابا عظيما للخير والحق، ومن يقل إن العمليات الفدائية الاستشهادية لا تجوز إنما هؤلاء الذين نسمع أصواتهم في الإعلام، إنما يرددون شهوات الطغاة شهوات أمريكا وعملاء أمريكا.

أمة من ١٢٠٠ مليون مسلم تنحر من مشرق الأرض إلى مغربها في كل يوم في فلسطين وفي العراق وفي الصومال وفي جنوب السودان وفي كشمير وفي الفلبين وفي البوسنة والشيشان وفي أيام لا نسمع لهم صوتا، فإذا ما قالت الضحية، إذا ما قام

المظلوم يقدم نفسه من أجل دينه ارتفعت أصوات هؤلاء ١٢٠٠ مليون مسلم ينحرون لا حس لهم فإذا قام رجل ليذود عن هؤلاء قام هؤلاء يرددون ما يشتهي الطغاة، لا عقل لهم ولا فقه لهم.

وفي حديث الغلام والملك والساحر والراهب دليل واضح على تقديم النفس من أجل لا إله إلا الله، وهنا معنى آخر : أن النصر لا يعتبر فقط بالكسب الظاهر الذي غلب على ذهن الناس وإنما النصر هو الثبات على المبادئ.

فأهل الأخدود ذكرهم الله سبحانه وتعالى وخلد ذكرهم في سياق المدح لهم إذ ثبتوا على الإيمان، هُدِّدُوا بَيْنَ الإيمان وبين أن يدخلوا النار ، فأبوا أن يكفروا بالله سبحانه وتعالى وأدخلوا النار – التي أضرمها لهم الكفار – وفي نهاية الحديث – حديث الغلام – عندما أمر الملك الظالم أن يقحم هؤلاء في الأخدود، وجاءت تلك الأم المستضعفة تحمل ابنها؛ فلما رأت النار خافت على ابنها وتقاعست؛ فقال لها (الغلام) كما قال عليه الصلاة والسلام، اصبري يا أماه فإنك على الحق.

فهؤلاء لا يقول مسلم بحال من الأحوال ماذا استفادوا؟ ضيعوا أنفسهم، هذا جاهل جهلا مركبا، هؤلاء فازوا برضوان الله سبحانه وتعالى وبجنات الخلد التي وعدهم الله سبحانه وتعالى، فليس النصر هو الكسب المادي فقط وإنما النصر الثبات على المبادئ.

وفي الحديث عن نبينا عليه الصلاة والسلام هذا حديث الغلام، عندما أخذ الغلام الحجر وكان مازال قليل العلم وهو يتردد بين الساحر والراهب وقطعت الدابة الطريق على الناس – قال اليوم أعلم أيهما أفضل الراهب أم الساحر، كان من قلة علمه لم يفقه بعد أيهما أفضل وتطمئن نفسه.

فسأل الله أن يريه أيهما أفضل، فإن كان الراهب أحب إلى الله سبحانه وتعالى

فليقتل هذه الدابة، فأخذ حجرا ورمى الدابة فقتلها، فجاء الراهب إلى الغلام وقال، يا بني إنك اليوم أفضل مني، هذه الكلمة رغم علم الراهب وجهل الغلام ولكن نور الله سبحانه وتعالى قلب هذا الغلام بنور الإيمان وبدأ يضحي من أجل لا إله إلا الله.

هذه الكلمة العزيزة نادرة ينتظرها شباب الإسلام من علمائهم، أن يقولوا لهؤلاء الذين حملوا رؤوسهم على أكفهم من أجل لا إله إلا الله أن يقولوا لهم قولة ذلك العالم لذلك الغلام إنكم اليوم أفضل منا.

هذه هي الحقيقة في ميزان التفضيل في هذا الدين هو كما في الحديث عن نبينا عليه الصلاة والسلام، ميزان الإيمان ليس جمع العلم فقط بل جمع العلم والعمل به، فميزان الإيمان من جاهدهم بيده فهو مؤمن كما قال عليه الصلاة والسلام، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك حبة خردل من إيمان، فهؤلاء جاهدوا الكفر الأكبر بأيديهم وأنفسهم نرجو الله أن يتقبلهم في الشهداء.

هؤلاء كما قال عليه الصلاة والسلام سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل – رجل هنا نكرة – نَوَّرَ الله قلبه بالإيمان، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فزجره فقتله، كما في صحيح الجامع.

هذا فاز فوزا عظيما لم يدركه التابعون بل لم يدرك الصحابة الكرام ﷺ، وإنما رفعه الله سبحانه وتعالى إلى منزلة سيد الشهداء فهذا أمر حضَّ عليه رسولنا – عليه الصلاة والسلام – فكيف يمكن لمسلم عاقل أن يقول : ماذا استفاد هذا، هذا ضلال مبين ، نسأل الله العافية.

فهؤلاء الفتية فتح الله عليهم أن يقولوا لرأس الكفر ، لأمريكا ومن حالفها أنتم

على باطل، وأنتم على ضلال، وضحوا بأنفسهم من أجل لا إله إلا الله.

فالحديث يطول معنا عن هذه الأحداث العظام ولكنني أختصر كلامي وأركز على أهمية استمرار العمل الجهادي ضد أمريكا عسكريا واقتصاديا، وأن أمريكا قد تراجعت بفضل الله سبحانه وتعالى وأن النزيف الاقتصادي مستمر إلى اليوم ، ولكن يحتاج إلى ضربات أخرى وأن يجتهد الشباب في البحث عن مفاصل الاقتصاد الأمريكي ويضرب العدو في مفاصله بإذنه سبحانه وتعالى.

وقبل الختام يطيب لي أن أذكر ، أولئك الأبطال ، أولئك الرجال ، أولئك العمالقة العظام الذين رفعوا العار عن جبين أمتنا، يطيب لي أن أذكرهم ببعض الشعر مادحا إياهم وكل الذين يسيرون على درب محمد ﷺ .

وقبل ذلك أؤكد على نقطة، أن هذه المعارك التي تقوم اليوم في أفغانستان على مدار الساعة على المجاهدين العرب خاصة الطالبان، أظهرت بوضوح مدى عجز الحكومة الأمريكية ومدى الضعف الأمريكي ومدى هشاشة الجندي الأمريكي.

فرغم التطور الهائل في التكنولوجيا العسكرية لم يستطيعوا أن يحدثوا شيئا إلا باعتمادهم على المرتدين وعلى المنافقين فما الفرق اليوم بين بابراك كارمل الذي جاء بالروس لاحتلال بلاده وبين الرئيس المخلوع برهان الدين – والدين منه بريء – أي فرق بين الاثنين؟ هذا جاء بالروس لاحتلال أرض الإسلام وهذا جاء بالأمريكان لاحتلال أرض الإسلام، فهذا يدل كما ذكرت بوضوح على ضعف الجندي الأمريكي بفضل الله سبحانه وتعالى ، فينبغي أن نغتنم الفرصة ويواصل الشباب الجهاد والعمل ضد الأمريكان.

وأختم بأبيات بذكر أولئك الأبطال الذين خرجوا من أرض الحجاز من أرض الإيمان من غامد وزهران ومن بني شهر ومن حرب ومن نجد نرجو الله أن يتقبل

الجميع، والذين خرجوا من مكة المكرمة سالم ونواف الحازمي وخالد المحضار أو الذين خرجوا من المدينة المنورة تركوا الدنيا ونعيمها من أجل لا إله إلا الله.

إني لأشهد أنهم من كل بتَّارٍ أَحَدّ
يا طالما خاضوا الصعاب وطالما صالوا وشدوا
شتان، شتان بين الذين لربهم باعوا النفوسا
الباسمين إلى الردى والسيف يرمقهم عبوسا
الناصبين صدورهم من دون دعوتهم تروسا
إن أطبقت سدف الظلام وعضنا ناب أكول
وديارنا طفحت دما ومضى بها الباغي يصول
ومن الميادين اختفت لمع الأسنة والخيول
وعلت على الأنات أنغام المعازف والطبول
هبت عواصفهم تدك صروحه وله تقول
لن نوقف الغارات حتى عن مرابعنا تزول
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

***

■ ■ ■

■ جرائم أمريكا في هذا الزمان :

التحالف العنصري

بين أمريكا وإسرائيل

◆◆◆

يلخص الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في كتابه «الفرصة السانحة» – يلخص الموقف الأمريكي تجاه إسرائيل قائلا: «إنني أتذكر بوضوح اجتماعًا حدث في عام١٩٧٣ م مع المسئولين بخصوص حرب الشرق الأوسط، وكانت في بدايتها ولم تكن هذه البداية في صالح إسرائيل، وعندما سأل أحد أعضاء الكونجرس إذا كانت الولايات المتحدة ستتخذ أي إجراء في هذا الشأن؟ أجبته بلا مواربة »ليس هناك رئيس أمريكي يمكنه أن يسمح بتصفية إسرائيل«.. وأمرت عندئذ بعمل جسر جوي ليدفع عن إسرائيل الهزيمة.. وعلينا الآن أن نسأل أنفسنا سؤالا عن مدى أهمية إسرائيل بالنسبة لأمريكا لدرجة أنه ليس هناك رئيس أمريكي يمكنه أن يسمح بتصفية إسرائيل، ولدرجة أن يقوم الرئيس الأمريكي نيكسون في ذلك الوقت عام ١٩٧٣ م بعمل جسر جوي لنقل السلاح من المخازن الاستراتيجية للجيش الأمريكي لحماية إسرائيل.

هل أهمية إسرائيل هنا جيوبوليتيكية مثلا، أم أن هناك تحالفًا بين أمريكا وإسرائيل لأسباب أخرى ليست سياسية أو عسكرية في جوهرها وليست بسبب أهمية أو عدم أهمية إسرائيل بالنسبة لأمريكا، لنترك أيضًا الرئيس الأمريكي الأسبق يجيب عن السؤال، يقول نيكسون: «إن التزاماتنا تجاه إسرائيل عميقة جدًا، فنحن لسنا مجرد حلفاء، ولكننا مرتبطون ببعضنا بأكثر مما يعنيه الورق، نحن مرتبطون معهم ارتباطًا أخلاقيًا، إن إسرائيل ليست مكسبًا استراتيجيًا للولايات المتحدة، بخلاف الرأي السائد في هذا الشأن، إن تعاوننا في أجهزة المخابرات والمناورات والمسائل الحربية مهم، ولكنه ليس حيويًا، لقد أثبتت الجيوش الإسرائيلية حقًا كفاءتها في الحروب إلا أن تأثير إسرائيل محدود في المنطقة، ولكن التزامنا تجاهها ينبع من ميراث قديم، فلن يستطيع أي رئيس أمريكي أو كونجرس أن يسمح بتدمير

إسرائيل».

وإسرائيل هذه التي لا تمثل أي مكسب استراتيجي للولايات المتحدة، لا يستطيع الرئيس أو الكونجرس التخلي عنها، وهي التي اعترفت بها أمريكا بعد دقائق من قيامها! وهي التي أسهم الغرب عموما وأمريكا خصوصا في قيامها واستمرارها وتوسعها، وإسرائيل تحصل على ما تريد من السلاح ومن المواقف السياسية والفيتو وغيرها من أمريكا بدون تحفظ، وقد حصلت إسرائيل من أمريكا منذ ١٩٧٤ م حتى ١٩٨٩ م على حوالي ٤٩ مليار دولار كمعونة، وحصلت على ١٦,٤ بليون دولار على هيئة قروض من عام ١٩٧٤ م إلى عام ١٩٨٩ م ثم تحولت هذه القروض بعد ذلك إلى منح لا ترد، ناهيك عن المعونات غير الحكومية، أو ضمانات القروض الحكومية أو التي تقوم بها البنوك الأمريكية لصالح إسرائيل.

وأمريكا التي لا تطيق أن ترى مصنعا للكيماويات في العالم العربي حتى ولو كان ينتج مبيدات للحشرات هي ذاتها التي تشجع وتساعد وتتجاهل قيام إسرائيل بصناعة القنابل النووية جميع أسلحة الدمار الشامل.

لماذا كل هذا الدعم والحماس لإسرائيل، مع أنها على حد تعبير نيكسون ليست مكسبا استراتيجيا لأمريكا؟!

إن ذلك يرجع لسبب بسيط جدا ، وهو وجود تحالف عنصري بين اليهود والأمريكان والغرب موجه ضد المسلمين، أي تحالف صليبي يهودي ضد الإسلام، وذلك في إطار الصراع التاريخي بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة الغربية الصليبية، بل إن هناك تفسيرا صهيونيا للمسيحية ينتشر بصورة متزايدة يوما بعد يوم خاصة في أوساط البروتستانت، ويقول هذا التفسير: إن دعم إقامة إسرائيل وتحقيق إمبراطوريتها من النيل إلى الفرات هو واجب مسيحي؛ لأن هذا الوجود

والتوسع الإسرائيلي شرط لظهور المسيح في فلسطين وقيامه بقيادة الجيوش المسيحية في معركة ضد الكفار « المسلمين » وهي المعركة المذكورة في الإنجيل « المحرف طبعا » تحت اسم معركة «هرمجدون»..

أما على مستوى المسيحيين الكاثوليك، فإن الموالاة والتحالف مع اليهود يشق طريقه الآن على قدم وساق، فبابا الفاتيكان مثلا - وعلى خلاف كل التراث الكاثوليكي - أعلن تبرئة اليهود من دم المسيح!

وبابا الفاتيكان نفسه يعلن الآن أنه لا يمانع في الاعتراف بالقدس عاصمة موحدة لإسرائيل بشرط حرية زيارة الأماكن المقدسة، وحتى أسبانيا التي طردت اليهود مع المسلمين منذ ٥٠٠ عام اعتذرت رسميا عن ذلك لليهود، وطبعا لم تعتذر للمسلمين!!

على أية حال فإن التحالف المسيحي اليهودي أمر جديد ولم يحدث إلا في القرون الأخيرة، لأن التاريخ بين اليهود والمسيحيين تاريخ مفعم بالصدام، ولقد تعرض اليهود للعديد من المذابح والاضطهادات الدينية المسيحية في كل الدول المسيحية الأوروبية بدون استثناء، على أن هذا التحالف الجديد كان قد تنبأ به القرآن الكريم منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام وهذا نوع من الإعجاز القرآني:

يقول الله تعالى في كتابه الكريم وهو أصدق القائلين: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١).

ونظرا لأنه كان هناك عداء مستمر واضطهاد من المسيحيين لليهود على طول التاريخ فإن المفسرين القدماء كانوا يفسرون هذه الآية في إطار أن الكفر ملة واحدة،

(١) سورة المائدة: الآية (٥١).

أي تفسير إجمالي دون أن يجدوا أو يذكروا تفاصيل محددة لهذه الموالاة، أما الآن فقد تحققت هذه النبوءة القرآنية خاصة بعد دعم قيام إسرائيل من الغرب المسيحي واستمرار هذه الموالاة والدعم بين الطرفين في أكثر من مجال، وبذلك تحققت النبوءة القرآنية بصورة محددة تفصيلية، وهذا من إعجاز القرآن الكريم..

أما موقفنا الآن كمسلمين من هذه الموالاة بين اليهود والنصارى فيحددها الله تعالى لنا من خلال القرآن الكريم أيضا في هذه الآية وما بعدها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ ﴾ (1).. و ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (2).. و ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ (3).

أي هؤلاء الذين يقولون الآن : نحن لا نستطيع مواجهة أمريكا ولا إسرائيل ونخشى أن يدمرونا بأسلحتهم!.

■ ■ ■

(١) سورة المائدة : الآية (٥١)

(٢)سورة المائدة : الآية (٥١)

(٣) سورة المائدة: الآية (٥٢)

مستقبل الصراع
بعد عملية الاجتياح

◆◆◆

على وهج النار الذي اندلع في مدن ومخيمات الضفة الغربية بدءا من يوم ٢٩ مارس ٢٠٠٢ م الماضي وفوق أكوام الحطام الذي تناثر أو تراكم بسبب قصف الطائرات الأباتشي أو الـ F ١٦ للبيوت الآمنة والمساجد والكنائس أو المتخلفة من قبل الجرافات التي جرفت الكثير من الأكاذيب مع ما جرفته من أبنية على أصوات جنازير الدبابات الميركافا وطلقات المدافع والدبابات والانفجارات وعلى رائحة الجثث التي لم تسمح إسرائيل بدفنها وأنين الجرحى الذين منعت عنهم القوات الإسرائيلية العلاج أو الإسعاف.. على أضواء الشموع التي أنارت الغرف المظلمة بعد أن تم قطع الكهرباء والمياه عن المحاصرين من رجال السلطة أو جنود الأمن الوقائي أو الأسر العادية في رام الله وقلقيلية وجنين ونابلس وطولكرم وبيت لحم.. على الأحلام والآمال التي انعقدت على إرادة المجاهدين والصامدين في المخيمات والذين ضربوا نموذجا فذا في جنين ونابلس..

على وهج النار وفوق الخراب والدمار ورائحة الموت وعلى داء الأمل في الغد احترقت أكاذيب وظهرت حقائق ورغم كل الألم والمعاناة والآثار السلبية المباشرة على الفلسطينيين من هذا الاجتياح المجرم ، فإن المحصلة الاستراتيجية كانت لصالحنا إن شاء الله وهذا يتوقف بالطبع على التمسك بتفاؤل التاريخ والمستقبل رغم يأس المرحلة، التمسك بداء الأمل رغم اليأس، التمسك بخيار المقاومة رغم إغراء المفاوضات!

احتراق الأكاذيب وظهور الحقائق جلية كاشفة مكشوفة واضحة لا لبس فيها كالمحجة البيضاء ليلها كنهارها كان أحد المكاسب الاستراتيجية، ذلك أن احتراق الأكاذيب ومعرفة الحقائق هو أول الطريق إلى النصر ، فالأمة التي تعرف حقائق ما يدور لها وحولها تعرف الطريق الصحيح لمواجهة التحدي، وبدون هذه المعرفة

اللازمة بالضرورة لا تستطيع تحديد الأهداف أو الوسائل. على وهج النار وعلى أصوات المدافع وأزيز الطائرات والمدافع اكتشفنا إننا نواجه عدوانا أمريكيا يقوم به الجيش الإسرائيلي لحساب الولايات المتحدة الأمريكية ، فالعملية قد تم الاتفاق عليها شكلا ومضمونا بين الإدارة الأمريكية وحكومة السفاح شارون.. إنها المرحلة الثانية فيما تسميه أمريكا الحرب ضد الإرهاب والتي أعلنتها على العالم عموما والعالم الإسلامي خصوصا منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ م ، ولم تتوقف ولن تتوقف إلى وقت بعيد وهكذا فإن تصريحات الرئيس الأمريكي وكذا كل مسئولي حكومته المتكررة والمتنوعة تدور في حق إسرائيل في القضاء على الإرهاب وتحقيق أمنها بذبح كل من يحمل بذرة المقاومة، وأن على الرئيس عرفات أن يقوم بمزيد من الجهد للقضاء على جماعات الإرهاب وإلا فإنه متهم على حد تعبير الرئيس الأمريكي أو داعم للإرهاب وعدو إسرائيل والعالم الحر كله على حد تعبير شارون وبالتالي يستحق الحصار أو الإبعاد أو حتى القتل إذا كانت الظروف مواتية واقتضت الحاجة ذلك.. وفي الحقيقة فإن كل التحركات الأمريكية تؤكد هذا المعنى قبل الاجتياح وبعد الاجتياح على حد سواء فتفاهمات تينيت وتقرير ميتشيل وجولات زيني وتشيني ثم كولين باول بل وقرارات مجلس الأمن رقم ١٣٩٧ في ١٢ / ٣ / ٢٠٠٢ م والقرار ١٤٠٢ في ٣٠ / ٣ / ٢٠٠٢ م وكذا القرارات التي منعتها أمريكا باستخدام الفيتو والطلبات المعلنة من أمريكا للعرب كلها تدور حول انسحاب إسرائيلي غير محدد المعالم ... دولة فلسطينية على مساحة غير محددة حسب المزاج الإسرائيلي – الأمريكي طبعا – ولكن بصورة محددة وقاطعة العمل على تحقيق الأمن الإسرائيلي، القضاء على جماعات المقاومة «الإرهاب» ضرب البنية التحتية التي تسمح بظهور تلك المقاومة – إعلان العرب والفلسطينيين إدانة

العمليات الاستشهادية التي هي سلاحنا الرئيسي حتى الآن.. وهكذا فالمسألة أمريكية أصلا وإسرائيلية فرعا، وهذه الحقيقة أحرقت أكاذيب الاعتماد على الوساطة الأمريكية أو الأوروبية أو مناشدة الضمير الغربي والأمريكي أو سعي الحكومات الصديقة لأمريكا لدى بوش ليفعل شيئا! أو ممارسة الضغط على الرئيس عرفات من قبل الحكومات العربية لقبول المهمة القذرة « أي تصفية رجال المقاومة وبنيتها التحتية» وحتى عندما اضطرت أمريكا لأن تطلب من إسرائيل الانسحاب بدون تأخير أو فورا فإنها كانت تمارس نوعا من الخداع البسيط المفضوح؛ فإسرائيل تعرف أن الطلب الأمريكي غير جاد وأنه يمكن الالتفاف عليه أمام العالم بالخروج من بعض المدن التي انتهت مهمة الجيش الإسرائيلي فيها مثل قلقيلية وطولكرم أو بديهي أن القوت الإسرائيلية لن تبقى في المدن والمخيمات إلى الأبد لأنها تعرف أن ذلك مستحيل عسكريًّا وأمنيًّا ويكلفها خسائر لا طاقة لها بها.

اكتشفنا على وهج النار أن أمريكا هي العدو والذراع ، وإسرائيل هي القفاز وهي حقيقة قديمة معروفة ولكن البعض كان لا يزال يجادل فيها ولم يعد الآن قادرا على الجدال إذا امتلك الحد الأدنى من المنطق أو العقل.. فإسرائيل مفرزة غربية ثم أمريكية متقدمة، أو حاملة طائرات أمريكية ضخمة، أو جماعة وظيفية تقوم بمهمتها لصالح الاستعمار الأوروبي ثم الأمريكي! واكتشفنا أن المعركة في فلسطين هي معركة العالم الحر بالمعنى الصحيح لكلمة الحرية، عالم المستضعفين ضد الاستكبار، فإذا تم القضاء على المقاومة واستكان الشعب الفلسطيني كان معنى ذلك نجاح المرحلة الثانية من الخطة الأمريكية في الهيمنة على العالم، وعلينا انتظار المرحلة الثالثة في العراق أو في إيران أو سوريا أو حتى مصر وإن فشل الجيش الصهيوني في تحقيق أهدافه ، فإن ذلك يعني سقوط جزء من جدار الاستكبار، لأن استمرار المقاومة

والاستشهاد ضد الإسرائيليين يعني إمكانية تفكيك تلك الغدة السرطانية الاستعمارية المسماة إسرائيل وإثبات عدم جدوى الصهيونية بالنسبة لليهود فيتراجع التأييد لها بينهم ويعطي الشعوب الأمل في إمكانية هزيمة الاستكبار الدولي.. وهكذا فإن الشعب الفلسطيني يخوض المعركة دفاعا عن العرب كل العرب والمسلمين كل المسلمين والمستضعفين كل المستضعفين وهذا يفسر في جانب منه تلك الغضبات الجماهيرية في العالمين العربي والإسلامي بل في العالم كله، بل إن القوى المناهضة للعولمة أو أصحاب الضمير في أوروبا وأمريكا أنفسهم تظاهروا ضد الاجتياح لأنهم فهموا طبيعة المعركة.

ولعل هذا يفتح أمامنا تفسير وفهم حقيقة موضوع التأييد الحكومي الأوروبي أو السكوت أو الموقف الباهت «ماعدا بعض مقاطعات بلجيكا»، كذلك الموقف الحكومي العربي المتردد مع وجود هبات شعبية هنا وهناك.. فالمعركة لها طرفان طرف يمثل الرأسماليين والعسكر وخدمهم من الإعلام والفن والفكر، وطرف المستضعفين ومن يعبر عنهم في كل مكان. وإذا كنا نحكم على الظواهر في مجراها الرئيسي فإن التحالف الرأسمالي العسكري الأمريكي الأوروبي مع بعض ممثلي ووكلاء هؤلاء في كل أنحاء العالم هم الذين يسيطرون على القرار السياسي في بلدان كثيرة من العالم خاصة الدول الكبرى، وهكذا نفهم كون مجلس الأمن مجرد مغارة لصوص ليس إلا، ونفهم لماذا لا تتخذ الدول الأوروبية موقفا حازما ضد إسرائيل وتفهم تردد الحكومات العربية، ونفهم لماذا لم يتم استخدام سلاح البترول ولو بشكل رمزي اللهم إلا موقف العراق الذي أوقف النفط لمدة شهر وأيده في ذلك إيران وليبيا! والعجيب أن إحدى الدول العربية البترولية الكبرى قالت معتذرة أنها لن تقطع البترول لحاجتها للأموال لكي تساعد الفلسطينيين.

على ضوء سيطرة الرأسمالية والعسكر وحلفائهم من المفكرين والإعلاميين يمكننا أن نفهم لماذا يقف الإعلام الأوروبي والأمريكي « C.N.N - صحيفة نيويورك تايمز نموذجان» هذا الموقف المتجاهل للدم الفلسطيني والمتعاطف مع الدم الصهيوني المراق في العمليات الاستشهادية! إن الذين خرجوا في مظاهرات أو احتجوا على الممارسات الصهيونية من الأوروبيين والأمريكان كانوا من حركات مناهضة العولمة أو الخضر أو جماعات السلام الرافضة أصلا للهيمنة الأمريكية على العالم.

ومن الحقائق التي ظهرت على وهج النار أيضا زيف مقولة الديمقراطية الإسرائيلية أو الديمقراطية الغربية عموما.. وإذا كانت إقامة إسرائيل في حد ذاتها هي ضد فكرة الديمقراطية وتثبت زيف الديمقراطية الغربية التي دعمت قيام إسرائيل ، وكذا ممارسات ٥٤ سنة منذ ١٩٤٨ م وقبلها عشرات السنوات فإن ما حدث أمام وسمع العالم وعلى شاشات الفضائيات في كل أنحاء العالم من قتل ومذابح وتدمير بيوت وحصار وتجويع ورفض دفن الموتى أو إنقاذ الجرحى والاعتداء على الصحفيين والمصورين والاعتداء على حرمة دور العبادة «المساجد والكنائس» وغيرها يثبت زيف مقولة الديمقراطية الإسرائيلية بل وزيف الديمقراطية الغربية والأمريكية المزعومة ، فهي ديمقراطية عنصرية لا تنسحب على العرب والمسلمين، وعلى الذين يتحدثون عن القيم الأوروبية أو القيم الأمريكية أن يكفوا عن ذلك احتراما لعقولنا!

ومن الأكاذيب التي احترقت على وهج النار إمكانية قيام سلام مع الكيان الصهيوني، فالحكومة التي اتخذت قرار الاجتياح هي حكومة وحدة وطنية إسرائيلية تضم الليكود والعمل ، وبالتالي فإن بيريز الذي حصل على جائزة نوبل للسلام

والتي أعرب مانحوها عن رغبتهم في استردادها وندمهم على منحها له وكذا بن اليعازر وموفاز هم أهم أركان تلك الحكومة « الخارجية، والدفاع، ورئاسة الأركان » وبالتالي فإن حزب العمل شارك في المذبحة وكل قطاعات المجتمع الصهيوني أيدت العملية، واستطلاعات الرأي تؤكد ذلك ومنتقدو شارون ينتقدونه من منظور يميني وقلت شعبيته في اتجاه صعود اليمين وليس لأنه سفاح مثلا بل لأنه لم ينجح في ذبح المقاومة بما يكفي! ودعاة السلام الإسرائيليون رغم هامشيتهم الشديدة ورغم أنهم مؤمنون بالصهيونية ويرون مصلحتها في السلام لا يظهرون عادة طالما كان الجيش الإسرائيلي متفوقا أو يمارس مهامه العدوانية، أما إذا ظهر تفوق عربي أو انتظار للمقاومة فإنهم يظهرون في محاولة لتهدئة الأحوال! والحديث عن دولة فلسطينية أصبح عديم الجدوى بعد تفكيك البنية التحتية والمرافق على يد الجيش الإسرائيلي والمتاح أمريكيا وإسرائيليا هو مجرد كانتونات أو معازل بلا قيادة ولا قوات شرطة قوية وطبعا بلا جيش أو مؤسسات، بل الاجتياح الإسرائيلي الأخير أثبت عبث فكرة الدولة الفلسطينية ؛ لأنها دولة ستكون عرضة للاجتياح وقتل الناس وتدمير المرافق والأجهزة كلما أراد حكام إسرائيل ذلك فلا اتفاقات أوسلو منعت اجتياح ٢٩/ ٣ ولا حتى اعتقال مدبري حادث اغتيال زئيفي شيفي!

ومن الحقائق أن بإمكان قوة صغيرة تلوذ بالإرادة والإيمان وبسلاح بسيط أن تصمد بما يكفي وأن تحدث خسائر بالعدو، وهذه هي تجربة جنين ونابلس وحتى لو انكسرت المقاومة مؤقتا فإن ذلك لا يعني انكسارها ؛ لأن الجيش الإسرائيلي مثلا نجح في اجتياح لبنان عام ١٩٨٢ م ووصل قلب بيروت وأخرج المقاومة الفلسطينية منها وأقام حكومة يمينية عميلة في بيروت ودبر مذبحة صابرا وشاتيلا فأحدث خرابا شاملا ولكن من هذا الخراب ومن خلال الأنقاض أبدع اللبنانيون

مقاومة ظلت تتصاعد حتى انتصرت في النهاية ودمرت الجيش الإسرائيلي عام ٢٠٠٠ أي بعد ١٨ سنة من اجتياح لبنان على يد شارون ذاته، وهذا الأمر مرشح بالطبع للتكرار.. فمن خلال الخرائب ومن خلال المعاناة وذكريات الحصار والجوع والعطش والموت ستخرج وتتصاعد مقاومة أشد عنفا وقوة في نابلس وجنين وطولكرم وقلقيلية وبيت لحم ورام الله والخليل وغزة وسيكتشف الشعب العربي كيف يلتحم أكثر بالمقاومة ويدعمها الدعم الصحيح والمطلوب.. وسوف يتم دحر العدوان الصهيوني في النهاية اليوم أو غدا أو بعد غد لأنه شعب رفع شعار المقاومة ويردد مع شعرائه؛ توفيق زياد:

بأسناني بأسناني سأحمي كل شبر من ثرى وطني
ولن أرضى بديلا عنه لو علقت من شريان شرياني
هنا على صدور كم باقون كالجدار
وفي حلوقكم كقطعة الزجاج كالصبّار
وفي عيونكم زوبعة من نار

ومع سميح القاسم:

لن أساوم إلى آخر نبض في عروقي سأقاوم

ومع محمود درويش:

سنطردهم من إناء الزهور وحبل الغسيل
سنطردهم عن حجارة هذا الطريق الطويل
سنطردهم من هواء الخليل

وإذا كان البعض يخشى من الدم المراق بسبب المقاومة، فإن الدم الذي يراق بسبب المساومة أو الاتفاق يكون عادة أكثر، ولدينا تجربة صابرا وشاتيلا خير

نموذج بل كل المذابح جاءت عقب استسلام أو اتفاق!.. وفي كل الأحوال فإن قدر أمتنا أن تدفع الدم فهي على موعد مع رحلة الدم الذي سيهزم السيف كما يقول الشهيد الفذ فتحي الشقاقي: فأمتنا على موعد مع الدم، دم يلون الأرض، دم يلون التاريخ، دم يلون الأفق، دم يلون الدم.

والحديث عن المقاومة وعن خيار الاستشهاد كخيار استراتيجي يجب أن ندرك هنا أن حالة العجز العربي الحكومي وعدم قدرة الشعوب حتى الآن على الضغط على الحكومات لفعل شيء جدي لن يكون عائقا أمام مسيرة المقاومة وخيار الاستشهاد ؛ لأن حزب الله انتصر في ظروف مشابهة وربما أصعب، وآلة الحرب الإسرائيلية لن تقوى على الاستمرار في المدن والمخيمات، فهذا على المدى الطويل سيجعلها هدفا قريبا، أما العمليات الاستشهادية إذا خرجت فإن المقاومة ستعيد بناء نفسها خاصة في ظل احتراق الأكاذيب وصعود الحقائق، وفي ظل غياب أجهزة السلطة قد يكون ضارا في جانب منه، ولكنه مفيد في جانب آخر وفي ظل حالة غضب عارم بسبب ما حدث وثأر وطلب انتقام مشروع.. وفي كل الأحوال فإن العجز العربي لن يضر المقاومة كثيرا خاصة إذا لم يمارس دوره في تطويقها وهو غير قادر على ذلك حاليا لأنه لم يقدم ما يسمح بالقيام بهذا الدور، ووحده الرئيس ياسر عرفات الذي يستطيع ذلك ونرجو ألا يفعل وأن يظل رمزا لكل الشعب الفلسطيني خاصة أنه مهما فعل فلن تغفر له إسرائيل عمليات الجناح العسكري لفتح ولن تغفر له أمريكا أيضا ، وبالتالي فالخيار أمامه هو الاستمرار في الخندق : خندق الصمود والمواجهة، والحقيقة ، أن المقاومة ستنجح إذا ظلت بمعزل عن الحكومات العربية فهذه الحكومات - ولأسباب كثيرة - مارست ولا تزال دورا كبيرا في تهدئة المقاومة وتطويقها حدث ذلك إبان ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ حيث

ناشد الزعماء العرب الأهالي الهدوء وانتظار جهود الصديقة بريطانيا وعندما اجتاحت آلة الحرب العسكرية الإسرائيلية لبنان عام ١٩٨٢ م كانت الجهود الحكومية العربية وراء نجاح مهمة المبعوث الأمريكي فيليب حبيب الذي حقق اتفاقا يقضي بخروج المقاومة من بيروت إلى تونس ، وبالتالي أنقذ الجيش الإسرائيلي مؤقتا من الغرق في المستنقع اللبناني، وكذلك فإن تلك الحكومات حينما تدخلت بسبعة جيوش لسبع دول في ١٩٤٨ م تسببت في إقامة إسرائيل وخسران المعركة وبدء النكبة.

وفي عام ١٩٦٧ م تدخلت ثلاث دول ، فكانت النتيجة ضياع الضفة وغزة وسيناء والجولان، نحن هنا لا نقول ولا نطالب بعدم تدخل الدول العربية بل أن يكون تدخلها لدعم خيار المقاومة وتأجيجها وليس لإخضاعها للسلام كخيار استراتيجي مزعوم خاصة أن تلك المقاومة حين تكون قادرة على إنزال الهزائم بالكيان الصهيوني فإنها تذود عن الأمن القوي العربي خاصة لدول المواجهة، لأن فراغ إسرائيل من المقاومة سيطلق يدها للاعتداء على تلك الدول ؛ لأن لها أهدافا إقليمية معروفة تشكل خطرا ساحقا على مصالح وربما وجود تلك الدول ذاتها وعلى كل الدول العربية سواء كانت من دول الطرق أو من غيرها.

فعل المقاومة الجميل والنبيل ، وبركة الجهاد والاستشهاد أحدثت في الشارع العربي صحوة كان يفتقدها.. وصحيح أن تلك الجماهير التي خرجت بالملايين في المغرب والسودان واليمن وبمئات الألوف في مصر وليبيا ولبنان والأردن وسوريا والعراق بل في البحرين والكويت والسعودية كانت تدافع عن كرامتها ودينها وعروبتها التي مرغت إسرائيل بها الوحل حين ردت على مبادرة السلام العربية أو مبادرة الأمير فهد والتي تبنتها قمة بيروت العربية وقبل أن يجف مداد المبادرة وبعد

أقل من أربع وعشرين ساعة اجتاحت الدبابات الإسرائيلية مدن الضفة الغربية وحاصرت الرئيس عرفات وصفعت الحكومات العربية صفعا أليما، وصحيح أن تلك الصحوة هي أمر طبيعي لأن الموضوع الفلسطيني يمس وترا حساسا في الضمير العربي والإسلامي ، ولكن مجرد خروج المارد الشعبي من القمقم هو أمر عظيم يحسب للمقاومة الفلسطينية ؛ لأن هذا المارد الذي خرج سيكون لخروجه آثار إيجابية على كل مستوى سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وإقليميا ودوليا وليس على مستوى دعم الانتفاضة والمقاومة أو التضامن مع الشعب الفلسطيني، وهكذا فإن المقاومة هي التي قدمت الدعم لنا جميعا على كل مستوى.. حافظت على كرامتنا وردت الإهانة عن الحكام العرب – « وليتهم يعترفون بالجميل » – وعطلت عجلة العدوان الأمريكي، وأيقظت الشعوب من رقاد طويل.

■ ■ ■

■ جرائم أمريكا في هذا الزمان :

الإرهاب الإسلامي وأكاذيب الديمقراطية

عصر المغالطات الأمريكية الكبرى

◆◆◆

في مجلة « النيوزويك » الأمريكية – الطبعة العربية – عدد ٢٥ ديسمبر ٢٠٠١م، ثلاث مقالات طويلة تتحدث عن الرؤية الأمريكية للعالم ولمنطقتنا بالتحديد وللنظرة إلى العالم العربي والإسلامي، والمقالات الثلاث تصلح نموذجا لما يمكن أن نسميه عصر المغالطات الأمريكية الكبرى ، ومن المهم بالطبع أن نرصد مثل هذه المقالات التي تكشف طريقة التفكير الأمريكية التي تشتبك وسوف تشتبك معنا بالضرورة، لأننا أولا موضوع هذه المقالات، ولأنها ثانيا بقلم ثلاثة من أهم الكتاب الأمريكيين، الذين يرسمون أو يكشفون بالأحرى عن المخطط الأمريكي والاستراتيجية الأمريكية للعالم في عصر العولمة خاصة بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

المقالة الأولى بعنوان « العالم المعاصر هدفهم » بقلم فرانسو فوكوياما، والثانية بعنوان « عصر حروب المسلمين » بقلم صمويل هاتنجتون، والثالثة بعنوان « كيف يمكن إنقاذ الوطن العربي» بقلم فريد زكريا.

لأسماء كُتَّاب المقالات أهميتها، وكذا عناوين المقالات الثلاث فالاسم الأول «فرانسو فوكوياما» هو المفكر الأمريكي الذي دشن انتصار الرأسمالية على الشيوعية في جانبه الفكري، ونظرًا لما يسمى بنهاية التاريخ قاصدا أن انهيار الشيوعية وانتصار الرأسمالية يعني أن الليبرالية الديمقراطية الرأسمالية هي الحل والطريق الصحيح الوحيد أمام البشرية ، وعلى كل البشر أن يؤمنوا بهذا الدين – دين حرية التجارة والسوق والخصخصة والعولمة، وأن يعلنوا اعتناقهم له، وإلا فإن القطار سوف يفوتهم أو يدهمهم ويخرجون من التاريخ، فرانسو فوكوياما بالطبع لم يكن يحلل الظاهرة، ولم يصل إلى هذه النتيجة من خلال التحليل العلمي الرصين، ولا النظر في الصيرورة التاريخية ولا استخدام منهج علمي جديد أو قديم ليصل إلى هذه النتيجة من مقدمات حقيقية وموضوعية، ولكنه كان مجرد بوق لآلة الإعلام الغربية –

التابعة للقوى الحاكمة في أمريكا والغرب « تحالف العسكريين والرأسماليين » الذين خططوا للهيمنة على العالم، وإعادة صياغته بطريقة تسمح بنهبه وقمعه بطريقة سلسة وسهلة وبدون خسائر أو مجهود كبيرين.

وبديهي أن الرجل استخدام أسلوب القفز على الحقائق الموضوعية، وصاغ عددا من المغالطات الكبرى ليصل إلى هذه النتيجة، فانهيار الشيوعية لا يعني بالضرورة صلاحية الرأسمالية، بل قد يعني في جانب منه عدم صلاحية الرأسمالية ذاته لأنها مثل زميلتها خرجت من الأرضية الحضارية الفاسدة ذاتها - الحضارة الغربية - التي أفرزت أيضا النازية والفاشية والصهيونية، وهي حضارة القهر والعنف والنهب والاستعمار والاسترقاق وإبادة الشعوب، وقد عانى العالم ولا يزال معاناة شديدة من صعود تلك الحضارة منذ عدة قرون.

والاسم الثاني هو صمويل هاتنجتون الذي هو بدوره ، أيضا ، أحد أبواق القوى المسيطرة « تحالف الرأسمالية والعسكريين » ولا بد أن يكمل الرجل ما بدأه فوكوياما، فإذا كان فوكوياما يعتبر أن على الناس أن يدخلوا في دين الرأسمالية طوعا أو كرها، وليس أمامهم بديل، فإن هاتنجتون حدد القوى والأفكار التي يمكنها أن تقف عقبة أمام هذا الزحف العولمي والرأسمالي واعتبر الحضارة الإسلامية أخطر هذه العقبات، لأنها أولا حضارة تعبر عن قطاع كبير من البشر، وتؤثر على قطاع آخر من غير المسلمين، ويمكن أن تكون بديلا صالحا للرأسمالية والشيوعية معا، فحلم الإنسان في العدل لن يموت وسوف يبحث الإنسان عن نظرية تحقق له هذا، ولا بد لهذه النظرية أن تكون ذات خطاب عالمي غير عنصري وأن تكون في نصها النظري والتطبيقي منحازة إلى المستضعفين والفقراء، وهكذا فإن الإسلام كدين وكأيديولوجية للفقراء يمكن أن يكون هو هذا البديل، وهكذا فلا بد من إعادة

بعث فكرة قديمة هي فكرة صدام الحضارات، وبديهي أن الحضارات تتصادم وتتحاور حسب الظروف طبعا، ولكن اختيار صدام الحضارات عنوانا لعصر العولمة كان يعني بالضبط ضرورة القضاء بالقوة على كل المراكز الثقافية والحضارية والبشرية التي يمكن أن تعارض زحف العولمة وتوحش الرأسمالي، إنها فكرة عسكرة العولمة، وبالطبع فإن السيد فوكوياما بعد أن حدد المراكز الحضارية المختلفة في العالم اختار الحضارة الإسلامية لتكون هي العدو الجديد للغرب الذي ينبغي تحطيمه عسكريا ومنعها من إقامة تحالف مع الحضارة الكونفوشيسية «الصين» لمواجهة عصر العولمة والأمركة والهيمنة وهذا هو ما حدث بالضبط في آسيا الوسطى والحملة على أفغانستان مثلا التي استهدفت أساسا منع التحالف الإسلامي الصيني والتواجد في مركز الثقل السكاني الإسلامي في العالم ، بالإضافة إلى الوجود في الخليج والضرب المستمر للعراق وممارسات إسرائيل ضد الدول العربية ، وكلها تصب في خانة واحدة، خانة محاولة تحطيم القوى الحضارية الإسلامية عسكريا وبالقوة وبلا هوادة، وبديهي أن صمويل هاتنجتون لم يكن يقرأ الغيب ولا يملك أدوات المفكر القادر على استقراء المستقبل بقدر ما كان يروج لمخطط أعد سلفا في أروقة الأجهزة الأمريكية الحاكمة.

الاسم الثالث هو فريد زكريا وهو يكمل ما بدأه زميلاه ولكنه يختار المنطقة العربية تحديدا ويفكر لنا أو بالأحرى عنا ويحدد ما هو الواجب علينا عمله لكي نصبح أتباعا مخلصين للدين الجديد؛ فهو يرسم الصورة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي ينبغي أن نتطور إليها وقد يصيب الرجل جزئيا وقد ينصح بأشياء مطلوبة ، ولكن الإطار المنهجي هو الأخطر، والمرجعية يجب أن تكون مرجعية الحرية والنزاهة وهي غربية وليست إسلامية أو عربية مثلا، إن علينا أن نعتنق القيم

الغربية جملة وتفصيلا وأن نصبح جزءا من المجهود العالمي برغم أننا أول الضحايا لهذا المجهود المزعوم – إسرائيل مثلا – والرجل هنا أيضا مجرد مروج لمخططات السادة المسيطرين« تحالف الرأسماليين والعسكر» وبصرف النظر عن صحة أو عدم صحة ما قاله الرجل في حق أنظمة الحكم العربية فإن الهدف ليس إنقاذنا بالضرورة بل إخضاعنا بطريقة منهجية وتحقيق الاستقرار لإسرائيل والقضاء على إمكانية المقاومة مستقبليا.

وإذا حاولنا تأمل المقالات الثلاث بالتفصيل لوجدنا أن هذه المقالات تحمل عددا هائلا من المغالطات المنهجية والمعلوماتية والتحليلية كذلك، وهي تعبر عن طريقة التفكير الأمريكية وتكشف جانبا مهما من المخطط الذي بدأ الترويج له بقوة، فالمقال الأول « العالم المعاصر هدفهم » لفرانسو فوكوياما يكشف العنوان مباشرة عما يريده هؤلاء المروجون للسياسة الأمريكية، هنا محاولة تبرير العدوان المتوقع هنا وهناك، فالإرهاب الإسلامي أو الأصولية الإسلامية هدفها تدمير العالم المعاصر ومنجزات الحضارة والقيم الصحيحة لأن هؤلاء مجرد أشرار يحقدون على المتقدمين ولا يحملون أية رؤية أو برنامج وليسوا محتجين على السياسات الأمريكية أو الإسرائيلية مثلا، إنهم فقط أشرار حاقدون يجب تدميرهم لإنقاذ أهل الخير منهم ، وهذا المفهوم طبعا صار هو الرؤية الرسمية المعتمدة للإدارة الأمريكية، وصار جزءا لا يتجزأ من كلام كتاب وصحفيين وسياسيين بعد ١١ سبتمبر بالتحديد وهذا بالطبع هو العنوان الرئيسي لعصر المغالطات الأمريكية الكبرى التي تتميز بالصفاقة وعمى الألوان، أو حتى العمى الكامل عن الحقائق الموضوعية وهي نوع فريد من تجزئة الحقائق وعدم ربط المقدمات بالنتائج، وهكذا لا بد من القفز على حقيقة وجود ممارسات وأفعال أمريكية وإسرائيلية ربما تكون هي السبب فيما حدث!!

يستمر فوكوياما في مغالطاته، فالأشرار الذين يحقدون على أمريكا، يحقدون أيضا على العالم، إنهم لا يريدون أن تستمر مسيرة الديمقراطية التي كانت قد بدأت تنتشر في كل مكان بالعالم قبل ١١ سبتمبر، ولا يريدون أن تستمر مسيرة العولمة التي قربت البشر من بعضهم البعض، ورفعت الحواجز والقيود وحققت النمو.. والمغالطات هنا بالجملة؛ فالديمقراطية المزعومة ليس لها عيون لترى ممارسات إسرائيل وانتهاكها اليومي وعلى مدار الساعة لكل أنواع حقوق الإنسان وكل أنواع الديمقراطية، بل إن إسرائيل نموذج في العنصرية والقمع لم يحدث من قبل، تباركه الدول الديمقراطية الكبرى!! وتدعمه بالمال والسلاح، والعولمة والرخاء المزعوم قبل وبعد ١١ سبتمبر لم يحدث، بل الذي حدث أن العولمة أطاحت بالفقراء وحولتهم من فقراء إلى معدمين، فقد أصبح مئات الملايين لا يعانون فقط من ضعف مستوى الأجور، بل من ضياع فرصة العمل ذاتها، وتحول التقارب المزعوم بين البشر إلى حلبة مصارعة حرة بين قزم وعملاق!!

الغريب .. أن السيد فوكوياما يقول: إن ذلك قد انتهى الآن وضاعت الفرصة، وقد قررت أمريكا أن تطردنا من الجنة، ولا ينسى فوكوياما أن يؤكد أن ضرب أي أحد وكل أحد ممكن إذا كان إرهابيا، أو دعم إرهابيا أو مر عليه ذات يوم إرهابي أو حلم في يوم من الأيام بمقاومة أمريكا وإسرائيل!!

يستمر فوكوياما في مغالطاته، فالحرب التي تشنها الولايات المتحدة الأمريكية ليست نوعا من تطور طبيعي للعولمة باتجاه العسكرة، حتى تعمل مصانع السلاح التابعة لكبار الرأسماليين، وهذه العسكرة ليست تطورا طبيعيا للرأسمالية الباحثة عن تصريف منتجاتها والتي تلتهم المزيد من الضحايا بنشر الأوبئة والفوضى والحروب في العالم لبيع الأدوية والسلاح والمخدرات، والتي انفصلت حتى عن

أصلها النظري والفلسفي وصارت آلية خاصة مستقلة لا يمكن حتى للقائمين عليها السيطرة على مسارها «عصر ما بعد الحداثة!!» بل هذه الحروب في رأي فوكوياما هي دفاع الخير ضد الشر، هذا الشر الذي يستهدف القيم والنموذج الأمريكي، وهذه القيم الأمريكية هي في رأي فوكوياما قيم عالمية تمثل تطلعات عالمية، وهكذا فإن الذين ضربوا أمريكا، كانوا يريدون القضاء على رخاء وتقدم العالم.

ويعكس فوكوياما جهلا مركبا بالإسلام – أو قل يغالط أيضا رغم معرفته – فالإسلام، كدين لديه مشاكل فلسفية مع الحداثة !! والصحيح أن الإسلام كدين بالفعل لديه مشاكل مع الظلم والهيمنة والقهر وإذلال الإنسان وإفساد البيئة وهيمنة ٢٠٪ من العالم على ٩٠٪ من خيراته، بينما يعيش الباقي على الفتات لديه مشاكل مع ازدواج المعايير وإبادة الشعوب وإنشاء إسرائيل!!

ليست المشكلة مع التطور، بل هذا التطور تحديدا يحض عليه الإسلام حضا ويعتبره سنة كونية.

ويتعامل فوكوياما مع الحركات الإسلامية بجهل أيضا، فهو يحللها من منظور الأصولية المسيحية، وهي حركات رجعية تكره أمريكا، لأنها متقدمة، وتتمتع بالحرية أو لأنها علمانية أو بها انحلال جنسي أو أنها تكرس التسامح الديني والتعددية ولا تخدم الحقيقة الدينية، وهذا كلام قد يصح بالنسبة إلى اليمين الأمريكي مثلا ولا يصح بالنسبة للحركات الإسلامية خاصة ما كان منها على غرار حزب الله وحماس والجهاد الفلسطيني، فهذه حركات مقاومة وهي مع غيرها من الحركات الإسلامية أيا كان الرأي فيها – حركات احتجاج، احتجاج على الاستبداد وصوت الجنوب ضد الشمال، ولا يمكن فهمها بمنظور علم الاجتماع الغربي أو

الكنسي ، وهي أيضا في قطاع كبير منها تريد التعددية وتعكس التسامح الديني وليس العكس بل هي غير عنصرية تماما.

أما موضوع الحقيقة الدينية ، فهو موضوع يدل على جهل فوكوياما بالإسلام وبالحركات الإسلامية تماما، بل هو تعبير كنسي أصلا، فالإسلام والإسلاميون والحركات الإسلامية لا علاقة لهم بموضوع الحقيقة الدينية، بل هم يرفعون شعار ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ و« لا إكراه في الكفر» بمعنى أن العالم المعاصر الذي تهيمن عليه أمريكا يدافع بالفعل عن حقيقة دينية هي فرض دين حرية السوق والعولمة على العالم!! وهذا مرفوض بالنسبة للحركات الإسلامية.

المقال الثاني « زمن حروب المسلمين» للكاتب الأمريكي صمويل هاتنجتون يحمل بدوره نفس المغالطات - بل يحمل العنوان أيضا مغالطة، فالحديث عن زمن حروب المسلمين يوحي بأن هناك علاقة ضرورية بين المسلمين والعنف والحرب، وكأن العنف اختراع إسلامي مثلا، وبديهي أن كل الحضارات والشعوب والجماعات أفرزت عنفا، ولكن عنف المسلمين وحروبهم لا يمثل إلا جزءا يسيرا جدا من حروب وعنف الغرب « إبادة شعوب في أمريكا واستراليا – إقامة إسرائيل – الحروب الدينية – حربين عالميتين » بل إن تلك الحروب التي كان المسلمون طرفا فيها كانت بتشجيع من الغرب أو بمؤامرة منه، والحروب التي يتحدث أو يستدل بها هاتنجتون على أنها حروب المسلمين ينطبق عليها هذا بالتحديد.

وبداية ، فإن العنف والقتال والحروب في حد ذاتها ليست شيئا مذموما، فالكفاح والدفاع والنضال ورد العدوان ومنع الظلم وانتزاع الحقوق المشروعة عمل نبيل محمود.

يستدل هاتنجتون على عنف الإسلام والمسلمين برصد الحروب الأخيرة بينهم

وأن خمسا من الدول السبع المدرجة على القائمة الأمريكية للدول التي ترعى الإرهاب من الدول الإسلامية، وكذلك فإن معظم الجماعات المدرجة على القائمة ذاتها جماعات إسلامية، وأن ١١ من أصل ١٦ عملا إرهابيا بين عامي ١٩٨٣ م - ٢٠٠٠ م كان من المسلمين، وأن القوات الأمريكية خاضت ١٧ عملية عسكرية ضد مسلمين منذ عام ١٩٨٠ م - ١٩٩٥ م وأن ٣٢ نزاعا مسلحا كان ٢١ منها بين مسلمين أو كان المسلمون طرفا فيها، وهذا يعني من وجهة نظر صمويل هاتنجتون أن هناك خللا في الإسلام أو مفاهيم المسلمين عنه ، وأنه لا بد من تهذيب المفاهيم الإسلامية وإعادة السيطرة على العالم الإسلامي عسكريا وثقافيا ؛ وإلا فإن حربا عالمية بين المسلمين وأمريكا يمكن أن تقع، وهكذا فإن الرجل الذي روج لمقولة صدام الحضارات ، ومهد بالتالي للحرب الأمريكية ضد الدول الإسلامية - حرب أفغانستان مثلا - هو نفسه يمهد للحرب الأمريكية المتوقعة.. على كل حال فإن حديث هاتنجتون - واستدلالاته الرقمية من عنف المسلمين ربما تكشف في جانب منها عن حيوية الإسلام باعتباره دين المقاومة والجهاد والقادر على تحريك الجماعات ضد النفوذ الأمريكي والعنف الأمريكي، وهذه نقطة إيجابية وليست سلبية.

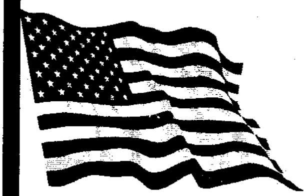
المقال الثالث بعنوان « كيف يتم إنقاذ الوطن العربي» للكتاب الأمريكي أيضا فريد زكريا، وهو مثل زميليه يمارس المغالطة، ولكنه هذه المرة في أسلوب ذكي، فالعنوان يتحدث عن الإنقاذ ويستخدم مصطلح الوطن العربي وهو مصطلح أثير لدينا نحن العرب، وهكذا فالرجل يبرز نوعا من التعاطف في العنوان والاسم قد يبدو من أصل عربي « فريد زكريا» وربما كان يهوديا، وهو يبدأ المغالطة بالحديث عن الإنقاذ، والصحيح أن يكون إنقاذ الوطن العربي من ممارسات أمريكا وإسرائيل، أمريكا التي تحتل أجزاء من الوطن العربي بقواتها وتضرب العراق وتحاصره

وإسرائيل صنيعة أمريكا التي ضربت الدول والشعوب العربية وحالت دون تحقيق وحدة هذا الوطن العربي، وحالت دون تقدمه وتطوره الاقتصادي والاجتماعي بفرض الحروب وتكاليفها على بلدان هذا الوطن!!

الوصفة الأمريكية هذه المرة على طريقة وصف الذئب العلاج للحملان، أو ادعاء الثعلب صفة الطبيب المداوي، والروشتة تحمل قدرا منهجيا عاليا من المغالطة وهي تتحدث عن استبداد وفساد، وهذا صحيح، ولكن من كان وراء هذا أصلا؟!

المهم، أنه في إطار دغدغة مشاعر المواطن العربي بالحديث عن الإصلاح السياسي والاقتصادي، فالمطلوب .. هو تحقيق هذا الإصلاح ليس بالوحدة مثلا، ولا بدعم المقاومة ضد إسرائيل، ولكن بتبني القيم الأمريكية والغربية، أي مسخ الهوية وتغيير برامج التعليم، والتخلي عن مشروع المقاومة ضد إسرائيل والقبول بالوجود الإسرائيلي والأمريكي في المنطقة بل وطلبه والتعايش معه، والتغاضي عن ممارسات إسرائيل، والتركيز على تطوير المجتمعات داخليا، وهذا مستحيل مع وجود إسرائيل طبعا، وهكذا، فالوصفة: هي أمركة وأسرلة المنطقة وليس شيئا آخر، وهكذا فنحن أمام مغالطات أمريكية من كل صنف ونوع، إنه عصر المغالطات الأمريكية الكبرى.

■ ■ ■



٣

جرائم التعذيب في العراق

انحطاط حضارة ....
والمقاومة هي الحل

الجريمة النكراء

يعجز القلم على نقل الإحساس الداخلي لأي عربي أو مسلم أو حتى أي إنسان محترم تجاه ما قامت به سلطات الاحتلال الأمريكي ـ البريطاني تجاه شعب العراق، بل قل تبكي المآذن والقباب والمحاريب على ما حدث ويحدث، وإذا كان تراثنا الإسلامي العظيم يقول: إن حرمة الإنسان أعز على الله من الكعبة؛ فإن هذا يوضح إلى أي مدى كان عمق المهانة والذل الذي شعرنا به جميعاً تجاه ما حدث للعراقيين. في معسكرات الاعتقال. فالصور التي نشرتها صحيفة (الديلي يدور) البريطانية والتي تم نقلها علي نطاق واسع في صفحات الإنترنت وفي قنوات التليفزيون الفضائية تعبر في حقيقتها عن حقيقة التوحش الأمريكي والغربي، ومدى المهانة والضعف اللذين نعاني منهما، ويجب هنا أن نلفت النظر إلى أن تلك الممارسات كانت معروفة قبل أن تنشرها صحيفة الديلي يدور ، وقد سجلتها اعترافات بعض الأسرى المفرج عنهم، أو ما سجلته تقارير لجان حقوق الإنسان، ولكن السؤال هو: لماذا نشرت تلك الصحيفة المذكورة هذه الصور؟ أو لماذا سمح لها بذلك؟ هل هو بقايا الضمير الغربي؟. ربما، لكن الأكثر أهمية هو أن الدوائر الاستخبارية أرادت أن تدرس رد الفعل العربي والإسلامي والعالمي على جريمة بمثل هذه الخسة والوحشية، فإذا كان رد الفعل ضعيفاً أو محتملاً بالنسبة لها – وهو ما حدث – فإن ذلك يجعلها تجهز للمرحلة الثانية أو التالية للعدوان ... فهل يكون ذلك باتجاه هدم الأقصى، أو الكعبة أو شيء قريب من هذا؟! – محتمل جدا.

الجرائم المنشورة ناهيك طبعاً عن غير المنشورة ، وهي بالتأكيد أكبر وأسوأ، تدور حول تبول جندي أمريكي على أحد الأسرى العراقيين المقيدين في الأغلال، وهو ما

يبين أن الأمريكيين ينظرون لنا على أننا دون البشر، بل دون الحيوانات أصلاً، وهي النظرة التي تبرر لهم ما يفعلونه أو ما سوف يفعلونه بنا، وتمهد لعمليات الإبادة والاستركان المتوقعة لنا.

وكذا تعذيب الأسرى بوضع سجائر مشتعلة في أجزاء حساسة من أجسادهم، أو تعذيبهم بالكهرباء في أماكن حساسة من أجسامهم أيضاً، أو إجبارهم على ممارسة الشذوذ الجنسي، أو تمتع المجندين والمجندات الأمريكان بحركات شاذة يمارسونها مع الأسرى، أو يتفرجون على ممارستها، والجدير بالذكر هنا: أن الجنود البريطانيين فعلوا الشيء نفسه، وهو ما يؤكد أن الانحطاط الأخلاقي ليس مقصورًا على الأمريكيين فقط، بل هو سلوك وسمة غربية. وكذا النظرة الرديئة لنا كبشر هي تعبير عن نمط حضاري غربي كامل وليس أمريكيا فقط، وفي النهاية .. فإن أمريكا هي آخر صور الانحطاط الحضاري الغربي، وهو ما يعني أننا أمام تحدٍ غير مسبوق، فإن المقاومة حتى ولو كانت نتيجتها الموت، فإنه أيضا الموت مع العار، ولا ننسى في هذا الصدد حالات الاغتصاب التي تعرضت لها العراقيات وهو ما تم نشره قبل ذلك وشكك فيه البعض، ولعل ما يحدث في العراق وقبلها في فلسطين يؤكد حقيقة انحطاط الغرب بكل مدارسه وجنوده، وليس الجيش الأمريكي فقط، بل حزب العمال« البريطاني» وقبله الليكود والعمل في إسرائيل وهلم جرا.

لا يمكننا بالطبع أن نفهم الحديث المنافق عن أن ذلك سلوك فردي لمجموعة من الجنود، فإحداهن كانت برتبة جنرال أمريكي، أي أن السلوك يعبر عن خلفية فكرية وثقافية معينة تطول القاعدة العريضة.

هناك شذوذ على القاعدة واستنفارات طبعاً تمثل الضمير أو بقايا الضمير الغربي. ولكننا عادة نستنتج النتائج والدلالات من القاعدة الأوسع، والمحصلة المجرى

الرئيسي للقاعدة، وطوال فترات الاستعمار الغربي لبلادنا حدثت انتهاكات بشعة مارستها حكومات جمهورية وملكية، يمينية ويسارية ... إلخ ... ويجب عدم قطع الصلة الإحصائية والدلالية بين ما حدث في العراق، وما كان يحدث في البلاد المستعمرة من الجزائر إلى مصر إلى ليبيا إلى فلسطين إلى سوريا ...إلخ.

ومما يدعو إلى الاستفزاز أن أحد عملاء الاحتلال الأمريكي في العراق قال تعليقاً على ما حدث في معسكرات الاعتقال على يد القوات الأمريكية والبريطانية: إن ذلك كان يحدث أيضاً في سجون صدام حسين، وهب ذلك صحيحاً، فهل الخطأ يبرر الخطأ، وإذا كان صدام حسين قد تعرض للمحاكمة ونال جزاءه - حسب وجهة نظرهم - فهل نتوقع محاكمة كل من جورج بوش وتوني بلير ورونالد رامسفيلد بتهمة مجرمي الحرب، أشك بالطبع، وحتى لو تم إعدام هؤلاء فإن ذلك لن يغسل الذل والعار الذي لحق بنا، والذي لا حل له سوى المقاومة والتحرير ومواجهة التحدي الغربي بكامله، فإما أن نموت واقفين وإما النصر، وليس العار والانكسار والذل بحثاً عن حياة مشكوك في الحصول عليها أصلاً!!.

وبمناسبة الحديث عن أن ذلك كان يحدث في سجون صدام فإن المقاومة تكمن في أن الدوائر الأمريكية والبريطانية ومن على شاكلتهم من عرب أمريكا، كانوا قد برروا العدوان على العراق بأسلحة الدمار الشامل العراقية، وثبت أن هذه أكبر كذبة أمريكية وبريطانية معاصرة، فلما سقطت تلك الكذبة، قالوا إننا جئنا لإنقاذ العراقيين من التعذيب والقهر والديكتاتوري، فإذا هم أنفسهم يمارسون أبشع أنواع التعذيب والقهر والديكتاتورية، بل وأكثرها نذالة وانحطاطا، فماذا بقي لهم لكي يتذرعوا به؟ أليس هذا كافياً للذين تورطوا في التعاون مع الأمريكان خاصة في مجلس الحكم أن يراجعوا أنفسهم، ما معنى استمرار حزب الدعوة والمجلس الأعلى

للثورة الإسلامية في العراق والإخوان المسلمين بل وكل القوى السياسية المشاركة في الحكم؟ ثم ما معنى مراهنة آية الله السيستاني، وقطاع كبير معه على مسألة الانتخابات تحت أسنة الاحتلال الأمريكي؟! أليس هذا نوعا من الانسحاق والاستذلال بلا حدود، لماذا لا يصطف الجميع في خندق المقاومة العراقية الباسلة ... لو كان هناك نخوة أو دين أو عروبة أو وطنية فلا طريق إلا المقاومة، والمقاومة فقط.

***

حديث البعض هناك، فيه قدر من المراوغة، فالحقيقة أن كل تاريخ أمريكا، والمجرى الرئيسي في تاريخ الحضارة الغربية يقود إلى تلك الجرائم ويؤدي إليها، فهي حضارة عنصرية قامت ولا تزال على إبادة الآخر وقهره وتعذيبه ونهبه، والمسلمون حالياً هو هذا الآخر المستهدف، ولعل ما حدث ويحدث في العراق وقد أصبح معروفاً ـ بفضل الصور المتسربة ـ يؤكد على أن هناك أشياء أسوأ وأكثر حدثت في أفغانستان، وحدثت وتحدث في معسكر جوانتانامو ، ولكن الحصار الأمني والمعلوماتي حول ما يحدث هناك مازال لم يخترق، بل إن العجيب أن أمريكا استقدمت أحد خبراء التعذيب في معسكر جوانتانامو للاستفادة بخبرته في العراق، ولكن من لهؤلاء المساكين في جوانتانامو، ودمائهم وأعراضهم وما لحق بهم من تنكيل وتعذيب؟... في رقبة الحكومات العربية والإسلامية وفي رقبة العالم المتمدن!!.

■ ■ ■

أنواع أخرى
من التعذيب الأمريكي في العراق

استمرارا لمسلسل العار والفضائح الأمريكية في العراق المتعلقة بانتهاك حقوق الإنسان وقتل المدنيين، وانهيار الكذبة الكبرى التي روجت لها أمريكا حول تحرير العراقيين وتخليصهم من الاستبداد، فإن الصحافة العالمية نشرت المزيد من أنواع التعذيب وأشكاله، فالتعذيب إذن لم يقتصر على الإهانة الجنسية للمعتقلين، وجرهم بسلاسل كالكلاب أو ضربهم وحرمانهم من النوم، أو تعذيبهم بالكهرباء أو غيرها من الأساليب التي تم فضحها، بل كذلك تم الكشف عن إدخال الكلاب الأمريكية المدربة على السجناء وهم عراة والتهام أعضاء المعتقلين التناسلية مما أدي إلى وفاة ٣٠٠ سجين، وصحيفة« الواشنطن بوست» نشرت مؤخراً ملفا حول حيازتها لمئات من الصور والأفلام القصيرة والشهادات المكتوبة - الجديدة - التي توثق عمليات إهانة وإذلال المعتقلين العراقيين في سجن أبو غريب وغيره من السجون، وكذلك حصول الصحيفة على ٥٦ صفحة من الشهادات التي أدلى بها ١٣ معتقلاً أمام لجان التحقيق التي شكلها الجيش الأمريكي منذ تفجر الفضيحة.

قالت الصحيفة: إن الأنواع والأساليب الجديدة للتعذيب التي مارسها الأمريكيون في العراق كان منها: إجبار المعتقلين على أكل لحم الخنزير، وتناول المشروبات الكحولية« الخمور» في شهر رمضان بما يتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي وذلك لإذلالهم، ومنها تعذيب المعتقلين لإجبارهم على سب الدين الإسلامي، وأن أحد الجنود سأل أحد العراقيين المعتقلين إن كان يؤمن بشيء؟

فأجابه بأنه يؤمن بالله، فرد عليه الجندي« لكنني أؤمن بالتعذيب وسأعذبك»

وقام بضربه على رجله المكسورة وطلب منه أن يسب دينه الإسلامي، وأن الجندي ظل يضرب المعتقل على ساقه المكسورة نفسها؛ وطلب منه أن يسب دينه الإسلامي، ويشكر المسيح لأنه حيّ، وأن المعتقل العراقي اضطر إلى فعل ذلك تحت وطأة الألم الشديد. ومن الأساليب الجديدة أيضاً ـ وفقاً لما جاء بالصحيفة ذاتها ـ: إجبار المعتقلين على وضع موزة في مؤخرتهم، وتناول الطعام من المراحيض! وبديهي أن تلك الوسائل التي كشفت عنها الصحيفة مؤخراً، ومن قبلها الوسائل التي تم فضحها قبل ذلك ليست بهدف الحصول على معلومات ـ وهذا غير مبرر أيضاً – ولكنها وسيلة لإهانة الدين وإذلال أفراده، وتكشف بوضوح الانحطاط الحضاري الأمريكي، والتعصب الصليبي، ونظرتهم لنا على أننا لا نرقى إلى مستوى البشر بأي حال من الأحوال!!

■ ■ ■

مشروع المقاومة

مع كثرة الحديث عن مشروعات الإصلاح، وكثرة الأطروحات التي تناقش حالة التخلف والانحطاط العربي والإسلامي، فإن من الضروري علمياً وموضوعياً وشرعياً تحديد نقطة الانطلاق الصحيحة، ومن ثم البرنامج الملائم للإقلاع من تلك الحالة التي تعاني منها أمتنا.

إذا كان من الضروري - بداية - وضع تصور صحيح للإقلاع والإصلاح؛ فلا بد أن نحدد طبيعة الجماعة البشرية التي نحن بصدد تحديد أمراضها، ومن ثم وضع الوصفة الصحيحة لعلاجها، وكذا طبيعة التحدي والأمراض التي تواجهها تلك الجماعة البشرية، أي الانطلاق من نقطة مبدئية وهي: أننا لا نتعامل مع جماعة بشرية مصمتة، ليس لها سمات ولا خصائص، وأيضا لا نتعامل مع مجموعة أحجار أو أشياء مادية تخضع فقط لقانون وسنن الفيزياء والكيمياء ... إلخ.

ونظرا لكل ما تقدم ، فعلينا في البداية تحديد من هذه الجماعة البشرية التي نحن بصددها؟ وبدون الدخول في تفصيلات كثيرة، فنحن أمام جماعة بشرية – العالم العربي والإسلامي – لها تاريخ وحضارة وثقافة عميقة جداً. وبصرف النظر عن إيجابية أو سلبية تلك السمات الثقافية والحضارية لتلك الجماعة – فإن هذه الجماعة تتأثر بالضرورة بتلك السمات الثقافية والحضارية، ومن ثم فإن تجاهلها يؤدي مباشرة إلى الفشل، بل تكريس الحالة التي نريد علاجها، هذه الأمة إذن أمة إسلامية شئنا أم أبينا ، وبالتالي ، فإن المكون الرئيسي والأساسي لوجدان وثقافة هذه الأمة: هو الإسلام كدين وحضارة وثقافة بالنسبة للمسلمين«الأغلبية الساحقة» وكثقافة وحضارة بالنسبة لغير المسلمين داخل تلك الأمة، وهكذا فإن شرط النجاح الأول

لأي مشروع هو إسلاميته، ونحن في الحقيقة أمام أمة هي الأعمق ثقافياً وحضارياً – بلا استثناء – بالنسبة لكل الجماعات البشرية« ١٤ قرناً على الأقل، واتساع جغرافي وامتداد زماني ومكاني، وتأثير واضح للإسلام لا تخطئه عين أي مراقب» وهكذا فإن وهم تغييب الإسلام والحضارة والثقافة الإسلامية ـ بوعي أو بدون وعي، كرها أو رغبة ـ هو قفزة فاشلة في المجهول والفراغ، ولن تحدث مطلقاً مهما فعلنا أو فعل غيرنا، إنها محاولة محكوم عليها بالفشل، ونتيجتها الحتمية ضياع الوقت والجهد، ومسخ ذلك الكيان جزئياً؛ ومن ثم تعطيله عن التصدي الصحيح والكفء لتحديد الأمراض، وهذا ـ بالتحديد ـ هو السبب الأساسي لفشل كل مشروعات النهضة على الأساس غير الإسلامي« العلماني الليبرالي، العلماني القومي، العلماني الاشتراكي بكل درجاته» والنتيجة هي ما نشاهده الآن من نتائج لتلك المحاولات التي استقطعت من عمرنا وجهدنا الكثير بلا طائل، بل نتيجة عكس المطلوب تماماً. الإسلامية إذن هي الشرط الأَوَّلِيّ لأي مشروع للإصلاح، ولكن العنوان لا يكفي فلا بد من تحديد ما تحت العنوان وما بعد العنوان، إذا قلنا إن هذه الأمة غير قابلة للذوبان الحضاري؛ لأنها الأعمق حضارياً وثقافياً، فإن هذا يقود إلى الإيمان باستحالة هزيمتها هزيمة عسكرية وسياسية نهائية، وإذا بدأنا من تحديد أسباب التراجع .

قلنا: إن المنحنى الإسلامي صعد منذ البعثة المحمدية ثم ساد العالم، ثم ثبت هذا المنحنى، ثم نزل وأننا الآن في حالة نزول حضاري، هزيمة تكنولوجية واضحة يجب الاعتراف بها أولاً، ثم العمل على تجاوزها ثانياً، وإذا بحثنا عن سبب نزول هذا المنحنى، وقبل ذلك سبب صعوده؛ لكان من الممكن تلخيص المسألة في كلمة واحدة، هي: كلمة« الجهاد»، فطالما قامت هذه الأمة بالجهاد – كواجب شرعي

وفعل حضاري لإنقاذ المستضعفين في العالم - كلما صعد المنحنى الحضاري لأمتنا، وكلما تخلينا عن هذا الواجب وأبطلنا هذه الفريضة واكتفينا بالدفاع توقف صعود المنحنى، ثم ثبت، ثم نزل، ومن ثم فإن الصعود مرتبط باستعادة هذا الفعل(الجهاد)، وفي الحقيقة أن كثيراً من الأطروحات - بعضها إسلامي طبعاً - حين تتجاهل هذا البعد، وتتحدث مثلاً عن التنمية الاقتصادية، الإصلاح السياسي - التربية ...... إلخ فإنها تكرس التخلف، لن تحقق الوحدة مثلاً، ولا الإصلاح الاقتصادي، والإصلاح السياسي إلا إذا جاهدنا ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا] وهكذا فإن الجهاد هو كلمة السر الصحيحة والوحيدة، «الجهاد» هو شرط التقدم الاقتصادي والاجتماعي وشرط التنمية الحقيقية، وشرط كل شيء صحيح وجميل، فإذا أردنا أن نحقق زراعة أو صناعة أو تعليما أو تربية أو حتى تفوقا فنيا وأدبيا، فإن الجهاد هو الشرط الأول. وهذا هو المعنى الصحيح للآية المذكورة سابقاً، وللحديث الشريف، كذلك يجب بالطبع إدراك بُعْد الهزيمة التكنولوجية، والاعتراف بها، ويجب أن ندرك أن علينا في البداية أن نقلل سرعة نزول المنحنى الحضاري لأمتنا، وأن نوقف هذا النزول تماماً، ثم نُحْدِث انقلاباً في المنحنى، ثم نصعد من جديد إن شاء الله، وبدون هذه المراحل فإننا نقفز في الهواء ، وهذا لعمري كان خطأ الحركات السياسية الإصلاحية عموماً والإسلامية منها خصوصاً حتى الآن ، يجب تقديم اجتهاد فكري وحركي وفقهي يلائم هذا الظرف، ويحقق أقصى قدر من فريضة الجهاد.

سندخل مباشرة في بعض الأطروحات المراوغة، التي تقول إحداها مثلاً: إننا أمة متخلفة ومهزومة - وهذا صحيح - وأن المواجهة ليست حلاً» وهذا غير صحيح، ومن ثم فعلينا اتباع الأسلوب الألماني أو اليابانى في الإصلاح، أي ترك موضوع

المواجهة والجهاد نهائياً والتفرغ للبناء والإنتاج في محاولة لسد الفجوة التكنولوجية، ومن ثم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وهذا طرح خاطئ لعدة أسباب: فالمعركة ضد الألمان واليابانيين لم تكن معركة حضارية أو ثقافية بل عسكرية وسياسية، أما نحن فالمعركة ضدنا بالإضافة إلى كونها عسكرية وسياسية واقتصادية، فإنها أيضاً حضارية وثقافية، نحن لسنا فقط إزاء مشروع استعماري اقتصادي وسياسي، بل إزاء مشروع حضاري يستهدف القضاء على أمتنا، وهناك وجدان صليبي يحرك الأعداء ضدنا، والمواجهة مع الغرب الصليبي لم تنقطع قط في الزمان ولا المكان بدءاً من حياة الرسول ﷺ حتى اليوم مروراً بالمواجهة في الأندلس والمغرب العربي» حرب الألف عام كما يطلق عليها المؤرخون المغاربة مروراً بحروب الفرنجة على المشرق العربي الإسلامي ١٠٩٥ – ١٢٩٥ م وكذا مروراً بالمواجهات التي خاضتها الدولة العثمانية، ثم الاستعمار والصهيونية حتى احتلال أفغانستان والعراق .. فالمسألة هنا أننا أمام عدو لن يقبل غير الاجتثاث لأمتنا،ولن يتركنا نبني و نعمر، فهو لن يقبل لنا النهضة على الأساس الإسلامي أو حتى العلماني وعلى أي أساس، ونحن أمة وسط ثقافياً وجغرافياً ولسنا جزراً منعزلة، وبالتالي فالقياس الألماني والياباني قياس مخادع وخاطئ، بالإضافة إلى أن أمريكا والغرب كانت لهما مصلحة في تقدم ألمانيا الغربية في إطار الصراع مع المنظومة الاشتراكية، وكذا في تقدم اليابان حتى لا ينفرد الاتحاد السوفييتي أو الصين بالتمدد في آسيا، وموضوع القياس الياباني والألماني خطأ مبدئي بالنظر لظروف وطبيعة الصراع مع الغرب، وهو أكثر خطأ بعد سقوط الاتحاد السوفيتي السابق، والمنظومة الاشتراكية؛ لأنه ليس هناك استقطاب يسمح بهامش من المناورة يمكن أن نفلت بها من موانع الغرب وعراقيله على نهضتنا، وهكذا ، فإن القياس الألماني والياباني يحتم المواجهة والجهاد والمقاومة.

من الأطروحات الأخرى: المراوغة، إننا أمة لا قيمة لها وأن الدخل القومي الأمريكي مثلاً ١٣ تريليون دولار، أما الدخل العربي والإسلامي السنوي فهو قليل جداً – العربي ٧١٧ مليون دولار، أي أصغر من رأسمال شركة ميكروسوفت مثلاً، أو نوكيا للهواتف المحمولة، أو دولة واحدة مثل أسبانيا، وهذا صحيح، ومن ثم فإن الغرب لا يضعنا في اعتباره وليس طامعاً فينا، أو لا نشكل له أي نوع من التهديد، ولعل حجة هؤلاء هي نفسها تكشف منطقهم، فمادمنا بلا قيمة ولا نشكل خطراً، فلماذا تم زرع إسرائيل؟ ولماذا تم احتلال أفغانستان ثم العراق ...؟ هل لتدفق البترول مثلاً؟ وهذا البترول مهم طبعاً، ولكن تدفقه كان مضموناً بدون مخاطر هذا الاحتلال على الأمريكان وحلفائهم، بل إن أحد الزعماء العرب قال ذات يوم مستغرباً: إنهم يأخذون البترول، وحتى صدام حسين شخصياً كان مستعداً لأن يضخ لهم البترول، إذن فالمسألة لها بعدها الحضاري والثقافي والتاريخي بالإضافة إلى بعدها الاقتصادي والسياسي، أما مسألة أننا لا نشكل خطراً عليهم، فهذا كلام جزئي، نعم ربما لا نشكل خطرا حقيقياً أو كبيرًا الآن، ولكن هناك ما يسمي بالقوة الكامنة، والمنظومة الإسلامية الثقافية خطر شديد على المنظومة الغربية الرأسمالية؛ لأنها تشكل البديل الأيديولوجي لكل مستضعفي العالم للثورة على الرأسمالية بعد فشل الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي، وبديهي أن الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي، كانا لا بد أن يفشلا أمام الرأسمالية؛ لأنه من الناحية العلمية والموضوعية أن الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي قد خرجا من الأرضية الحضارية ذاتها التي أفرزت الرأسمالية، ومن الطبيعي أن هذا سبب جوهري وبنيوي للفشل، أما الإسلام فهو منظومة ثقافية مختلفة أولاً، وليست نابعة من المنظومة الحضارية الغربية وهي ذات تراث ونصوص منحازة للفقراء، ثانياً ، بالتالي ، قادرة على تقديم التبرير النظري للثورة على الرأسمالية، وهي ذات خطاب، عالمي ثالثاً، وبالتالي ، فهي

يمكن أن تصلح كأيديولوجية أو جذر ثقافي للبشر المستضعفين والمتضررين من الرأسمالية« وهم أكثرية العالم» سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين، ثم إن الخطاب الإسلامي خطاب غير عنصري، أضف إلى ذلك أن الرقعة الجغرافية المتوسطة وذات الاتساع الكبير التي يشغلها العالم الإسلامي. وكثافته السكانية الكبيرة والواعدة، ثم ثقافة القتال والجهاد، والاعتماد على مدد الله يمكن أن تشكل مصدراً لا ينضب للمجاهدين والمناضلين، وهكذا فإن خوف الغرب وأمريكا من الإسلام والمسلمين له أسبابه القوية والخطيرة أيضاً، وحديث المفكرين والسياسيين الغربيين عن الخطر الأخضر ليس وهما أو خداعاً، بل إدراك مبكر وتقليدي لما يمكن أن يمثله الإسلام والمسلمون إذا استمرت ثقافة المواجهة والمقاومة وتم استعادة فعل «الجهاد» الجميل.

***

لماذا نقول مشروع المقاومة، ولا نقول مثلاً مشروع الإصلاح السياسي أو الاقتصادي أو التربية أو غيرها؟! ذلك كما قلنا لأننا أمة لن تنهض ولن تتقدم إلا بالجهاد، وذلك لأننا أمة مستهدفة، والسيف فوق رؤوسنا، فهل نخدع أنفسنا مثلاً، وقد بان الأمر الآن، فأمريكا وبريطانيا والحلفاء جاءوا بجيوشهم، والانطباق الكامل بين إسرائيل وأمريكا أصبح واضحاً للعيان لا تخطئه عين، خاصة بعد ما يسمي« بوعد بوش» الصادر مع شارون في مؤتمر صحفي ١٤/ ٤/ ٢٠٠٣ وهو مفهوم من قبل ولكن ذلك لمن يريد حجة دافعة بدون جهد!!.

وكذلك لأن الله تعالي وضع لنا الحل الصحيح في القرآن الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ

فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١، ٥٢]

وهاتان الآيتان تنطبقان على حالتنا الراهنة تماماً، حيث إنه لم يحدث تحالف – فضلاً عن موالاة – بين اليهود والنصارى إلا في السنوات الأخيرة – بل كان العداء بين الطرفين هو سيد الموقف دائماً لدرجة ظهور ما يسمى بالمسألة اليهودية أو العداء للسامية في الفكر الغربي واليهودي على حد سواء، المهم أن هناك الآن – مولاة – – والموالاة أعلى من التحالف بين الغرب وإسرائيل ، وهناك احتلال أمريكي لمناطق وبلاد عربية وإسلامية ومنطق الذين لا يريدون المقاومة أو القتال أو الجهاد أو الاستشهاد يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، أي نخاف منهم لأنهم أقوى منا بمراحل – نعم هذا صحيح، ولكن لنا أدواتنا ووسائلنا لخوض المواجهة، بالمقاومة الشعبية التي أثبتت نجاحها في فلسطين ولبنان والعراق وأفغانستان. وبسلاح الاستشهاد الذي لم يجدوا له علاجاً – ولن يجدوا إن شاء الله – حتى الآن ، بصرف النظر عن النتائج فإن الله تعالى طلب منا ذلك، وفضح منطق المسارعين فيهم، وبشرنا بأن «الفتح» أو «أمر من عنده» سوف يأتينا، ونحن بالتالي نطرح المقاومة ومشروع المقاومة والمواجهة كحل صحيح وكفريضة شرعية، وكتوجيه قرآني، وكذلك من الناحية العلمية والموضوعية فهو سلاح وطريقة وأسلوب أثبت نجاحه، فالمقاومة العراقية أثبتت حتى الآن أنه على الرغم من كل الظروف الصعبة وغير المواتية نجحت في تعطيل المشروع الأمريكي، وفي سبيلها لإنهائه إن شاء الله، والأمر ذاته بالنسبة لمشروع المقاومة في فلسطين الذي جاء أيضاً في ظروف غير مواتية ومع ذلك هزّ الوجود الإسرائيلي هزا، وألقى بظلال من الشك حول المشروع الصهيوني ذاته كما اعترف بذلك قادة العدو وكبار مفكريه وكذلك بالنسبة للمقاومة في لبنان.

مشروع المقاومة إذن أثبت أنه يمتلك مقومات النجاح، وإذا أدركنا أننا في حالة هزيمة تكنولوجية، وأنه من المستحيل عملياً مواجهة آلة الحرب العسكرية والسياسية والاقتصادية الأمريكية والصهيونية بالجيوش أو الدول أو المؤسسات الرسمية« وكل التجارب دلت على ذلك» ، فإن التجارب ذاتها دلت على أن المقاومة الشعبية استطاعت أن تبرز وتأخذ مكانها، سوف تحقق أولاً نوعا من التصدي والصمود يمنع وصول المنحنى الحضاري الإسلامي إلى نقطة السقوط النهائية، والمقاومة سوف تُزِيدُ وعي الشعوب بالتحديات التي تحيط بها، وتوقظ هذه الشعوب وتعالج الأجزاء المريضة في الجسد العربي والإسلامي، وبالتالي يزداد هذا الجسد حيوية، ولا شك أن ذلك سوف يُزِيدُ قدرة هذه الشعوب على انتزاع حقوقها السياسية، ومن هنا فإن مشروع المقاومة هو المقدمة الأولى والصحيحة والجوهرية للإصلاح السياسي، وعلي النمط نفسه فهو المقدمة الأولى والصحيحة للتقدم الاقتصادي وإشاعة روح الوحدة والتكافل والحيوية والإيجابية، بل سوف تفجر طاقة الابتكار العلمي والتكنولوجي أيضاً، وهكذا فإن مشروع المقاومة وإضاعة ثقافة المقاومة هو الأسلوب الصحيح شرعياً وواقعياً، وفي أسوأ الحالات فإن التخلي عن الجهاد والمقاومة يعني الإبادة والقتل والتبديد والنهاية الحضارية وتحولنا إلى عبيد أو قتل الجزء الأكبر منا، وتحويل الباقي إلى عبيد، أما المقاومة فهي إما نصرًا وإما شهادة، وحتى لو كانت النتيجة هي الهزيمة فإن خسائر الهزيمة لن تكون أسوأ من حالة الانبطاح، وعلى الأقل هناك الكرامة، وهناك التجربة التي يمكن تكرارها مع الأجيال القادمة، للمحافظة على الجذوة مشتعلة تحت الرماد.

***

ولن نكون مفرطين في الوهم أو التفاؤل حين نقول: إن مشروع المقاومة لن يحقق

فقط العزة والكرامة لنا، بل سيكون بداية لتحرير العالم كله من الهيمنة والظلم الأمريكي الصهيوني، وسوف يرفع قيمة أطروحاتنا الثقافية عالمياً، بل يمكن أن يتحول الإسلام إلى أيديولوجية لكل المستضعفين والمناهضين للرأسمالية والعولمة، وحتى بمنطق الدعوة المباشر فإن المواجهة والمقاومة ستكون طريقاً صحيحاً لدخول الناس في دين الله أفواجاً.

■ ■ ■

انحطاط حضارة أم سلوك فردي

يجب ألا تنسينا بشاعة التعذيب في السجون العراقية عموماً وسجن أبو غريب خصوصاً، أن الجريمة الأصلية هي جريمة الاحتلال الأمريكي للعراق، وأن من الواجب مقاومة هذا الاحتلال بكل الطرق، سواء وقع هذا التعذيب أم لم يقع، وسواء تمت محاكمة الذين قاموا به وعقابهم أم لم يتم، فجريمة الاحتلال هي أم الجرائم، بل إن نشر صور التعذيب وربما محاكمة مرتكبيه هي طريقة أو وسيلة لإلهائنا عن جريمة الاحتلال، ومن ثم التركيز على النتيجة وترك السبب، وفي الحقيقة فإن الاحتلال يقود بالضرورة إلى إهدار الكرامة والقمع والنهب والتعذيب؛ لأن هذا جزء من غريزة الاحتلال ، والطبع يغلب التطبع، وكذا فإن القمع والعنف والتعذيب والسادية هي سمات أساسية من سمات الحضارة الغربية، ويجب ألا ننسى هنا أن الحضارة الغربية بكل إفرازاتها هي التي أفرزت الفاشية والنازية والرأسمالية والشيوعية والديكتاتورية والعنصرية، وجرائم الحضارة الغربية عموماً والأمريكية(*) منها خصوصاً أكثر من أن تحصى وتحتاج إلى مجلدات لرصدها، وهي تشكل المجرى الرئيسي للحضارة الغربية، ولا يعني هذا أنه لا يوجد أفراد وجماعات وقوى تتمتع بالضمير داخل الغرب، ولكنها جماعات وقوى وأفراد هامشية ولا تشكل عنصراً مهمًا في اتخاذ القرار الغربي والأمريكي، وبديهي أن الرأسمالية الغربية والأمريكية والمجمع العسكري الصناعي الحاكم هناك يريد تحويل العالم كله إلى عبيد لصالح مجموعة الرأسمالية والعسكرية الحاكمة، وهو يريد

(*) راجع في هذا الصدد كتاب «المواجهة بين الإسلام والغرب» ، «وكتاب جرائم الأمريكان في هذا الزمان» للمؤلف نفسه. د. محمد مورو.

أيضاً تحويل الجمهور الأمريكي والأوروبي نفسه إلى عبيد، وبالتالي فهامش التحالف واسع بيننا وبين كل المتضررين من صعود المجمع الصناعي العسكري في الغرب وأمريكا من أبناء أوربا وأمريكا أنفسهم، ولكن مع الأخذ في الاعتبار أن المسألة بالنسبة لنا مركبة، فهي جزء من الاسترقاق والنهب والقمع الرأسمالي، وهي أيضاً تعبر عن وجدان صليبي وعنصري تجاهنا، وقد نجح المجمع الصناعي العسكري الغربي في خلق وجدان معادٍ للعرب والمسلمين عن طريق آلته الإعلامية الجبارة، وأسلوب التعليم والتثقيف في الغرب الذي يحمل بصمات عنصرية وصليبية واضحة.

جريمة التعذيب في العراق ... ليست إلا تعبيرا عن حضارة منحطة، هذه الحضارة الغربية وصورتها الأمريكية هي التي ارتكبت جريمة إبادة الهنود الحمر حوالي « ١٢٠ مليون هندي»، واسترقاق السود؛ فحوالي ٩٠ مليون زنجي ماتوا في الصيد أو النقل أو العمل الشاق، هذه المئات من الملايين تمت إبادتها واسترقاقها في وقت كان عدد سكان إنجلترا مثلاً ٣ ملايين، أي مائة ضعف عدد سكان إنجلترا، ولك أن تتصور فداحة الرقم.

الحضارة الغربية والوجدان العنصري والصليبي فيها هي التي نظمت المذابح في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وهي التي أنشأت إسرائيل فارتكبت بذلك جريمة تشريد شعب، واحتلال أرض، وهذه الجريمة اتفق عليها اليسار واليمين الجمهوريون والديمقراطيون، الشيوعيون والرأسماليون من مختلف أنواع الطيف السياسي والفكري في الغرب وأمريكا، وممارسات إسرائيل العنصرية والقمعية من مذابح إلى اغتيالات، إلي ضرب مدنيين إلى اقتحام قرى ومدن ومخيمات، إلى اعتقال الآلاف وتدمير الطرق والمزارع، وسرقة المياه، وتلويث الماء والهواء، وقطع الأشجار

والمرافق وغيرها، تتم علنا وتحت سمع وبصر العالم كله بما فيه أمريكا وأوروبا، بما يعني أن الديمقراطية الغربية المزعومة ديمقراطية عنصرية تتلاشى تماماً مع العرب والمسلمين، وبما يعني أنه جزء من القيمة الحضارية الغربية المنحطة والعنصرية، إنها جرائم حضارة منحطة لا تفهم إلا هذه الصفة وتنقلها وتزرعها في أبنائها الجهلة، والأمر بالطبع مرشح للمزيد، لأنها غريزة استعمارية وغريزة حضارية منحطة وعنصرية، وقد لاحظنا مثلاً أن حكومات فرنسية أبادت وقمعت وذبحت الجزائريين بلا هوادة، ووصلت أرقام الضحايا إلى ٥٠ ألف قتيل جزائري في عام ١٩٤٥ مثلاً، وتم اختراع وابتكار أشكال من التعذيب لم تعرفها البشرية قط على يد المستعمرين الفرنسيين واستخدموها ضد الجزائريين(*) وكذا ما حدث في قلعة جانجي بأفغانستان، وما يحدث في معسكر جوانتانامو الأمريكي الموجود في كوبا!! (**) وتعترف التقارير الأمريكية نفسها بأنها أعطت أوامر بتجهيز المعتقلين للاستجواب عن طريق الضغط عليهم بالإهانة الجنسية والتعرية والكهرباء والحرمان من النوم، والقيود في الأيدي والأقدام والضرب، وغيرها «اعترفت التقارير بـ ٢٠ طريقة للضغط» بل من المثير أن وزير الدفاع الأمريكي: رونالد رامسفيلد أعلن جهارا نهاراً أنه أعطى الأوامر للقوات الأمريكية في أفغانستان بقتل من يحاول الاستسلام من طالبان والقاعدة، وأنه أمر بقتل الأسرى العزل في قلعة جانجي بعد احتجازهم!!.

وهكذا ، فالسلوك ليس سلوكاً فردياً، بل أوامر دولة وسلطة، وكذا فالسلوك ليس سلوك إدارة عينية صنعت من المسيح جنرالا بخمسة نجوم، بل وصنعت منه جلاداً وهو بريء من أفعالهم طبعاً – عليه السلام – بل سلوك حضارة منحطة.

(*) راجع كتاب «الجزائر تعود لمحمد» للمؤلف نفسه . د . محمد مورو

(**) راجع كتابنا «العقل الإسلامي على الطريقة الأمريكية» د. محمد مورو.

ما حدث في سجن «أبو غريب »وغيره من السجون العراقية، وما حدث من قبل في فلسطين المحتلة« ومازال» وما حدث في أفغانستان وجوانتانامو لا يمكن تفسيره إلا بأنها حضارة منحطة، ويعترف الكاتب البريطاني النزيه – روبرت فيسك بذلك قائلاً:« إن كراهيتنا للعرب والمسلمين ميراث قديم، لماذا نندهش من العنصرية والوحشية والقسوة تجاه العرب والمسلمين، لقد جاء الجنود البريطانيون والأمريكيون من مدن اتخذت منها الكراهية موطناً لها، فيها المسلمون العرب إرهابيون وأشرار، وكل الصفات الكريهة تلصق بهم، ويضيف روبرت فيسك:« هؤلاء الجنود موصوفون لهذه الأفلام والمسلسلات التي تنتجها هوليوود وتتسم بالعنصرية والكراهية تجاه العرب والمسلمين، وتلصق بهم كل التهم الشريرة من عنف وفسق وقذارة وكذب، وهكذا لم يكن من الصعب أن يتبول بعض البريطانيين على وجه سجين عراقي مغطى الرأس، وأن يأمر بعض الأمريكيين الساديين رجلا معصوب الرأس بالوقوف على صندوق مقيد اليدين بأسلاك كهربائية، وأن تبلغ السادية مداها في تلك الصور التي تظهر جندية أمريكية وهي تصوب سلاحها صوب الأعضاء التناسلية لأحد سجناء «أبو غريب»، وكذلك صورة الجندي البريطاني وهو يقوم بعملية القذف داخل فم سجين آخر في محاولة مجنونة للتأكيد على أكاذيبنا التي روجناها بأن هذا وحده هو الأسلوب الأمثل للتعامل مع العرب والمسلمين، ويضيف روبرت فيسك:« حتى اليوم لا نزال نعرض الفيلم المقزز» أشانتي« عبر محطاتنا التليفزيونية الذي تدور أحداثه حول خطف زوجة طبيب إنجليزي من قبل تاجر رقيق عربي، وهو من نوعية الأفلام التي تصور العرب دائماً بأنهم مغتصبون وقتلة وكذابون ولصوص، وفي الحقيقة – والكلام مازال لروبرت فيسك:« فإننا نصور العرب الآن في أفلامنا مثلما صور النازيون من قبل اليهود ونتعامل معهم على أنهم إرهابيون ولا بد أن يذلوا ويضربوا ويعذبوا، فالإسرائيليون

يلجأون اليوم لاستخدام أساليب التعذيب نفسها التي كان يستخدمها الروس في تعذيب الفلسطينيين، مثلما نتبع نحن نفس الأساليب ذاتها في تعذيب العراقيين».

وتعترف صحيفة« الوشنطن بوست» بأن الجنود الأمريكيين أجبروا المعتقلين على اللواط لتصويرهم على أنهم همج!!.

بما يحاول البعض بالطبع غسيل المارسات الأمريكية بطرق مختلفة وهو أمر مستحيل قطعاً، والمحاولة ذات أبعاد ، منها مثلاً ، أن يقول البعض :إن ما حدث ليس جديداً على العراقيين، وإنه كان يحدث في سجون صدام حسين، وكذلك فإن التعذيب موجود بكثرة في السجون العربية!! وبديهي أن الخطأ لا يبرر الخطأ، وكل المارسات ضد الإنسان مرفوضة حتى ولو مارسها حكام وسلطات عربية، ولكن أليست هذه السلطات والحكومات هي صنيعة أمريكا ذاتها!! وأن القهر والتعذيب وانتهاك حقوق الإنسان جاء مع التغريب والتبعية اللذين ابتلينا بهما في بلادنا العربية والإسلامية، ومن المحاولات أيضاً أن التعذيب الذي تم في العراق هو مجرد سلوك فردي، وهذه الحجة انهارت بسرعة حيث اعترف المجندون والمسئولون عن تلك السجون، بأنها كانت أوامر من القادة، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن المجندة سابرينا هارمان قالت: إنها كانت تتلقي الأوامر من ضباط المخابرات العسكرية، ومن بعض المدنيين الذين كانوا يجرون التحقيقات، وأنها كانت مكلفة بإهانة المعتقلين!! وأن أوامر القادة كانت تدور حول حرمان المعتقلين من النوم وإجبارهم على الوقوف عرايا، وتحويل حياتهم إلى جحيم وتجريدهم من ملابسهم وتكويمهم عراياً بعضهم فوق بعض وفي شهادة« للسيرجانت جفال دبفيز» قال: إن المخابرات العسكرية ومن رتب كبيرة بها قاموا بتعذيب المعتقلين بأنفسهم، وعندما سألناهم عن مدى أخلاقية ذلك كانت إجاباتهم: إن لهم قواعد خاصة، وإنه سمع شخصيا

رجال المخابرات العسكرية يأمرون الجنود الأمريكيين بالاعتداء الجنسي على المعتقلين، وإنه عندما كان يتم الاعتداء الجنسي على المعتقلين كان رجال المخابرات العسكرية يقولون للجنود الذين قاموا بذلك: لقد قمتم بعمل عظيم. وهناك عشرات الشهادات الأخرى التي تضمنها تقرير رسمي أمريكي هو تقرير« أنطونيو كاجوبا» وكلهم اعترفوا بأن التعذيب كان يتم بأوامر عليا من القادة، وأنه كان تعذيباً بلا مبرر ولا علاقة له حتى بالحصول على معلومات. وهكذا فإن الحوادث لا يمكن تفسيرها بالسلوك الفردي، بقي بالطبع أن يقول البعض: إنه سلوك إدارة عينية لا تمثل أمريكا، وإنها من أفعال رامسفيلد الأحمق ويعبر عن هؤلاء الكاتب الأمريكي« توماس فريد مان» بقوله:« نحن مهددون بخسارة تتعدى الهزيمة في العراق، نحن مهددون بخسارة أمريكا كقائدة للمرجعية الأخلاقية وكمصدر للإلهام في هذا العالم، إن إدارة بوش تقودنا نحو الكارثة».

وفي الحقيقة فإن ما حدث انحطاط حضارة، وانحطاط إدارة وانحطاط قادة عسكريين، وانحطاط جنود، لا يلغي انحطاط إحداها الأخرى. وإذا حاولنا أن نفحص ونتأمل الممارسات والانتهاكات التي تمت وأصبحت معروفة بشهادة الشهود، أو الصور نجد أنها دارت على نطاق واسع طالت حوالي ١٠٠ ألف معتقل على حد تقرير منظمات حقوق الإنسان، وأنها لم تكن مقصورة على سجن «أبو غريب» وحده، وأن من قام بها ليس الأمريكان فقط بل البريطانيون أيضاً، وأن التعذيب والقهر طال من هم خارج السجن، فهناك عمليات اغتصاب نساء بعد خطفهن سواء عن طريق دهم البيوت وقتل الأزواج، أو تفتيش السيارات ثم قتل الأزواج والأولاد واختطاف الزوجات« حالة سعدية نور الدين»، أو اختطاف الفتيات من الحقول بإلقاء شباك عليهن من طائرات هليوكوبتر« حالة سميرة

حسين»، وهناك اغتصاب سجينات عراقيات داخل السجون. وقد أصدرت السجينات المفرج عنهن بياناً أكدن فيه تعرض المعتقلات في سجن «أبو غريب» للاغتصاب وأن بعضهن فقدن عذريتهن، والبعض الآخر يحملن أجنة حراما في أحشائهن، وقال البيان بالحرف الواحد:« إن المعتقلات تعرضن للاعتداءات الجنسية من قبل جنود الكفرة وأعداء الله، وأنهم كانوا يستعرضون الرجولة والنخوة عليهم». من أساليب التعذيب أيضا: إدخال نساء عاريات على علماء دين، ورجال عراة أيضاً، وهذا بالطبع نوع قاس من الإذلال والإهانة، ومنها: إجبار المعتقلين على اللواط لتصويرهم على أنهم همج، سكب الماء البارد على المعتقلين وهم عراة، ضربهم بأيادي المقشات والكراسي، وضعهم في سائل كيميائي واستخدام الكلاب لترويعهم، اغتصاب المعتقلين جنسياً وإجبارهم على اتخاذ أوضاع مشينة، وضع أطواق الكلاب حول رقاب المعتقلين وجرهم بالسلاسل على الأرض، استخدام الكلاب المدربة لتخويف السجناء ولا مانع من أن تنهش لحومهم، التقاط صور الضحايا الأحياء بجوار جثث القتلى والموتى، التخويف بإطلاق الرصاص والتهديد بالإعدام، لف الرؤوس بأكياس، الضرب في أجزاء حساسة من الجسم، وضع عصا المكنسة في المؤخرة، إجبار الرجال على الاستمناء وممارسة الجنس بالفم، الوقوف بالأحذية على الأجسام العارية، تصوير السجناء والسجينات عرايا تماماً، وإجبار الرجال على الاشتراك في أوضاع جنسية شاذة وتصوير ذلك، الإصرار على ارتداء الشباب ملابس النساء وتصويرهم، التعذيب بالكهرباء.

وبتحليل تلك الممارسات نجد أن الهدف منها ليس الحصول على اعترافات بل مجرد الإهانة للإهانة؛ وهو ما يكشف عن عنصرية واضحة وسادية وشذوذ، فعندما يتبول جندي على معتقل عراقي ويشعر بالسعادة والابتسام كما جاء في الصور، فإن

ذلك يدخل مباشرة في باب التحقير والعنصرية، وعندما تقوم مجندة أمريكية بسحب عراقي بسلسلة كلاب وهي تبتسم ؛ فإن الأمر يرتبط بالإذلال والمهانة، والتلذذ بتحويل آدمي إلى حيوان، وعندما يتم تصوير ذلك وإرسال الصور إلى الأصدقاء في أمريكا وبريطانيا، فإن الأمر لا يعبر في الحقيقة إلا عن انحطاط حضارة وشذوذها وساديتها وإجرامها، وليس هناك تفسير يصلح لشرح تلك الظواهر غير هذا التفسير، أما المحاولات المقصودة أو الغبية لتفسير الظاهرة بشكل جزئي ، فهي جزء من المؤامرة على عقولنا ووجداننا، ومحاولة إبعادنا عن الاستنتاج الصحيح ، وهو أنه لا طريق هناك سوى المقاومة ضد أمريكا وإسرائيل والتحالف الشرير في كل مكان وزمان.

■ ■ ■

المقاومة والتشكيك

ترتفع من آن لآخر نغمة التشكيك في جدوى المقاومة العراقية أو الفلسطينية أو أي مقاومة، ومن الغريب أن مفردات التشكيك وأساليبه وأهدافه واحدة، بل هي نغمة تتكرر بصورة رتيبة ومملة وداعية للازدراء!!

إذا أخذنا المقاومة العراقية مثلاً، نجد أنه تم التشكيك ابتداء في إمكانية اندلاع هذه المقاومة، وكانت الأسباب تدور حول أن الشعب العراقي قد فقد قدراته وحيويته بسبب الديكتاتورية، أو أنه جزل فرحان بالغزو الأمريكي، والاحتلال الأمريكي الذي خلصه من الاستبداد، وسيفتح أمامه طريق الديمقراطية والرخاء، ولكن الذي حدث أن المقاومة العراقية اندلعت بأسرع مما يتصور أكثر المتفائلين تفاؤلاً.

وتصاعدت وأثبتت وجودها، بل حولت حياة الاحتلال وجنوده إلى جحيم، ومرة أخرى يتم اتهام المقاومة بأنها مأجورة لصدام حسين، الذي يعطيها من الأموال التي اختلسها من أموال الدولة، وحتى لو كان هذا صحيحاً – وهو غير صحيح – فالأمر لا يدعو إلى النقد، بل الفخر لأن من الأفضل إنفاق تلك الأموال على مقاومة الاحتلال، بدلاً من تركها لتنهبها سلطات الاحتلال، ثم إنه ليس هناك أفضل ولا أشرف من الإنفاق على مقاومة المحتل، ودعم نضال شعب ما، وبديهي أن حجم المقاومة ونوعية عملياتها وأساليبها، لا يمكن أن تكون إلا تعبيرا عن إرادة شعب وكرامة أمة، وليست قدرات وأموال فرد، فلما سقطت هذه الفرية بعد أن تم القبض على صدام حسين - حينها - وروج وقتها المرجفون أن المقاومة ستموت بالسكتة القلبية، فإذا بها تتصاعد كماً ونوعًا. ولما استمرت المقاومة، وسقطت

الأوهام حول طبيعة المقاومة، فكان لا بد لدوائر التشكيك أن تبحث عن أسلوب آخر ومنطق آخر وحجج جديدة. وهي أساليب وحجج اتسمت بطابع الهجوم الاستراتيجي، أي التشكيك في المقاومة وفي ترحيب الشعوب بها، وفي طريقة التغطية الإعلامية لها وفي أهدافها ومستقبلها.

فلأن جماهير العالم الإسلامي والعربي محبطة وعاجزة ومقهورة ومغلوبة على أمرها، فهي ترحب بالمقاومة وتضخم من أعمالها وتعلق الآمال عليها وهذا ليس صحيحاً تماماً، فالترحيب بالمقاومة ليس فقط من منطق الإحباط، بل من منطق التضامن العربي والإسلامي والوجدان المعادي للاستعمار، والمفعم بحب المقاومة والاستشهاد. ووسائل الإعلام العربية في منطق المشككين هي بدورها بالغت في أعمال المقاومة ووفرت لها تغطية فوق العادة، وذلك كنوع من إرضاء الجمهور المتلقي واجتذابه والعزف على أوتار الإحباط بقوة أكثر مما تسمح به الظروف والإمكانيات، أو الواقع ومعطياته، وأن هذه المبالغة يمكن أن تنقلب إلى العكس وتتسبب في مزيد من الإحباط إذا ما انحسرت أو تراجعت المقاومة، أو إذا عجزت عن تحقيق ما تصبو إليه من أهداف.

ومنطق المشككين هنا يستخدم الكذب والخداع وعدم الترابط وافتراض أشياء غير حقيقية، والبناء عليها وغيرها من الأساليب المراوغة، فوسائل الإعلام العربية في مجملها تقدم أقل القليل عن المقاومة، وليس المبالغة، بل إن أخبار المقاومة تفرض نفسها فرضاً على تلك الوسائل ولا يمكن بأي حال من الأحوال اتهام أمريكا وحلفائها وعملائها وأحزابها ومفكريها وكتابها وصحفييها بالعجز المالي أو المادي، لدرجة أن تحدث مبالغة عكسية مثلاً في أخبار المقاومة، واهتمام وسائل الإعلام بأخبار المقاومة وهو عمل مهني بحت، فليس هناك خبر أو موضوع يمكن أن يكون

أهم من المقاومة في تلك الظروف، أي مسألة رد الفعل العكسي إذا ما انحسرت المقاومة أو عجزت عن تحقيق أهدافها، فهو منطق المقاومة وفلسفتها تماماً، فالمقاومة أولاً وأخيراً تندلع من أجل الكرامة، وليس حولها وهم بإمكانية الانتصار السريع، والوجدان العربي والإسلامي لا يربط الجهاد والنضال بالنصر، فهو نصر أو شهادة. ولكننا مع ذلك نثق أن المقاومة يمكن أن تضع اللبنات الأولى ليس لانتصار شعب العراق فقط بل للصمود العربي والإسلامي بالكامل .

منطق المشككين يعزو الحماس الجماهيري للمقاومة بأن أعداء أمريكا في المنطقة يروجون للمقاومة، لأنها وسيلتهم لإلحاق أكبر قدر من الخسائر بالأمريكيين، وينسى هؤلاء المشككون أن الاتحاد السوفييتي قد سقط، وبالتالي فإن العداء لأمريكا في المنطقة ليس لحساب طرف ثان، بل هو بسبب الممارسات الأمريكية ضد شعوبنا ونابع من ذلك، بل أكثر من هذا فإن الموصوفين بالحماس للاتحاد السوفييتي والمنظومة الشيوعية السابقة هم الآن أكبر مروجي الخضوع لأمريكا والتحالف معها، والتبرير لها والترحيب بها، أما أعداء أمريكا فهم كل الشعب العربي الإسلامي باستثناء أصحاب المصلحة أو الحكام لا أكثر ولا أقل!!.

من وسائل التشكيك في المقاومة العراقية: الحديث باستمرار عن الموضوع الطائفي والعرقي، واستخدام أرقام قد تكون صحيحة وقد تكون مبالغ فيها. فحسب هؤلاء أن العراق يضم مجموعة من الأعراق والأديان، وأن الأكراد الذي يبلغون ٢٠٪ من السكان رحبوا بالاحتلال وتحالفوا معه، والشيعة الذين يقدرهم هؤلاء بـ ٦٠٪ قبلوا التعاون مع الأمريكان وشاركوا في مجلس الحكم الانتقالي الذي شكله الحاكم المدني الأمريكي« بول بريمر» وهناك الآشوريون والكلدانيون والمسيحيون والتركمان. وأن الذي يقاوم فقط هم جزء من العرب السنة أي جزء

أقل من ٢٠٪ أي لا يمكن أن تصل نسبة المرحبين بالمقاومة إلى ١٠٪ ولأن المقاومة تحتاج مثل السمك إلى الماء أي إلى احتضان جماهيري، فإن غياب هذا الاحتضان الجماهيري سيجعل المقاومة بلا مستقبل، وكذا ومازلنا مع المشككين – فإن المقاومة تحتاج إلى إمدادات بالأموال والأسلحة ؛ ولأن المال والسلاح المتوافر حالياً سينفدان سريعاً فإن من الصعب استمرار المقاومة.

وبداية فإن الأرقام التي ما تفتأ دوائر التشكيك ترددها هي أرقام ليست صحيحة تماماً. والتعامل مع العراق كأعراق وأديان فقط أمر تنقصه الدقة؟، فالكرامة الوطنية والإسلامية تهم الجميع عربا وأكراداً، سنة وشيعة، وحتى لو سلمنا جدلاً بأن هناك فقط ١٠٪ من الشعب العراقي الذين يرحبون بالمقاومة، فإن معنى ذلك أن الحميم ينتظر الأمريكان وأن مستقبل المقاومة عظيم ومشرق؛ لأنه إذا كانت مقاومة تستند إلى ١٠٪ فقط من السكان فقد استطاعت أن تحقق هذا القدر الهائل من النجاح، وأنزلت هذا الحجم من الخسائر في صفوف الأمريكان وحلفائهم، وتميزت عملياتها بالشجاعة والجرأة والذكاء والدقة، فما بالك لو شارك كل الشعب العراقي أو قطاع واسع منه، وهذا أمر بالطبع مرشح للحدوث؛ لأن الاحتلال ستنفضح أهدافه مع الوقت، وستتآكل الأحلام والأكاذيب حول دوره التحريري، وعقدة الاستبداد أو الاضطهاد الطائفي مع الوقت طبعاً. وكذا فإن تردي الأوضاع المعيشية والبطالة في العراق مرشح للزيادة، وكلها عوامل ستقود يوماً بعد يوم إلى المزيد من قطاعات الشعب العراقي إلى المشاركة في المقاومة والترحيب بها، ثم إن الأجندة الأمريكية ستصطدم حتما مع طموحات زعماء الشيعة والأكراد، ولا بد أن نفصل بين أحلام وأوهام قادة أكرادًا أو شيعة ومطالب ومشاعر الجمهور الكردي أو الشيعي، خاصة أن الشيعة عرب، والأكراد سنة وأن العرب السنة هم قاعدة

التلاحم فهم عرب مع الشيعة وسنة أصناف مع الأكراد، والحقيقة أنه لا يمكن فهم مدى التعاطف والتلاحم والاحتضان الذي يكنه الشعب العراقي حالياً للمقاومة ورجالها، إلا أن ذلك لا يقتصر على نسبة الـ ١٠٪ المزعومة بل لا بد أنه يضم قطاعاً واسعاً من الشعب، رغم أنف القيادات الطائفية وإلا لما أمكن لتلك المقاومة أن تحقق مثل هذه العمليات المتميزة ضد الوجود الأمريكي والإنجليزي والأسباني والإيطالي والبولندي والياباني وهلم جرا!! ولما أمكنها أن تستخدم المدفعية والصواريخ ومضادات الطائرات والعمليات الاستشهادية والعربات الملغومة، وتلغيم الطرق، والوصول إلى مقر قيادة القوات أو المعسكرات شديدة الحراسة لولا الاحتضان الشعبي غير العادي. أما مسألة أن الأموال والأسلحة اللازمة لاستمرار المقاومة فهذه أراجيف مردود عليها، لأن المقاومة هي التي توفر السلاح بطرقها الخاصة والمقاومة، الفلسطينية نموذج، وليس مجرد وجود السلاح والمال هو الذي يصنع المقاومة، وإذا كانت المقاومة بإمكانيات ١٠ ٪ من السكان قد وفرت كل هذا الكم من السلاح والمال، فكيف يا ترى يكون عندما ينخرط الشعب كله في المقاومة بعد تآكل الأوهام والأحلام؟!. والمقاومة أولاً وأخيراً إرادة وليست أسلحة وأموالاً، فالمقاومة تعبر عن إرادة شعب، وليست حربا بين جيشين مثلاً، ووسائل المقاومة عادة بسيطة، ولكنها مؤثرة، وهي تعتمد أولاً وأخيراً على الإنسان أكثر من اعتمادها على السلاح والذخيرة.

من أراجيف المشككين أيضاً: أن القوى السياسية المؤثرة في العراق لا تريد أن ينسحب الأمريكان؛ لأنها تدرك أن الوجود الأمريكي في العراق حالياً يحمي العراق من حرب أهلية، ومن التحول إلى صومال آخر، وبالتالي فإنه سوف تتشبث بالوجود الأمريكي، وهو كلام يثير الغيظ أكثر مما يثير التأمل، فلو كان حال القوى

السياسية العراقية كذلك، لكان عليها أن تغلق أحزابها وتنصرف ما دامت غير قادرة على الحوار والتعايش، لا أن تتشبث بالأمريكان وتمسك بذيلهم، ولا يمكن فهم بلد عريق كالعراق لا يمكن أن يعيش بدون احتلال!! وأياً كان البديل فإن الاحتلال مرفوض ولتكن المشاكل ما تكون، فإنها سوف تنتهي يوماً ويعبر البلد هذه الصعاب بأي ثمن، أما أن يظل تحت وصاية الاحتلال فهو أمر لا يليق بأحد أن يقوله أو يفعله أو يؤمن به.

ويروج المشككون أيضا: أنه رغم ما يقرب من العام على اندلاع المقاومة فإنه لا يوجد بيان أو وثيقة تحدد برنامج المقاومة وتصورها بشكل الحكم والمستقبل بعد إخراج الاحتلال، وأنها مقاومة بلا قائد واحد يمكن أن يلتف الشعب حوله، وأن افتقاد المقاومة لهذين الشرطين سيجعلها تنهار حتماً.

والحديث عن عدم وجود قائد معروف للمقاومة، فهذا يرجع أولاً إلى أنها تتكون من العديد من الفرق السياسية والوطنية والإسلامية، يجمعها جميعاً الرغبة في التخلص من الاحتلال والدفاع عن الوطن والكرامة وبديهي أن تكون هناك جماعات كثيرة وقيادات كثيرة متوسطة وأن استمرار المقاومة سيجعلها تصل إلى ذلك الشرط، وحتى لو لم تصل إلي ذلك فهو ليس شرطاً مقدساً لا يمكن لمقاومة أن توجد بدونه، وليس شرطاً تطبيق تجارب معينة وتعميمها على كل النماذج والتجارب، أما عدم وجود وثيقة تحدد البرنامج وشكل الحكم بعد الاستقلال، فهذا هراء ينبغي ألا تقع فيه المقاومة الآن، بل إن وثيقتها الوحيدة والممكنة حالياً وبرنامجها الذي لا برنامج سواه: هو مقاومة الاحتلال بكل الوسائل والطرق حتى يندحر ويزول وبعدها لكل حادث حديث.

***

بقي أن نرصد تلك الذريعة المجوجة حول أن تلك المقاومة لا تملك تغييراً إقليمياً، مثلما كانت فيتنام مثلاً حيث كان هناك محيط معادٍ للأمريكان ومتعاون مع المقاومة الفيتنامية، مثل كمبوديا ولاوس وروسيا والصين، فضلاً عن الدعم الدولي من المنظومة الاشتراكية والأحزاب الشيوعية، وهذه حجة لو كانت صحيحة لكانت لصالح المقاومة العراقية، فإنها رغم هذا الظرف غير المواتي اندلعت سريعاً، وصمدت وتصاعدت وأنجزت ولكن بالإضافة إلى ذلك فإن المحيط الشعبي العربي والإسلامي منحاز للمقاومة، وهو أفضل من الدعم الحكومي أو الرسمي غير الموجود والذي كان سيفرض على المقاومة توازنات تؤثر عليها سلباً، كما أن المقاومة تحظى بدعم عالمي من كل المستضعفين في العالم وهم الأغلبية، ومن كل القوى المناهضة للعولمة والمناهضة لأمريكا والمناهضة للمشروع الصهيوني الأمريكي في الهيمنة على العالم.

■ ■ ■

المقاومة العراقية

أصبحت المقاومة العراقية رقما مهـمًا في معـادلات المنطقـة الاسـتراتيجية، وإذا مـا استمرت وتصاعدت تلك المقاومة – وهو الأمر المتوقع نتيجة عوامل كثيرة عراقيـة وعربيـة وإسـلامية وعالميـة – فـإن كثـيراً مـن المتغـيرات سـتنال المنطقـة، أول هـذه المتغيرات: هو أن المخطط الأمريكي للمنطقة سيصاب بكثـير مـن الخلـل والعطـب. أي أن ذلك المخطط سيصبح في حالة دفاع ومحاولة تثبيت أوضاعه أكثر مما سيصبح في حالة هجوم، وتحقيق المزيد من الأهداف، وهذا يعني مباشرة أن المقاومة العراقيـة سوف تحمي إلى حد كبير سوريا وإيران والمقاومة الفلسطينية وحزب الله ولبنان مـن الهجوم الأمريكي الذي كان متوقعاً عليها، ولا شك أن لهذا الأمر أثرا كبيرا في مجمل الأوضاع في المنطقة، والمقاومة العراقية أيضاً ستغري العديـد مـن القـوى والـدول – محليا وعالمياً – بالاستمرار في معارضة أمريكا، أو عدم الانصياع لها، وسـوف تشـجع تلك المقاومة ازدياد المقاومة الأفغانية مثلاً، وتفاقم وتصاعد حالـة معارضـة العولمـة والأمركة عالمياً، والمزيـد مـن التصـلب في مواقـف فرنسـا وألمانيـا والصـين وروسـيا، بالإضافة طبعاً إلى رفـع الـروح المعنويـة العربيـة وبالتـالي زيـادة قـوة وزخـم المقاومـة الفلسطينية وحزب الله.

وعلى العكس من ذلك على طـول الخـط، فلـو تـم اسـتقرار الوضـع الأمريكـي في العراق، ولم تظهر حالة المقاومة العراقية، لكان مـن الطبيعـي أن تـزداد شـهية الـذئب الأمريكي الجائع للمزيد من العدوان على إيران وسوريا ولبنان، والمزيـد مـن الـدعم الأمريكـي لمشروع شـارون الاسـتيطاني، ولـزادت حـدة وسـيطرة صـقور الإدارة الأمريكية ومفاهيم الإمبراطورية في الولايات المتحدة الأمريكية.

والمقاومة العراقية هي التي جسمت وأزهرت ما يسمى بتلفيق الأدلة في موضوع أسلحة الدمار الشامل العراقية، فالحديث عن كذب بلير، وبوش، أو تلفيق أجهزة المخابرات البريطانية والأمريكية لتلك الأدلة، وزيادة الضغط الشعبي في بريطانيا وأمريكا في هذا الاتجاه، لم يكن ليحدث أصلاً لولا اندلاع المقاومة العراقية وحدوث نزيف الخسائر والقتلى الأمريكيين والبريطانيين بسبب تلك المقاومة، الأمر الذي رفع حالة الاهتمام الشعبي والرغبة في الانسحاب من المستنقع العراقي، وبالتالي البحث في الدفاتر عن الأسباب الحقيقية للحرب، وكشف الزيف في هذا الأمر، ولولا المقاومة العراقية لتاهت مثل هذه الموضوعات في ضباب الاستقرار والإنجاز والانتصار الأمريكي، أو كانت ستصبح أموراً ضعيفة التأثير في أحسن الأحوال.

اندلعت المقاومة العراقية في فترة وجيزة جداً، وهذا دليل في حد ذاته على مدى وعي الشعب العراقي وصلابته، فصدمة سقوط بغداد الدرامية في ٩ إبريل ٢٠٠٣ لم تسقط وعي الشعب العراقي، ولم تسقط حيويته، وهو درس بليغ لكل الشعوب، وهو دليل على عبقرية الشعب العراقي وصلابته الأمر الذي تؤكده حقائق التاريخ والجغرافيا لهذا الشعب العظيم، وأصبح لدينا الآن أكثر من حالة وظاهرة وموقع يستحق الاحترام في الجسد العربي، المقاومة اللبنانية، والمقاومة الفلسطينية، والمقاومة العراقية. وهو أمر جدير بتحقيق نوع من إعادة العافية إلى مجمل الجسم العربي لو تم استثمار تلك الحيوية بشكل صحيح، ولم يتم حصارها والقضاء عليها من الأنظمة العربية سيئة الصيت، أو القوى والمثقفين المهزومين سلفاً.

حالة المقاومة العراقية أثبتت أن حيوية الجسم العربي والإسلامي ليست مجرد استثناءات لا تشكل ظاهرة ولا يمكن تعميمها، بل إن ذلك هو الأصل، وهو أمر

له مردوده الاستراتيجي والتكتيكي على كل مستوى. وهذا بالطبع يقتضي إعادة النظر إلى الكيان العربي والإسلامي في اتجاه إشاعة روح الأمل، وإشاعة ثقافة المقاومة والتبشير بعصر عربي وإسلامي رائع وعظيم، رغم ظلام ويأس المرحلة الذي طال الأنظمة المتهالكة ولكنه لم يمس جوهر الشعوب، والحمد لله على ذلك.

***

المقاومة العراقية ، إذن ، اندلعت في وقت قياسي، واستطاعت أن تقوم بعمليات يومية، في أكثر من بلد ومكان، وفي بعض الأحيان كانت تقوم بأكثر من عملية في أكثر من مكان، وإذا كان الحديث الأمريكي الرسمي يتحدث من عدد معين من القتلى بسبب المقاومة، فإن الرقم الحقيقي أكبر من ذلك بكثير، ومن المثير أن بلدًا مثل الفلوجة المدينة الصغيرة التي يصل عدد سكانها إلى ٢٠٠ ألف نسمة قامت وحدها بعمليات متميزة يمكن القول بعدها :إن مدينة صغيرة استعصت على الجيش الأمريكي، وأن من الممكن ، بالتالي ، أن تصمد أي مدينة أو قرية أمام جحافل أي قوة عدوانية مهما كانت قوتها. والمقارنة المهمة بالنسبة للمقاومة العراقية أنها ظهرت رغم وجود حالات ومظاهر سلبية كثيرة في الواقع العراقي والعربي، أي رغم صدمة سقوط بغداد بطريقة درامية وغامضة، ورغم صدمة التواطؤ الرسمي العربي على العراق ومساعدة دول عربية لآلة العدوان الأمريكي، ورغم تردد قوى إقليمية وعربية في دعم تلك المقاومة لسبب أو لآخر، بل رغم تردد قطاعات الشيعة في العراق عن المشاركة الواسعة في المقاومة – حتى الآن – وهم قطاع كبير من الشعب العراقي لو شارك في المقاومة لتغيرت المعادلة تماماً، ولاهتزت الأرض من تحت أقدام العسكر الأمريكي تماماً، على كل حال فإن كل تلك العوامل لم تكن عائقاً – رغم خطورتها – عن ظهور المقاومة في المناطق السنية غرب بغداد ومناطق أخرى، واستمرار

المقاومة سيدفع بالضرورة المترددين إلى الالتحاق بقطار المقاومة؛ لأن المقاومة ستعطي مشروعية تاريخية لمن يقوم بها ... وبديهي أن أحدا من القوى السياسية أو الدينية في العراق لن يحرم نفسه من تلك المشروعية المستقبلية وإلا كان غبياً، بل أحمق.

أثبتت المقاومة العراقية – كما أثبتت المقاومة الفلسطينية واللبنانية قبل ذلك، أن إرادة الشعوب لا تهزم، وأن من الممكن بل من السهل ضرب القوى الجبارة وإنزال الألم بآلتها العسكرية والسياسة﴿ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾ وأنه مهما فعلت القوى الاستعمارية، وحلفاؤها من الحكومات والمثقفين – المارينز الثقافي ومهما فعلت استخباراتها فإن المقاومة لا تموت، ويكفي أن نعرف أن الأمريكان قاموا بزيادة مكافأة من يدلي بمعلومات عن القادة العراقيين السابقين، وهذا في حد ذاته دليل على العجز، كما قاموا بعدد من العمليات لمحاولة اجتثاث المقاومة دون جدوى، أسموها: درع الجزيرة، عقرب الصحراء، والأفعى ذات الأجراس، وغيرها من الأسماء؛ ولا تزال المقاومة مستمرة. بل وتحظى المقاومة باحترام الشعب العراقي، ولعلنا نشاهد العراقيين يتجمعون بعد كل عملية حول الآليات الأمريكية المعطوبة بسبب عمليات المقاومة، ويلقون عليها الأحذية والأحجار في إشارة رمزية أن كل عراقي يتمنى أن يشارك في المقاومة، وهو أمر له دلالاته المستقبلية، أما الحديث الأمريكي أو حديث بعض المحللين عن أن المقاومة غير منظمة أو أنها مجرد حالة فهو كلام لا قيمة له؛ نظراً لحجم الخسائر ونوعية العمليات التي تنفذها المقاومة وانتشارها في قوس واسع من أرض العراق.

ويكفي أن الجنود الأمريكان يعيشون في رعب داخل العراق، كُلٌّ منهم يتوقع في أي لحظة أن تقتله المقاومة، وهو أمر سيحدث مستقبلياً مؤكداً على المخطط الأمريكي، بل على الإدارة الأمريكية كلها.

الفلوجة تكتب المستقبل

ليس هناك مكان في العالم أجمل من الفلوجة، وليس هناك مدينة عربية في جمال تلك المدينة الساحرة، وليس هناك من المجاهدين أو المناضلين من ترتفع قاماتهم إلى قامات رجال الفلوجة أو نسائها أو أطفالها. تقف الفلوجة – مدينة المآذن الشامخة المجاهدة بين مدن مثل: حطين، وعين جالوت، وترتبط بحبل سُرِّيٍّ بجنين. ولذا فإن المناضلين الفلسطينيين الذين خرجوا في مظاهرات تضامن مع المقاومة العراقية كانوا على حق حين قالوا: إن بغداد هي القدس والفلوجة هي جنين، وإذا كانت جنين هي مدينة الصمود والملحمة في وجه الاجتياح الفلسطيني فإن الفلوجة تجاوزت كل المدن الجميلة والرائعة، ونحن لا نقلل من جهاد أهل جنين وبطولاتهم، ولا الثمن الغالي الذي دفعوه من الشهداء والجرحي والمباني المهدمة والألم والحصار، ولكن للفلوجة سياقًا آخر، ومذاقًا آخر، إنها صمدت أمام أكبر آلة عسكرية استخبارية في التاريخ، لم تقاتل فقط وتقتل من الأمريكيين الكثيرين فقط، ولكنها استعصت على السقوط زمناً أطول من أي زمن آخر ومكان آخر، ولذا فإن الفلوجة عروس المجاهدين، وقلعة الإسلام، ومفخرة العرب في كل زمان ومكان.

الفلوجة هي المكان الأكثر زخماً في المقاومة العراقية منذ بدأت هذه المقاومة وليس في الأحداث الأخيرة فقط، وكانت الفلوجة دائماً هي ترمومتر المقاومة، ومقياس الصمود العراقي أمام جحافل الغزو الأمريكي البغيض، الفلوجة هي أكثر الأماكن العراقية حتى الآن اشتباكا مع الأمريكان، أو تكبيدهم الخسائر، وتكاد تكون المدينة العراقية الوحيدة المحررة منذ بدأت المقاومة، حيث دائماً ما اضطرت القوات الأمريكية إلى الخروج منها والاستقرار في مواقع خارج المدينة منذ وقت

طويل. وهي المدينة التي قدمت كل أنواع المقاومة من مهاجمة قوافل العدو أو إسقاط مروحياته أو حرق مركباته أو عمل كمائن على الطرق ... إلخ.

مدينة الفلوجة التي يبلغ عدد سكانها ٢٠٠ ألف نسمة استطاعت أن تهزم أمريكا، نعم تهزم أمريكا لأنها استعصت دائماً على الخضوع لأمريكا وقوات أمريكا، ولنا أن نتصور مقاومة أهل الفلوجة - المدينة الصغيرة - إذا تكررت في كل مكان بالعراق، فإذا كان عدد سكانها ٢٠٠ ألف أي حوالي ٠,٨٪ من عدد سكان العراق، أي إن سكان ومدن العراق لو فعلت مثل الفلوجة، لخرج الأمريكان بعد يوم واحد، حيث لا طاقة لهم بهذا النوع من المقاومة، ولن يتحملوا مثل تلك الخسائر، وهكذا فإن المثلث السني العراقي هو رأس المقاومة وعمودها الفقري، والفلوجة هي ذروة سنام المقاومة بلا منازع، ولذا فإن الحقد الأمريكي عليها لا يوصف، وهذا يوضح ويبين لماذا تعرضت الفلوجة للحصار والضرب بطائرات الإفّ ١٦، والهليوكوبتر وبالدبابات والصواريخ وبكل شيء تقريباً.

الفلوجة تكتب المستقبل بالفعل؛ لأن فعل المقاومة العراقية هو الفعل العربي الإسلامي النبيل الأكبر والأبرز، والفلوجة هي عنوان تلك المقاومة، وعلى المستوى العراقي فإن الفلوجة هي من رفعت هامات العراقيين، وأعادت إليهم العزة والفخار والاستعلاء، ولذا فهي قاعدة المستقبل والاستقلال للعراق، وعلى المستوي العربي والإسلامي فإن الفلوجة هي عنوان المقاومة العربية والإسلامية ضد المشروع الأمريكي، وهي الجزء الحي في الجسد العربي مع أجزاء أخرى طبعاً، ولكن الفلوجة هي الأكثر حيوية ، وبالتالي فإن إعادة العافية إلى الجسد العربي الإسلامي، وإقلاعه من وهدة الانحطاط والمرض يبدأ من الفلوجة، ولن يكون غريباً أن يقرأ أحفادنا في المستقبل القريب أو البعيد، أن عصر العالمية الإسلامية الثانية بدأ من

الفلوجة، أو أن المنحنى الإسلامي الذي كان هابطاً قبل ظاهرة المقاومة العراقية قد بدأ انقلابه باتجاه الصعود من جديد في مدينة الفلوجة الباسلة بدءاً من عام ٢٠٠٣، ٢٠٠٤، بل يمكن أن يؤرخ لبداية السقوط الأمريكي ونهاية مشروع الاستكبار الدولي، والمخطط الصهيوني الأمريكي، على أرض الفلوجة وانطلاقا منها، وهكذا فالفلوجة هي رمز عراقي ورمز عربي ورمز إسلامي ورمز عالمي له شأنه وأي شأن.

ومن البديهي أننا لن نفعل مثل الآخرين ونبكي على الفلوجة، وشهداء الفلوجة، والمجازر الأمريكية في الفلوجة، وقصف المساجد والمباني وتدمير البيوت والأشجار والمدارس، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وتحققوا العزة والكرامة بدون شهداء وضحايا، ومهما كان عدد الشهداء والضحايا والخسائر والآلام، فإنها فريضة الدم والاستشهاد، وهي فريضة لا بد منها، بل هي شرط النصر والصمود والصعود والإقلاع بإذن الله تعالى.

وإذا كانت جنين وأمثالها هي النموذج لقدرة الإنسان على مواجهة الآلة، فإن الفلوجة هي الأكثر وضوحاً والأعمق في هذا الإطار؛ لأنها مدينة صغيرة« ٢٠٠ ألف نسمة»، وهي تواجه أكبر قوة غاشمة في التاريخ وليس بعد أمريكا قوة حتى الآن، وبالتالي فإن درس الفلوجة هو الدرس الأوضح الذي لا يمكن بعده أن يكابر أحد، أو يغالط في أننا أمة قادرة على المواجهة والصمود، وأن أصغر قرية في العالم – وبالذات العالم العربي والإسلامي لأسباب حضارية وثقافية ودينية مرتبطة بالجهاد والاستشهاد – قادرة على مواجهة أمريكا والصمود أمام أمامها، بل وإنزال أكبر الأذى بها. وبالتالي فإنه يمكن أن نؤرخ بما قبل الفلوجة وما بعد الفلوجة، حيث ستصبح نموذجاً يقتدى به في كل المدن والقرى والجماعات البشرية الطامحة، في مواجهة الاستكبار الدولي ومناهضة أمريكا ... إن الفلوجة هي عزنا جميعاً، ولذا

فهي تستحق الدعم العراقي والدعم العربي والدعم الإسلامي، بل والدعم العالمي، لأنها اختارت لنفسها شرف أن تكون رأس الرمح في مشروع المقاومة والنهوض العراقي والعربي والإسلامي والعالمي.

من العناوين الخطأ، والممارسات الخطأ، يمكننا أن نرصد ما سمي بوفد المفاوضات العراقي الذي تكون من بعض أعضاء مجلس الحكم الانتقالي – ذراع أمريكا في العراق – أو بعض المنتسبين للأحزاب الإسلامية أو بعض علماء الدين، ورغم ما يمكن أن يقال عن حسن النية في هذا الصدد، فإن الوساطة والمفاوضات هنا هي الطريق الخطأ ذلك أن الفلوجة عندما اختارت طريق الجهاد والمقاومة، فإنها فإنها صعدت الجبل والطريق الصعب. وإن الفلوجة حين فعلت ذلك لم تكن تتصرف كرد فعل على اعتقال زعيم ما، أو البحث عن مقعد في مجلس الحكم، أو طلب إصلاحات أو مكاسب فئوية أو جاه أو غيرذلك، ولكنها كانت هي البادئة بالجهاد والثورة، وبالتالي فأي وساطة على أي أرضية يمكن فقط أن نتحدث عن هدنة – صحيحة أو خاطئة – وهذه الهدنة في رأينا هي ما يحتاجه الأمريكان لالتقاط الأنفاس، وإحضار المزيد من التعزيزات، وبالتالي، فالوساطة بهذه الطريقة مهما كانت النوايا طيبة فهي ممارسة غير صحيحة وتفتقر إلى الرؤية الاستراتيجية الصحيحة، ولو كان لا بد من جهد فهو جهد الدعم بلا حدود ولا شروط وإشعال الأرض تحت أقدام الأمريكان في كل مكان بالعراق؛ لتخفيف الضغط على الفلوجة وليس شيئاً آخر.

***

تكتب المدن عادة في مداخلها مرحباً بك في مدينة كذا، ولكن الفلوجة وحدها وهذا من حقها كتبت في مداخلها« ارفع رأسك فأنت في الفلوجة». ومن حق

الفلوجة أيضاً أن يصفها الكتاب والصحفيون الذين كتبوا عنها بأنها قلعة الأسود، أو أن تصفها صحيفة الجارديان البريطانية بأنها مقبرة الأمريكان، وإذا كان الأمريكان قد اعترفوا بـ« ٥٠ قتيلاً» وعدد أكبر من الجرحي في مواجهة ٦ أيام فقط في الفلوجة، وإذا كانت العربات والدبابات والطائرات المروحية المحطمة في مداخل الفلوجة وحولها وداخلها، كلها تشهد بشراسة المقاومة ونجاحاتها الهائلة، فإن ظهور المقاتلين في الفلوجة يمسكون المصحف الشريف بيد والبندقية أو أي سلاح باليد الأخرى، لهو دلالة مهمة على البعد الإسلامي والعقائدي في الصراع ضد أمريكا، وهو شرط ضروري للصمود والانتصار؛ فمن الناحية العلمية البحتة -وفقاً لعلوم السياسية والاجتماع- فإن طبيعة التحدي وطبيعة العدو وطبيعة المعركة- تقول: إن غياب العامل الإسلامي في أي مواجهة لنا مع العدو كفيل بفشلنا؛ لأن طبيعة المعركة تفرض ذلك، بالإضافة إلى مدد الله تعالى الذي يأتي للمؤمنين المجاهدين الذين بذلوا كل الجهد، والحديث عن مدد الله تعالى في معارك الفلوجة أصبح حديثاً متواتراً، لدرجة أنه حتى الصحف ذات الميول غير الإسلامية باتت تعترف به وتنقله من لسان المقاتلين في الفلوجة من باب الأمانة الصحفية، وينقل أحد هؤلاء الصحفيين عن مقاتل في الفلوجة قوله« إننا في الفلوجة كأنما تقاتل معنا ملائكة الرحمن». صبي في الخامسة عشرة من عمره هزم ثلاثة من جنود المارينز قتل أحدهم وأصاب آخر وهرب الثالث مذعوراً؛ ليحتمي بأحد البيوت، وقد رصدت وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمصورة، أن الأمهات تحرض الأولاد على الجهاد ضد الأمريكان، حيث الأمهات يدفعن الصبية إلى الجهاد قائلات: اذهب وعاون أباك.« اذهب قُرْب أخيك» « الله أكبر ...إلي الجهاد لقتل وطرد الأمريكان» والمساجد كلها تكبر وتدعو إلى الجهاد، وتقرأ سوراً من القرآن الكريم، وخطبة الجمعة في الفلوجة ومنذ فترة طويلة كانت بمثابة الشرح السياسي

لبرنامج المقاومة العراقية في كل العراق، وليس في الفلوجة وحدها، وقد تم اعتقال أكثر من خطيب وإمام وشيخ من الفلوجة على يد قوات الاحتلال منذ بدء المقاومة.

وهكذا ، فإن العوامل كلها تقود إلى صمود ومواجهة ناجحة في الفلوجة، ولم يكن غريباً أو عجيباً أن تصل التعزيزات بالآلاف من قوات العدو لتشديد الحصار على الفلوجة ومحاولة اقتحامها.

***

بعد صمود الفلوجة كل هذا الوقت – حتى لو سقطت – لا يمكن الحديث عن القضاء على المقاومة العراقية، وبعد ممارسات أهل الفلوجة وما صدر منهم من مواقف وبيانات وخطب جمعة، لا يمكن الحديث عن أن مشروع المقاومة هو مشروع حرب أهلية أو طائفية، أو مسألة إعادة النظام السابق أو إعادة الديكتاتورية أو غيرها من محاولات تشويه الوجه الجميل والمضيء للمقاومة. وإذا كانت الفلوجة التي تبعد عن بغداد ٥٠ كيلو مترا، والفلوجة تعني الأرض الصالحة للزراعة. وهي مدينة مشهورة بكثرة المساجد، ففيها:« ٨٠ مسجداً كبيرا» عدا الزوايا، وتسكن الفلوجة عشائر سنية، وكان علماء الفلوجة من أبرز من شارك في الثورة العراقية ضد الاحتلال الإنجليزي في عشرينيات القرن الماضي.

■ ■ ■

انتفاضة الأقصى ثقب في جدار اليأس

حقائق التاريخ ... سنن العمران البشري والاجتماعي، تؤكد كلها أن المقاومة هي الطريق الوحيد لإنهاء الاحتلال ...أو انتزاع الحقوق ...هذه الحقيقة يجب ألا تغيب لحظة عن أعيننا خاصة في مناسبة دخول الانتفاضة الفلسطينية عامها الرابع ... متخطية عدداً هائلاً وصعباً من المنحنيات والصعاب.

هذه الانتفاضة المباركة التي اندلعت في ٢٨ سبتمبر« أيلول» عام ٢٠٠٠ عقب قيام المجرم شارون – قبل أن يصبح رئيساً للوزراء في إسرائيل وبالتواطؤ مع رئيس الوزراء الإسرائيلي حينذاك إيهود بارك – بتدنيس المسجد الأقصى المبارك بزيارته المشئومة له. هذه الانتفاضة المباركة ليست كغيرها من الانتفاضات الفلسطينية السابقة، بل هذه الانتفاضة ومعها المقاومة الباسلة التي كانت إحدى سماتها وإضافاتها المتميزة ليست كغيرها من تجارب كفاح الشعوب من أجل حقوقها، ولا شك أنها تتميز في هذا الإطار على أكثر من مستوى يتصل بطبيعة قوى الصراع وظروفه، ويتصل بالمخاطر والأحداث التي تخطتها الانتفاضة بجسارة ونجاح. فالشعب الفلسطيني لا يواجه احتلالاً عادياً مثل غيره من الشعوب، بل يواجه استعماراً استيطانياً هو الأشرس من نوعه، حيث لا يتصل فقط بعملية النهب الاقتصادي أو الأسباب الاقتصادية، والطموح الفردي فقط، بل يتصل أيضاً بأيديولوجية وعقيدة وأساطير وتاريخ، الأمر الذي يمنحه المزيد من الشراسة والتعصب، وكذا فإن الشعب الفلسطيني في انتفاضته الأخيرة لا يواجه الصهاينة وحدهم، بل يواجه تحالفاً أمريكياً صهيونياً هو الأبرز في ظل حالة العولمة، ويواجه أمريكا مباشرة بعد شروعها الإمبراطوري، ومحاولتها إعادة صياغة المنطقة بطريقة

معينة، يواجه أمريكا في ذلك، وهي الوحيدة المنفردة بالقوة في العالم بعد سقوط الاستقطاب الدولي، وانهيار المنظومة الاشتراكية وتفكك الاتحاد السوفيتي السابق، بل أكثر من ذلك فإن الحق الفلسطيني لا يجد من يسنده، ولا حتى بكلمة عدل من القوى الفاعلة في العالم، وقد ظهر ذلك جلياً عندما وضع الاتحاد الأوروبي الجناح السياسي لحركة حماس على لائحة الإرهاب، وكذا في بيان اللجنة الرباعية المكونة من أمريكا وروسيا والاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة الذي ادعى أن لإسرائيل الحق في الدفاع عن نفسها، وطالب الفلسطينيين بالتوقف عن العنف وهو ما اعتبره الفلسطينيون أمراً مزريا بهم وبحقوقهم« يقصد الفلسطينيين الذين يراهنون على السلاح وأوربا وأمريكا والأمم المتحدة» وهكذا فإن القضية الفلسطينية على عكس كل القضايا – ربما بسبب النفوذ الصهيوني أو الوجدان الصليبي الغربي المتصل بخصوصية فلسطين مكانا وزماناً – لم تجد تعبيراً حقيقياً من القوى الفاعلة في العالم – وصحيح أن معظم الشعوب بل والحكومات غير القوية تؤيد الفلسطينيين، ولكنه تأييد أدبي ، حيث إنها لا تمتلك القوة الكافية والنفوذ الكافي لفرض إرادتها.

وبالإضافة إلى ذلك – وقبله وبعده – فإن الحكومات العربية والإسلامية في حالة تجزئة وتفكك وضعف وتبعية لا تسمح لها بدعم الفلسطينيين دعماً حقيقياً، إن لم يكن الوقوف ضد المقاومة في بعض الحالات. وهكذا فإن الكفاح الفلسطيني يتميز على غيره بصموده واستمراره رغم تلك الظروف القاسية. وكذا فإن الانتفاضة تحديدا مرت بمنحنيين خطيرين، الأول: هو حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بعد اندلاع الانتفاضة بحوالي عام، وهو حادث ترتب عليه تصاعد قوة اليمين الأمريكي، وإعلان أمريكا الحرب على ما يسمى بالإرهاب، ووضع حركات المقاومة الفلسطينية في هذه الخانة الضيقة، وزيادة مساحة التحالف الأمريكي

الصهيوني، بل إن شارون استغل الحادث بسرعة وخبث ، حيث أعطى الانطباع بأنه يحارب المعركة الأمريكية ذاتها ضد النوع نفسه من الإرهاب، بل قال لبوش: إذا كنت تحارب «بن لادن» في أفغانستان فأنا أحارب عشرات «بن لادن» في فلسطين!، والمنحنى الثاني: هو سقوط العراق في يد القوات الأمريكية في إبريل ٢٠٠٣، الأمر الذي اعتبره الإسرائيليون نهاية متاعبهم بغياب القوة العراقية عن معادلة الصراع وعن دعمها المعروف للمقاومة والشهداء والانتفاضة، والأثر النفسي العكسي لسقوط بغداد على الروح المعنوية للمقاومة، وللشعب الفلسطيني عموماً، وبدا أن المسألة ستكون لصالح الإسرائيليين على طول الخط، فسقوط بغدد يعني خوف سوريا وإيران ولبنان، بل مصر والسعودية أيضاً، أي إن الخط أصبح مفتوحاً لإعادة صياغة المنطقة وفلسطين على الهوى الأمريكي الإسرائيلي. في كلا المنحنيين صعد شارون وحكومته ومؤسسته العسكرية، بالضغط العسكري والسياسي على الفلسطينيين، ولكن في كل مرة صمد الشعب الفلسطيني وخرج من المنحنى بنجاح، على الأخذ في الاعتبار أن الاندلاع السريع والنوعي للمقاومة العراقية ساعد في تعديل الكثير من المعطيات لصالح الفلسطينيين، ولكنه أيضاً كفاح شعبي، أي عملياً .. أن الفلسطينيين والمقاومة والانتفاضة صمدوا على عكس المعادلات رغما على المعادلات والمنحنيات، وهو تميز لا شك فيه لصالح الفلسطينيين.

***

قال شارون سأقضي على الانتفاضة والمقاومة في ١٠٠ يوم ومرت سنوات وشهور وأيام، ولازالت الانتفاضة متقدة والمقاومة تتصاعد، فعل شارون وحكومته ومؤسسته العسكرية كل شيء دون جدوى. قتلت إسرائيل ٢٧٠٠

فلسطيني منذ بدء الانتفاضة بينهم ٤٩٠ طفلاً و ١٨٠ امرأة، وتم جرح ٣٧ ألف جريح واعتقال ٨٠٠٠ معتقل من بينهم عدد من المعتقلات، وتم ارتكاب انتهاكات ضد الصحفيين ٤٧٣ مرة ما بين قتل وإصابة واعتقال واحتجاز وتقييد حركة ومنع من التغطية، وتدمير ٣٩٠٠ منزل بشكل كلي، و٥٠ ألف مسكن بشكل جزئي كما تم تدمير ٧١٠٠ منشأة اقتصادية، وبلغ عدد العاطلين عن العمل ٣٠٢ ألف بسبب العدوان الصهيوني بنسبة ٤٤٪ من القوة البشرية العاملة ، وبلغت نسبة الفقر في فلسطين المحتلة ٦٠٪، أما الأراضي التي تم تجريفها ٦٠٥٠٠ دونم، واقتلاع ٩٤٠ ألف شجرة« أي ما يقترب من المليون شجرة» وبلغ عدد القصف الإسرائيلي ٢٠٦٠٠ مرة، واستخدمت إسرائيل الطائرات القاذفة الثقيلة من طراز إفّ ١٦ في ضرب المنازل المدنية، وكذلك طائرات الأباتشي في اغتيال عناصر المقاومة، والدبابات والمدفعية والمشاة وسلاح المهندسين ... إلخ ... وحاولت أو اغتالت فعلاً تقريباً كل العناصر القيادية النشطة في حماس والجهاد الإسلامي، وفتح، وغيرها بمن فيها اغتيال الأب الروحي والزعيم المؤسس لحماس الشيخ/ أحمد ياسين، أي إن إسرائيل فعلت كل ما تستطيع ومعها أمريكا عسكرياً، وأوربا وروسيا سياسياً للقضاء على الانتفاضة ولم تفلح.

وإذا اعتبرنا ذلك نوعا من التحيز لصالح الانتفاضة وهكذا ينبغي أن يكون الاستنتاج – فإن بعض المنبطحين يرون أن ذلك استنزاف للموارد الاقتصادية والبشرية للشعب الفلسطيني، ويعتبرون ذلك أحد سلبيات الانتفاضة، وبالتالي يجب وقفها، أو على الأقل عدم عسكرتها على حد قولهم، وهذه الأقوال تنم عن السذاجة أو الخداع، فالقتل والتدمير والاغتيال لم يتوقف إسرائيلياً قبل الانتفاضة، وقبل عسكرتها، بل إن المجازر المعروفة تمت بدون عنف فلسطيني وبدون انتفاضة،

والانتفاضة والمقاومة يقللان عادة من حدة التوحش الإسرائيلي والأمريكي وليس العكس، وعلى مستوى أن الانتفاضة فتحت الباب أمام اليمين الإسرائيلي ليكسب الانتخابات، ويزداد قوة فهذا هراء؛ لأنه نوع من التطور الطبيعي لمجتمع عدواني، وكذا فإن الوحشية الإسرائيلية لم تكن أقل في حالة وجود حكومة يسارية أو عمالية في إسرائيل، وعلى مستوى أن عسكرة الانتفاضة أعطت الذريعة لإسرائيل للولوغ في الدم الفلسطيني، فالولوغ في الدم الفلسطيني كان ولا يزال سياسة إسرائيلية ثابتة قبل عسكرة الانتفاضة وقبل الانتفاضة ذاتها، والذي عسكر الصراع أصلاً هو أمريكا وإسرائيل، وأخيراً وليس آخراً، فإن الجولان السورية المحتلة مثلاً لم تحدث بها عمليات عنف ولم تخرج إسرائيل منها، رغم مرور ما يقرب من ٣٧ عاماً حتى الآن.

وهكذا فلا تحرر إلا بالمقاومة، وليست المقاومة هي سبب البلاء بل العكس، المهم أن الشعب الفلسطيني وحركات المقاومة برغم كل ما تفعله إسرائيل كان قادراً على تجديد نفسه، وتجديد الأطر القيادية والاستمرار في المقاومة في ظل كل الظروف، ويجب هناك أن ندرك أن المقاومة استعصت على الذبح، ووصلت بعملياتها إلى يافا، وحيفا والجليل، وتل أبيب، والقدس، أي كل مكان في إسرائيل، وفي مستوطنات الضفة، وغزة كثيفة الحراسة، وفي كل الأوقات بما فيها أشد الأوقات استنفارا واستبداداً من جانب السلطات الصهيونية والاستخبارات الأمريكية، ورغم حالة الطوارئ القصوى في الأجهزة الإسرائيلية تتم عمليات في القدس وتل أبيب وغيرهما، وهكذا فالمقاومة قادرة على العمل في أي مكان وأي زمان، وهذا معناه أن المقاومة لن تهزم إن شاء الله.

***

﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾ إذا كان معدل الألم الفلسطيني عالياً بسبب الممارسات الوحشية الصهيونية، فإن ضريبة الدم والراحة تدفعها الشعوب لنيل حقوقها، وليس أمامها خيار آخر. لأن الاستكانة تعني المزيد من الموت والألم والمهانة إلى جانب ضياع الحقوق، ولكن الطرف الإسرائيلي بدوره يعاني من شروخات خطيرة، بل إن الانتفاضة والمقاومة بهذه الطريقة يمكن أن تؤدي إلى الإنهاء الكامل للكيان الصهيوني، وهذا ليس كلاما عاطفياً، بل إن تقارير إسرائيلية وشخصيات إسرائيلية مرموقة تردد هذا الكلام ذاته، وبداية فإن الانتفاضة الفلسطينية تسببت في مصرع ٨٠٠ إسرائيلي، وجرح ٥٠٠٠، كما خسر الاقتصاد الإسرائيلي بسبب الركود وحروب رؤوس الأموال، وإعلان المنشآت الاقتصادية وتأثرت حركة السياحة حوالي ٩ مليارات دولار رغم خفض الميزانية الإسترئيلية للعام ٢٠٠٤ حوالي ٧٥٠ مليون دولار، وكان قد تم خفضها في العام ٢٠٠٣ بحوالي ٢,٨ مليار دولار لاحتواء العجز في الميزانية، وارتفع معدل البطالة الإسرائيلي ليبلغ ١١٪ من اليد العاملة الفعلية أي نحو ٣٠٠ ألف شخص، وتراجعت الرواتب بمعدل ٦,٤٪ في النصف الأول من العام الجاري مقارنة بالفترة نفسها من العام الماضي، وبلغ عدد الهجرة العكسية من إسرائيل وفقاً لتقرير أعده عدد من الخبراء الإسرائيليين من الكنيست، ووزارة الخارجية والاستخبارات الصهيونية حوالي ٧٥٠ ألف شخص، وإن هؤلاء الأشخاص من ذوي الشهادات العلمية العالية، أو المهن ذات الأهمية، وإن النسبة مرشحة للزيادة: لأن الذين بقوا في إسرائيل منهم عدد كبير يريد الهجرة منها لو أتيحت له فرصة عمل حقيقية في الخارج، وهذا سبب ارتفاع نسبة المهاجرين من حاملي الدرجات العلمية، أو ذوي المهن الرفيعة، قال التقرير: إن ٨٦ ٪ من المهاجرين من إسرائيل هم من رجال المال، أو الشخصيات العلمية المرموقة أو أصحاب المهن الرفيعة المستوى.

ويري إبراهيم بورج رئيس الكنيست الإسرائيلي« أن إسرائيل تعيش كارثة لن ينجو منها أحد، وأن إسرائيل مهددة بالفناء» وفي تقرير لبورج - شهادة للتاريخ - حيث اعترف بورج:« بأن المستقبل مظلم بالنسبة لإسرائيل، وأن الفلسطينيين سينتصرون في النهاية وأن ذلك لن يستغرق وقتاً طويلاً بها، قد يحدث على مدى عشرين عاما فقط، فالآلة العسكرية الإسرائيلية، مهما حصدت من أرواح الفلسطينيين إلا أنهم صمدوا لأنه ليس لديهم شيء يخافون عليه، إنهم متمسكون بالأرض وبالموت عليها. وقد أرهقنا الصراع معهم أكثر مما أرهقناهم».

الانتفاضة المباركة هي قدر الشعب الفلسطيني، والمقاومة هي سبيله الوحيد للتحرر ولنيل الحقوق والمحافظة على الكرامة، والانتفاضة هي الجزء الحي الباقي في الجسد العربي المهترئ، بل هي العامل الأهم في إعادة الحيوية والصحة إلى ذلك الجسد العليل، وبالتالي فهي الأمل، والتمسك بها واجب وطني وديني وقومي، ومن أجل المصلحة والوجود نفسه، وبعد أن أظهرت الحقائق عارية، بعد أن أصبحت أمريكا في مواجهتنا مباشرة، بعد كل ما قدمته لإسرائيل أو فعلته بنفسها، فإنه لا خيار آخر لهم إلا الموت بعد الاستسلام، أو الموت والحياة مع المقاومة،الموت والحياة مع الكرامة مع المقاومة أفضل من الفناء الحضاري والفناء الحقيقي البشري والاقتصادي إذا تآمرنا على أنفسنا وأوقفنا المقاومة أو حاصرناها أو لم ندعمها.

■ ■ ■

نهاية الوهم بداية النصر

إذا كانت خارطة الطريق ، وهي الخطة التي قدمها الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش إلى الفلسطينيين والإسرائيليين وقبلها الطرفان الرسميان، كانت نوعا من الوهم والخداع والتخدير، ولم تقدم شيئاً حقيقياً للفلسطينيين، وهي في أحسن الظروف والنوايا نوع من التصفية للقضايا الفلسطينية الجوهرية، في مقابل أوهام عن دولة فلسطينية لا تكاد ترى على الخريطة، ولا تكاد تمتلك أي مقومات للبقاء، فإن الطرف الإسرائيلي سعى مباشرة لتصفية هذه الخارطة بممارساته القمعية المستمرة، وتجاهله للسلطة الفلسطينية رغم انبطاحها، ثم بناء الجدار العنصري العازل ... إلخ ...وهي ممارسات وصفتها دوائر السلطة ذاتها بأنها تنسف فكرة السلام من جذورها، إلا أن تلك السلطة ومن لفّ لفها من مثقفين وسياسيين منبطحين راحوا يبحثون عن وسيلة لإرضاء الأمريكيين عن طريق إدانة العنف الفلسطيني، أو الاستمرار في المراهنة على دور أمريكي ضاغط على إسرائيل – وهو وهم طبعاً – ولكن المهم في المسألة أنه كانت هناك سطور من الوهم تسمى: خارطة الطريق يمكن لمن يريد أن يخدع نفسه أو يخدع الناس التمسك أو التلويح بها، أو البحث عن موقف ما للرباعية الدولية أو الاتحاد الأوروبي!! ورغم أن المسألة كانت واضحة لأن الأمريكان دعموا الإسرائيليين بكل شيء من سلاح ونفوذ وفيتو.

ورغم التأييد الأوروبي الصامت أو المتواطئ مع إسرائيل مع بعض المواقف النقدية الشكلية التي لا تسمن ولا تغني من جوع، رغم أن المسألة كانت واضحة، إلا أن الغريزة الاستعمارية الأمريكية والصهيونية أبت إلا أن تسقط ورقة التوت عن الجميع، وتضعنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها. ولأن هذه الغريزة

الاستعمارية الأمريكية - الصهيونية غبية - وهذه حكمة الله تعالى - ولأنها محملة بعداء صليبي طويل وعميق ، فإنها تفعل أفعالاً أقل ما يقال فيها أنها تحرج أصدقاء أمريكا، وتنسف منطق دعاة السلام المزعوم، وتستفز الشعوب العربية والإسلامية - والفلسطينية بالطبع - وهذا طبعاً لصالح المقاومة وثقافة المقاومة، ولأننا ندرك منذ الوهلة الأولي، ويدرك أي دارس ومحلل ينطلق من المعطيات المجردة، أنه لا سبيل هناك لانتزاع الحقوق كلها أو بعضها إلا بالمقاومة، فإن ما تفعله أمريكا وإسرائيل مفيد على المستوى الاستراتيجي لأمتنا وقضيتنا، ذلك أنها تدفع الشعوب دفعاً إلى اليقظة وإسقاط الأوهام، ومن ثم التخندق في خندق المواجهة كخيار وحيد لا بديل عنه.

الموقف الأمريكي الأخير والذي اتخذته الإدارة الأمريكية عقب زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلي آرئيل شارون الأخيرة إلى واشنطن، عبر تعبيراً كاملاً عن الانطباق الأمريكي الكامل مع الموقف الإسرائيلي، وهذا في حد ذاته خير، حتى نعرف جميعا أن العدو الإسرائيلي هو العدو الأمريكي، وأن النضال والجهاد في العراق هو ذاته النضال والجهاد في فلسطين وفي كل مكان، وأن علينا أن نواجه الحلف الأمريكي الصهيوني كشيء واحد، وألا ننخدع بعد الآن بإمكانية الاستفادة من الموقف الأمريكي في فلسطين رغم ما يفعله في العراق.

ولعل هذه النقطة في حد ذاتها تنهي أوهام الحكومات العربية أو الإسلامية التي تدعو إلى ذلك وتراهن عليه، فإما أن تفيق من الوهم، وإما أن تلطخ نفسها بعار الخيانة، أو داء الغبار والبلاهة.

ونلاحظ أن الموقف الأمريكي الأخير الذي تمخض عن اجتماع بوش وشارون جاء عقب زيارة للرئيس المصري إلى واشنطن!!.

الموقف الأمريكي تمثل في عدد من النقاط الكاشفة والتي تسقط أي وهم، حتى إنه لم يعد لمخدوع أن يستمر في انخداعه، وذلك أن الرئيس الأمريكي وكبار أقطاب حكومته قد عبروا عن ذلك بأن على الفلسطينيين ألا يفكروا في عودة اللاجئين، وأن حدود ١٩٦٧ ليست مقدسة، وأنه يمكن لإسرائيل الاحتفاظ بمناطق في الضفة الغربية، وأن حدود إسرائيل يجب ترسيمها وفقاً للحقائق السكانية الجديدة التي قرئت منذ عام ١٩٦٧. وأن إسرائيل دولة يهودية، وقد وصف« إيهود أولمرت» نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي وصف الموقف الأمريكي بأنه يمثل انتصاراً رائعاً لسياسة شارون، وفي المقابل فإن عدداً كبيراً من الفلسطينيين، سواء من حماس أو الجهاد أو حتى أوساط السلطة الفلسطينية، اعتبروا ذلك بمثابة رصاصة الرحمة على خارطة الطريق، وإذا كان ذلك مفهوماً من جانبي حماس والجهاد فإن وصول السلطة الفلسطينية إلى تلك القناعة، يرتب بالضرورة التخندق مع المقاومة، وانهيار وهم الحصول على شيء عن طريق أمريكا، بل يرتب – لو كان هناك كرامة وعقل – ضرورة فهم أن مواجهة المشروع الصهيوني الأمريكي تقتضي المقاومة، والمقاومة فقط في مواجهة إسرائيل وأمريكا معاً، وبلا تفرقة بينهما، فالمعركة في فلسطين هي ذاتها في العراق ، وهي ذاتها في أفغانستان!!.

***

الغريزة الاستعمارية بحكم طبيعتها غبية واستفزازية – وهذا من رحمة الله بنا إذا كنا حقا شعوبا حية، وحتى لو سقطت الحكومات في صمت الخيانة أو الغباء – فإن ذلك لن يقدم ولن يؤخر؛ لأن المعركة شعوب في النهاية، وإذا كانت الغريزة الاستعمارية محملة أيضاً بوجدان صليبي استكباري متغطرس وأحمق، فإن المسألة أفضل كثيراً، لأننا نؤمن بأن أمتنا لا تزال حية. وأن جماهير الأمة قادرة بالمقاومة على

غرار المقاومة العراقية والفلسطينية على تعطيل المشروع الأمريكي الصهيوني، ما دامت الأقنعة قد سقطت، وباتت الحقائق واضحة، ولعل نهاية الوهم هو بداية النصر.

الممارسات الأمريكية في العراق، مثل الممارسات الصهيونية في فلسطين، الممارسات السياسية والعسكرية والاقتصادية على حد سواء، كلها تقود إلى سيادة ثقافة المقاومة، فالسياسات الأمريكية والصهيونية تسقط ورقة التوت عن المتعاونين مع أمريكا والمراهنين عليها، وبديهي أن انهيار الوضع الرسمي العربي أو شلله سيفسح المجال أمام حركات المقاومة لامتلاك زمام المبادرة الشعبية، وهو ما يعترف به مفكرو العدو أنفسهم، فالمفكر والقيادي في حزب العمل الإسرائيلي« حاييم رامون» يرى أن استمرار الحالة العربية الرسمية الراهنة أفضل كثيراً من تغييرها وظهور حركات للمقاومة على الغرار العراقي والفلسطيني معادية لأمريكا وإسرائيل، وهو نفس رأي يعكوف بيربي الرئيس السابق للمخابرات الإسرائيلية« الموساد» .

المواقف والسياسات الأمريكية الإسرائيلية في الحقيقة تصفي الوجود الفكري، ومن ثم العرقي للتيارات التلفيقية أو المرنة، وتفتح الطريق واسعا وبلا حدود أمام تيار المقاومة خاصة الإسلامية منها، ولا شك أن اكتساب الشعوب لعنصري إسلامية المرجعية، والمقاومة المسلحة الشعبية للمشروع الأمريكي الصهيوني، وهما الشرطان الصحيحان لبداية النصر، وغياب أي من العنصرين« الإسلامية – المقاومة الشعبية المسلحة» يمكن أن يجعل النصر مستحيلاً والصمود مشكوكا فيه.

وهكذا فقد انتهى الوهم، وبدأ طريق النصر،« الله أكبر والحمد لله» .

■ ■ ■

لماذا تفشل مشروعات الإصلاح الخارجية والداخلية أيضا

منذ أن طرح الرئيس الأمريكي جورج بوش ما أسماه الشرق الأوسط الكبير، والذي من المفترض حتى أن تتبناه مجموعة الدول الثماني الكبار في العالم في مؤتمرها القادم، منذ ذلك الحين تبارت حكومات وجماعات ورموز ثقافية وسياسية في طرح تصورات، وعقد مؤتمرات وإصدار توجيهات حول مشروعات للإصلاح، ولكن الحقيقة أن كل هذه المبادرات محكوم عليها بالفشل؛ لأسباب كثيرة واقعة في بنية هذه الحكومات، والجماعات الثقافية والسياسية، ولأسباب تتصل بإغفال العنصر الرئيسي للإصلاح والنهضة، وهو العنصر نفسه الذي فشلت بسبب غيابه كل مشروعات النهضة العربية والإسلامية التي شهدتها تلك البلدان في غضون القرنين المنصرمين.

بداية فإن مشروعات الإصلاح القادمة من الخارج هي بالضرورة فاشلة؛ لأنها تفتقد للمصداقية وتتسم بالنفاق، وأهدافها لا علاقة لها في الحقيقة بموضوع الإصلاح أصلا، بل نكاد نقول: إن الغرب وأمريكا لا يريدون لها الإصلاح والديمقراطية والنهضة، أو أي شيء إيجابي أصلاً، لا على الأساس الإسلامي ولا حتى على الأساس العلماني، ولا علي أي أساس، المطلوب فقط: هو إعادة هيكلة مجتمعاتنا بما يضمن الخضوع والانصياع الكامل للمشروع الغربي الأمريكي والصهيوني، لا أكثر ولا أقل، ونلاحظ في هذا الصدد أن مشروع الشرق الأوسط الكبير الذي تم طرحه مؤخراً لم يكن مشروعاً أو مبادرة بل كان نوعاً من الحكم أو عقد الإذعان، فهو لم يناقش الحكومات المعينة، ولم يهتم بأخذ رأيها، بل وضع

المشروع هكذا، وعليهم التنفيذ فضلاً عن أن أي مشروع للإصلاح ما لم يستند إلى إدارة شعبية حقيقية فلن ينجح، وبديهي أن الممارسات الأمريكية والغربية تجاه شعوبنا تاريخياً وعقائدياً ووجدانياً، كلها تقود إلى نفرة الشعوب من أي شيء يأتي من هناك، أو على الأقل الشك فيه والارتياب بمضمونه وأهدافه، ويكفي أن مشروع الشرق الأوسط الكبير اهتم بإدخال إسرائيل قسراً في المنظومة العربية الإسلامية، وهذا مستحيل حتى ولو استند إلى قوة هائلة، لأنه ضد حقائق التاريخ والجغرافيا والدين والوجدان، وهكذا فإن مثل هذه المشروعات تولد ميتة، وأعتقد أن الذين جاءوا بها يعرفون هذا ، ولا يريدون إلا نوعاً من الضغط على الحكومات بها؛ للمزيد من الانصياع والإذعان والانبطاح ووضع الحكومات في حالة رد فعل.

من جانب آخر ، فإن الضجة الهائلة والتحليلات المستمرة في الصحف والفضائيات، والجلسة الثقافية والسياسية، والاهتمام المبالغ فيه من الحكومة والمثقفين بالموضوع، يعكس قدراً هائلاً من الخلل وعدم الثقة بالنفس، فالإصلاح واجب شرعي في كل زمان ومكان، ولن يكون التفكير في الإصلاح مجدياً إذا تم بناء على ضغط خارجي، ومجرد الرقص على أنغام الخارج هو في حد ذاته خلل كبير، وأحد أسباب الفشل، نعم لقد تأخرنا كثيراً في الإصلاح، نعم نحن في حالة مزرية وهذه جريمة ارتكبتها الحكومات والقوى السياسية والجماعات الثقافية على حد سواء، فالحكومات أدمنت الاستبداد والفساد، وهذه جريمة تستحق عليها المحاسبة، والقوى السياسية لم تمتلك الشجاعة الكافية ولا الرؤية الصحيحة لمواجهة هذا التحدي، لا نستثني من ذلك أحدا، هذه القوى السياسية مهما كانت مستبدة أو حتى تعرضت لقهر هائل هو قهر غير مبرر، وهو مجرم ويستحق الإدانة ولكن ذلك لا يعفيها من المسئولية، ربما يقلل مسئوليتها ولكن لا يعفيها من

المسئولية، والجماعات الثقافية ارتضت في مجملها أن تكون بوقاً للحاكم، أو ترديداً ورجوعاً لصدى الخارج، وبحثت عن المنافع والمناصب والمؤتمرات بالتقرب من المؤسسات الحاكمة، أو عن الشهرة والجوائز بالتقرب إلى المؤسسات الغربية، حتى لو كان الثمن مثلا سب الدين، أو التخلي عن الثوابت، بالطبع لكل ظاهرة استثناءاتها، ولكنها استثناءات تؤكد القاعدة ولا تلغيها.

إذا تابعنا ردود الأفعال الحكومية تجاه مبادرة الشرق الأوسط الكبير، نجد أن الحكومات أصيبت فجأة بحمى الإصلاح والحديث عنه ، والقول بأنها كانت تؤمن به وتعدله وتجهز أدواته، ولكنها تحتاج إلى وقت وهو كذب صريح﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦] ثم عادت تلك الحكومات تتحدث عن الخصوصية، وهو حق أرادوا به باطل؛ لأن الخصوصية لا تعني الظلم والفساد والتعذيب في السجون، وانتهاك حقوق الإنسان، ثم تلوذ الحكومات بمجموعة من المثقفين لتتحدث عن الإصلاح وتضع أجندات بهدف امتصاص الضغط الخارجي ليس إلا، وانبرت جماعات المثقفين ، كل يدلي بدلوه ، وكان الإصلاح والقضاء على الفساد وتحقيق الحريات، واحترام حقوق الإنسان أو حتى تداول السلطة وتغيير الدساتير، مسألة صعبة وهي ليست صعبة بالطبع، وهي خطوة ضرورية طبعاً، ولكنها لن تحقق الإصلاح هكذا فجأة وبعصا سحرية، وفي هذا الصدد يمكن أن نرصد مؤتمر المثقفين في مكتبة الإسكندرية، الذي تم طبعاً برعاية حكومية ، سواء اعترف بذلك من اعترف أو أنكر من أنكر، ووصل المؤتمر إلى عدد من التوصيات حول الدعوة إلى تداول السلطة، وحرية تكوين الأحزاب السياسية، وإلى تحرير الصحافة والإعلام، والوقف التام لاعتقال الناس في الدول العربية بسبب آرائهم، إصلاح المؤسسات

والهياكل السياسية والإدارية، الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية فصلاً واضحاً صريحاً، أو غيرها من التوجيهات التي كان من الممكن لطالب حقوق مثلاً أن يدلي بها بسهولة، ولو كانت المسألة ليست مجرد امتصاص الضغط الأجنبي لقال هؤلاء المثقفون: إنهم في حالة اعتصام مستمر، وإضراب عن الطعام مثلا حتى يتم الإفراج عن المعتقلين السياسيين في مصر، أو إلغاء قانون الطوارئ مثلاً وهكذا فإن التصرف كرد فعل للضغط الأجنبي، وعدم الندم الثقافي على ما فرطنا فيه في حق الوطن طويلاً، وافتقادنا لدور المثقف كضمير للمجتمع ورائد للتغيير، والتنبيه للمخاطر «كزرقاء اليمامة» لن يؤدي بالطبع إلى نجاح تلك الخلطة غير السرية، والملاحظة الجديرة بالاهتمام هي: أن مبادرة جماعة المثقفين بالإسكندرية لم تتطرق إلي موضوع الاحتلال الأمريكي للعراق، والممارسات الإسرائيلية بخصوص الفلسطينيين أو الرفض الصريح لقبول إسرائيل في منظومة الشرق الأوسط الجديد، وهكذا فإن هناك شبهات واضحة حول الهدف الحقيقي من تلك المبادرات، الأهداف الشخصية، والأهداف ذات الصلة بالحكومة، والأهداف ذات الصلة بإرضاء الأمريكان، وتقديم البعض أنفسهم لهم كبديل، وكل ذلك يعرقل الإصلاح ويفقده مصداقيته.

بقي أن نقول: إن كل مبادرات الإصلاح سواء من الخارج أو الداخل فشلت، وستفشل لعدم إدراكها أن المنوط بالإصلاح هم الناس، الأمة، الجماهير، وأن هؤلاء ليسوا قطعاً من الحجر، بل لهم تركيبهم الوجداني والعقائدي، وجزء من هذا التركيب الحضاري والوجداني أننا أمة لن تنهض ولن تصلح إلا بالمقاومة﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، وأننا نخلط - على مستوى الاقتصاد والسياسة، والحرية والاجتماع - كل شيء بترك المقاومة« ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا» وأن

الطريق الصحيح للإصلاح يبدأ بمقاومة المشروع الأمريكي الصهيوني في المنطقة، وبدون ذلك فإنه لن يكون إلا قبض الريح وحصاد الهشيم، وبناء على غير أساس ، مهما كانت المطالب والمبادرات والمؤتمرات والتوصيات براقة ولامعة، وحتى لو خلصت نوايا الحكومات والمثقفين والجماعات السياسية ، فبغير المقاومة ، لا إصلاح ، لا تقدم ، لا نهضة.

■ ■ ■

مستقبل الاحتلال الأمريكي للعراق

في تحليل لا يخلو من الدلالة توصل الخبير العسكري الإسرائيلي« زئيف شيف» إلى أن الجيش الأمريكي قد مني بالهزيمة في العراق على يد المقاومة العراقية، وأن آثار تلك الهزيمة سوف تكون بعيدة المدى ، وستؤثر على إسرائيل أيضاً. وقال المحلل العسكري الإسرائيلي:« إن سيطرة الجيش الأمريكي على المدن الكبيرة قد أصبحت أضعف مما كانت عليه منذ عام، وأن الوحدات العسكرية العراقية التي شكلتها أمريكا في العراق قد تفككت وانضم عدد من أفرادها إلى المقاومة، وأن التنقل بالطرق بين المدن العراقية بات أقل أماناً، وأن الاتصالات اللاسلكية بين قوات الجيش الأمريكي، ومختلف المراكز تتعطل باستمرار وإذا ما تقوقع الأمريكيون في معسكرات بعد قيام الإدارة العراقية ، فإن الأراضي الواقعة بين المدن والمعسكرات سوف تكون في أيدي الثوار، وأن مثل هذا التدهور يذكرنا بوضع الفرنسيين في مرحلة ما في الهند الصينية، وأنه إذا فقد الأمريكيون تأييد الغالبية الشيعية فإن حربهم في العراق سوف تصبح مشكلة المشاكل، وأن الإدارة الأمريكية يبدو عليها التخبط الاستراتيجي، وبعد لجوء واشنطن للأمم المتحدة لكي تساعدها في الخروج من مأزقها بالعراق لم يعد واضحاً ما الذي ينبغي أن يعتبر كنصر أمريكي، ولا يقل في ذلك أهمية تقييم وتقدير الدلالات الاستراتيجية في حالة ما إذا سُجِّلَ إخفاق ذريع للأمريكيين بالعراق، إنها ستكون دلالات كونية بعيدة المدى سوف تؤثر على إسرائيل أيضاً».

الهزيمة الأمريكية في العراق أو الفشل الأمريكي الذريع في العراق بات حقيقة معروفة يعترف بها كبار القادة والمحللين في أمريكا ذاتها وفي إسرائيل« الحليف

الاستراتيجي». يعترف بها البعض مباشرة خارج الإدارة الأمريكية. ويتحدث بها داخل الإدارة الأمريكية كبار رموزها ولكن بطريقة غير مباشرة، فالرئيس الأمريكي« جورج بوش» لم يعد يتحدث عن انتصار أمريكي بل عن تبرير استمرار الجيش الأمريكي في المستنقع العراقي رغم الفشل قائلاً:

« إن الجيش الأمريكي صامد في العراق، ولن يتركها للإرهابيين ولن يفر أمام الأشرار»، وهو بهذه الطريقة يخاطب طرفين، الطرف الأول هو الجمهور الأمريكي على أساس أن الخسائر الكبيرة في العراق هي ثمن لعدم انتصار الإرهابيين ، وبالتالي، وتجنيب أمريكا مخاطر كبيرة في الخارج والداخل ؛ أي أن الجيش الأمريكي يخوض المعركة ضد الإرهاب خارج الأراضي الأمريكية بدلاً من خوضها داخل أمريكا، وبالتالي فعلى الجمهور الأمريكي تحمل الخسائر، وينتظر النعوش العائدة، والطرف الثاني : هو العملاء في العراق حتى لا ينهاروا فجأة عند إحساسهم باقتراب الانسحاب الأمريكي من العراق وتركهم في العراء أمام الشعب العراقي الثائر عليهم؛ ليواجهوا عقوبة الخيانة، وهو إحساس أصبح قوياً لدى الأطراف المتعاونة مع أمريكا في العراق.

أمريكا تحاول التخلص من الفشل بأكثر من طريقة، وكل هذه الطرق فشلت أو محكوم عليها بالفشل، فليس هناك تغير نوعي مثلاً إذا ما كان من يحكم العراق لحساب أمريكا هو مجلس الحكم، أو وزارة معينة من الأمم المتحدة، أو حتى حكومة منتخبة، فإذا انسحبت القوات الأمريكية إلى قواعد داخل المدن، فأياً كان الوضع السياسي العراقي فإن الثوار سيسيطرون على المدن والطرق، ويصبح مأزق الأمريكان في قواعدهم أسوأ، وإذا استمرت القوات الأمريكية داخل المدن فإن شيئاً لن يتغير، وسواء كانت سلطات الاحتلال تدار من المنطقة الخضراء أو من

سفارة ترفع العلم الأمريكي فإن شيئاً لن يتغير، ولا تنطلي هذه اللعبة على المقاومة.

والمقاومة بدورها تزداد قوة مع التخبط الأمريكي الاستراتيجي، ومع كل محاولات التجريب من مجلس انتقالي إلى حكومة مدنية ثم حكومة منتخبة، فالأوضاع الأمنية والاقتصادية تتدهور، وهذا يؤثر على كل الشعب العراقي، سنة وشيعة، وغيرهما وذلك كله يصب لصالح المقاومة، والتململ داخل الشيعة وظهور قوى شابة مثل الصدريين« نسبة إلى مقتدى الصدر» وأيًا كانت درجة ترددها فإن سقوط الضحايا من الشيعة مع الأزمة الاقتصادية والسياسية، سيدفع القطاع الأكبر منهم للخروج على قيادات الحوزة الصامتة، باتجاه المقاومة، وهو أمر خطير جداً بالنسبة للأمريكان، والحديث عن حقوق الإنسان أو القضاء على استبداد النظام السابق لم يعد حديثاً مجدياً، لا داخلياً ولا خارجياً بعد فضيحة التعذيب الأمريكي للمعتقلين العراقيين في السجون العراقية، خاصة سجن أبو غريب، أما اللجوء إلى الأمم المتحدة، أو محاولة توريط أطراف عربية أو دولية في المستنقع العراقي، فإن الأمر قد فات وانتهى، والجميع يخشى ثمناً باهظاً إذا فعل ذلك على يد المقاومة العراقية الباسلة.

على كل حال فإن مظاهر وأغراض الفشل باتت واضحة، ولعل من أهمها الخلافات والصراعات داخل معسكر الأمريكان أنفسهم« الصدام مع الجلبي مثلاً»، وهو نوع من التعبير عن الضيق الأمريكي بالذين ورطوهم في المستنقع.

ولكن هل ينسحب الأمريكان ؟!...الأمر ليس بهذه السهولة، وإذا كانت كل العناصر التكتيكية تقول: إن الانسحاب الأمريكي من العراق بات محتوماً، فإن هناك عوامل استراتيجية أخرى تعطل صدور هذا القرار من المؤسسة الأمريكية الحاكمة« وهي فوق الحزبين الجمهوري والديمقراطي على حد سواء وأقوى من أي

رئيس أمريكي».

هذه العوامل الاستراتيجية لا تتصل بهيبة أمريكا مثلاً، أو خسارة الحرب ضد الإرهاب، فهذه أمور يمكن احتمالها، ولكنها تتصل بمستقبل إسرائيل، ومن المعروف أن اللوبي الصهيوني قام بدور كبير في جر إدارة الرئيس بوش إلى غزو العراق، وبديهي أن هذا اللوبي لا يريد الانسحاب الأمريكي من العراق؛ لأن ذلك معناه انتشار روح عالية من المقاومة إلى داخل فلسطين والعرب والمسلمين مما يشكل أكبر الخطر على وجود إسرائيل ذاته، وكذلك فإن القوى الحاكمة في الغرب عموماً وفي أمريكا خصوصاً ترى أن الانسحاب من العراق يعني خسارة الغرب كله وليس أمريكا أمام العرب والمسلمين، الأمر الذي لم يحدث منذ مئات السنين، وربما يؤدي إلى بداية صعود المسلمين ونهاية الغرب وفي هذا الصدد فإن رئيس الوزراء البريطاني« توني بلير» قد عبر عن المعني نفسه بقوله:« إن معركتنا في العراق معركة استراتيجية يجب أن ننتصر فيها بأي ثمن»، وقوله:« لو قدر لبريطانيا الانسحاب من العراق فإن المتشددين سيطلبون خروج القوات الأجنبية من أفغانستان ومن ثم الشرق الأوسط كله» وقوله:« إن هزيمة أمريكا في العراق هزيمة للغرب كله»، ثم قول« هنري كيسنجر» أحد حكماء الغرب: تراجع« هل تعرفون معنى الهزيمة في العراق؟!! معناه خسارة الغرب لكل ما حققه في خمسة قرون».

■ ■ ■

تفاعلات الداخل الأمريكي أم قوانا الذاتية

بالطبع فإن المجتمع الأمريكي ليس مجتمعاً مصمتاً، ولكن الحساب السياسي والاستراتيجي الصحيح يكون على أساس محصلة هذا المجتمع واتجاه هذه المحصلة، والمجرى الرئيسي لسياسة ذلك المجتمع في لحظة ما ، وليس البناء على هوامش هذا المجتمع يميناً أو يساراً ، مهما كان حجم هذا الهامش؛ لأننا نواجه في النهاية ممارسات القطاع صاحب القرار، وتقع على رؤوسنا هذه الممارسات حتى ولو كان حجم الانتقاد لها في الداخل الأمريكي عاليا جداً أو عريضاً جداً ... ولا ننسى أننا أمام مجتمع فيه مؤسسات وفيه قوى حاكمة ،هي المجمع الصناعي العسكري، وهذه المؤسسات هي التي تعبر عن ذلك المجمع الصناعي العسكري الحاكم، وبالتالي فالقرارات الاستراتيجية في لحظة ما وحقبة ما سوف تصدر، سواء كان يحكم أمريكا الجمهوريون أم الديمقراطيون ... وهذا بالطبع لا ينفي وجود خلافات وتناقضات – ثانوية – بين الجمهوريين والديمقراطيين، أو بين قوى المجتمع الأمريكي، ولا ينفي إمكانية الاستفادة منها ، وبالتالي فمن الصحيح والصحي رصد تلك التناقضات وفهمها شريطة أن ندرك أولاً وأخيراً أنها تناقضات ثانوية.

الحرب على العراق، ومفاهيم الإمبراطورية الأمريكية، واليمين المسيحي الأصولي، وجورج بوش وإداراته، والدعم غير المحدود لإسرائيل ليست اختراعاً من الجمهوريين، فربما يكون هناك خلاف حول الطريقة والتكتيك، ولكن ليس على الاستراتيجية والأهداف النهائية، بل ربما كان الديمقراطيون أشد حماساً لإسرائيل من الجمهوريين، ربما كانوا متحمسين لإسرائيل ووجودها واستمرارها مع إدراك

أن مصلحة إسرائيل وأمريكا تقتضي عدم مسايرة السياسات الشارونية، ليس كراهية في شارون أو حبا في العرب، ولكن لأن تلك السياسة سوف تستفز المجتمعات العربية والإسلامية، فيكون رد فعلها على المستوى الاستراتيجي والمدى البعيد أخطر من رد فعلها على سياسات أقل حِدَّة وأكثر جدوى، أي إن الفرق يكمن بين أسلوب الثعالب وأسلوب الذئاب ليس إلا ... والأمر نفسه يتضمن ويشمل السياسات الأمريكية الأخرى المتصلة بالوجود في المنطقة، وطريقة إدارتها، وفي كل الأحوال فإن تفعيل هذا الأسلوب أو ذاك أولاً وأخيراً بحالة المقاومة وقدراتها ومدى تعمقها في الواقع العربي، فالديمقراطيون مثلاً يهاجمون سياسة الرئيس بوش وإدارته في العراق، فالسيناتور« جون كيري الزعيم الديمقراطي» طالب بمحاسبة الرئيس الأمريكي« جورج بوش» ونائبه« ديك تشيني» على تضليل الرأي العام لادعائهما امتلاك العراق أسلحة دمار شامل، وقال كيري لشبكة سي . بي . إس التليفزيونية الأمريكية: إنه لا بد من تشكيل لجان استماع تابعة للكونجرس لمعرفة الحقيقة كاملة، وأنه لا يعتقد أن السبب في ذلك ضعف المعلومات المخابراتية، وشبه كيري حرب العراق بالحرب التي خاضتها أمريكا في فيتنام وقال: إن الشباب يموت للمبررات الخطأ وأن بوش سارع بالدخول في حرب العراق دون خطة للفوز!!.

الكلام نفسه أو قريب منه يردده باقي الديمقراطيون وقطاعات أخرى من الشعب الأمريكي والمثقفين الأمريكيين، فالجنرال ديسلي كلارك مثلاً وهو أحد زعماء الديمقراطيين قال لشبكة« إن. بي. سي»: إن مسألة العراق تتخطى دور المخابرات الأمريكية، وأنه يعتقد أن الإدارة الحالية ضغطت على أجهزة المخابرات؛ لتصل إلى النتائج التي تحتاج إليها، أما« جوزيف ليبرمان» المرشح للرئاسة الأمريكية

عام ٢٠٠٠ ـ والذي خسر أمام جورج بوش بسبب التلاعب المعروف في حساب الأصوات وفقاً للائحة الأمريكية وطريقة حساب الأصوات، المجمع الانتخابي ـ فقد ألقى باللوم على المخابرات الأمريكية ... الانتقاد هنا لا يصل إلى درجة رفض الحرب على العراق أصلا، ولكن على أنه لم تكن هناك خطة للفوز أو أن المبررات كانت ملفقة، وهذا كله أيضاً لم يكن ليحدث أو يحقق أي تفاعل لدى هؤلاء لولا الخسائر الباهظة التي تخسرها القوات الأمريكية في العراق بسبب المقاومة العراقية الباسلة، أي أن المسألة ليست خلافاً على المبدأ، ولكن خوفاً من الوصول إلى كارثة بسبب تلك الخسائر وضياع هيبة الولايات المتحدة، وهكذا ، فالعامل الأهم هنا هو قوانا الذاتية، والمقاومة العراقية تحديداً، ونلاحظ أن هؤلاء الذين ينتقدون إدارة بوش بسبب عدم قدرته على القضاء على المقاومة، ويصلون في نقدهم إلى حد المطالبة بمحاكمة بوش ونائبه هم أنفسهم الأكثر حماساً للمشروع الصهيوني، وبعضهم صهاينة حتى النخاع« جوزيف ليبرمان»، وأن ضميرهم لم يتيقظ للمجازر الوحشية التي يتعرض لها الفلسطينيون!!.

وبالطبع ، هناك قوى وشخصيات ومفكرون وفنانون ومثقفون يعترضون على السياسة الأمريكية بشكل مبدئي، أمثال ناعوم تشوسكي ، ولكن هؤلاء لا تأثير لهم على القرار الأمريكي، وهم على هامش الهامش بالنسبة لمؤسسة الحكم في أمريكا.

أيا كان من يحكم أمريكا ؛ فإن الاستراتيجية واحدة، والتكتيك مختلف، ويجب أن ندرك هذا ونفهمه، وبالإضافة إلى ذلك فإن موضوع العراق وفلسطين ليس هو فقط الذي يحسم المعركة الانتخابية، فهناك عوامل شتى ومختلفة من: الإعلام والمال وقضايا أمريكا الداخلية فضلا عن السياسة الخارجية ، كل ذلك يؤثر تأثيراً كبيراً في سياسة أمريكا بالدول العربية، وكل هذه العوامل تحت سيطرة المجمع الصناعي

العسكري الحاكم في واشنطن، ويجب أن ندرك أيضاً أن« جون كيري» نفسه كان قد أيد إعطاء بوش تفويضاً بالحرب في العراق عندما عرض الموضوع على الكونجرس، وأنه تراجع عن ذلك ليس من حيث المبدأ، ولكن لزيادة خسارة القوات الأمريكية في العراق بسبب المقاومة العراقية المتصاعدة، أما الزعيم الديمقراطي هوارد دين والذي هو الأعلى صوتاً والأكثر معارضة للتورط الأمريكي في العراق، فإنه تعرض لهجوم شديد من الميديا الأمريكية التي اتهمته بعدم الوطنية، وقد أثر ذلك على شعبيته مما يدل على أن معارضة الحرب على العراق والتورط فيها من حيث المبدأ لا يزال غير مقبول شعبياً، أو أن دوائر النفوذ المؤثرة في أمريكا قادرة على إضعاف من تريد، وقتما تريد بسبب امتلاكها للمال والإعلام، وهكذا ، فإن المراهنة على تغير الموقف الأمريكي من العدوان بسبب الإطاحة بجورج بوش مثلاً أو وصول الديمقراطيين إلى السلطة هي نوع من الوهم اللذيذ، فالمسألة أولاً وأخيراً مرتبطة بالمقاومة وهل تستطيع الولايات المتحدة تحمل الخسائر أم لا. ولا يفوتنا في هذا الصدد أن معظم قادة الحزب الديمقراطي والذين دخلوا سباق الانتخابات الصهيونية كانوا أولاً ، ولا يزالون يؤيدون الحرب على العراق واحتلالها مثل جوزيف ليبرمان، والسيناتور إدفاروز، وغيرهما!!.

***

حوار الأفكار والآراء في المجتمع الأمريكي الذي قلنا إنه غير مصمت هو أمر طبيعي وبديهي، ولكن يجب ألا يقودنا هذا إلى المراهنة على الظواهر الخطأ ... فالحساب يكون على المحصلة واتجاه تلك المحصلة وعلي المجرى الرئيسي وعلى توجهات المؤسسة الحاكمة الحقيقية ... ولا شك أن السياسة الأمريكية الحالية هي محصلة ونتيجة تطور الآلة الرأسمالية، والعولمة وانهيار الاتحاد السوفيتي السابق،

وهي جزء من البنية الداخلية للمجتمع الأمريكي الذي قام أصلاً على الإبادة والعدوان واسترقاق السود ونهب الآخرين، وبالتالي فإن وصول إدارة بوش إلى السلطة نتيجة طبيعية لهذا التطور، وليس العكس.

وإذا كان من المفيد رصد وفهم مثل تلك التفاعلات مع إدراك محدودية تأثيرها وطبيعة ذلك التأثير، فإننا نرصد صدور عدد من الكتب التي تناقض سياسة الرئيس بوش، وتقدم انتقادات لاذعة له، ومن هذه الكتب كتاب« أكذوبة بوش الابن» للمؤلف الأمريكي دافيد كورن، وكتاب« أكاذيب وكذابون» للصحفي مولي إيطانز وهذان الكتابان يؤكدان أن البيت الأبيض عمد إلى تسييس أحداث ١١ سبتمبر لتبرير سياسات معتمدة سلفاً مثل الحرب على الإرهاب، وهناك أيضاً كتاب «ثمن الولاء» لوزير الخزانة الأمريكي السابق« بول أونيل» ، والذي يصور فيه المؤلف الذي اطلع عن قرب بحكم عمله كوزير للخزانة في إدارة بوش على أسرار السياسة الأمريكية في عهد ذلك الرئيس وإدارته وعرف كيف تدار المسائل الاستراتيجية وقرارات الحرب وغيرها ، وقد اتهم بول أونيل الرئيس بوش الصغير بأنه سلبي وسطحي، ولا دور له إلا توقيع القرارات، وأن هذه القرارات يتخذها المحافظون المتشددون من أمثال ديك تشيني، وكارل دون، وكشف«بول أونيل»: أن خطة ضرب العراق كانت خطة معدة سلفاً ربما حتى قبل فوز جورج بوش الابن بانتخابات عام ٢٠٠٠، لأن الأشهر الثلاثة الأولى من حكم بوش الابن كانت كلها موجهة لدراسة آليات تنفيذ تلك الخطة، والبحث عن ذرائع لتبرير العملية أمام الرأي العام، وأن الجميع من مستشارة الأمن القومي حتى وزير الدفاع كان يعمل لتنفيذ تلك الخطة، وليس السؤال عن جدواها أو عدم جدواها مثلاً، وقد تضمن الكتاب عددا من الوثائق التي أزعجت البيت الأبيض والتي اعتبرها نوعا من

إفشاء أسرار الحكم الذي كان أونيل جزء منه لمدة ٣٣ شهراً كوزير للخزانة،والكتاب يشتمل على وثائق تثبت أن قرار الحرب اتخذ قبل أحداث ١١ سبتمبر، بل إن تصورات ما بعد الحرب كان يتم مناقشتها، وكأن قرار الحرب كان حتميا لا رجعة فيه، وإحدى هذه الوثائق بعنوان« في عراق بعد صدام» والأخرى بعنوان« الساعون الأجانب لعقود حقوق النفط العراقية»، ويعترف وزير الخزانة مؤلف الكتاب المذكور« ثمن الولاء»: بأن فكرة الحرب الاستبيانية فكرة غير أخلاقية وإنها أساءت إلى سمعة أمريكا، وجعلت منها دولة مارقة منفردة بقرارها لا تصغي لصديق أو حليف، فأصبحت بذلك في عزلة عن العالم، كما يعترف الرجل بأن الاجتماعات التي شارك فيها ، والتي كانت مخصصة لموضوع امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل، أعطته إحساسا بعدم جدية الأدلة المقدمة على ذلك وأن أحداً لم يكن يهتم بمدى جدية تلك الأدلة، بل انصب الاهتمام على البحث عن أساليب الإطاحة بصدام ووسائل الغزو العسكري واحتلال العراق.

***

على الجانب الآخر لصراع الأفكار، فإن كتاب« نهاية الشر» للمؤلف ريتشارد بيرل هو الأكثر تعبيراً عن أمريكا وعن المؤسسة الحاكمة فيها، وعن توجهاتها الرئيسية بعد سقوط الاتحاد السوفيتي والانفراد بالهيمنة في العالم وانتصار الرأسمالية وتطورها في اتجاه العولمة وكذا فإن شخصية المؤلف ذاتها تؤكد هذا المعنى، فريتشارد بيرل هو فيلسوف اليمين الأمريكي المحافظ – وبالتالي فهو فيلسوف ومنظر المؤسسة الأمريكية الحاكمة في هذه الحقبة، وهو الأب الروحي للعصابة التي تحكم البيت الأبيض« تشيني ورامسفيلد وكونداليزا رايس وولفوويتز ... إلخ»، وكان ريتشارد بيرل هو رئيس مجلس سياسات الدفاع في البنتاجون، وبعد فضائح مالية

أصبح عضواً في ذلك المجلس، ولكن لا يزال هو المؤثر الأكبر عليه، حيث الرئيس الجديد والأعضاء هم تلاميذه، وهو مهندس الحرب على العراق بلا منازع، وأول من وضع خطة لذلك الأمر حتى قبل أن يتولى بوش الرئاسة، وآراء بيرل يرددها كبار المسئولين في البيت الأبيض، ويرددها عدد كبير من الباحثين والمفكرين والجنرالات في أمريكا، أي أن الرجل هو التعبير الأساسي عن السياسة الأمريكية في تلك الحقبة، وهو أي ريتشارد بيرل كان مستشارا لليكود في إسرائيل، وقد طرح الرجل في هذا الكتاب ـ الخطير والمهم والذي ينبغي ترجمته بسرعة وقراءة ما فيه ومعرفة ما يخطط لنا بالتالي في أمريكا في تلك الحقبة ـ آراء غاية في الخطورة فهو يرى أن الإسلام هو مصدر الشر، وأن البلاد العربية والإسلامية هي معمل تفريخ الإرهاب، ويدعو إلى مهاجمة كل من إيران وسوريا سريعاً، وأنه يجب إلغاء معاهدة أوسلو وحل الموضوع الفلسطيني على طريقة شارون ومن جانب واحد، وأن الأمم المتحدة لا قيمة لها، ولا تعني شيئاً وأنه ينبغي تأديب أوروبا لتخلفها عن تأييد ودعم الضربة العسكرية الأمريكية للعراق، وأن فرنسا دولة عدوة، وأنه يجب اتباع مجموعة من الإجراءات التأديبية ضد فرنسا، وأن زمن الحرب الباردة قد انتهى، وأن على فرنسا أن تدرك ذلك، وتغير خطابها السياسي، وأن أمريكا هي القوة الوحيدة في العالم الآن ولا يوجد منافس أو مناوئ لها، وأن احتلال العراق ليس إلا مقدمة تتبعها سوريا ثم السعودية كهدف استراتيجي ومن ثم تكون مصر هي الجائزة وأن فلسطين هي إسرائيل والأردن هي فلسطين والعراق هو المملكة الهاشمية، وأن من حق الولايات المتحدة ضرب أي دولة في العالم تعجز عن القيام بدورها في ملاحقة الإرهاب؛ لأن هذا العجز يؤدي إلى خطر على أمريكا في النهاية، ويرى بيرل ضرورة تخويف روسيا حتى تقر بالقيادة لأمريكا وحدها، ويطالب الرجل بمضاعفة ميزانية وزارة الدفاع والمخابرات وإعادة ترتيبها بما يضمن الكفاءة في شن الحروب الوقائية

أو الاستبيانية.

وقد يبدو للوهلة الأولى أن الرجل مصاب بجنون العظمة أو أن ما يقوله « هلوسات الغطرسة» كما وصفه البعض،أو أطلق وصف أمير الظلام عليه كما أصبح مشهوراً عنه، كل هذا قد يكون صحيحا أو خاطئا أو صحيحا جزئياً أو خاطئا جزئياً، ولكن المؤكد أنه حتى لو كان الرجل مجنونا، أو أميراً للظلام أو مصابا بهلوسات الغطرسة، فإن ما يقوله هو - ويا للأسف - السياسة الحقيقية أو القريبة جداً من الحقيقة للمؤسسة الأمريكية الحاكمة، وللمجتمع الصناعي العسكري الحقيقي المتحكم في أمريكا، فضلاً عن حكام البيت الأبيض وإدارة جورج بوش وصقور وزارة الدفاع، أي أن علينا أن نأخذ ما يطرحه الرجل بجدية مهما كان غريباً وفظاً وشاذاً.

■ ■ ■

الفشل الأمريكي الذريع

بعد كل ما فعلته وأنفقته أمريكا فيما تسميه الحرب على الإرهاب، فإن المحصلة الواضحة والمرئية رأي العين هي الفشل الأمريكي الذريع، فعلت أمريكا - وإسرائيل باعتبارها وكيل أمريكا وذيلها - كل شيء من أجل تحقيق هدفها، استخدمت كل أنواع السلاح والجنود والقنابل الذكية والغبية، غزت دولا واحتلتها(أفغانستان - العراق) ضغطت على دول أخرى وحصلت أو لم تحصل على ما تريده من إجراءات ومعلومات وشخصيات وسياسات، أنفقت مئات المليارات من الدولارات، اشترت أقلاما، وأدباء، أنشأت إذاعات، استخدمت آلة إعلام جبارة، غيرت مناهج التعليم في بعض الدول، بل واعتدت على حماس الحريات الفردية ذاته داخل أمريكا ... فعلت كل شيء.

وأي شيء، والمحصلة هو الفشل الذريع، ذلك لأن الإرهاب ليس مافيا، بل تعبير عن احتجاج شعوب وعقائد وحركات وأمم ضد الهيمنة والغطرسة والاستكبار والنهب، قد يكون التعبير عن ذلك صحيحاً ١٠٠٪ أو خاطئاً، أو بنسب متفاوتة، ولكنه في النهاية تعبير عن وجدان وعقائد ومصالح، وبالتالي فلا يمكن القضاء عليه؛ لأن ظروفه الموضوعية التي أفرزته لا تزال موجودة، وما لم تكف أمريكا وإسرائيل عن القمع والنهب والاحتلال والغطرسة والاستكبار - وهذا مستحيل بالنظر إلى طبيعة الأشياء - فإن الإرهاب لن يتوقف حتى لو لم يتم القضاء على كل عناصره ورموزه المعروفة حالياً.

بصرف النظر عن الرأي فيما يقوم به هذا الإرهاب، فإنه لا يزال قوياً وفاعلاً ففي أفغانستان: لا تزال طالبان والقاعدة تنفذان عمليات ضد الوجود الأمريكي، وضد

القوات التابعة للأمم المتحدة، وضد الحكومة العميلة، وعلى حد تعبير أحد المتخصصين في شئون الإرهاب« جوهان جونترانا»- رئيس وحدة أبحاث الإرهاب بمعهد دراسات الأمن والاستراتيجية في سنغافورة ومؤلف أحد الكتب عن تنظيم القاعدة : فإن الولايات المتحدة« قد حققت أكبر فشل عسكري في الحرب على الإرهاب، وأنها لا تزال بحاجة إلى المزيد من الموارد والجنود للاستمرار في تلك الحرب» ناهيك عن نتيجتها؛ لأن النتيجة لن تكون مرهونة بعدد الجنود أو كمية الأموال المنفقة، ولكن بتغيير ظروف موضوعة وهو أمر صعب أو مستحيل كما قلنا من قبل لأسباب موضوعية تتصل بطبيعة التركيب والتوجهات الداخلية في بنية الاستكبار العالمي الأمريكي الصهيوني.

منذ عام ٢٠٠١ مثلاً، وبعد غزو أفغانستان، فإن المقاومة لا تزال موجودة في أفغانستان، وحدثت عمليات منسوبة إلى القاعدة في إفريقيا ضد خندق إسرائيلي، وفي الدار البيضاء بالمغرب، وفي الرياض بالعربية السعودية، ثم في مدينة جاكرتا عاصمة إندونيسيا ، ومن قبل مدينة بالي بإندونيسيا أيضاً، وهناك من ينسب عمليات التفجيرات ضد السفارة الأردنية في بغداد، وضد مقر الأمم المتحدة في بغداد أيضاً لجماعة أنصار – الإسلام المتأثرة بتنظيم القاعدة، وهكذا فإن تنظيم القاعدة لا يزال يعمل رغم كل ما حدث من حرب ومطاردة بل ومساعدات معلوماتية وأمنية من دول مثل مصر والسعودية والمغرب والسودان، بل ومن سوريا وإيران وغيرها.

من جانب آخر فإن إسرائيل – وأمريكا بالتالي – قد فشلتا فشلاً ذريعاً في تحقيق هدفيهما في إثارة حرب أهلية فلسطينية بين الفصائل المجاهدة والسلطة، بل لم تستطع أمريكا أن تقنع أحداً بجدية خارطة الطريق المزعومة مع كل الممارسات الصهيونية والسكوت أو الموافقة الأمريكية، وفشلت إسرائيل أيضاً – وبالتالي

أمريكا في القضاء على المقاومة، أو تحقيق الأمن لنفسها مع الجدار العراقي، والاستحكامات العسكرية الضخمة والاستخباراتية الأضخم، وممارسة القتل والاغتيال ونسف البيوت واعتقال الناشطين، ويبدو كأن المقاومة شجرة مباركة كلما قطعت منها جزءاً نبتت آلاف الأجزاء بسرعة ملائكية أو سحرية مباركة، ولعل استمرار العمليات الاستشهادية هو خير دليل على ذلك. ومن جانب ثالث – فإن المقاومة العراقية تتصاعد وتنحدر يوماً بعد يوم لدرجة أنها أصبحت الأعظم والأشمل، فهي عمليات يومية متنوعة وجريئة ومستمرة ومنتشرة، والنعوش الحاملة للجنود الأمريكيين من قتلى وجرحى تعود يومياً إلى واشنطن مما يهدد الداخل الأمريكي نفسه، ورامسفيلد مثلاً الذي كان يصر على تجنب أي محاولة تدخل دولية في الشأن العراقي ويعبر عن ذلك علنا بقوله: إن من خاض الحرب هو الذي سيقرر ما يحدث في العراق، وهو نفسه الذي راح يستجدي الدول الأخرى الأوروبية والآسيوية بل ودول الاتحاد السوفيتي السابق والكتلة الشرقية السابقة، بل الدول العربية لكي ترسل جنودها للعراق لكي تحل محل جنوده، والرئيس الأمريكي وافق على إشراك الأمم المتحدة، وبعد أن كان يتبجح ويتباهى بالانتصار السريع في العراق راح يدافع عن نفسه وعن استمرار القوات الأمريكية في العراق، ولولا مصالح شركات أمريكية كبرى، ولولا مصالح عدد كبير من رموز الإدارة الأمريكية، ولولا ضيق أفق وصلابة اليمين الأمريكي، ثم الانسحاب من العراق على غرار الانسحاب الأمريكي من لبنان عام ١٩٨٣ بعد مصرع ٢٣٠ أمريكيا على إثر عملية استشهادية ضد قيادة القوات الأمريكية« مشاة البحرية وكذلك الانسحاب من الصومال بعد التنكيل بجثة أحد الجنود الأمريكيين أمام شاشات التليفزيون العالمية، ولكن العراق به بترول، وليس المستنقع في العراق فقط في عدد

الجنود الذين يسقطون كل يوم قتلى وجرحى، ولكن أيضاً في نجاح المقاومة العراقية في ضرب إمدادات النفط بصورة شاملة عن طريق التفجيرات المستمرة والكبيرة والمتنوعة لأنابيب النفط، وهي من الامتداد بحيث يستحيل عملياً حراستها على طول امتدادها – اللهم إلا بتكاليف عالية وباهظة – وهكذا فإن المقاومة العراقية نسفت المردود الاقتصادي والاستراتيجي للاحتلال الأمريكي للعراق، وبالتالي فإن محصلة غزو أمريكا للعراق ـ بـ ١٦٠ ألف جندي وحوالي ٢٠٠ ألف آخرين في القواعد المساعدة، وعشرات الآلاف من الحلفاء« بريطانيا – أستراليا – بولندا – جورجيا ...إلخ» وتكاليف زادت على ٢٠٠ مليار دولار ـ هي الفشل الأمريكي الذريع.

ولأن الحكومة الأمريكية تعرف أنها في مستنقع حقيقي، فإنها تحاول الآن استخدام أكثر من وسيلة لتخفيف حدة فشلها في العراق، منها محاولة ربط الموضوع بالأمم المتحدة، وبالتالي إلقاء قدر من المسئولية السياسية والأمنية على عاتق قوات متعددة الجنسيات تابعة للأمم المتحدة، وهو أمر محدود القيمة خاصة بعد ضرب أحد القوات التابعة للأمم المتحدة في العراق بعملية« انتحارية – استشهادية» على فندق القناة في بغداد يوم ١٩/ ٨/ ٢٠٠٣ وقتل وأصيب ما يزيد على مائة شخص بينهم رئيس بعثة الأمم المتحدة في العراق ومنها محاولة استدراج دول أوروبية أو آسيوية أو عربية للقدوم إلى العراق، وهو أمر رفضته ألمانيا وفرنسا لأسباب تتصل بالتناقضات الرأسمالية، ورفضته الدول العربية لأسباب تتصل بالخوف من رد فعل شعوبها أو جيوشها ذاتها على الحكومات، ولم يقبله إلا عدد من الدول الهامشية من أمثال بولندا وجورجيا وهو أمر لا يسمن ولا يغني من جوع، ومنها محاولة إثارة النزاعات العشائرية في العراق ، وهو أمر خطير مثل اللعب

بالنار؛ لأن إثارة النزاعات العشائرية وتقريب عشائر على حساب عشائر أخرى يمكن أن يحول العشائر المستبعدة إلى قاعدة مقاومة هائلة، بل ويمكن أن يؤدي إلى تنافس العشائر في كسب شرف المقاومة، وبالتالي يجعل العشائر المتحالفة أو المتعاونة تتخلص من ذلك سريعاً وتعود إلى خندق المقاومة، والأمر نفسه بالنسبة للعرب على الموضوع الطائفي « شيعة – سنة - أكراد» فالواضح أن الأمريكان يحاولون عدم الصدام مع الشيعة واسترضاءهم على حساب السنة في العراق، وإذا نجح ذلك مؤقتاً فإن الأمر سيفلت بالضرورة مع تصاعد الروح الوطنية والإسلامية ومع استمرار نجاح المقاومة لدرجة ستجعل كل من يريد أن يحتفظ بشرفه الوطني أن يلحق بالمقاومة، ولا يفوته قطارها العظيم، مع الأخذ في الاعتبار هنا أن البطالة والأزمة الاقتصادية وأزمة الوقود والخدمات ... إلخ تضرب الشيعة مثل السنة وهي كافية لإثارة رد فعل موال للمقاومة رغم أنف الجميع.

وهكذا فإن كل التكتيكات الأمريكية محكوم عليها بالفشل، وستتصاعد المقاومة العراقية وتتعملق وستدفن -إن شاء الله- الذئب الأمريكي في رمال العراق.

ولأن الحاسة الاستعمارية غالبة – الطبع يغلب التطبع – ولأن الحماسة الاستعمارية هي بالضرورة غبية، فإن الأمريكان لن يخرجوا بسهولة من العراق ...ولعلها إرادة الله، أن تكون العراق وفلسطين وأفغانستان - والقاعدة وأنصار الإسلام وحزب الله، وحماس والجهاد وكل من لحق بقطار الكرامة والمقاومة- أداة لإنهاء الزمن الأمريكي الإسرائيلي الرديء .

■ ■ ■

الشرق الأوسط الكبير

الشرق الأوسط الكبير، الشرق الأوسط الأوسع نطاقاً، هو أحدث صيحة في عالم المبادرات الأمريكية والأوربية لإعادة صياغة المنطقة بما يخدم المصالح الأمريكية، والصهيونية والغربية عموماً، المسألة إذن ليست جديدة تماماً، ولكن فيها ما هو جديد أيضاً، فمثل هذه المشروعات والمبادرات لم تنقطع منذ حرب الكويت عام ١٩٩١، في إطار انفراد أمريكا بالهيمنة على العالم بعد سقوط الاتحاد السوفيتي السابق والمنظومة الاشتراكية، والوجود الفعلي للقوات الأمريكية في المنطقة بعد حرب الكويت عام ١٩٩١ لتكمل مع إسرائيل حلقة الاحتلال والهيمنة. وقد شاهدنا من مثل تلك المبادرات، ما يسمى بالسوق الشرق أوسطية، وهي فكرة أمريكية صهيونية تستهدف إدماج إسرائيل في المنطقة وإخفاء العرب والمسلمين الهوية والثقافة والتميز الحضاري، وبالتالي الانتماء إلى الشرق الأوسط أو عالم المصالح والبيزنس والسلام – وهو وهم طبعاً – ثم ما يسمى بالانتماء إلى البحر المتوسط وهي فكرة أوروبية تحقق أهدافاً قريبة من الأهداف السابقة، أي استبدال الانتماء العربي والإسلامي بالانتماء إلى ثقافة البحر المتوسط، وهذه بالطبع أقل خطراً من الشرق أوسطية، رغم أنها تدمج إسرائيل أيضاً في المنطقة. ولكنها تتعارض نوعًا ما مع المفهوم الأمريكي للمنطقة، ثم بعد ذلك ظهرت مبادرة «كولن باول» للشراكة والسلام والتنمية، وتم رصد اعتمادات وأموال وإنشاء صحف وقنوات فضائية تليفزيونية للتبشير بتلك القيم وغيرها، ثم أخيراً مشروع بوش المسمى بالشرق الأوسط الأوسع نطاقاً وهو يضم حسب تعريف بوش نفسه العالم العربي + إسرائيل + إيران وباكستان وتركيا، أفغانستان، أي نطاق عربي إسلامي يقبل

باندماج إسرائيل فيه، وهو هنا يشبه مشروع الشرق أوسطية المعروف، ثم حديث عن التنمية، وعن الرخاء وأرقام عن تدني الدخول، تدني مستوى المعيشة، تفشي البطالة، الأمية، وكأن السيد الأمريكي قد اكتشف ما هو غير معروف بالنسبة لحالتنا، وبديهي فإن الوعود هنا هي: الرخاء الاقتصادي ، وهو وهم طبعاً، فالحدأة لا تلقي بالكتاكيت، المهم في المسألة أن ذلك كله بشرط دعم اقتصاد السوق أي تسليك مواسير النهب والهيمنة وإعادة هيكلة المجتمعات لا لإنقاذ الهوية والثقافة، ثم حديث عن دعم دور المرأة وتحريرها، وهو حديث ممجوج من كثرة تكراره وحق يراد به باطل، وكذا دعم مؤسسات المجتمع المدني، طبعاً بشرط أن تكون تلك المؤسسات ناشئة في ظل العولمة ووفقاً لمفاهيمها وأجندتها وليست مؤسسات أهلية إسلامية كانت ولا تزال معروفة ومؤثرة، وأخيراً وليس آخراً الحديث التقليدي عن الديمقراطية وحقوق الإنسان ونزاهة الانتخابات ووقف التعذيب والانتهاكات وهو حديث منافق تماماً؛ لأنه يمس وتراً حساساً وصحيحا، ولكنه نوع من الخيار بين الوهم والجحيم، وهم إمكانية تحقيق الحرية عن طريق الاستعمار، وجحيم دعم الحكومة المستبدة نكاية في أمريكا، وينبغي بالطبع أن نكون موقفاً مركباً يرفض الاستعمار والاستبداد في الوقت ذاته.

على كل حال فإن الحديث المنافق عن الديمقراطية وحقوق الإنسان يستدعي قدراً أكبر من المناقشة ووضع النقاط على الحروف، فبداية فإن الذي وضع الديكتاتورية، ووضع التطور الاجتماعي الصحيح في المنطقة هو الاستعمار ذاته، وأمريكا وإسرائيل تحديداً، وجورج بوش نفسه اعترف بأن أمريكا دعمت الاستبداد في المنطقة لمدة ستين عاماً وقد آن الأوان لوقف هذا الخطأ، والجزء الأول من كلام جورج بوش صحيح، وبالتالي ينبغي لإصلاح الخطأ، الاعتذار ودفع

التعويضات للمتضررين، وهم كثر من الذين انتهكت حرياتهم، ومحاكمة المسئولين عن ذلك من أمثال : كيسنجر وكلينتون وبوش الأب وهم لا يزالون أحياء!!.

أما الجزء الثاني من كلام بوش فهو نفاق محض، ذلك أن أمريكا تحديدا لا تطيق ولا تقبل ظهور حكومات شرعية منتخبة ومقبولة شعبياً، ولا تقبل بديمقراطية حقيقية في المنطقة؛ لأن ذلك يوقد مباشرة إلى صعود التيار الإسلامي، وثقافة المقاومة وهما خطر على المشروع الأمريكي الصهيوني قطعاً، ثم إن التاريخ القديم والحديث بل والآتي للولايات المتحدة لا يبشر بذلك، فهي أولاً دولة قامت على إبادة شعب آخر، ثم استرقت السود، ثم مارست طوال تاريخها العدوان على الآخرين، وارتكبت من المذابح ما يكفي لتسويد صفحتها، ثم هي التي أسقطت الديمقراطيات ودعمت المستبدين، وتآمرت ضد زعماء وطنيين ...إلخ ... ثم هي نفسها التي تدعم إسرائيل التي تنتهك كل حقوق الشعب الفلسطيني يومياً، وعلى مدار الساعة وهكذا فإن الحديث عن ديمقراطية أمريكية هو نفاق محض، أضف إلى ذلك أنه على مستوى اللحظة والراهنة، فإن أمريكا قد ثبت كذبها في موضوع الديمقراطية وحقوق الإنسان في كل من أفغانستان والعراق، فلم تحقق في أي من البلدين لا الرخاء ولا الأمان ولا الديمقراطية، بل العكس كان هو الصحيح على طول الخط، فالبطالة زادت، والمعاناة الاقتصادية تفاقمت والأمن والأمان ضاعا تماماً، فضلاً عن فقدان الاستقلال والكرامة. وعلى مستوى الأحداث الجزئية ذات الدلالة، فإن قيام القوات الأمريكية بقتل أسرى قلعة جانجي في أفغانستان، وإصدارها الأوامر بقتل كل أسير ينتمي إلى طالبان والقاعدة، ثم ما حدث ويحدث في معتقل جوانتانامو، وكذا الممارسات القمعية والتميزية والعنصرية ضد العرب والمسلمين في أمريكا كلها تقول : إن فاقد الشيءلا يعطيه وأن حديث أمريكا عن

الديمقراطية هو نفاق محض.

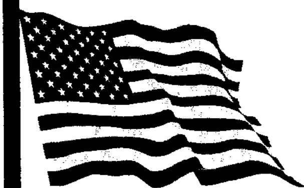
في هذا الصدد فإن أحدا لا يصدق أمريكا، حتى الأمريكيين والأوروبيين بل والمتعاطفين مع النموذج الأمريكي من المثقفين العرب، فالمفكر الأمريكي « فوكوياما» صاحب نظرية« نهاية التاريخ» الذي بشر فيها بسيادة الليبرالية الغربية يرى أن دعوة أمريكا إلى الديمقراطية تفتقر إلى المصداقية، والصحفي البريطاني« روبرت فيسك» يقول الشيء نفسه مع إضافة: أن أمريكا تدعم الطائفية وتمنع الديمقراطية في العراق بل ويقول: إن الغرب نفسه هو الذي منع التطور الديمقراطي في المنطقة، فبريطانيا ، مثلاً ، هي التي منعت بالقوة التطور الديمقراطي في مصر في الثلاثينيات من القرن الماضي، والدكتور عبد المنعم سعيد، وهو مفكر مصري وصحفي بالأهرام ورئيس مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بها، وهو بالمناسبة مع النموذج الأمريكي وضد المقاومة ومع التطبيع ... إلخ اكتشف أخيراً أن الاستثناء الأمريكي بخصوص الديمقراطية قد انتهي، وأن المدينة المضيئة على التل قد أصبحت معتمة!! وأن هناك أيديولوجية بدأت تترعرع في أمريكا ذاتها!!.

الجديد في مبادرة الشرق الأوسط الكبير هو أن الأمريكان قد لجئوا هذه المرة إلى إشراك الأوروبيين في المسألة، وهذا بالطبع جاء تحت ضغط الخوف من المقاومة العراقية التي يمكن أن تتحول إلى حالة عربية إسلامية شاملة فتكون خطراً على المشروع الغربي برمته وليس المشروع الأمريكي فقط، وأمام مثل هذا الخطر فإن أمريكا تتخلى عن غطرستها وتشرك الأوروبيين معها، والأوروبيون يتنازلون عن مصالحهم المتعارضة مع أمريكا لمواجهة هذا الخطر، ويشاركون الأمريكيين في المسألة، ولعل هذا ما يفسر قبول الأوروبيين بالمشاركة في المبادرة، بل وتخلي ألمانيا

عن معارضتها لأمريكا عموماً، وأقوال وزير خارجيتها التي تصب في دعم أمريكا تماماً، ولعل هذا الموقف ليس جديداً لا علي أوروبا ولا على أمريكا، فهناك بالطبع تناقضات مصالح بين هذه الدول وبعضها، ولكنها تناقضات ثانوية في النهاية يتم تسويتها بتقسيم الكعكة، أو زوالها بظهور خطر حقيقي عليها كلها مثل خطر المقاومة، والتاريخ مملوء بنماذج لزوال التناقضات الثانوية، مثل ترحيب فرنسا بالاحتلال الإنجليزي لمصر ١٨٨٢ وذلك لذبح الثورة العرابية؛ لأنها كانت تشكل خطراً على المشروع الاستعماري الأوروبي بأكمله، وقد قال ذلك مباشرة وزير خارجية فرنسا إبانها في إطار تهنئته للإنجليز بالنجاح في هزيمة عرابي، والأمر نفسه حدث في الاتفاق الودي الإنجليزي الفرنسي عام ١٩٠٤ والذي ضربت فيه فرنسا الحركة الوطنية المصرية في ظهرها بعد أن أظهرت لها التأييد قبل ذلك، وهو نفسه ما يفسر الموقف الفرنسي« الضمير الفرنسي المطاط» في الموقف من العراق منذ عام ١٩٩٠ حتى الآن، والموقف الألماني مؤخراً، والموقف الروسي« السوفيتي» عام ١٩٦٧ وغيرها من الأمور التي تبدو غير مفهومة بعض الوقت ما لم يتم وضعها في إطار نظرية التناقضات الثانوية التي تزول أمام التناقض الجوهري، وهو التناقض بين الحضارة الإسلامية ككل والحضارة الغربية ككل!!.

***

بقي أن نقول: إن تلك المبادرات تأتي بطريقة عشوائية فلا الشعوب شاركت في مناقشتها – وهذا طبيعي – ولا حتى الحكومات الصديقة للغرب تم استشارتها – وهذه إهانة لها، وهي مبادرات على طريقة القص واللصق، ومهما كانت النية وراءها فإن الجسم العربي الإسلامي سيرفضها بالضرورة بحكم التكوين الحضاري والثقافي، وبحكم الحساسية التاريخية وبحكم أنها صناعة خارجية.



جرائم أمريكا والغرب

٤

في البوسنة والهرسك الذبح على الهوية

- محاولة لاستئصال الإسلام في أوروبا
- الجريمة وأصابع الاتهام

◆◆◆

مقدمة

يخطئ من يتصور أن الصراع في البوسنة والهرسك مجرد صراع قومي بسيط بين المسلمين والكروات والصِّرب، أو حتى صراع ديني بين المسلمين والكاثوليك «الكروات» والأرثوذكس «الصرب» أي مجرد صراع ديني محدود أو مذهبي أو طائفي عادي، ولكن الحقيقة أن الصراع في البوسنة والهرسك هو صراع حضاري يضرب بجذوره في التاريخ والجغرافيا، ويمثل جدل الصراع التاريخي بين الحق والباطل، الحق الذي يمثله الإسلام، والباطل الذي تمثله قوى الشيطان التي تعتبر الحضارة الغربية أهم عناصرها.

ويأخذ ذلك الصراع أبعادًا حادة، داخل أوروبا ذاتها، ذلك أن الحضارة الأوروبية باعتبارها حضارة شيطانية تريد أن تستأصل الحضارة الإسلامية ، وهي حضارة الحق والعدل والحرية، فما بالك إذا كان التحدث الحضاري الإسلامي يقع في أوروبا ذاتها مثل : حالة البوسنة والهرسك وكوسوفو وألبانيا والأقليات الإسلامية عمومًا في أوروبا الشرقية.. ويمكننا أن ندرك مدى العصبية التي تتعامل بها الحضارة الأوروبية مع المسلمين في أوروبا، خاصة إذا كانوا في تجمعات ذات ثقل مثل البوسنة والهرسك، لأن هؤلاء، وبرغم منحنى الهبوط الإسلامي حاليًا، يمثلون خميرة إسلامية تمل القيم الإسلامية العظيمة مثل اللاعنصرية والعدل وعدم ازدواج المعايير والحق والحرية.. وهي قيم قادرة على هزيمة النموذج الحضاري الغربي إذا ما قدر لها أن تدخل معه في معركة ثقافية حرة ونزيهة، وبالتالي فلابد من القضاء بالقوة والقهر والذبح والتشريد على هؤلاء الذين يحملون تلك القيم خاصة من يسكن منهم في أوربا، وهذه في حقيقة الأمر مأساة البوسنة والهرسك والتفسير الصحيح

لشلال الدم الذي يفجره الصرب على حساب المسلمين في البوسنة والهرسك، أي أن الصرب هنا مجرد أداة للحضارة الغربية عمومًا.

وصحيح أن هناك تناقضات ثانوية بين قوى الحضارة الغربية عمومًا على اعتبار أن بأس الكافرين بينهم شديد، ولكن هذه التناقضات الثانوية تتلاشى وتذوب أمام التناقض الجوهري بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية بين ما هو إلهي وما هو شيطاني ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾.

ولعل ما يؤكد هذه الحقيقة أن إسرائيل تقدم الدعم العسكري والإعلامي للصرب، في حين يقف الغرب متفرجًا على المذابح وهو الذي يزعم أنه ينصر الأقليات بل هو مستعد لجمع الجيوش وإلقاء أطنان القنابل في حالات أخرى، أما في حالة مسلمي البوسنة والهرسك الذين تعرضوا للإبادة والتشريد والذبح ووفقًا لتقسيم الأدوار، فإن الصرب يقومون بمهمة الذبح والإبادة، وإسرائيل تقدم السلاح، والغرب وأمريكا يكتفيان بالبيانات والقرارات التي لا تنفذ أو بالحركات المسرحية مثل زيارة ميتران إلى سراييفو، أو قيام بطرس غالي «وهو أرثوذكسي مصري ويا للأسف» بمنع أي تحرك دولي إيجابي بدعوى أن القاتل «الصرب» والقتيل مسلمي البوسنة والهرسك مخطآن، وأن الوقت لم يحن بعد للتدخل لإنقاذ شعب من الإبادة! وغيرها من التصريحات الاستفزازية التي يقولها بطرس غالي من وقت لآخر.

وإذا كان هذا هو سلوك الغرب، وهذا هو حال التحالف اليهودي الغربي ضد الإسلام، وهو الأمر الذي يكشف حقيقة العداء الغربي للإسلام، وحقيقة التحالف العنصري بين اليهود والغرب، وحقيقة ازدواج المعايير الغربية وانحطاط القيم

الحضارية للغرب، فهذا أمر بديهي ومتوقع، وعلى المسلمين أن يعملوا بأنفسهم لحماية أنفسهم وخوض معركة التحدي ورفع غبار التخلف والقيود والتمزق عن كاهلهم وتحقيق الوحدة والتضامن والتمسك بقيم الجهاد وهي الطريق الوحيد للحياة ، فضلاً عن تحقيق العزة والكرامة والنصر، وعلى المسلمين أن يدافعوا عن إخوانهم في الدين في البوسنة والهرسك ؛ لأن هذا واجب شرعي أولاً، ولأنه جزء من الدفاع عن وجود الإسلام في العالم كله ثانيًا، بل دفاع عن وجود الحضارة الإسلامية ذاتها وعدم القضاء عليها نهائيًا وهو الهدف التقليدي للغرب واليهود. إن الدعم الذي قدمه ويقدمه المسلمون في كل مكان من العالم لإخوانهم في الدين في جمهورية البوسنة والهرسك. وهو دعم شعبي في مجمله يدل على أن الإسلام ما زال حيًا في الصدور، وأننا لا نزال أمة واحدة ولو من الناحية الوجدانية: «إذا اشتكى منها عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»، وصحيح أن هذا الدعم ما زال قليلاً إلا أن الذي يحول بينه وبين التحول إلى دعم كامل وشامل ، وجود بعض الحكومات المستبدة في العالم الإسلامي التي تمنع الشعوب أن تظهر عواطفها الكاملة ، وتضع قيودًا قانونية أو عملية على مسألة التضامن بين الشعوب الإسلامية.

***

وفي إطار ما يحدث في البوسنة والهرسك اليوم ، وما حدث للمسلمين في بلغاريا بالأمس القريب، فإن هناك أهمية خاصة لفهم ما حدث في الأندلس حتى لا تتكرر المأساة لأن الدوافع الأوروبية في الحالتين متشابهة، وكذلك هناك أهمية خاصة لفهم فضل الدولة العثمانية على المسلمين وخوضها الصراع المرير في أوروبا دفاعًا عن الإسلام.

***

وإذا كان دفاع المسلمين عمومًا، العرب والمصريين - بل كل الشرفاء في العالم عن أهل البوسنة والهرسك - واجبًا شرعيًا وحضاريًا بل دفاع عن الأمن القومي الإسلامي بل والعربي والمصري، لأن ما يحدث في البوسنة والهرسك هو جزء من التحدي الصليبي والغربي ضد الأمة الإسلامية، وإذا نجح الغرب في استئصال الإسلام من أوروبا، فإن الدور سيأتي على باقي المسلمين، وبالتالي فالدفاع عن أهل البوسنة والهرسك هو دفاع عن الأمن القومي المصري والعربي والإسلام عمومًا، وإذا كانت جماهير الشعب المصري، والنقابات، والأحزاب بل والحكومة المصرية قد اتخذت موقفًا جيدًا في قضية البوسنة والهرسك مع اختلاف الدوافع، إلا أن هذا شيئ طيب ينبغي الاعتراف به وتدعيمه وتوسيعه، ولكن من العجيب أن البعض في حزب العمل، وبرغم المواقف العظيمة لحزب العمل عمومًا، يقف موقفًا مترددًا في هذا الأمر مثل اللواء «طلعت مسلم» في مقاله بجريدة الشعب عدد ٢١/ ٧/ ١٩٩٢ تحت عنوان «سلام البوسنة والأمن القومي المصري» وهو المقال الذي جاء غير موفق ويشتمل على الكثير من المعاني الخاطئة، فاللواء طلعت مسلم يقول: إن الاهتمام بالبوسنة والهرسك لا يدخل في صميم الأمن القومي المصري، فهو جزء من الأمن القومي العربي والإسلامي، أي جزء من عملية الصراع الحضاري بين الإسلام والصليبية، بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، وكل ما يمس الأمن القومي الإسلامي يمس بالضرورة الأمن القومي المصري بل إن الدفاع عن البوسنة والهرسك هو في حقيقته حماية لمصر والعرب والمسلمين، لأنه إذا نجح الغرب في استئصال الإسلام من أوروبا فإن الدور سيجيء على شمال أفريقيا، وعندما انهزمت الخلافة العثمانية في أوروبا، كانت نتيجة ذلك تعرض شمال أفريقيا بل والدول العربية جميعها إلى الاحتلال العسكري الأوروبي.

ثم إن الدفاع عن مسلمي البوسنة والهرسك واجب شرعي لأن المسلمين جسد واحد: «إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»، ولا أظن أن أحدًا في حزب العمل، ولا أظن اللواء طلعت مسلم لا يؤمن بهذا الأمر، بل أزعم أن هذا من أهم مبادئ حزب العمل. ويركز اللواء طلعت مسلم في المقال نفسه، على أنه كان من الأولى على الحكومة المصرية ، أن تبادر إلى حماية أهالي لبنان، والأراضي المحتلة في فلسطين من القتل والتعذيب والسجن ومصادرة الأراضي والممتلكات، ونحن مع اللواء طلعت مسلم في ذلك تمامًا، ولكن هل إذا قصرت الحكومة المصرية في مجال، ثم أخذت موقفًا لا بأس به في مجال آخر نهيل عليه التراب أيضًا أم نستعيذ منه..؟ ثم إنه من المفروض أننا لا نعارض في سبيل المعارضة فقط. بل نقول للحكومة المصرية في قضية فلسطين أخطأت، بل نقول لها أنت عاجزة ونقول لها في موقفها من البوسنة والهرسك : هذا موقف صحيح ومشرف لكنه أقل من المطلوب.

وفي إطار المواقف المصرية، فإن موقف الكنيسة المصرية، وهي جزء لا يتجزأ من الانتماء الحضاري الإسلامي، بدا في أول الأمر غريبًا وساكتًا بما يوحي أنه يبارك إبادة المسلمين في البوسنة والهرسك ثم تعدل هذا الموقف نتيجة وجود ضغط عام قوي، وأخيرًا أصدر البابا شنودة الثالث بطريرك الكنيسة المصرية بيانًا أدان فيه مذابح الصرب تجاه المسلمين وتبرأ من عمل الكنيسة الأرثوذكسية في يوغسلافيا، وبذلك أعاد الأمور إلى مجراها الطبيعي ووقف الموقف الذي تمليه عليه انتماءاته الوطنية وتراث كنيسته القبطية التي ترفض الاندماج في كنائس الغرب، وتعلن انتماءها إلى المشروع الحضاري الإسلامي.

إلا أن أغرب المواقف وأكثرها استفزازًا كان موقف الدكتور «بطرس غالي»،

وهو مصري قبطي أساسًا، وصحيح أنه سكرتير عام الأمم المتحدة بما يفرضه عليه المنصب من شروط، إلا أنه خان شروط الأمم المتحدة ذاتها وبدا موقفه أسوأ من مواقف مجلس الأمن والدول الكبرى بخصوص هذه القضية، بل نراه يعطل عمل القوات الدولية في إغاثة أهالي سراييفو، بل ويعلن مرارًا وتكرارًا أن على الأمم المتحدة ألا تتدخل في هذه القضية ولا يكترث بذبح ٦٠ ألف مواطن بوسني وتشريد مئات الآلاف وتدمير المساكن ومصادرة ممتلكات المسلمين لصالح الصرب، بل أكثر من هذا يدعي أن الجميع مخطئون في قضية البوسنة والهرسك برغم أن هناك رأيًا عامًا عالميًا لم يستطع أن يبتلع جرائم الصرب في البوسنة والهرسك، أي أن بطرس غالي يساوي بين القاتل والقتيل، بين من يَذبح ومن يُذبح «الأولى بفتح الباء والثانية بضم الباء»، ووصل الأمر إلى حد الثورة على أعضاء مجلس الأمن إذا ما اتخذوا موقفًا ضد الصرب.

وقد نقلت الأهرام في عدد ٢١/ ٧/ ١٩٩٢ نصًا في غاية الخطورة حول المواقف المشينة لبطرس غالي. تقول الأهرام: «ثار خلاف حاد ـ نادر الحدوث ـ بين بطرس غالي الأمين العام للأمم المتحدة من جانب، ومجلس الأمن الدولي والمجموعة الأوروبية من جانب آخر حول نصوص وقف إطلاق النار الأخير في البوسنة والهرسك، فقد وجه بطرس غالي انتقادات حادة لمجلس الأمن بسبب إقراره النص الخاص بتسلم الفصائل المتناحرة في سراييفو الأسلحة الثقيلة إلى قوات الحماية الدولية المرابطة هناك، وشكا غالي في رسالة حادة إلى مجلس الأمن من أنه لم يؤخذ رأيه قبل توقيع الاتفاق، مشيرًا إلى أنه أبلغ لورد كارينجتون وسيط المجموعة الأوروبية بأن اقتراح تسليم الأسلحة للقوات الدولية غير واقعي، ورد كارينجتون قائلاً: إنه لا يعتقد أن هذه المسألة كانت تستدعي التشاور مع غالي حيث كان الأمين

العام «بطرس غالي» قد تلقى طلبًا بالفعل من الفصائل المتناحرة بضرورة تنفيذ مثل هذا الاقتراح الخاص بتسليم الأسلحة، أي أن بطرس غالي لا يريد تسليم الأسلحة الثقيلة ومن المعروف أن السلاح الثقيل بحوزة الصرب الذين سيطروا على كل سلاح الجيش اليوغسلافي السابق، وكأن بطرس غالي يريد أن تستمر تلك الأسلحة الثقيلة بيد الصرب ليبيدوا بها المسلمين. ومن الغريب هنا أن موقف بطرس غالي أسوأ من موقف أعضاء مجلس الأمن ومن اللورد كارينجتون نفسه، وإذا كانت الدول الكبرى قد اتبعت أسلوب الإدانة للصرب ثم لا شيء وترك الصرب يبيدون المسلمين، أي مجرد قرارات حبر على ورق على سلوك مجلس الأمن والدول الكبرى في أزمات سابقة تحركت فيها آلاف الطائرات والصواريخ وقطع الأسطول، إلا أن مجرد الإدانة للصرب لا يعجب بطرس غالي وتجعله يثور على مجلس الأمن، فهل يريد بطرس غالي أن يبارك ذبح المسلمين في البوسنة والهرسك؟!

■ ■ ■

■ جرائم أمريكا في هذا الزمان :

﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾

[النساء : ١٠٢]

خطاب الله وخطاب الشيطان

◆◆◆

الإسلام، هو خطاب الله للبشر، كل البشر، أمس واليوم وغدًا، الأسود والأحمر والأبيض والأصفر، وهو خطاب التوحيد والحق والعدل والحرية والمساواة واللاعنصرية، أما خطاب الشيطان فهو كل ما يحول بين الإنسان وذلك، أي هو الاستبداد السياسي الذي يمنع الناس من حرية الاعتقاد والتفكير ويفرض على الناس رأي الحاكم والكهنة، خطاب الشيطان هو الظلم الاقتصادي والاجتماعي الذي يجعل كل الثروة في يد طبقة أو مجموعة من البشر على حساب جموع الناس، خطاب الشيطان هو الانحراف الأخلاقي والانحلال، هو الظلم والقهر والعنف والنهب.

خطاب الله تعالى يمثله الإسلام والحضارة الإسلامية، وخطاب الشيطان تمثله أشياء وقوى كثيرة ومتنوعة أهمها قديمًا وحديثًا هي الحضارة الغربية، ولذا كان من الطبيعي أن يحدث صدام بين الحضارة الإسلامية، والحضارة الغربية.

الحضارة الإسلامية حضارة التوحيد، أما الحضارة الغربية فهي حضارة وثنية في كل مراحلها الإغريقية واليونانية والرومانية والمسيحية وحتى الحضارة الغربية الحديثة الرأسمالي منها، والاشتراكي والشيوعي والنازي والفاشي فهي تؤلِّه الأوثان والأشخاص أو المادة أو الحزب أو الفكرة وهكذا.

الحضارة الإسلامية هي حضارة الحرية بل هي تكافل من أجل الحرية والجهاد الإسلامي في جوهره جهاد لتحرير كل البشر من الحكام الطغاة والأنظمة المستبدة والظلم الاجتماعي، ووضع الناس على طريق الاختيار الحر بلا إكراه من حاكم مستبد أو أجهزة قمعية متوحشة ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾... ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، أما الحضارة الغربية في كل مراحلها وروافدها الإغريقية واليونانية والرومانية والمسيحية، الرأسمالية والشيوعية والنازية

والفاشية والاشتراكية فهي حضارة القهر والضعف وإرغام الناس على مبادئ مدنية وإلا قتلوا وصلبوا وحرقوا وسجنوا وشردوا.

الحضارة الإسلامية حضارة العدل وإنصاف الفقراء والمظلومين والكادحين والمحرومين والمطحونين «كي لا تكون دولة بين الأغنياء»... «ليس منا من بات شبعانًا وجاره جائع»... «والجار هنا قد يكون فردًا أو أسرة أو مدينة أو دولة أو قارة وهكذا»...« إذا جاع الناس فلا مال لأحد».. «لأخذت فضول أموال الأغنياء فرَّدتها على الفقراء».

أما الحضارة الغربية فهي حضارة النهب، نهب الشعوب، ونهب الطبقات بعضها لبعض، حضارة المجاعات وموت الأطفال.

الحضارة الإسلامية حضارة ذات مسئولية أخلاقية، فهي أمينة على البيئة وعلى مستقبل الحياة البشرية على الأرض.. فلا إنتاج لأشياء ضارة تلوث البيئة أو تدمر الكائنات أو تشكل خطرًا على الأمان البيولوجي على الأرض، فكل شيء يخضع لتوجيهات وأهداف عُليا تحرص على التوازن الفردي والجماعي، وتحرص على عدم الإفساد البيولوجي والبيئي وتحرص على أن يكون هدفها سعادة الإنسان وليس مجرد الربح والإنتاج بلا ضوابط أخلاقية أما الحضارة الغربية، فهي تقوم على فكرة المنفعة اللاأخلاقية وبالتالي وفي سبيل هذه المنفعة يمكن أن تدمر وتقتل الإنسان والحيوان والغابات وتفسد البيئة وتلوث الأرض وتهدد مستقبل الوجود البشري على الأرض ذاته.

الحضارة الإسلامية حضارة المساواة والعدل واللاعنصرية وعدم ازدواج المعايير، فهي حضارة شارك في بنائها الأبيض والأسود والأحمر والأصفر، ولا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى، والأسود أخو الأبيض.. «**إن أكرمكم عند الله**

أتقاكم»، وهي حضارة ذات معايير واحدة غير مزدوجة.. «**والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمدٌ يدها**» والخليفة عمر بن الخطاب ﷺ يأمر بضرب ابن عمرو ابن العاص أمير مصر بيد قبطي مصري قصاصًا لضرب هذا القبطي المصري على يد ابن عمرو بن العاص ويقول له: «اضربه كما ضربك.. اضرب ابن الأكرمين» والله تعالى يرشد المسلمين إلى ضرورة عدم ازدواج المعايير حتى مع الأعداء وحتى مع نكرههم ﴿ **لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾.

أما الحضارة الغربية فهي حضارة التفرقة العنصرية والدينية، بل قامت في طورها الحديث على إبادة شعوب مثل الهنود الحمر واسترقاق شعوب مثل الأفارقة ونهب العالم كله، وهي حضارة مزدوجة المعايير فهي تدعي الدفاع عن حقوق الإنسان ثم تغمض عينها عن ممارسات إسرائيل تجاه الشعب الفلسطيني.

* * *

وما دام الأمر كذلك فإنه من الطبيعي أن يحدث صدام وصراع حتميين بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، فالمسلمون مأمورون من الله تعالى بالجهاد من أجل تحرير كل البشر وإزالة جميع أشكال الطغيان والظلم والاستبداد والقهر والحرمان والعنصرية وكلها قيم كانت - ولا تزال - سائدة في الحضارة الغربية، أي لابد من الجهاد ضد الحضارة الغربية، والحضارة الغربية من ناحيتها وجدت أنه من الضروري - حفاظًا على مصالح حكامها واستمرارًا لقيمها المنحطة واستمرارًا لنهبها وقهرها للشعوب والطبقات - أن تحاول استئصال شأفة الحضارة الإسلامية حيث لا مستقبل للحضارة الغربية إلا بالقضاء على الإسلام والمسلمين والحضارة الإسلامية.

وقد بدأ هذا الصراع مبكرًا جدًا، واستمر في الزمان والمكان حتى يومنا هذا، ففي

حياة الرسول ﷺ ـ أي منذ البداية ـ حدثت أربع مواجهات مع الروم وحلفائهم، مرة في «دومة الجندل» ومرة في «مؤتة»، ومرة في «موطن قبائل قضاعة»، ومرة في «تبوك». وفي آخر حياة الرسول ﷺ تم تجهيز جيش أسامة بن زيد للذهاب إلى الشام، ولما مرض الرسول تعطل خروج هذا الجيش وكان من وصايا الرسول ﷺ في مرضه الأخير إنفاذ جيش أسامة، وقد وفى الخليفة الصديق ﷺ بذلك رغم ظهور مشاكل الردة في الجزيرة العربية نفسها.

وفي عهد الخلفاء الراشدين استمر الصراع في الشام وشمال أفريقيا ضد الروم حتى تم فتح بلاد الشام ومصر وغيرهما، ثم في عهدي الخلافتين الأموية والعباسية استمر الصراع في الشام وشمال أفريقيا وفتح المسلمون الأندلس ووصلوا إلى فرنسا ذاتها وأوغلوا فيها إلى نهر الدون سنة ١١٤ هـ.

وعندما بدأ الضعف يسري في جسد الأمة الإسلامية، التقطت الحضارة الغربية الفرصة وبدأت ضغطها على العالم الإسلامي، ففي سنة ١٣٧ هـ. وفي أثناء حكم الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور غزا قسطنطين الرابع بعض أراضي الشام واستولى على ملطية وضرب حصونها إلا أن المسلمين استعادوا تلك الأرض واستمر صمودهم بل توسعوا على حساب الروم، ومع ازدياد تفكك العالم الإسلامي ظهرت الحملات الصليبية في الشرق ١٠٩٨ إلى ١٢٩٥ ثم الضغط على المسلمين في الأندلس إلى أن تمت إبادتهم وطردهم بدءًا من عام ١٤٩٢، وقبل ذلك وأثناء ذلك وبعد ذلك كان الصراع على أشده بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية في المغرب العربي حيث تعرضت الجزائر مثلاً إلى ١٠٠ حملة صليبية بعد سقوط الأندلس.. حملات إنجليزية وفرنسية وبرتغالية وأسبانية وهولندية بل وأمريكية.

ومع ظهور الخلافة العثمانية، نجح المسلمون في التوحد تحت قيادتها وخوض المعارك القاسية في أوروبا ضد الحضارة الغربية ونجحت الدولة العثمانية في جعل أوروبا في حالة دفاع بل وحرر محمد الفاتح القسطنطينية ١٤٥٢ ووصلت جيوش العثمانيين إلى أسوار فيينا وروما.

ومع ضعف الدولة العثمانية استردت أوروبا الهجوم على العالم الإسلامي، ووصل الأمر إلى إنهاء الحكم العثماني في أجزاء كبيرة من أوروبا ثم الهجوم على العالم الإسلامي عمومًا في آسيا وأفريقيا، واحتلال الكثير من بلاده ، فيما عرف بالاستعمار الحديث، الذي بدأ بحملة بونابرت على مصر ١٧٩٨، ثم انتهى الأمر إلى إسقاط الخلافة العثمانية وتمزيق وحدة العالم الإسلامي وسقوط كل بلاده تقريبًا في قبضة الاستعمار، ثم تسليم فلسطين لليهود ليقيموا فيها دولة إسرائيل عام ١٩٤٨.

■ ■ ■

الصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية في أوروبا

◆◆◆

كان من الطبيعي أن يحدث صدام سريع وكبير بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، لأنه من الطبيعي أن يحدث صدام بين حضارة تمثل التوحيد والحرية والعدل والمساواة واللاعنصرية والمسئولية الأخلاقية ، وحضارة تمثل الوثنية والقهر والعنف والاستبداد والظلم والعنصرية والمنفعة اللاأخلاقية ونهب الشعوب والطبقات. كان من الطبيعي أن يحدث الصدام لأن المسلمين مأمورون من الله تعالى بالجهاد في سبيل تحرير الناس من العنف والقهر والنهب والظلم والعنصرية، أي من الممارسات والقيم نفسها التي تمثلها الحضارة الغربية، ولأن قادة الحضارة الغربية والمستفيدين من قمعها ونهبها وظلمها رأوا خطرًا شديدًا على مصالحهم من القيم الحضارية الإسلامية التي تغري الشعوب بالثورة على هؤلاء القادة والحكام والكهان الذين يقودون مسيرة الحضارة الغربية الظالمة.

وقع الصدام منذ حياة الرسول ﷺ واستمر في الزمان والمكان في آسيا وأفريقيا وأوروبا، ولكنه اتخذ أبعادًا خاصة داخل أوروبا ذاتها، وكان المسلمون قد نجحوا في دخول الأندلس ووصلوا إلى جنوب فرنسا، كما نجح العثمانيون في الوصول إلى أسوار فيينا وجنوب روما، ودخل قطاع لا بأس به من أهل أوروبا أنفسهم في الإسلام مثل أهل ألبانيا وكوسوفو والبوسنة والهرسك وعدد آخر في بلغاريا ورومانيا وغيرهما، بحيث صار هؤلاء يمثلون أولاً قاعدة حضارية وأخلاقية إسلامية قادرة على تحدي النموذج الحضاري الغربي في عقر داره وتمثل أيضًا مجالاً لجذب باقي الشعوب الأوروبية إلى الإسلام لأنه سيكون حيًا بقيمه أمامهم من خلال الكتل السكانية المسلمة في أوروبا، وكان معنى هذا أن هناك خطرًا ماحقًا على وجود الحضارة الغربية ذاتها وفي عقر دارها، ولذلك تميز رد الفعل الغربي الاستكباري تجاه المسلمين في أوروبا بالعصبية الشديدة والقمع والاضطهاد

والإبادة والحصار بلا هوادة، وما حدث في الأندلس، وما حدث في بلغاريا وما يحدث اليوم في البوسنة والهرسك مجرد نماذج على ذلك السلوك حيث يتعرض المسلمون للإبادة الجسدية وللتصفية الحضارية والثقافية، فغير مسموح بوجود أسماء إسلامية أو ثقافة إسلامية أو تعليم إسلامي، بل حتى غير مسموح بقبر إسلامي كما حدث في الأندلس.

وهناك نموذجان للصراع بين الإسلام والحضارة الغربية في أوربا وهما : حالة الأندلس وحالة الدولة العثمانية.. ففي الأندلس وحالة الدولة العثمانية.. ففي الأندلس، دخل المسلمون إليها سنة ٩٢ هـ - إلى ٩٥ هـ، ٧١١ م إلى ٧١٤ م وحرروا أهلها من ظلم حكامها القوط، فدخل أهلها في الإسلام طواعية، وأخذت المساحات التابعة للمسلمين تزداد حتى وصلت إلى ٧٠٠ ألف كيلو متر مربع، بل ووصل المسلمون إلى جنوب فرنسا وهدَّدوا باريس ذاتها، ثم أخذ الضعف والتفكك يسري في أوصال المسلمين ، فتراجعت المساحة التابعة للمسلمين في الأندلس ٤٤٠ ألف كيلو متر مربع، بعد عام ٣٥٠ هـ، ٩٦١ م، وقام بابا روما بالدعوة إلى قتال المسلمين وطردهم من الأندلس. وتحالفت كل القوى الصليبية لإخراج المسلمين من الأندلس، وبدأ الأمر بين «كر» و«فر»، فإذا توحد المسلمون، وكان المغرب العربي قويًا ؛ فصمد المسلمون وانتصروا مثل أيام المرابطين والموحدين ومع تفكك المسلمين في الأندلس وضعف المغرب العربي كانت القوى الصليبية تحقق انتصارات على المسلمين، واستمر الأمر على هذا المنوال حتى سقطت غرناطة بيد الصليبيين سنة ١٤٩١ بعد حكم إسلامي للأندلس دام ثمانية قرون، وبعد سقوط غرناطة، استمر المسلمون في الأندلس يقاومون وينظمون الثورات مدة قرنين من الزمان ثم نجح الصليبيون بواسطة عمليات القتل والمذابح ومحاكم التفتيش في القضاء

على عدد كبير من المسلمين ، ففر بعضهم إلى الغرب العربي وتعرض الباقون إلى الذبح أو القتل وكان الصليبيون يقتلون كل مسلم، بل يقتلون النصارى إذا كانوا من أصل إسلامي، بمعنى أنه إذا تنصر أحد المسلمين فإن هذا لا يحول دون قتله، ووصل الأمر إلى حد عدم ترك حتى قبر واحد لمسلم في بلاد الأندلس.

أما الصراع مع الحضارة الغربية من خلال الدولة العثمانية فقد استمر لفترة طويلة، بل يمكننا : أن نقول أن الدولة العثمانية أدخلت الإسلام إلى قلب أوروبا، ونجحت في إنقاذ العالم الإسلامي في ذلك الوقت من مصير مظلم كانت أوروبا تعدُّ له، بل قلب الكفة لصالح الإسلام فحررت القسطنطينية ١٤٥٣ م، ووصلت إلى أسوار روما وفيينا وأدخلت أهالي ألبانيا وكوسوفو والبوسنة والهرسك وعددًا لا بأس به في رومانيا وبلغاريا وغيرهما في الإسلام، بل إن التآمر الواسع الذي تعرضت له الدولة العثمانية على يد دول أوروبا كان بسبب بلاء الدولة العثمانية العظيم لخدمة الإسلام والدفاع عن المسلمين بل وتهديد أوروبا ذاتها في القلب، ولعل الحقد الكبير والكراهية التي تحظى بها الدولة العثمانية لدى العلمانيين في بلادنا وهم عملاء لأوروبا ولقيمها الحضارية يرجع إلى هذا السبب. ولعل بدايات الصدام[1] بين الدولة العثمانية وأوروبا كان عام ١٤٣٥ عندما عبر العثمانيون مضيق البوسفور ، واستولوا على شبه جزيرة غاليبولي، ثم تعدوا أوروبا ففتحوا مدينة أدرنة عام ١٣٥١ م بقيادة مراد بن أردخان وجعلوها عاصمة للدولة الإسلامية الفتية في أوروبا، وعقب ذلك، دعا البابا إلى حروب صليبية اشتركت فيها دول البلقان ونصارى الغرب فانتصر عليهم مراد الأول وفتح صوفيا ونيس ومقدونيا وسالونيك، ثم عاود الصليبيون الكرة فتصدَّى لهم «با يزيد» الذي خلف مراد

(١) نقلاً عن كيف دخل الإسلام البلقان ـ رسالة المهندس ـ عدد خاص.

الأول وهزمهم وأسر ملك الصرب، وضم صربيا إلى الدولة العثمانية بما فيها مدينة بلجراد، عاصمة صربيا حاليًا، سنة ١٤٥٢، وحاول سيجموند ملك المجر بجيش من الفرسان الذين تطوعوا من أوروبا الغربية ودول البلقان لكن با يزيد هزمهم وطاردهم حتى النمسا وحاصر فيينا، وفي سنة ١٤٥٣ م قام السلطان محمد الفاتح بفتح القسطنطينية ، وأنهى بذلك وإلى الأبد «الإمبراطورية البيزنطية»، التي ناصبت المسلمين العداء لمدة طويلة ومستمرة «حوالي ثمانية قرون» وأصبحت إسلامبول أو مدينة الإسلام أو دار الإسلام، الاسم الجديد للقسطنطينية عاصمة للدولة الإسلامية العثمانية منذ فتحها حتى ١٣ أكتوبر ١٩٢٣ عندما سقطت الخلافة العثمانية على يد الخائن أتاتورك، فحول عاصمة تركيا إلى أنقرة بدلاً من إسلامبول، وواصل محمد الفاتح جهاده فهزم صربيا وضمها إلى الدولة الإسلامية وواجه حلفًا من البندقية والألبان فدمرهم وضم ألبانيا للدولة العثمانية عام ١٤٦٨، وتوغل في البلاد التابعة للبندقية على ساحل بحر الأدرياتيك واستولى على مدينة «تارنتو» الإيطالية عام ١٤٨٠ بعد أن سيطر على المضايق التي تفصل إيطاليا عن البلقان وهدد روما عاصمة إيطاليا نفسها، وأصبح المسلمون سادة البحر المتوسط والأدرياتيك ومضايقهما، ثم توالت الفتوحات الإسلامية العثمانية فتم فتح الهرسك عام ١٤٨١ ثم معظم كرواتيا ثم وصل العثمانيون إلى سلوفينيا ولكنهم لم يفتحوها، ثم ضعفت الدولة العثمانية بعد ذلك ففقدوا كرواتيا أوائل القرن السابع عشر ثم الجبل الأسود سنة ١٦٩٧ م، ثم استعادها العثمانيون سنة ١٧٣٨ م، ثم تخلَّى العثمانيون عن بلاد البوسنة والهرسك وكذلك ألبانيا والجبل الأسود وكوسوفو سنة ١٩١٢ وهكذا استمر الحكم العثماني ٤٠ سنة في كرواتيا و ٣٨٠ سنة في صربيا، و ٤١٥ في البوسنة والهرسك و ٤٢٠ في الجبل الأسود و ٤٣٠ في كوسوفو، و٥٤٧ سنة في مقدونيا، مما ترتب عليه دخول عدد كبير من أبناء هذه البلدان في الإسلام

خاصة ألبانيا وكوسوفو والبوسنة والهرسك فضلاً عن أقليات إسلامية في صربيا وكرواتيا ومقدونيا والجبل الأسود، بالإضافة إلى أقليات إسلامية في رومانيا وبلغاريا وغيرهما.

وعلينا أن نلاحظ في تجربتي الأندلس والدولة العثمانية، أنه بعد ضياع الأندلس، حاول الصليبيون احتلال المغرب العربي، وسجلت الحوادث أكثر من ١٠٠ محاولة لغزو الجزائر بعد سقوط الأندلس حتى عام ١٨٣٠ ، وهذا يؤكد أن الدفاع عن الإسلام في أوروبا هو حماية في حد ذاته للإسلام في شمال أفريقيا، كما أنه مع ضعف الدولة العثمانية فإن الأهداف الأوروبية لم تقتصر على القضاء على الإسلام في أوروبا بل اتجهت الأطماع الأوروبية نحو البلاد العربية والإسلامية، وكانت النتيجة سقوط الكثير من الدول العربية والإسلامية تحت سيطرة الاستعمار، بل ضاعت فلسطين، أي أن الدفاع عن الإسلام في أوروبا يدخل في صميم الأمن القومي العربي والإسلامي.

■ ■ ■

الأقليات ....
عندنا وعندهم

◆◆◆

اضطهاد الأقليات، بل الأغلبيات سلوك تقليدي في مسيرة الحضارة الأوروبية، فلم ينج أحد من اضطهاد الحضارة الأوروبية، مثل إبادة الهنود الحمر في أمريكا، وكذلك أهل استراليا الأصليين، واسترقاق الأفارقة، واضطهاد ونهب شعب الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي وشعب ليبيا إبان الاحتلال الإيطالي، وتشريد الشعب الفلسطيني وذبحه وقمعه على يد اليهود بالتحالف مع الغرب، والأمر نفسه في إبادة المسلمين في الأندلس بحيث لم يبق حتى قبر واحد لمسلم، وما يتعرض له المسلمون في بلغاريا ورومانيا من تدمير للثقافة والهوية والطرد، وأخيرًا وليس آخرًا ما يتعرض له شعب البوسنة والهرسك، وهذه ليست هي المرة الأولى التي يتعرض لها مسلمو البوسنة والهرسك لحرب الإبادة والتشريد.

أما في إطار الحضارة الإسلامية، فلنستمع إلى هذه الشهادة والتي جاءت في كتاب حاضر العالم الإسلامي، للأمير شكيب أرسلان تحت عنوان «التعصب الأوروبي

أو التعصب الإسلامي»، يروي الأمير شكيب أرسلان أن أحد الوزراء العثمانيين كان مرة في أحد المجالس في جدال مع بعض رجال الدولة في أوروبا فيما يتعلق بموضوع التعصب، فقال لهم الوزير العثماني: إننا نحن المسلمين من ترك وعرب وغيرهم، مهما بلغ بنا التعصب في الدين فلا يصل بنا إلى درجة استئصال شأفة أعدائنا، ولو كنا قادرين على استئصالهم، ولقد مرت بنا قرون وأدوار كنا قادرين فيها على ألا نُبقِي بين أظهرنا إلا من أقر بالشهادتين وأن نجعل بلداننا كلها صافية للإسلام، فما هجس في ضمائرنا خاطر كهذا الخاطر أصلاً، وكان إذا خطر هذا ببال أحد من ملوكنا، كما وقع للسلطان سليم الأول العثماني تقوم في وجهه الملة، ويحاجه مثل زنبيلي على أفندي شيخ الإسلام ويقول له بلا محاباة: ليس لك على النصارى

واليهود إلا الجزية وليس لك أن تزعجهم عن أوطانهم، فيرجع السلطان عن عزمه امتثالاً للشرع الحنيف، فبقيَ بين أظهرنا حتى أبعد القرى وأصغرها نصارى ويهود وصائبة وسامرة ومجوس، وكلهم كانوا آمنين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، أما أنتم معاشر الأوروبيين فلم تطيقوا أن يبقى بين أظهركم مسلم واحد واشترطتم عليه إذا بقي بينكم أن يتنصر، ولقد كان في أسبانيا ملايين وملايين من المسلمين، وكان في جنوبي فرنسا وفي شمال إيطاليا وفي جنوبها مئات الألوف منهم، ولبثوا في هاتيك الأوطان أعصرًا مديدة، وما زلتم تستأصلون منهم حتى لم يبق في هذه البلدان شخص واحد يدين بالإسلام، ولقد طفت بلاد أسبانيا كلها فلم أعثر فيها على قبر واحد يعرف أنه قبر مسلم».

■ ■ ■

حتى لا تتكرر مأساة الأندلس

◆◆◆

فتحت البوسنة والهرسك على يد الخليفة المسلم «محمد الفاتح»، في إطار فتوحات الدولة العثمانية في أوروبا عمومًا ودول البلقان خصوصًا.

وكان فتح البوسنة والهرسك سنة ١٤٨١، وقد دخل أهلها الإسلام، وتمسكوا به، وأصبح المسلمون في البوسنة والهرسك يمثلون اليوم ٥٥ ٪ من السكان بالإضافة إلى ٣٤ ٪ من الصرب، ١١ ٪ من الكروات، كما يوجد عدد من المسلمين في صربيا وكرواتيا وغيرهما من بلاد البلقان. ومع ضعف الدولة العثمانية وتضاؤل نفوذها في أوروبا، وتخليها عن الكثير من المناطق المفتوحة، كان من الطبيعي أن تتعرض البوسنة والهرسك لمحاولات مستمرة لإبادة المسلمين فيها والقضاء على الثقافة الإسلامية فيها وفي غيرها من البلاد الأوروبية وتقع جمهورية البوسنة والهرسك في منتصف يوغسلافيا سابقًا فيحدها من الشمال والغرب كرواتيا ومن الشرق صربيا ومن الجنوب الجبل الأسود.

وكانت جمهورية البوسنة والهرسك ضمن الاتحاد اليوغسلافي الذي كان يضم صربيا، كرواتيا، سلوفينيا، مقدونيا، الجبل الأسود، البوسنة والهرسك.

في أعقاب الحرب العالمية الأولى قام الصرب بعمل مذابح جماعية لمسلمي البوسنة والهرسك، وقاموا بحرق ٢٧٠ قرية مسلمة وقتل عدة آلاف من المسلمين نساء وأطفالاً وشيوخًا، الأمر الذي أدى إلى هروب ٣٠٠ ألف مسلم من البوسنة وتشريدهم.

في عام ١٩٤١ قام الصرب بذبح ٦٠ ألف مسلم وألقوا بهم في نهر الفولجا وتحولت مياه النهر إلى دماء.

عقب الحرب العالمية الثانية قامت حرب بين الصرب والكروات دفع المسلمون ثمنها إذ انتهت بتقسيم البوسنة والهرسك فيما بينهما.

■ المذبحة الأخيرة:

منذ عدة أشهر تدور مذبحة كاملة لأهالي البوسنة والهرسك عقب انفراط عقد الاتحاد اليوغسلافي بعد التحولات الأخيرة في أوروبا الشرقية، أعلنت العديد من دول ذلك الاتحاد استقلالها عن الاتحاد، مثل كرواتيا وسلوفينيا، ووجدت هاتان الدولتان من يحميهما من اعتداءات الصرب حيث أنهما من الكاثوليك، فتحرك البابا في روما وتحركت أوروبا، أما عندما أعلنت البوسنة والهرسك استقلالهما عن الاتحاد اليوغسلافي فإن شلالات الدم المسلم قد تفجرت على يد الصرب الأرثوذكس الذين يريدون إقامة صربيا الكبرى على حساب المسلمين أساسًا، وعلى حساب اقتطاع ٦٠ ٪ من أرضهم وتشريدهم وتدمير ملامح حضارتهم من مساجد ومدارس، وإذا كان تيتو [١] رئيس يوغسلافيا السابق قد مارس الاضطهاد ضد المسلمين، لأنه لا أحد يحميهم، فإن قادة صربيا الآن يتابعون المخطط بكثافة وقسوة، ويستند الصرب على تراث طويل من العداء للمسلمين، ففي المدارس الصربية الابتدائية ملحمة شعرية باسم «إكليل الجبل» كتبها مسيحي أرثوذكسي صربي متعصب تقول «سلك المسلمون طريق الشيطان، دنسوا الأرض، ملأوها رجسًا، فلتعد للأرض خصوبتها ولنطهرها من تلك الأوساخ. ولنبصق على القرآن، ولتطير رأس كل من يؤمن بدين الكلاب ويتبع محمدًا، فليذهب غير مأسوف عليه »ويستند الصرب أيضًا على فتاوى كنيسة تبيح قتل المسلمين وهتك عرض المسلمين، وهذه هي المسيحية الأوربية المتعصبة، فالكنيسة الأرثوذكسية الصربية أصدرت فتوى تبيح نساء المسلمين للأرثوذكس المسيحيين الصرب، بل إنه

(١) كانت السلطات اليوغسلافية تطارد المسلمين النشطين مثل علي عزت بيكوفتش رئيس جمهورية البوسنة والهرسك حاليًا فلقد أمضى في السجن مدة ١٥ سنة في عهد تيتو.

عندما تقع المسلمات في الأسر يتم هتك عرضهن مع إرسال بعضهن إلى مناطق المسلمين، مقطوعات الأثداء، عليهن آثار الاعتداء الوحشي.

وحين يفعل الصرب الأرثوذكس ذلك، فإن المسلمين يتصرفون وفقًا لسماحة الإسلام، ففي قرية جورنيه توليبه مثلاً، وهي قرية مسلمة، وعندما لجأ إليها بعض الصرب الأرثوذكس هربًا من المعارك حول مدينة بوسنسكي برود، حيث نجحت قوات الدفاع الإسلامي فيها في رد الاعتداء الصربي، لجأ سكانها الصرب إلى قرية «توليين» التي أحسنت استقبالهم وأمنتهم على أنفسهم وأطعمتهم وألبستهم، اعتقادًا من أهل تلك القرية المسلمة بأنهم لا ذنب لهم في العدوان الصربي على المسلمين، فما كان من هؤلاء اللاجئين من الأرثوذكس إلى المسلمين، إلا أن شاركوا هم أنفسهم في المذبحة التي وقعت فيما بعد ، عندما دخل الجيش الصربي تلك القرية وكان أول بيت يذبحون أصحابه هو البيت الذي استضافهم وتناولوا فيه الطعام وارتدوا الملابس، وهذا هو الفرق بين حضارة الإسلام وحضارة الغرب الصليبي.

***

ورث الجيش الصربي، كل السلاح الثقيل التابع للجيش اليوغسلافي السابق، وهذا الجيش اليوغسلافي السابق كان من أقوى الجيوش وأكثرها عتادًا وسلاحًا فاستخدم الصرب هذا السلاح في قتل المسلمين وتقطيع أوصال البوسنة والهرسك، فبلغ عدد القتلى حتى نهاية شهر يوليو ١٩٩٢، ٦٠ ألف قتيل و ١٠٠ ألف جريح، و ٤٠ ألف معوق، و ١,٥ مليون لاجئ، وقد سجل صحفيون محايدون ووكالات أنباء شرقية وغربية كيف قام الصرب بعمل المذابح المروعة وهدم البنية الأساسية لجمهورية البوسنة والهرسك، وتدمير المساجد والآثار الإسلامية، ووصل الأمر إلى حد سير الدبابات الصربية فوق المسلمين من أهل البوسنة وهم أحياء، وبقر بطون

النساء الحوامل، بل واستخدام أجساد أطفال المسلمين في صنع الأعلاف، ويستهدف الصرب من وراء ذلك كله تكسيح جمهورية البوسنة والهرسك واقتطاع أجزاء كبيرة منها وخلخلة التفوق السكاني الإسلامي في الجمهورية، والقضاء على الثقافة والآثار الإسلامية فيها، وهذا كله بموافقة وصمت المجتمع الدولي! الذي يدعي أنه يحمي الأقليات ويرفض تدمير الهوية الثقافية لأي مجموعة سكانية في أي مكان من العالم!

***

ولكن أين جيش المسلمين في البوسنة والهرسك من كل ذلك ، ولماذا لا يستطيع الصمود؟ وفي الحقيقة فإن القوات المسلحة في البوسنة والهرسك بلا إمكانيات تقريبًا، ذلك أن كل السلاح الذي كان مملوكًا للجيش اليوغسلافي السابق وقع كله في يد الصرب، وهو جيش كان يعد الرابع في العالم، أي أن هناك جيشًا صربيًا قويًا في مواجهة جمهورية البوسنة والهرسك الوحيدة التي بلا جيش قوي بل جيش حديث التكوين يتكون من ١٥ ألفًا من المقاتلين المتطوعين لا يملكون سوى ١٩ دبابة فقط، وبالتالي فإن هناك خللاً كبيرًا في ميزان القوى لصالح الصرب، والأمر أشبه بجيش قوي يقاتل أناسًا عزل من السلاح، ومع ذلك، ورغم ذلك، فإن مقاتلي البوسنة والهرسك يبلون بلاءً حسنًا بل ويحصلون على سلاحهم وذخيرتهم من الغنائم من خلال المعارك التي يخوضونها ضد القوات الصربية، ومن العجيب أنه رغم الحاجة الماسة للسلاح التي تبديها قوات البوسنة فإن العرب والمسلمين لا يعطونهم شيئًا ، اللهم إلا بعض المعونات من الغذاء والملابس، وهم يحتاجون أساسًا إلى السلاح للدفاع عن أنفسهم.

***

■ أبعاد المؤامرة:

لكل أهدافه في صراع البوسنة والهرسك، فالمسلمون يريدون الحفاظ على جمهوريتهم الوليدة، والدفاع عن حدودها الشرعية أما الصرب، فهم يريدون إقامة جمهورية صربيا الكبرى على حساب أراضي المسلمين في البوسنة والهرسك، أما الكروات فقد وقعوا اتفاقًا غير مكتوب مع الصرب يتم بمقتضاه اقتسام أراضي البوسنة الهرسك بين الصرب والكروات على حساب المسلمين، يقول مستشار الرئاسة البوسنية خير الدين سمون في تصريح له بجريدة «الحياة» عدد ١٧/ ٧/ ١٩٩٢: «كل شيء ممكن هذه الأيام بين دولتي الصرب وكرواتيا ضد البوسنة، فنحن نعلم أن الرئيسين الصربي سلوبودان ميلوسيفتيش والرواتي فرانيو تودجمان اجتمعا قبل عام ونصف العام في منطقة كارجور جوفا الحدودية بين الصرب والكروات وحصل بينهما اتفاق غير مكتوب لتقاسم المصالح» ويضيف مستشار الرئاسة البوسنية: «نحن نعلم أيضًا أن العناصر الكرواتية المتطرفة في البوسنة والهرسك تعمل ضد مصالح البوسنة، ولا يستغرب وجود أطراف دولية أوروبية ضالعة في هذه المؤامرة التي تعود جذورها إلى بداية القرن الحالي».

إذن ، فالمؤامرة قديمة جديدة وتستهدف منع قيام كيان إسلامي في أوروبا، ولأن المخطط واضح لكل من له عينين فإن كاتبًا مثل الأستاذ سلامة أحمد سلامة، وهو ممن لا يمكن اتهامهم بالتطرف الإسلامي مثلاً كتب في أهرام (١٦/ ٧/ ١٩٩٢) يقول: «منذ عدة أسابيع ينشغل مجلس الأمن، والأمم المتحدة وأمينها العام، والدول الخمس الكبرى بمشكلة البحث عن أوراق ومستندات في أحد الأدراج بأحد المكاتب في وزارة الزراعة العراقية، حول تسليح العراق، ويحدث هذا بينما تجري تفاصيل المأساة الإنسانية والسياسية والدولية على أرض جمهورية البوسنة

والهرسك، تحت ستار من الصمت والتواطؤ الذي تشارك فيه أوروبا وأمريكا، لتحويل الصراع الدامي الذي يجري بشراسة غير مسبوقة من مشكلة اقتسام وتقطيع أوصال دولة مستقلة إلى مجرد شكل للإغاثة، ومن الواضح أن أوروبا وأمريكا لا يريدان أن يتدخلا في الوقت الحاضر، أو أن يتخذ مجلس الأمن قرارات تتعلق بطبيعة الأزمة من جوانبها السياسية، إلا بعد أن تكون الجيوش الصربية قد ثبتت أقدامها وانتهت من تهجير وتفريغ المناطق المسلمة التي تنوي ضمها إلى جمهورية الصرب الجديدة وبعد أن تكون منطقة الأقلية الكرواتية في البوسنة قد اندمجت نهائيًا في كرواتيا المستقلة ونشأ أمر واقع جديد، والذي يجري حاليًا هو مهزلة دولية بكل المقاييس ما كان ينبغي أن نشارك فيها ؛ لأن مهمة قوات الأمم المتحدة هناك لا تزيد على تأمين وصول الإغاثة إلى المحاصرين، وأما السفن الحربية التابعة لأمريكا ولدول غرب أوروبا وحلف الأطلنطي فإنها لا تفعل شيئًا أكثر من مراقبة الشواطئ دون أن يكون لها حق منع السفن من إنزال شحناتها.

* * *

إذن ، فالمؤامرة قديمة وجديدة، بدأت مع ضعف الدولة العثمانية وتكررت مع انهيار يوغسلافيا ، والهدف هو القضاء على الوجود الإسلامي، وأطراف المؤامرة هي : الصرب الذين يمثلون الأداة، والكروات باتفاقهم مع الصرب على تقسيم البوسنة بينهما، وإسرائيل التي تسلح الصرب، والغرب الذي يسكت على المذبحة بانتظار القضاء على الوجود الإسلامي في البوسنة والهرسك.

يقول أيوب جانيتش نائب رئيس جمهورية البوسنة والهرسك في تصريح خاص للأهرام عدد ١٨/ ٧/ ١٩٩٢ : «إن التحركات العسكرية الأوروبية والأمريكية حول الصرب ، وما يحدث في مطار سراييفو هو عملية من قبيل الاستعراض الدولي

فقط، وقال: إن المعونات التي تصل سرايفو المحاصرة لا تزيد على ٥ ٪ من احتياجات المدينة».

وفي تصريح استفزازي للورد كارينجتون نشرته صحيفة الأهرام في عدد ٢٥/ ٧/ ١٩٩٢) قال: «إنه من الضروري ترك أطراف الأزمة حتى ينهكهم القتال» أي ترك الصرب يذبحون المسلمين ويقطعون أوصال جمهورية البوسنة والهرسك.

ويصف الأستاذ نبيل شبيب - في تحليل إخباري لصحيفة «المسلمون» عدد ٢٤ يوليو ١٩٩٢ - إن الوضع عبارة عن مسألة مستمرة، وتمثيلية دولية مستمرة أيضًا، وقال: إن الولايات المتحدة الأمريكية، وفرنسا المتنافستين في كل المجالات متفقتان في مجال البوسنة والهرسك ، وذلك أنهما يريان ألا يتضمن أي قرار لمجلس الأمن على التلويح بالتدخل العسكري المباشر أو غير المباشر، ويرى الأستاذ نبيل شبيب أن المقاطعة الدولية البحرية لا قيمة لها ؛ لأن الصرب يحصلون على ما يريدون من خلال الحدود البرية مع رومانيا وروسيا واليونان ، وأن قرارات تحريك الأساطيل مظاهرة سياسية استعراضية فقط!.

ويصل الأمر إلى حد المأساة عندما تغلق الدول - مثل إيطاليا وألمانيا والنمسا والمجر وغيرها - حدودها في وجه اللاجئين، أي تسليمهم عمليًا للذبح وتسليم أولادهم إلى المؤسسات الكنسية التي نشطت لالتقاط الأطفال الذين لن يعرفوا أنهم من أصل إسلامي عندما يكبرون حيث سوف يتربون في جو كنسي مسيحي يحولهم رغم أنفهم إلى مسيحيين!!

والرئيس الأمريكي «بوش» يصرح قائلاً: « بأنه لم يتخذ قرارًا بإعادة انتشار القوات البحرية الأمريكية ، وأن السفينتين التابعتين للأسطول السادس الأمريكي اللتين أرسلتا إلى الأدرياتيكي تشكلان جزءًا من فريقين بحريين في المتوسط يبحران

من وقت لآخر إلى الأدرياتيكي».

أي رسالة إلى الصرب، لا تنزعجوا من التحركات البحرية الأمريكية، فما هي إلى مسرحية، واستمروا في ذبح المسلمين وتقطيع أوصال البوسنة والهرسك، والرسالة نفسها قالها ميتران ـ الذي زار سراييفو ـ فقد ذكر الرئيس الفرنسي فرانسو ميتران في مؤتمر صحفي في ختام قمة مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا: «ليس في ذهن فرنسا إرسال قوات من أجل القتال في الميدان، لكنها مستعدة لإرسال قوات لحماية المساعدات الإنسانية» وقال: «إن أحدًا لم يطلب من فرنسا إرسال قوات مقاتلة، ولو طلب منا ذلك لقلنا أن هناك وسائل أخرى تبدو لنا أفضل».

* * *

■ ليست البوسنة وحدها:

ليست البوسنة والهرسك وحدها المقصودة، ولكنه الإسلام في أوروبا كلها وفي المناطق ذات الكثافة الإسلامية في البلقان خصوصًا، والمسلمون في البلقان من أصل أوروبي، وليسوا أتراكًا كما يدعى الإعلام الغربي، بل هم سكان أصليون في المنطقة اختاروا الإسلام دينًا لهم منذ عدة قرون. وإذا كان المسلمون في الأندلس، من كان منهم من أصل عربي أو من أصل أندلسي ، قد تمت إبادتهم وطردهم ؛ فإن الأمر يتكرر اليوم في البلقان، والإسلام موجود في كل مناطق البلقان في ألبانيا وكوسوفو والبوسنة والهرسك، وكذلك في صربيا وكرواتيا وسلوفينيا ومقدونيا والجبل الأسود بل وفي المجر ورومانيا وبلغاريا، وهناك تداخل عرقي وديني شديدين في هذه المناطق، فالمسلمون يشكلون ٨٠ ٪ في ألبانيا، و٥٤ ٪ في البوسنة والهرسك، و٩٣ ٪ في كوسوفو و ٤٠ ٪ في مقدونيا، وهناك ٢٠ ألف مسلم في سلوفينيا، وهناك ربع مليون مسلم بين صربيا والجبل الأسود، والمسلمون عمومًا في يوغسلافيا

الاتحادية سابقًا يبلغون ٦ ملايين مسلم.

وآخر فصول مخطط الإبادة، القديم الجديد، هو إلغاء الهوية الثقافة للمسلمين في بلغاريا، وهو ترك مسلمي ألبانيا فريسة للفقر والجهل ، مما يجعلهم عرضة للنشاط التبشيري الذي يعمل الآن على قدم وساق في ألبانيا، وكذلك عملية الإبادة السكانية والثقافية التي يتعرض لها المسلمون في البوسنة والهرسك، ويمكن أن نتوقع في غضون شهور قليلة أن يتكرر ما يحدث الآن في البوسنة والهرسك، في جمهورية كوسوفو ، وهي جمهورية إسلامية يبلغ عدد سكانها ٢ مليون نسمة وتقع بمحاذاة الحدود مع ألبانيا غربًا، وجمهورية مقدونيا في الشمال الغربي، ويبلغ عدد المسلمين فيها حوالي ٩٣ ٪ وكانت هذه الجمهورية تابعة للاتحاد اليوغسلافي، ولكنها أعلنت استقلالها حديثًا بعد إجراء استفتاء على ذلك، ومعظم أصلها من أصل ألباني، وكانت كوسوفو مسرحًا لصراع طويل بين المسلمين والصرب منذ عدة قرون، حيث دارت في الإقليم المعركة الشهيرة بين الصرب والمسلمين في سنة ١٣٨٩ م، ثم خضعت صربيا للدولة العثمانية، وبعد الحرب العالمية الأولى قررت دول الحلفاء المنتصرة ضم إقليم كوسوفو إلى صربيا مكافأة لها على حربها ضد الأتراك، ثم حاولت صربيا تهجير سكان الإقليم من أصل ألباني، وإحلالهم بصرب، ومع نهاية الحرب العالمية الثانية دخلت كوسوفو ضمن الاتحاد اليوغسلافي بقيادة تيتو، بادة الثقافة الإسلامية فيها، ومع انهيار الشيوعية وتفكك يوغسلافيا استعاد أهل كوسوفو هويتهم الدينية والحضارية والسياسية وأعلنوا استقلالهم عن صربيا وإقامة جمهورية كوسوفو المستقلة، وتدخل الجيش الصربي على الفور فأوقع العديد من المذابح في شعب كوسوفو، ولكن الوضع متجمد حاليًا في كوسوفو بانتظار ما يسفر عنه الصراع في البوسنة والهرسك، والجيش الصربي من جهته يعد

العدة لإبادة شعب كوسوفو حيث أخذت القوات الصربية مواقعها على الروابي والتلال المحيطة باثنتين وعشرين مدينة في كوسوفو واحتلت أسطح المباني والمنازل العالية التي تحكم الشوارع وتسهل عملية القنص، ويمكن أن نتوقع مصيرًا أشد فظاعة ينتظر كوسوفو، لأن صربيا تدعي ملكية كل أراضي كوسوفو، وأنها أراض مقدسة بالنسبة لها يجب أن تظل خاضعة لنفوذها، وتتكون كوسوفو من سهلين «كوسوفو» وسنجق، وتغطي مساحة قدرها ١٠٨٨٧ كيلومترًا مربعًا، وقد دخل أهلها في الإسلام، منذ سبعة قرون، والاسم الصحيح لكوسوفو هو «كوسمت» بمعنى «لؤلؤة» باللغة الألبانية.

وكان المسئولون الصربيون قد أخرجوا جثمان الأمير (لازار) آخر حكام دولة الصرب القديمة ، وطافوا به كل أرجاء المناطق في البوسنة والهرسك وكوسوفو، في محاولة للتذكير بأن الصرب كانت لهم دولة اندثرت بهزيمتها الساحقة على يد العثمانيين سنة ١٣٨٩ ، وأنه يجب الانتقام وإعادة أمجاد دولة الصرب، أي إيقاع مذبحة بالمسلمين في البوسنة والهرسك ثم في كوسوفو.

فهل نتفرج على المأساة، أم نفعل شيئًا من أجل مسلمي البوسنة والهرسك وكوسوفو. بل من أجل أنفسنا؟!

■ ■ ■



جرائم أمريكا والغرب

٥

السودان المفترى عليه

- فتش عن إسرائيل
- فتش عن الصليبية

◆◆◆

مقدمة

عندما يدقق الإنسان النظر فيما يجري في العالم عمومًا، وما يجري في مصر والسودان خصوصًا يضع الإنسان يده على قلبه لأكثر من سبب.

فالنظام العالمي الجديد الذي راح يتشكل الآن بعد انهيار الكتلة الشيوعية يضع على رأس قائمة أعدائه «الإسلام والمسلمون» ويطرح روحًا عنصرية وصليبية قديمة جديدة، بحيث إنه ليس من المبالغة القول : إننا بصدد حملة صليبية ثالثة تستهدف العالم الإسلامي على اعتبار أن الحملة الصليبية الأولى كانت بدءًا من ١٠٩٨ والثانية بدءًا من ١٧٩٨، الأولى انتهت بهزيمة الغرب الصليبي، والثانية انتهت بحركة تحرر وطني نجحت في طرد الاستعمار، الأولى وجدت مَنْ يتصدى لها أمثال : صلاح الدين الأيوبي وعماد الدين زنكي وغيرهما، والثانية وجدت من يقاومها أمثال : عبد القادر الجزائري، وعبد الكريم الخطابي، وعمر المختار، وعمر مكرم، وعز الدين القسام وغيرهم. ولكن الحملة الثالثة التي نحن بصددها لم تجد حتى الآن مَنْ يتصدى لها، بل الأخطر أنها تجد من بين العرب والمسلمين مَنْ يروج لمبادئها ويدعو إلى اللحاق بركبها الذي تقوده قوة عمياء ومتغطرسة هي أمريكا، أكثر من ذلك أن تلك الحملة الصليبية الثالثة التي نحن بصددها تمتلك من الإمكانات العسكرية والإعلامية ووسائل الاتصال ، مما يجعل الأمر شديد الخطورة على الحضارة الإسلامية بل على وجودنا كأمة أصلاً.

وليست هذه دعوة لليأس بقدر ما هي لإدراك خطورة المسألة وأبعادها والبحث عن وسيلة للانعتاق منها.

- إن من الأهداف المعلنة والقريبة المدى لتلك الحملة الصليبية الثالثة التي

يقودها كل من البابا يوحنا بولس الثالث والرئيس الأمريكي بوش هي تنصير أفريقيا وإدماجها قسرًا في الحضارة الصليبية لحصار العالم الإسلامي ، والقضاء عليه -لا قدر الله مستقبلاً- باعتبار أن أفريقيا في المجال الحيوي الطبيعي للعالم الإسلامي.. وهنا تبرز أهمية السودان باعتباره مفتاح أفريقيا، ويبرز أيضًا لماذا يحظى السودان بهذا الكم من العداء والمؤامرات بعد قيام نظام إسلامي به استطاع أن يضع السودان على طريق الوحدة ويقضي على التمرد في الجنوب ويحشد أبناء السودان جميعًا للدفاع ضد المخطط الأوربي الصليبي الذي يستهدف أفريقيا. ويمكننا ، مثلاً ، أن نرصد الجولات التي يقوم بها البابا يوحنا بولس الثالث في أفريقيا لدرجة أنه يزور البلاد التي يشكل المسلمون فيها أكثر من ٩٥٪ من سكان في دلالة واضحة إلى ما يريده البابا يوحنا بولس الثالث ، وما يخطط له تجاه أفريقيا ، ويمكننا أن نرصد في الإطار نفسه المضايقات التي لا حصر لها التي يتعرض لها السودان حاليًا من صندوق النقد الدولي، أو الاتهام بتشجيع الإرهاب ، وهي التهمة الجاهزة لدى الغرب حاليًا لتبرير الاعتداءات المزمع إنجازها، وكذلك محاولات ضرب ليبيا أو حصارها اقتصاديًا للقضاء في النهاية على أي دور إسلامي تقوم به في أفريقيا وجعل السودان وحيدًا في النهاية ليسهل ضربه والقضاء على ثورته الإسلامية؛ لتصبح أفريقيا مفتوحة تمامًا أمام الحملة الصليبية الثالثة التي تقودها أمريكا والفاتيكان، ويمكن أن نرصد أيضًا محاولات الوقيعة بين مصر والسودان خاصة أن تلك المحاولات يقوم بها سياسيون ومفكرون من جميع البلاد والاتجاهات ، الأمر الذي يكشف عن محرك العرائس التي يحركها. ومن العجيب في هذا الصدد أن تتوافق نفحات الهجوم على السودان من كل الاتجاهات من أمريكا، ومن البرلمان الأوربي الموحد، ومن الصحافة الغربية، والصحافة المحلية ، فنجدها تجمع بين فرج فودة، حسين أمين، ميلاد حنا، بل نجدها تجمع بين صحيفة الوفد

وصحيفة التجمع رغم اختلاف المشارب.

- إن خبرة التاريخ - وهذا أخطر ما في الأمر - تقول : إن الإنجليز تدخلوا سنة ١٨٨٢ لذبح الثورة الإسلامية العرابية في مصر، وأنهم بعد احتلال مصر نجحوا في استخدام الجيش المصري والموارد المصرية في إخضاع السودان للنفوذ الإنجليزي الصليبي، بل ومن الحقائق المعروفة أن جوردون باشا وهو قس صليبي معروف كان يؤدي مهمته التنصرية في السودان ، ويأخذ مرتبه من الخزانة المصرية، وهذه الخبرة التاريخية بالتحديد هي ما تجعلنا نضع أيدينا على قلوبنا؛ خوفًا من تكرارها، فيتم الإيقاع بين مصر والسودان بوسائل متعددة؛ فتكون النتيجة أن يتم ذبح الثورة الإسلامية في السودان على يد مصر وبموارد مصر، مثلما حدث في ذبح الثورة الإسلامية المهدية في السودان أيضًا بيد الجيش المصري وبموارد الشعب المصري ولحساب الإنجليز في النهاية، بل إن المخطط الذي يقوده الأمريكان والفاتيكان هذه المرة يمكن أن يضرب عصفورين بحجر واحد فيتم ذبح الثورة الإسلامية في السودان بيد مصر، ويتم في الوقت نفسه ذبح الحركة الإسلامية في مصر بدعوى العمالة للسودان، ويتم الإيقاع بين الشعبين لتصبح مصر والسودان وأفريقيا فريسة سهلة للنفوذ الأمريكي أو الحملة الصليبية الثالثة، ونسأل الله أن يكون المسئولون في البلدين أذكى من الوقوع في هذا الفخ.

- إن من الحقائق التاريخية أن السودان ضروري لمصر، وأن مصر ضروري للسودان وأن الوحدة بين البلدين ضرورة استراتيجية لكل منهما، بل هي ضمانة أكيدة للبقاء، ولعل هذا الأمر ما جعل كل الفرقاء ومختلف القوى السياسية الشريفة يؤكدون على هذا الأمر ؛ لدرجة أن مصطفى النحاس باشا زعيم حزب الوفد يقول: «تقطع الأيدي ولا يفصل السودان عن مصر».. ولم يشذ عن هذا الأمر الذي

كان بمثابة الحقيقة التاريخية التي تحظى بالإجماع الوطني إلا بطرس باشا غالي الذي وقع اتفاقية السودان سنة ١٨٩٩ فاستحق الإعدام على يد شباب الحزب الوطني «إبراهيم الورداني»، وكذلك عبد الناصر الذي فصل السودان عن مصر سنة ١٩٥٤ ولم يجد مَنْ يغتاله جزاءً وفاقًا على هذا الأمر، بل وجد الإعلام الأمريكي يجعله زعيمًا وبطلاً!!

ومن المحزن أن مدرسة بطرس غالي وجمال عبد الناصر قد اتسعت الآن ونجد فيها ، أمثال : فرج فودة، وميلاد حنا، وحسين أحمد أمين وصحفًا ، مثل : صحيفة الوفد والأهالي وأكتوبر.

إن المخطط أكبر كثيرًا مما نتصور، والمسألة تحمل ملامح مؤامرة واسعة ضالع فيها هذه المرة أمريكا وأوربا والفاتيكان وقوى سياسية وصحفية محلية، وما لم تتسم معالجة هذه القضية بالشجاعة والحكمة في آن واحد ؛ فإن المخطط سوف يظهر سريعًا ويسير في اتجاه التطبيق ، وحين ذاك لا ينفع الندم.

■ ■ ■

فتش عن إسرائيل
فتش عن الصليبية

◆◆◆

التآمر الصليبي على السودان حقيقة معروفة ومشهورة ولا يختلف عليها اثنان؛ وهكذا لم يكن غريبًا أن يكون الحديث عن السودان يشغل مساحة كبيرة في الوثائق والتقارير والأبحاث الخاصة بالتنصير سواء تلك الصادرة عن مؤسسات التنصير العالمية أو تلك التي تكشف هذه المؤامرة، ولم يكن عجيبًا أن يفرد الدكتور عبد الودود شلبي أكثر من ربع كتابه المهم عن التنصير للسودان، والآن لنقرأ شيئًا من الحقائق والوثائق التي جاء بها كتاب الدكتور عبد الودود شلبي «الزحف إلى مكة – حقائق ووثائق عن مؤامرة التنصير في العالم الإسلامي».

يقول الدكتور عبد الودود شلبي: «إن بلاد السودان.. أو سودان وادي النيل يحتل في حدوده الإدارية ما يقرب من مليون ميل مربع ، وهو يعادل في مساحته ثماني دول أوربية هي: السويد والنرويج والدنمارك والجزر البريطانية وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا والبرتغال – الدول الأوربية كلها ثلاث عشرة دولة – كما تقع على حدوده الجنوبية أوغندا وزائير وكينيا وشرقًا أثيوبيا وأرتيريا، وغربًا تشاد وأفريقيا الوسطى، وشمالاً مصر وليبيا، والميزة الرئيسية لموقع السودان أنه يمثل أكبر عمق إسلامي في أفريقيا، وهو كذلك يمثل أكبر وحدة عربية إسلامية حافظت على لغتها العربية وعقيدتها الإسلامية».

ونضيف ، نحن ، إلى ذلك: أن السودان يمتلك قدرة إنتاجية زراعية هائلة تستطيع – لو تم استثمارها – أن تحدث اكتفاءً ذاتيًا عربيًا وإسلاميًا من المواد الغذائية وغير الغذائية، أي تحقق استقلالاً اقتصاديًا عربيًا وإسلاميًا هائلاً، يقلص بالضرورة من النفوذ السياسي الغربي علينا المرتبط بحاجاتنا المستمرة للغذاء من أعدائنا.

ونضيف أيضًا أن السودان به الجزء الأكبر من منابع النيل، وهو أيضًا يمثل المجال الحيوي والاستراتيجي لمصر، وأن مَنْ يمتلك السودان يتحكم في حياة مصر،

وبالتالي فلو سقط السودان- لا قدر الله- في قبضة الصليبيين ؛ فإن ذلك لا يفتح أمامهم أفريقيا وحدها، بل يمكن أن يخنق مصر، ومصر هي قلب الإسلام وأهم قواعد الحضارة الإسلامية أمس واليوم وغدًا.

والجنرال سوار الذهب يؤكد هذا الأمر، ففي حوار له مع مجلة الحوادث اللندنية بتاريخ ٢٥/ ١٠/ ١٩٨٥ يقول سوار الذهب «هناك حقيقة كبرى فيما يخص التمرد في الجنوب وهي التوجه العنصري الذي أظهرته تلك الحركة وأهداف المخططين لها، فالهدف الحقيقي لهذه الحركة كما تظهره التحقيقات المستمرة هو إبعاد العناصر العربية المسلمة من السودان كافة ، وليس من الجنوب وحده، والقضاء عليها» ويضيف الجنرال سوار الذهب «السودان من حيث خصوصيته العرقية والمذهبية يمكن اعتباره ثغرًا عربيًا مسلمًا في موقع متقدم من القارة الإفريقية، فإذا استمرت الموجة العنصرية التي أشرت إليها وإذا سمح للتيار المعادي للعروبة والإسلام بأن ينجح فلا شك أن الخطر يتهدد الأمة الإسلامية بكاملها، ولابد أن يهتم الأخوة العرب والمسلمون بخطورة هذه الأوضاع».

ويضيف الجنرال سوار الذهب «لابد من القول بأن جهات خارجية معروفة كانت ولا تزال تقف مع العقيد جارانج وتمده بالأسلحة».

ثم يصل الجنرال سوار الذهب إلى خطورة هذا التمرد على مصر قائلاً: «إن السودان يمثل عمقًا حيويًا مهمًا للشقيقة مصر، وأن كل ضيم أو خطر يصيب السودان – لا سمح الله– لابد أن يقلق الإخوة في مصر ويكون مدعاة لانتباههم وعنايتهم». ثم يلخص الجنرال سوار الذهب المسألة برمتها قائلاً: «والمخططات بعيدة المدى للحركة العنصرية الملتحمة مع حركة التمرد في الجنوب لا يستبعد أن تتربص بأي بلد عربي مسلم وأفريقي يتميز بمواصفات حضارية تعددية تصبح ذات خطورة إذا

حاولت جهات مشبوهة النفاذ منها إلى أمن البلد ووحدة ترابه وسكانه.

وفي الحقيقة فإن التحقيقات تكشف أولاً بأول مدى خطورة تلك الحركة على السودان ومصر والعالم العربي وأفريقيا والعالم الإسلامي كله، وهذا يفترض منا ومن كل عربي ومسلم الحذر واليقظة والانتباه».

على أن جون جارانج نفسه يعترف بالحقيقة العارية قائلاً: «السودان هو بوابة الإسلام والعروبة إلى أفريقيا ، فلتكن مهمتنا الاحتفاظ بمفتاح هذا الباب؛ حتى لا تقوم للإسلام والعروبة قائمة في جنوب الصحراء الكبرى».

وجارانج هذا الذي يقود التمرد في الجنوب تعلم في مدارس الكنيسة وحصل على الدكتوراه من أمريكا!

على أي حال ؛ لنكمل قراءة باقي الوثائق في كتاب الدكتور عبد الودود شلبي، يقول الدكتور عبد الودود شلبي: «كنت في زيارة إلى لندن ، وقد لفت نظري أحد الأصدقاء إلى مقال في صحيفة الأوبزرفر ، وكان موضوع المقال عن السودان، وقد ذكر هذا الكاتب أن السودان كان بلدًا مسيحيًا ولابد أن يعود مسيحيًا..! وأن الحرب في الجنوب ليست سوى تجربة لحروب أخرى ستشتعل في كردفان وجبال النوبة والأخطر من ذلك أن يذكر هذا الكاتب أن استغلال ثروات السودان مؤجل إلى أن يحين الوقت الذي نسمح فيه بهذا العمل ولن يجيء هذا الوقت قبل أن نحدد نحن معالم السودان وشخصيته في المستقبل».

وينقل الدكتور عبد الودود تصريحًا لقسيس اسمه جاكسون لصحيفة الجارديان البريطانية بأن الهدف الذي يسعى إليه المنصرون إنما هو إقامة حزام جغرافي لمجموعة الدول النصرانية التي تتحكم في منابع النيل، وهذه الدول التي يعنيها هذا المنصر هي جنوب السودان بعد نجاح المؤامرة ، وأوغندا التي يبلغ عدد المسلمين

فيها أكثر من ٧٥٪ وكينيا التي لا يزيد عدد المسلمين فيها على ٢٥٪ وأثيوبيا «يبلغ عدد المسيحيين فيها أيضًا ٣٥٪ والهدف الذي يسعون إليه طبعًا هو التحكم في أي بلد يعتمد على مياه نيل مصر مثلاً»..

ويعترف رالف شتاينر وهو أحد قادة التمرد وهو قسيس أبيض جاء إلى السودان لمساعدة التمرد.. يعترف بعد أن سقط في الأسر قائلاً: «لقد ترعرع التمرد الانفصالي في أحضان الاستعمار الصليبي منذ أن فرض الاستعمار البريطاني عزلة تامة على جنوب السودان ووضع له إدارة منفصلة، وجعل التعليم فيه تابعًا للإرساليات حتى يتخرج الجيل الذي يقود التمرد».

ويقول الأستاذ حسن مكي في كتابه المهم «التبشير المسيحي في العاصمة المثلثة»: (إن التدخل في الشئون الداخلية للدول يعتبر جزءًا من الدور الاستعماري الذي تقوم به المؤسسات التنْصرية حيث تعتبر ذلك جزءًا من عملها لقيام إمبراطورية نصرانية تسيطر على العالم، ففي جميع الدول التي أقام بها دعاة التنصير مراكز لهم أصبح هذا الدور واضحًا جليًا؛ فقد قام مجلس الكنائس العالمي بدور بارز في إدارة الجنوب في السودان حين تبنى تلك الحرب الداعية إلى انفصال جنوب السودان عن شماله رغم قلة عدد النصارى هناك ، حيث لا يتجاوز عدهم ٧٪ من تعداد الجنوب».

ويكشف الدكتور عبد الودود شلبي العديد من الهيئات الصليبية التي تدعم التمرد في الجنوب مثل اتحاد الطلاب المسيحيين البروتستانت بجامعة بون بألمانيا الغربية؛ فقد جمع الطلاب الذين ينتمون إلى هذا الاتحاد تبرعات من المواطنين تحت رعاية الكنيسة، كما تم فتح حساب لهذه التبرعات في البنك التجاري بعاصمة ألمانيا الغربية تحت رقم ٢/ ١٠٦٧٦ كما أسهم قساوسة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بإيطاليا بقسط موفور في النشاط لدعم حركة الانفصال في جنوب السودان، وكان

أغلب قساوسة هذه الكنيسة من الذين باشروا أعمالاً سياسية وتخريبية في الجنوب وصدر القرار بطردهم من السودان عام ١٩٦٣، ومن الأسماء التي أعلنتها الحكومة السودانية وهي تبرهن على اشتراك هؤلاء القساوسة في أعمال المعونة للانفصاليين (بين أسماء ثلاثة قساوسة بالذات كانوا يعملون في مديرية بحر الغزال وهم البيشوب دومنيك فيرايرا، الأب أدوارد ماسون، الأب الفونس روزي) وكان هؤلاء قد قاموا بجمع التبرعات من بعض الدول الكاثوليكية الأوربية ومجموعة الدول الإسكندنافية، كما قاموا بحملة صحفية في أوربا لتأييد الانفصال في الجنوب.

وكذلك جمعية الدعم الأفريقي بألمانيا الغربية التي أسسها عام ١٩٦٤ طبيب يدعى »لوبا«، وأنشأ فروعًا لها بمدينة فرانكفورت وأخرى بمدينة كولون بألمانيا الغربية، وفتح لها صندوق توفير بالمدينة الأخيرة تحت رقم ٦٩٩٩، ثم أنشأ فروعًا لها بمدينة كراكاس وميونيخ وهامبورج لتواصل دعمها للانفصاليين، وهناك لجنة العمل «بيافرا السودان» وهي منظمة كاثوليكية بألمانيا الغربية، وكذلك منظمة المساعدات الألمانية، والكنيسة الكاثوليكية البروتستانتينية وهي هيئة نشطة في ألمانيا وتجمع التبرعات من الألمان وقد فتحت لها حسابًا باسم إعانة السودان، ثم هناك هيئة العمل الطبي بفرانكفورت بألمانيا الغربية وهيئة الخدمة الألمانية، ثم منظمة جنوب السودان وهي مسجلة رسميًا في لندن ومن بين أعضائها أساتذة في الجامعة وأعضاء في البرلمان، وتقوم بنشاط واسع لدعم التمرد كما تضم في عضويتها اثنين من زعماء التمرد وهما «بادنج جرنج» و«يعقوب جيبل».

ويترجم الدكتور عبد الودود شلبي وثيقة في غاية الأهمية لأسقف الكنيسة الإنجليزية في الأربعينيات القس ترمنجهام، وتقول تلك الوثيقة: «إنه بتطور

الكنيسة المسيحية في الجنوب فإننا مواجهون باللقاء المرتقب بين المسيحية السودانية والإسلام السوداني إذ بتحرر – كنيسة الجنوب من عقدة العرق – بالرغم من وجود استيطان أبيض – فإنها ستشعر بغبطة عندما تصبح الديانة الرسمية للجنوب، وإنه من واجبنا في الشمال الإعداد لذلك اليوم، وسنسعى إلى تأسيس مراكز مسيحية في ديار الإسلام؛ حتى تصير للمسيحية في الجنوب نقاط ارتكاز، حينما تندفع في اتجاه الشمال.

■ إسرائيل على الخط:

أمَّا إسرائيل من جانبها، فإنها تحركت بنشاط في أفريقيا عمومًا وجنوب السودان وأثيوبيا خصوصًا، وليس سرًا أن جون جارانج بالتحديد قد زار إسرائيل عدة مرات، وأن هناك خبراء إسرائيليين يعملون مع قوات التمرد، وأن هذا التمرد يتلقى دعمًا ماديًا وتدريبيًا هائلاً من إسرائيل، وأن الكثير من سلاح المتمردين يأتي من إسرائيل، وليس جديدًا أيضًا أن إسرائيل حاولت إقامة مشروعات في أثيوبيا بهدف حرمان مصر من جزء كبير من مياه النيل، وأنها كانت مع غيرها وراء تحريض التمرد في الجنوب على ضرب مشروعات الري التي تهدف إلى زيادة حصة كل من السودان ومصر من مياه النيل، وليس جديدًا أيضًا أن حاجة مصر إلى المياه، وزيادة حصتها من تلك المياه أمر أصبح حيويًا بالنظر لازدياد حاجات مصر من المياه أمَّا لماذا تفعل إسرائيل هذا؟ فإن ذلك يرجع إلى سببين، السبب الأول: عام، وهو التحالف الطبيعي الذي نشاهده الآن بين اليهود والصليبيين بهدف القضاء على العالم الإسلامي وجودًا وحضارة أو إضعافه وحصاره حتى لا يصبح عقبة في وجه المخططات الصليبية واليهودية، والسبب الثاني: خاص، وهو أن إسرائيل ترى أن مصر القوية هي العقبة الرئيسية أمام الحلم الإسرائيلي بإقامة إسرائيل الكبرى من

النيل إلى الفرات؛ وأنه لابد بالتالي من إضعاف مصر بجميع الوسائل وأنه لا يشفع لمصر هنا توقيعها لمعاهدة سلام مع إسرائيل، لأن الهدف ضرورة إضعاف مصر وتفكيكها وجعلها بلا قوة أو نفوذ أو قدرة على مواجهة المخطط الصهيوني، وأهم نقطة في إضعاف مصر هو حصارها من السودان والتحكم في منابع النيل.. وعلى أي حال ، فتفاصيل المخطط معروفة ونشرها الدكتور حامد ربيع في أكثر من كتاب ومقال خاصة في كتاب «الإسلام والقوى الدولية».

■ ■ ■

مصر والسودان

◆◆◆

يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعي – المؤرخ المصري المعروف– «السودان جزء لا يتجزأ من مصر، والحدود القومية والجغرافية لمصر تشمل وادي النيل من منبعه إلى مصبه، فمصر والسودان جزءان لا ينفصلان من وحدة سياسية واقتصادية لا تقبل التجزئة، تربطهما روابط الوطن والتاريخ واللغة والدين، وصلات الدم والنسب والمرافق المشتركة».

ويضيف الأستاذ عبد الرحمن الرافعي: «إن ارتباط مصر والسودان ضرورة حيوية لهما، وخاصة مصر، فإنها تستمد حياتها من النيل، فهي هبة النيل كما قال هيرودوت، أو كما يقول المعاصرون: «مصر هي النيل، والنيل هو مصر»، فلا تطمئن على حياتها إذا تملكت منابع النيل دولة أخرى، ولا يتحقق استقلال مصر التام إلا إذا شمل وادي النيل من منبعه إلى مصبه، وصارت هي والسودان وحدة سياسية تتألف منها الدولة المصرية المستقلة، ولا تمييز في ذلك لمصر على السودان في هذه الوحدة، فكلاهما جزء لا يتجزأ من هذا الوادي، وكلاهما يكمل الآخر ولا غنى له عنه؛ فمصر لا تستطيع أن تقف على قدميها منفصلة عن السودان، والسودان أيضًا لا يستطيع أن يقف على قدميه منفصلاً عن مصر، وإذا انفصلا يفقد كل منهما كيانه ويصبح كلاهما إقليمًا تنقصه مشخصات الدولة ومقوماتها».

وفي الحقيقة، فإنه لا يشذ عن إدراك هذه الحقيقة أي مصري أو سوداني – اللهم إلا عملاء الاستعمار أمثال بطرس غالي وعبد الناصر وجون جارانج – أمَّا جميع زعماء مصر وقواها السياسية ومفكروها المحترمون من جميع الاتجاهات، فهي تتفق على هذا الرأي. فقضية وحدة مصر والسودان كانت دائمًا من القضايا المحسومة التي لم يفكر أحد أو يجرؤ أحد من الحكام أو السياسيين على التخلي عنها، برغم كل الظروف، ومهما كانت الأسباب، فحتى الدول الأوربية التي قامت بتصفية مشروع

محمد علي ، والتي كانت تخطط لفصل السودان عن مصر، لم تستطع في ذلك الوقت ١٨٤٠ أن تجبر محمد علي على التخلي عن السودان؛ لأنها كانت تعرف أنه لن يقبل بذلك حتى ولو حارب حتى آخر جندي مصري وسوداني، ففضلت أن تنتظر لتنضج الطبخة أو المؤامرة الصليبية على مصر والسودان على نار هادئة، والخديو إسماعيل برغم كل أخطائه وخطاياه أصر على توسيع أملاك مصر الأفريقية وتأكيد وحدة السودان ومصر بل ووصل إلى منابع النيل في أثيوبيا وأوغندا؛ لأنه كان يعرف أنه لا حياة آمنة ومستقرة لمصر إلا بتأمين منابع النيل.

والحزب الوطني الذي قاد الكفاح المصري ضد الاستعمار الإنجليزي منذ الاحتلال وحتى ثورة ١٩١٩ أصر دائمًا على وحدة وادي النيل، وأصر دائمًا على المطالبة بالجلاء الكامل من مصر والسودان ، فمحمد فريد يقول: «إن مصر هي كل وادي النيل من أقاصي السودان إلى البحر الأبيض المتوسط ثم إلى البحر الأحمر بما يشمل كردفان ودارفور؛ لأنه لا يجهل إنسان أن مَنْ يملك أعالي النيل إنما يملك رقبة مصر».

ويضيف محمد فريد: «يجب أن يكون وادي النيل لنا وحدنا غير مجزأ ولا مقسم كما كان ذلك منذ أن وجد الأب البار لهذا الوادي ألا وهو النيل».

وحتى عندما تولى الوفد زعامة الحركة الوطنية المصرية بعد ثورة ١٩١٩، وبرغم علمانية الوفد فإن الحقيقة كانت واضحة لا لبس فيها ولا غموض فها هو ذا سعد زغلول يقول: «لو تركنا السودان ، فالسودان لا يتركنا»، ومصطفى النحاس يقول: «تقطع يدي ولا يفصل السودان عن مصر» (*).

(*) لا ندري ما الذي حدث في الوفد، الذي تمسك دائمًا بوحدة مصر والسودان حتى تصبح صحيفته في عهد جمال بدوي هي لسان حال الانفصاليين في السودان، ويصبح جارانج الصليبي وعصابته ومؤيدوه هم نجوم صفحة الأشقاء التي تفردها صحيفة الوفد أسبوعيًا للتغزل والإشادة بجون جارانج وأتباعه في الجنوب والشمال، إنها ليست صحفة الأشقاء بل صفحة «الأشقياء»..

وعندما استعادت الحركة الإسلامية زمام المبادرة في الحركة الوطنية المصرية عقب ظهور جماعة الإخوان المسلمين ، كانت تلك الحقيقة هي إحدى الأسس الثابتة لتلك الحركة... يقول الإمام الشهيد حسن البنا: «شعب وادي النيل في الشمال والجنوب شعب واحد».

***

كانت إذن وحدة مصر والسودان حقيقة تاريخية وجغرافية ثابتة منذ أن نشأ الأب البار لهذا الوادي ، وهو النيل كما يقول الزعيم الفذ «محمد فريد»، وعندما دخل الإسلام إلى وادي النيل ، فإنه أكد هذه الحقيقة ، وأضاف إليها بعدًا إسلاميًا وثقافيًا وعقائديًا وظلت هذه الوحدة حقيقة راسخة في جميع أزمنة الحكم الإسلامي وحتى الخلافة العثمانية، وعندما ضعفت هذه الخلافة وبدأت أوربا الصليبية تعد مشروعها الصليبي الثالث، كانت تضع على رأس أولوياتها ضرورة فصل السودان عن مصر والسيطرة على السودان وتنصيره؛ وذلك بهدف عزل الإسلام عن جنوب الصحراء من ناحية، وفرصة للوثوب على مصر ، والقضاء عليها في مراحل لاحقة باعتبارها ثقلاً حضاريًا إسلاميًا كبيرًا.

ويحدثنا إبراهيم باشا فوزي في كتابه «السودان بين يدي غوردون وكتشنر» الجزء الأول ص٥٨ قائلاً: إن دولة أوربية كبيرة هي انجلترا كانت تستعد في ذلك الوقت لاحتلال السودان ومنابع النيل وهذا ما دفع محمد علي لفتح السودان وإنفاذ الحملة إليه».

على أية حال ، نجح محمد علي في تأكيد وحدة مصر والسودان بتلك الحملة التي لم تكلفه كثيرًا على مستوى الموارد المالية ولا على مستوى الخسائر البشرية، وهذا يدفعنا إلى القول بأنه لو اهتم محمد علي بمشروعه الأفريقي، ولو استخدم قوة مصر

ومواردها الهائلة في فتح أفريقيا في ذلك الوقت المبكر لكان وجه التاريخ قد تغير؛ لأن فتح أفريقيا لم يكن يكلفه على مستوى الموارد والأفراد ١٠٪ مما أنفقه في حروب لا طائل وراءها في الجزيرة العربية والشام والأناضول، وهي التي أدت إلى استنزاف موارد مصر واستنزاف موارد الخلافة العثمانية وإضعافها في وقت واحد، وانتهت إلى إضعاف مصر والخلافة معًا؛ مما تسبب بعد ذلك في سقوط الخلافة العثمانية وبدء السيطرة الاستعمارية الأوربية على العالم الإسلامي وأفريقيا، نعم لو تفادى محمد علي الصدام مع الخلافة، وهو الفخ الذي أوقعته فيه أوربا، لظلت مصر بكامل قوتها ولظلت الخلافة قوية ولو إلى حين تقلق فيه أوربا وتشغلها عن مشروعها الاستعماري خاصة في أفريقيا ولكان محمد علي بكامل الموارد المصرية استطاع أن يفتح إفريقيا كلها؛ لأن خطوط المواصلات في ذلك الوقت لم تكن تسمح لأوربا بمعارضة وعرقلة هذا المشروع، ولأن أوربا كانت مشغولة بالهاجس العثماني، ولكان محمد علي قد أقام إمبراطورية إسلامية في أفريقيا تعتمد على موارد مصر وأفريقيا عمومًا – وهي ضخمة وثرية – في إقامة نهضة صناعية وعلمية وعسكرية شاملة، ولكانت أوربا قد حُرِمَت من موارد أفريقيا الغنية وهي الموارد التي بنت أوربا نهضتها الحديثة على أساسها سواء من خلال الثروات الطبيعية أو استخدام الرقيق الأفريقي في بناء النهضة الأوربية، وفي الواقع فإن كل المفكرين والمؤرخين الأوربيين يعرفون هذه الحقيقة، ويعرفون أن الرأسمالية ذاتها نشأت من خلال النهب الاستعماري لأفريقيا ومن تجارة الرقيق، بل إن البنوك الأوروبية المشهورة اليوم وهي التي عدلت الرأسمالية نشأت أصلاً على مقاهي أرصفة الموانئ حيث تجارة الرقيق وتجارة الموارد المنهوبة من أفريقيا، نعم لو تفادى محمد علي الصدام مع الخلافة العثمانية واهتم بفتح أفريقيا لكان قد نجح تمامًا؛ لأن فتح السودان مثلاً لم يكلفه ١٪ من التكاليف التي تكبدها في معارك الشام والأناضول،

نعم لو فعل محمد علي هذا لكان التاريخ قد تغير، لو فعل محمد علي ذلك لما استطاعت أوربا تحقيق مشروعها الاستعماري ولظلت أسيرة التخلف ولما نشأت النهضة الصناعية الأوربية بل والرأسمالية أصلاً، ولكانت أفريقيا اليوم هي المتقدمة والناهضة على كل مستوى، ولأصبح الجنوب متقدمًا على الشمال ومتفوقًا عليه بل ومسيطرًا عليه على عكس الحال الذي وصلنا إليه اليوم.

على أي حال فإن محمد علي وقع في الفخ؛ فاستنزف موارد مصر في الصدام مع الخلافة العثمانية فحقق أهداف أوربا التي راحت تستكمل مخططها على مصر والسودان وأفريقيا من خلال التسلل إلى مصر بالمرابين والقروض والفساد الأخلاقي، وعندما ثار الشعب المصري من خلال الثورة العرابية على النفوذ الأجنبي فضلت أوربا أن تترك الكعكة للإنجليز وحدهم في مقابل ذبح الثورة العرابية؛ لأن البديل كان ظهور قوة مصرية تستكمل نهضة مصر والسودان، وتشكل خطرًا على المشروع الأوربي في أفريقيا وهو الأمر الذي عبر عنه وزير الخارجية الفرنسي في ذلك الوقت سنة ١٨٨٢ عندما استقبل السفير الإنجليزي في باريس ليقدم له التهنئة على انتصار الجيش الإنجليزي في معركة التل الكبير على القوات المصرية بقيادة أحمد عرابي ، فقد قال هذا الوزير الفرنسي بالحرف الواحد: «إن انتصار انجلترا في تلك المعركة هو انتصار لكل أوربا المسيحية على المسلمين البرابرة، وأنه لو نجحت تلك الثورة لكانت خطرًا على المشروع الحضاري المسيحي الأوربي في أفريقيا». الرافعي – الثورة العرابية.

على أي حال فإنه بنجاح الإنجليز في القضاء على الثورة العرابية واحتلال مصر سنة ١٨٨٢ فإنها بدأت تنفذ مشروعها الصليبي في السودان، وكانت تفرض على الحكومة المصرية – بحكم الاحتلال طبعًا – أن تتخذ على نفقتها وأحيانًا

برجالها من الإجراءات ما يحقق ذلك الهدف، وكان أكبر تلك الإجراءات وأخطرها إلغاء الجيش المصري، ثم إعادة تشكيله وتعيين سردار إنجليزي قائدًا، ثم تعيين حكمدار إنجليزي للسودان هو الجنرال جوردون وهو قسيس إنجليزي في لباس جنرال ، لدرجة أنه عندما قُتِلَ على يد الثورة المهدية التي تصاعدت في ذلك الوقت وصفته الملكة فيكتوريا حسب قول الآن مورهيد في كتابه «النيل الأبيض» بأن جوردون هو شهيد المسيحية البطل، وجوردون هذا- الذي كانت تدفع له الخزانة المصرية راتبه- هو الذي أقام الكثير من دعائم التنصير في السودان، وأعد العدة لفصل الجنوب عن الشمال، وهو الذي استورد القساوس من كل مكان لتنصير شعب السودان وتنفيذ المخطط الصليبي فيها، وهو الذي فعل كل شيء للوقيعة بين الشعبين المصري والسوداني، ويقول عنه جمال الدين الأفغاني في مجلة «العروة الوثقى»: «إن السودانيين لم تلتئم جراحهم من ظلم جوردون عندما كان حاكمًا عليهم؛ فقد رسخ في قلوبهم أنه أعدى أعداء الدين الإسلامي».

ولعل ما يؤكد صليبية هذا القس ودوره المشبوه، أن لويس عوض- وهو الضالع دائمًا في المؤامرات الصليبية على مصر والعالم الإسلامي- قد أشاد به ووصفه بالفارس النبيل، بل وأفرد له فصلين في كتابه عن تاريخ مصر الحديث الذي أصدرته له الهيئة المصرية للكتاب بأموال المسلمين.

على أية حال ، فإن الثورة الإسلامية المهدية في السودان والتي انفجرت في عام ١٨٨١ في الوقت ذاته مع الثورة العرابية الإسلامية في مصر، لتلتقي معها في محاولة الخلاص، أي خلاص مصر والسودان من النفوذ الأجنبي والاستبداد وإقامة كيان إسلامي قوي في مصر والسودان لمقاومة المشروع الأوربي الصليبي في أفريقيا ، كانت قد استطاعت أن تسيطر على أجزاء كبيرة من السودان، وانضم إليها الشعب

السوداني بكامله، بل ووصلت إلى الخرطوم وقتلت جوردن باشا نفسه، ولكن الإنجليز الذي جاءوا بجيشهم وأسطولهم إلى مصر لذبح الثورة الإسلامية العرابية في مصر، استخدموا هذه المرة أفراد الجيش المصري تحت قيادة جنرالات إنجليز وعلى نفقة الخزانة المصرية في ذبح الثورة المهدية الإسلامية، وينشرون نفوذهم في السودان بدماء المصريين وعلى نفقتهم وفي الوقت نفسه يخلقون عداوات ودماء بين المصريين والسودانيين، ولعل أخشى ما يخشاه الإنسان في هذا الصدد أن يتكرر نفس هذا السيناريو الآن على يد أمريكا بعد قيام ثورة الإنقاذ الإسلامي في السودان سنة ١٩٨٩.

على أية حال بعد نجاح الإنجليز في ذبح الثورة المهدية في السودان، قامت إنجلترا بتنفيذ مخططها الصليبي ، ففصلت بعض أجزاء السودان عن مصر وانفردت بها ثم حافظت على وجود مصري شكلي طبعًا في باقي السودان تحت قيادة إنجليزية لاستكمال باقي المخطط؛ لأن الإنجليز المعروفين بالدهاء كانوا يعدون العدة للكثير من المؤامرات في فترات لاحقة وطويلة، فتم إقفال الجنوب في وجه المصريين والسودانيين الشماليين على السواء، وبدأت عملية تنصيره وزرع بذور الفتنة فيه وفرض الإنجليز على أبناء الجنوب تغيير أسمائهم إلى أسماء كنسية، وجعلوا التعليم كنسيًا تمامًا وطمسوا معالم الجنوب تمامًا.

وحتى تؤكد انجلترا نفوذها الفعلي باتفاقية رسمية، لجأت إلى الضغط على مصر لتوقيع اتفاقية ١٨٩٩ التي أطلقت يد الإنجليز تمامًا في السودان، ولمَّا كانت الحركة الوطنية المصرية في ذلك الوقت ما زالت تتعرف أولوياتها، ولمَّا كانت تلك الحركة تعرف أن قضية وحدة مصر والسودان قضية لا مساومة فيها، فإن أحد شباب تلك الحركة وهو «إبراهيم الورداني» قام باغتيال بطرس باشا غالي رئيس وزراء مصر ،

وهو الذي سمح لنفسه بالتوقيع على اتفاقية ١٨٩٩ فكان جزاؤه القتل من شباب الحركة الوطنية، وقد اعترف إبراهيم الورداني بأن توقيع بطرس غالي لتلك الاتفاقية هو الدافع وراء عملية اغتياله.

على أي حال ، ظلت قضية السودان من القضايا التي لا يجرؤ سياسي مصري على المساس بها، بل إن كثيرًا من المفاوضات تحطمت على صخرة تمسك الحكومات المصرية المتعاقبة سواء من الوفد أو من أحزاب الأقلية بوحدة مصر والسودان وعدم التفريط في السودان إلى أن جاء جمال عبد الناصر على رأس انقلاب ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، فجرؤ وتجرأ ووافق على فصل السودان عن مصر، بل دفعه دفعًا للانفصال؛ وبذلك حقق للإنجليز وللاستعمار الصليبي عمومًا هدفًا كبيرًا عملوا له طويلاً دون جدوى فإذا به يعطيه لهم عن طيب خاطر، وإذا كان بطرس غالي قد وجد مَنْ يغتاله جزاءً وفاقًا على مجرد اتفاقية تسمح للأغلبية بالحكم المشترك مع مصر والسودان دون فصل السودان عن مصر، فإن جمال عبد الناصر لم يجد مَنْ يغتاله جزاءً وفاقًا على فصل السودان عن مصر، بل ووجد مَنْ يصفه بالزعيم الخالد، والبطل وغيرها ولعل هذا هو الفرق بين الإعلام في بداية هذا القرن وبين ذلك الإعلام بعد منتصف هذا القرن أو قل الفرق بين الدعاية الإنجليزية والدعاية الأمريكية، وهي دعاية هوليوودية «نسبة إلى هوليوود عاصمة السينما الأمريكية» متخصصة في صناعة النجوم.

وبانفصال السودان عن مصر، أصبح الطريق مفتوحًا ، والأرض ممهدة لتحقيق الهدف الصليبي في جنوب السودان، بل وفي شماله، وهكذا وجدت القوى الصليبية في الجنوب متسعًا من الوقت والجهد والمال ؛ لبدء حركة مسلحة يقودها هؤلاء الذين تربوا في أحضان مدارس الكنيسة في الجنوب من أمثال جون جارانج،

وبدأت المساعدات من سلاح ومال ودعاية تنهال من كل مكان على تلك الحركة من أمريكا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا، من الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتينية، بل ومن إسرائيل، ومع ضعف الحكومات السودانية الواحدة تلو الأخرى كانت تلك الحركة تكتسب يومًا بعد يوم أرضًا جديدة ونفوذًا جديدًا على الجنوب، بل إنها في الأعوام من ١٩٨٥ - ١٩٨٩ كانت قد سيطرت على معظم الجنوب، وأقامت علاقات لا حد لها مع أمريكا وأوربا وإسرائيل، وكثر الخبراء والمبشرون وجنرالات إسرائيليون وأوربيون في صفوف الحركة، ولم تتورع الحركة عن الإعلان عن هدفها ليس فقط في فصل الجنوب بل ، وفي السيطرة على السودان بالكامل ، شمالاً وجنوبًا ، وتنصيره وفصله عن محيطه العربي والإسلامي، والاستعداد لحرمان مصر من مياه النيل أو جزء كبير منها، وهذه الحركة التي لم تتورع عن تعطيل مشروع قناة جونجلي الذي كان يستهدف زيادة حصة مصر والسودان من المياه هي ذاتها تجد مَنْ يستقبلها في القاهرة، ويجري مع قادتها مثل جون جارانج الحوارات الصحفية، بل وأن تجعل صحفًا مثل : الأهالي والوفد وأكتوبر من نفسها منبرًا إعلاميًا لهذه الحركة، وكان بعض المسئولين المصريين يشجع أو يغض الطرف عن ذلك الأمر بسبب وجود خلافات تكتيكية سواء مع حكومات ما قبل ثورة الإنقاذ أو بعدها، وهذا بالطبع سلوك يفتقر إلى النظرة العميقة وإلى الإحساس بالمسئولية التاريخية؛ لأن الخلافات التكتيكية- وهي موجودة في كل زمان ومكان- لا ينبغي لها أن تقفز على الحقائق الاستراتيجية الثابتة التي تقول ببساطة : إن خطر حركة التمرد الصليبي في الجنوب على مصر ليس خطرًا عارضًا ولا مؤقتًا بل هو يضرب في صميم حياة مصر والعرب والإسلام.. فضلاً عن السودان الشقيق طبعًا.

ولكن كانت رحمة الله واسعة، فقبل أن يكمل المخطط دورته ويصل إلى مداه

جاءت ثورة الإنقاذ الوطني في السودان بقيادة الفريق عمر أحمد حسن البشير لتضع حدًا لهذا المخطط وتتصدى له وتعيد للسودان وجهه العربي والإسلامي وتمنع عن السودان ومصر والعرب والإسلام خطرًا كان داهمًا ووشيكًا.

■ ■ ■

وجاءت ثورة الإنقاذ

◆◆◆

كشف فرج فوده عن نفسه وعن القوى التي تحركه عندما كتب مقالاً غريبًا في مجلة أكتوبر المصرية، يدعو فيه لأن تقوم مصر بحملة عسكرية على السودان للقضاء على ثورة الإنقاذ بها ؛ لأنها إسلامية وتشكل خطرًا أصوليًا على المنطقة!!

ولم يخجل فرج فودة من أن يقول : إن مصر ليست لها مشاكل مع إسرائيل، وأن كل مشاكلها الآن تتحقق في الخطر القادم من ثورة الإنقاذ في السودان.

وإذا كان فرج فودة، وهو زبون دائم على مائدة السفير الإسرائيلي في القاهرة، وهو أحد الذين يلقون بذور الفتنة الطائفية في مصر دائمًا، وهو المعادي دائمًا وأبدًا للإسلام والمسلمين والتوجه الحضاري العربي والإسلامي، والمدافع دائمًا عن التوجه الحضاري الغربي والمدافع دائمًا عن كل ما هو أمريكي أو إسرائيلي أو غربي قد كشف نفسه في هذا المقال، فإنه أيضًا كشف عن مخطط يعد في أروقة الحكومة الأمريكية والإسرائيلية ودوائر الفاتيكان وهو مخطط خطير جدًا؛ لأنه يقضي بإشعال نار الوقيعة والدسائس بين مصر والسودان عن طريق تسريب معلومات كاذبة أو إثارة الخلافات النائمة حول الحدود أو غيرها والهدف النهائي هو تحقيق هدف الغرب الصليبي وأمريكا وإسرائيل في ذبح الثورة الإسلامية «ثورة الإنقاذ» في السودان ولكن بأيدٍ مصرية وعلى نفقة الخزانة المصرية ، كما فعلت بريطانيا تمامًا تجاه ثورة المهدي أي تكرار السيناريو القديم نفسه، وإذا كانت بريطانيا قد ذبحت الثورة الإسلامية العرابية في مصر أولاً ثم استخدمت نفوذها بعد الاحتلال لدفع حكومة مصر إلى دفع نفقات الحملة على المهدي وتنفيذها بأفراد الجيش المصري تحت قيادة جنرالات إنجليز، فإن المخطط هذه المرة يقضي بأن يتم ذبح الثورة الإسلامية في السودان «ثورة الإنقاذ الوطني» بأيدٍ مصرية، وتكون فرصته في الوقت نفسه لذبح الحركة الإسلامية في مصر بدعوى العمالة للسودان مثلاً، ونسأل الله تعالى أن يلهم

المسئولين في مصر والسودان الحكمة في التصدي لهذا المخطط الشيطاني وعدم الانجرار إليه بالحماقة أو الحماس، كما نسأل الله تعالى أن يلهم الحركة الإسلامية في مصر الحكمة والرشاد فلا يقودها تصرف أحمق أو شخص أحمق أو تستجيب لاستفزاز أحمق من هنا أو هناك ، فتعطي الغرب الفرصة والذريعة لتنفيذ المخطط، وما أكثر ما عانت الحركة الإسلامية المعاصرة من ردود فعل بعض أبنائها غير المدروسة والمتسرعة!

على أية حال ، فإن سلوك الحكومتين المصرية والسودانية حتى الآن ينم عن الحكمة وعن إدراك ضرورة عدم الانجرار والوقوع في هذا الفخ الذي تنصبه دوائر استكبارية دولية ومحلية وتتمنى وأد كل خلاف في مهده ووضعه في إطاره الصحيح وألا نغلب ما هو ثانوي على ما هو جوهري.

ولنعد إلى فرج فوده، فمما لا شك فيه أنه دُفِعَ لكتابة هذا المقال ليس ليكشف المخطط بل ليمهد له؛ لأن الذين دفعوه إلى هذا كانوا يريدون دراسة رد الفعل الحكومي والشعبي في البلدين على مثل هذا الأمر، وبالتالي وانطلاقًا من معرفة رد الفعل ، يمكنهم تحديد طريقة وموعد وأسلوب التنفيذ، وعلى كل حال ، فإن أسلوب دراسة ردود الفعل من خلال تسريب خطة ما، ما هو إلا أسلوب أمريكي معروف ومعتمد لدى دوائر السياسة الأمريكية واستعملته تلك الدوائر أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة.

وفي الحقيقة ، فإنه ليس فرج فوده وحده، فجوقة الخونة والمستعدون لإذكاء نيران الفتنة بين مصر والسودان أو بين أبناء مصر من مسلمين وأقباط أو غيرها من دواعي الفتنة كثيرون ويسيطرون على قطاعات حزبية وإعلامية واسعة في الصحف الحكومية والمعارضة على حد سواء.

والحملة على ثورة الإنقاذ بدأت منذ اليوم الأول الذي أظهرت فيه توجهها الإسلامي وحركتها الإيجابية لحل مشكلة الجنوب والقضاء على بؤر الفتنة، وكذا منذ معرفة حرصها على تنمية الاقتصاد السوداني بصورة مستقلة وغير تابعة، ويمكننا أن نلمح هذه الحملة في أكثر من مكان خارجيًا وداخليًا، مثل قيام البرلمان الأوربي باعتبار السودان مشجعًا للإرهاب ، وهي التهمة الجديدة التي يستخدمها الغرب لتبرير عدوانه، والأمر نفسه رددته الدوائر الأمريكية الحكومية والصحفية، وهو ما تردده جوقة الخونة مثل فرج فوده وحسين أمين وميلاد حنا ، وهؤلاء المشرفون على صفحة الأشقياء في جريدة «الوفد» وأمثالهم في صحيفة «الأهالي» و«أكتوبر» وغيرها.

وفي الحقيقة ، فإن الأستاذ فهمي هويدي ، مثلاً ، قد وضع يده على هذا الجرح عندما كتب مقالاً ناقش فيه مسالة الهجوم على ثورة الإنقاذ في السودان وذلك في صحيفة الأهرام تحت عنوان: «لماذا نكيل بكيلين» وقال الأستاذ هويدي: «هذه حالة تلبس تصور خطابنا الإعلامي ومثقفينا في وضع باعث على الخجل ، ومثير للتساؤل والدهشة.. فبينما يعلو صوت الجميع بالانتقاد والاحتجاج دفاعًا عن انتهاكات حقوق الإنسان في السودان «وهي مزعومة» ، فإن ذلك الصوت خفت تمامًا حتى لم يكد يسمع إزاء انتهاكات ذات الحقوق في تونس «ثم الجزائر بعد ذلك».. كيف ولماذا؟!!.. تلك هي القضية.

وإذا كان الأستاذ فهمي هويدي قد طرح السؤال كيف ولماذا؟!!.. فإنه لم يقدم الإجابة.. أما هذه الإجابة ، فهي أن ثورة الإنقاذ في السودان جاءت لتعرقل المشروع الاستعماري – الصليبي الأمريكي والإسرائيلي هذه المرة – في السودان ومصر وأفريقيا، جاءت لتقطع الطريق على سقوط السودان بكامله في يد عصابة جارانج؛

وبالتالي سقوط السودان في دائرة التنصير والتغريب والهيمنة الغربية والأمريكية والإسرائيلية، جاءت ثورة الإنقاذ لتقطع الطريق على محاولات خنق مصر وإضعافها عن طريق التحكم في منابع النيل، وأيضًا تحقيق المخطط الطائفي في مصر الذي يدور حول إقامة دولة نوبية تضم مناطق النوبة في السودان وفي مصر ، وهو المخطط الذي كشف عنه العديد من الباحثين ، مثل ، الدكتور رفعت سيد أحمد في كتابه «الاختراق الأمريكي الصهيوني لمصر» والذي أكده اهتمام الدوائر الأمريكية البحثية والاستخباراتية بالقبائل النوبية في مصر وهو الاهتمام نفسه الذي تبديه الدوائر الإسرائيلية خاصة المعهد الأكاديمي الإسرائيلي في القاهرة.. نعم جاءت ثورة الإنقاذ لتكون عمقًا استراتيجيًا لمصر في السودان ، الأمر الذي يغيظ إسرائيل التي تريد مصر ضعيفة ومفككة؛ لأنها تعرف أن مصر وحدها بثقلها التاريخي والسكاني والجغرافي والعسكري هي العقبة الرئيسية أمام حلم إسرائيل في إقامة دولتها من النيل إلى الفرات.. جاءت ثورة الإنقاذ لتعرقل المشروع الاستعماري الصليبي في فصل أفريقيا عن شمال الصحراء وتنصيرها والهيمنة عليها، لتظل مواردها الهائلة في قبضة الاستعمار، تلك الموارد التي كانت شرطًا أساسيًا في ظهور النهضة الصناعية في أوربا ، وهي اليوم لازمة لاستمرار الآلة الرأسمالية في النمو والتصاعد، خاصة وأن أفريقيا تمتلك قدرًا هائلاً من المياه، والمياه أصبحت أهم الموارد على الإطلاق في عالم اليوم.

لهذه الأسباب مجتمعة.. كان الاستفزاز ورد الفعل العصبي من الغرب ومن إسرائيل، ومن القوى المحلية العميلة تجاه ثورة الإنقاذ في السودان، ولعله من الجدير هنا أن نقول : إن هدفًا واحدًا منها أو سببًا واحدًا منها، كان يكفي لمثل هذا الاستفزاز ولمثل هذا الهجوم على ثورة الإنقاذ.

إن أوربا التي سمحت لإنجلترا بالانفراد بالكعكة في مصر سنة ١٨٨٢ مقابل ذبح الثورة الإسلامية العرابية في مصر، والمهدية في السودان حتى لا يظهر كيان إسلامي قوي يكون خطرًا على مشروعها الاستعماري الصليبي في أفريقيا.. هي نفسها اليوم التي تتحرك ومعها أمريكا وإسرائيل والقوى المحلية العميلة للإعداد لنفس الشيء ومنع ظهور كيان إسلامي في تلك المنطقة يكون خطرًا على المشروع الاستعماري الأمريكي والأوري والإسرائيلي هذه المرة في ذاتها المنطقة، ولا مانع هنا أن تكون الكعكة من نصيب إسرائيل أو أمريكا أو أوربا أو هم جميعًا فهذا أمر ثانوي بالنظر إلى الخطر الإسلامي الصاعد.

* * *

اندلعت ثورة الإنقاذ الوطني في السودان سنة ١٩٨٩ في ظل ظروف صعبة ومتردية وغاية في الخطورة؛ فالنظام السياسي في السودان كان قد وصل إلى حالة من الضعف والتفكك لا حد لها وهذا أثر بدوره على الأداء الاقتصادي لحكومة السودان، ووصلت المسألة الاقتصادية إلى حافة المجاعة. وصاحب ذلك ترديا عسكريًا وسياسيًا واضحًا على مستوى الحرب في الجنوب، وكان هذا يشكل وضعًا نموذجيًا بالنسبة للقوى المتربصة بالسودان وبمصر وأفريقيا والعرب والإسلام، فالمجاعة والحرمان الاقتصادي يمثل أفضل الظروف لكنائس التنصير لتلعب دورها فتقدم كعادتها الصليب مع الرغيف ومع زجاجة الدواء. وتفكك الحكومة وضعفها يعطي المجال للقوى الصليبية واليهودية لتلعب على هواها في السودان شمالاً وجنوبًا، وتصاعد النفوذ العسكري والسياسي لحركة جارانج يعطي غطاءً قويًا للكنائس والخبراء للعمل بحرية في السودان شمالاً وجنوبًا، جاءت ثورة الإنقاذ سنة ١٩٨٩ لتضع حدًا لكل هذا.

جاءت لتضع حدًا للنفوذ العسكري والسياسي المتزايد لحركة جارانج، وفي أقل من ثلاث سنوات استطاعت حكومة الإنقاذ أن تحقق الكثير من الانتصارات على حركة التمرد، ونجحت في دخول كردفان ودارفور، وفتح طريق الملاحة في أعالي النيل، وسيطرت على المناطق حول جوبا وفي الولاية الاستوائية، ثم جاءت إرادة الله لينهار نظام منجستو في أثيوبيا؛ ليحرم قوات التمرد من قاعدة انطلاق ومجال حيوي كبير، وكذا الانقسام الذي حدث في صفوف حركة التمرد، ويأمل السودانيون في إنهاء التمرد هذا العام، وكذلك تم حصار التمرد سياسيًا، وذلك بإشراك عدد كبير من ممثلي مختلف قبائل الجنوب في مؤتمر حول مشكلة الجنوب اتفق فيه الجميع على حل محدد لتلك المشكلة، وخلاصة الأمر : أن مشكلة الجنوب في طريقها إلى الحل، وأن تلك الخلايا السرطانية قد تم استئصال معظمها من جسم السودان، الأمر الذي ترتب عليه عرقلة الكثير من المشروعات التبشيرية والكنسية في السودان بل ورحيل العديد منها، وكذلك تنظيف جسد السودان من الخبراء الأجانب من إسرائيليين وأوربيين الذين كانوا يعملون تحت الغطاء العسكري والسياسي لحركة جارانج، ليس هذا فحسب بل إن الانتصار السوداني على جارانج وتحرير الكثير من المناطق من قبضته وحصاره عسكريًا وسياسيًا، قد جعل الأمل كبيرًا في استئناف العمل في مشروع قناة جونجلي قريبًا، وهي التي سوف توفر ٨ مليارات متر مكعب من المياه تضاف إلى حصة مصر والسودان، وكان العمل في ذلك المشروع قد توقف بسبب محاولات جارانج التخريبية ضد المشروع لعرقلة تنفيذه.

أمّا على المستوى الاقتصادي فإن الحكومة السودانية رفعت شعارًا خطيرًا مهمًا وهو «نأكل مما نزرع ونلبس مما نصنع»، واستطاع هذا الشعار أن يحشد كل الشعب

السوداني في محاولة لتحقيق الاستقلال الاقتصادي وقطع خيوط التبعية والحاجة للغرب؛ بما يحقق في النهاية استقلال القرار السوداني ؛ لأن الذي يأكل مما يزرع ويلبس مما يصنع قادر على رفض أي ضغط أجنبي عليه، والمسألة هنا ليست مسألة شعارات رغم خطورتها وصحتها وأهميتها ولكنها تستند إلى طهارة الحكم ونظافة يد الحكام من رجال ثورة الإنقاذ فلا رشوة ولا سرقة، وهذه نقطة متفق عليها بين الجميع حتى أعداء ثورة الإنقاذ لم يجرءوا على توجيه هذه التهم لهم، وهذه الطهارة والنظافة نجحت في إقناع الشعب السوداني في الصبر على كل المصاعب، والاستجابة لكل الإجراءات حتى القاسية منها التي تتخذها ثورة الإنقاذ لتحقيق حلم الاستقلال الاقتصادي أو تلك التي تتخذ بسبب مضايقات صندوق النقد الدولي أو رفض كل الأغنياء من المسلمين مساعدة السودان، وهذه السياسة الاقتصادية كفيلة بتحقيق نهضة هائلة؛ لأن موارد السودان خاصة الزراعية منها هائلة، وطموحات السودان الاقتصادية في ظل ثورة الإنقاذ كبيرة فحسب قول وزير خارجية السودان في تصريحاته لجريدة «الأهرام» المصرية في عدد ١٣/ ٣/ ١٩٩٢ فإن السودان يأمل في ربط شبكة الطرق السودانية بالمصرية، يفصلها ٣٠٠ كيلو متر فقط، وكذا بالإثيوبية يفصلها ٣٥٠ كيلو متراً فقط، وبالتشادية والليبية لربط أفريقيا كلها بشبكة مواصلات، وكذلك عن مشروعات تكامل مع كل من ليبيا ومصر، وهناك آمال حول مشروع جنوب الدمازين بالإضافة إلى قناة جونجلي ، وهي مشروعات مصرية سودانية مشتركة، وفي الحديث ذاته تحدث وزير الخارجية السوداني عن أمله في إزالة الحواجز الجمركية بين كل من مصر والسودان وأثيوبيا وليبيا لتشكل سوقًا هائلة تضم ١٤٠ مليون نسمة وثروات مصر الصناعية ستجد طريقها لهذا السوق بالإضافة إلى المساعدة في زراعة أرض

السودان الشاسعة التي تكفي لسد حاجات العالم العربي كله وزيادة، ونجح السودان في تعبيد الكثير من الطرق بالجهود الذاتية، وكذلك في زيادة إنتاجه من السلع الغذائية اعتمادًا على نفسه وعلى حماس أبنائه وجديتهم في العمل بعد ما لمسوا من جدية الحكومة وطهارتها، وقد حقق السودان في هذا العام ١٩٩٢ اكتفاءً ذاتيًا في السكر والذرة بل وبدأ في تصدير الفائض منهما، وقد غطى أيضًا ٧٠٪ من احتياجات القمح في الموسم الماضي، وينتظر أن يحقق ١٠٠٪ منها هذا الموسم.

ويعلق الأستاذ عادل حسين رئيس تحرير جريدة الشعب المصرية- وهو واسع الاطلاع والتجربة والخبرة في الشئون الاقتصادية وهو مؤلف كتاب «الاقتصاد المصري من الاستقلال إلى التبعية»- على تجربة السودان الاقتصادية قائلاً في مقال طويل تحت عنوان: «دروس في الاقتصاد الإسلامي» نتعلمها من السودان الإسلامي – المعجزة السودانية وكيف تختلف عن العلاج بالصدمة.. قائلا: «الدرس الأول الذي تعلمته من السودان الإسلامي هو عزة النفس واستقلال الإرادة، هذا أساسهم في العلاقات الدولية، وينعكس هذا الموقف على الأموال التي تقدمها الحكومات الغربية، إنهم لا يسألون الناس إلحافًا، ولا يريدون أن يكونوا أمام الدول الغربية أصحاب يد سفلى، ومن أجل العزة واستقلال الإرادة لابد إذن من الاعتماد على النفس، ولابد من تنمية علاقات دولية مع الأشقاء والأصدقاء». ويضيف: «كانت ثورة الإنقاذ تدرك منذ يومها الأول ضرورة الاعتماد على النفس في إنتاج الغذاء والضرورات حتى لا يذلها ويشل إرادتها مَنْ يمدونها بأسباب الحياة».

***

أمَّا عن التوجه الإسلامي لحكومة الإنقاذ فهذا هو العامل الأكبر والأهم في

نجاحها في كل مجال ، سواء في مجال القضاء على التمرد أو في مجال تحقيق التنمية الاقتصادية، وهو أيضًا السبب في استفزاز القوى الدولية ضد ثورة الإنقاذ.. فالتوجه الإسلامي لثورة الإنقاذ يلبي ويستجيب لوجدان الجماهير؛ وبالتالي كان من الطبيعي أن تتحمس تلك الجماهير وأن تلتف حول الثورة، وأن تعمل بأقصى حماستها وجديتها من أجل تحقيق أهدافها ، فكان هذا التوجه الإسلامي هو الذي رفع الروح المعنوية للقوات المسلحة في حربها ضد التمرد ، وهو الذي جعل الشعب السوداني يصبر على المتاعب الاقتصادية وجعله يخرج كل طاقاته الكامنة في العمل من أجل تحقيق الاكتفاء الذاتي من الغذاء. وفي تحقيق أعلى معدل للتنمية الاقتصادية، على أن للتوجه الإسلامي لثورة الإنقاذ في السودان جانبًا مهمًا وخطيرًا لم يلتفت إليه أحد؛ وهو أن هذا التوجه الإسلامي لثورة الإنقاذ سيكون عاملاً مهمًا في القضاء على المشروع التبشيري بالكامل في أفريقيا ، إن شاء الله؛ لأنه أولاً : يقضي على مخططات هذا المشروع في السودان، ولأنه ثانيًا : سيكون له هو ذاته امتداداته الثقافية على القارة كلها، لأن الأسود سيقبل الإسلام من الأسود، خاصة أن أفريقيا عانت وما زالت تعاني من التفرقة العنصرية التي مارسها الإنسان الأبيض الأوربي ضد السود في أفريقيا، فما بالك إذا كانت قيادة الحركة الإسلامية في السودان ترتفع لتكون في موضع الصدارة من الحركات الإسلامية في العالم، أي أن العالم الإسلامي لا يفرق بين الأبيض والأسود والأصفر فقط بل يقبل بأن يصبح الأسود زعيمًا على الأبيض والأصفر، والأفريقي الأسود حين يعرف أن الدكتور حسن الترابي الأسود اللون هو نفسه الذي تختاره الحركات الإسلامية الشعبية ليكون أمينًا عامًا لها، وحين يصفه رجل مثل راشد الغنوشي بأنه أفضل شخصية في العالم الإسلامي خلال عام ١٩٩١ – مجلة العالم اللندنية– عدد ٢١ مارس ١٩٩٢.. قائلاً: «إنني لا أتردد لحظة في اعتبار الدكتور حسن الترابي عن جدارة وأهلية كاملة

ومصداقية غير منتقصة أبرز من أفرزه القدر الإلهي وبوأه للقيادة في الأمة حاليًا، وإننا لن نجد شخصية إسلامية معاصرة اجتمعت فيها من مواصفات القيادة الإسلامية بمعناها العام، ما اجتمع في شخصية حسن الترابي».

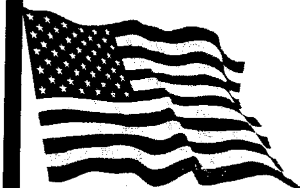
نعم ، حين يرى الأفريقي أن الإسلام يتصرف على المستوى العملي، في هذه القضية لدرجة أنه يجعل رجلاً أسود هو المرشح للقيادة، وهو أفضل شخص مسلم صالح للقيادة في هذا العصر الذي يصل فيه تعداد المسلمين إلى أكثر من ١٢٠٠ مليون نسمة بمن فيهم الأبيض والأسود والأصفر والأحمر، وفيهم الأفريقي والآسيوي والأوربي والأمريكي، وفيهم الفارسي والتركي والهندي... إلخ.

حين ينظر إلى ذلك ويقارن هذا بسلوك الكنيسة الأوربية معه التي تمارس هي ذاتها التفرقة العنصرية بين الأسود والأبيض، ولعل هذا السبب كان وراء دخول عدد كبير من السود في أمريكا إلى الإسلام وظهور ما يسمى بحركة «البلاليين» نسبة إلى سيدنا بلال ﷺ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله..

■ ■ ■



فهرس الكتاب

فهرس الكتاب

الموضوع **الصفحة**

(١) جرائم الأمريكان في هذا الزمان

الموضوع	الصفحة

■ ■ ■